

# الاستعمار البريطاني للعراق

«دراسات وبحوث»

الجزء الأول



مجموعة مؤلفين

إعداد وتحريير

د. عمار عبد الرزاق الصغير

# الاستعمار البريطاني للعراق

## الجزء الأول





تاريخ الاستعمار

المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية  
المركز العراقي للدراسات الاستراتيجية

# الاستعمار البريطاني للعراق

«دراسات وبحوث»

الجزء الأول

مجموعة مؤلفين

إعداد وتحرير

د. عمّار عبد الرزاق الصّغير

العتبة العباسية المقدسة  
المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

الاستعمار البريطاني للعراق : دراسات وبحوث / مجموعة مؤلفين ؛ إعداد وتحرير د. عمار عبد الرزاق الصغير-الطبعة الاولى-النجف، العراق : العتبة العباسية المقدسة، المركز الاسلامي للدراسات الاستراتيجية، 1447 هـ. = 2025.

2 مجلد ؛ 24 سم. (تاريخ الاستعمار ؛ 1)

يتضمن إرجاعات بليوجرافية.

ISBN : 9789922680743

1. العراق-تاريخ-الاحتلال البريطاني، 1914-1920. أ. الصغير، عمار عبد الرزاق، 1981- معد. ب. العنوان.

LCC: DS79 .I88 2025

مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العباسية المقدسة  
الفهرسة أثناء النشر



رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٤٣٠٣) لسنة ٢٠٢٥ م

الاستعمار البريطاني للعراق، الجزء الأول (دراسات وبحوث - تاريخ الاستعمار ١)

تأليف: مجموعة مؤلفين

إعداد وتحرير: د. عمار عبد الرزاق الصغير

الناشر: العتبة العباسية المقدسة / المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية

الطبعة: الأولى ١٤٤٧ ق / ٢٠٢٥ م

www.iicss.iq

islamic.css@gmail.com

# المحتويات

٧	مقدمة المركز .....
	إرهاصات الاحتلال البريطاني للعراق
١٥	د. ياسين شهاب شكري .....
	أهمية العراق الإستراتيجية للسياسة البريطانية
٥٩	د. صباح كريم رياح الفتلاوي .....
	الاستعمار البريطاني وملف الإدارة المدنية والاقتصادية للعراق ١٩١٤-١٩١٨
١٠٣	د. حسن موات حسين .....
	خطط التنمية الزراعية للإدارة البريطانية وآثارها على العراق (١٩١٧-١٩١٩)
١٤٣	د. فراق داود سلمان الشلال .....
	التنظيم القانوني للآثار العراقية في ظل الاستعمار البريطاني
١٦٥	م. حسين خليل مطر .....
	موقف الإدارة الاستعمارية البريطانية في العراق حيال القوميات والأقليات الدينية،
١٨٣	د. سيف عدنان ارحيم القيسي .....
	الاستعمار البريطاني والملف العسكري والقضائي للعراق ١٩١٤-١٩١٨
٢١٧	د. حسن الفرطوسي .....
	دور الصحافة العراقية في مواجهة الاستعمار البريطاني، «جريدة الاستقلال أنموذجاً»
٢٥١	د. فراق عبد .....
	دور وسائل الإعلام في فترة الاستعمار البريطاني، (دراسة تاريخية)
٢٧٣	د. عبد الحسين علوان .....
	أدباء الحوزة العلمية في النجف الأشرف ومقارعة الاستعمار، شعر الشيخ الشبيبي أنموذجاً
٣٣١	حسين الساعدي .....
	دور الحركة العلمية والأدبية في مقاومة الاستعمار، (ثورة العشرين أنموذجاً)
٣٦٥	براءة محمود العداي .....



## مقدمة المركز

يهدف هذا الكتاب إلى إعادة قراءة حقبة الاستعمار البريطاني في العراق مطلع القرن العشرين، وتحديد أوجه الأهداف التي تحرك في ضوئها، وبيان الأضرار التي أحدثها في بنية العراق الداخلية والخارجية، في شتى الشؤون السياسية والاقتصادية والمدنية والتعليمية والاجتماعية والدينية، وموقفه من المؤسسات الدينية، وعلماء الدين، وحملة الفكر، والقادة الجماهيريين.

ولا يُنكر بأن الاستعمار اتخذ بعض الاجراءات التي أسهمت في تطوير بعض القطاعات في العراق، واحتوت على منافع غير أمّها كانت جزئيةً عابرةً، ومبنيةً على أهدافٍ تخدم مشروعه الاستيطاني والمنظومة الاستعمارية بنحوٍ عام. يأتي هذا الكتاب ضمن سلسلة إصداراتٍ تهدف بيان وجه الحقيقة المظلمة التي عاشتها الشعوب تحت وطأة جور الدول الغربية المستعمرة، فتبين المعاناة التي كابدها المنطقة المستعمرة ومنها العراق جرّاء سلوك المنظومة الاستعمارية وفترة الانتداب، وآثار الغزو الثقافي على هوية العراق الثقافية والدينية والعرفية، وبنيته الاجتماعية والأضرار بالمواطنة، والتشكيك بقيمه، وتغريب الوعي، وتمزيق الوحدة بإيجاد الاختلافات وتنمية الانقسامات وبثّ الفرقة، وتعميق الاختلاف الطائفي والعنصري والقومي والديني وافتعال الأزمات، وتكوين ثقافةٍ بديلةٍ تقوم على تعظيم ثقافة المحتلّ، وتهويل قوته العسكرية والسياسية، لصناعة أجيالٍ تؤمن بعظمة المحتلّ وقوته، وتوهين القدرة الذاتية على النهوض، ومن ثم إشعار العالم الإسلامي والعربي بالضحالة والعجز.

ولا يغفل الاستكتاب عن دور المقاومة الدينيّة والفكريّة والعلميّة والأدبيّة والجهاديّة، والسياسية في مناهضة مشروع الاستعمار، وبيان الروح الوطنية التي تحلّى بها أبناء البلد.

يسعى الكتاب إلى قراءة هذه السياسات والمواقف قراءةً واعيةً موضوعيّة، وقراءة دواعي المحتلّ البريطاني لإيجادها، وآثار ذلك حتى الوقت الراهن؛ للخروج بصورة واضحة عن السياسة الاستعمارية، وما تُخلف من خرابٍ مُستدام في واقع الشعوب؛ ممّا يسهم في فهم الآخر والواقع، وتكوين وعيٍ وطنيٍّ مستقلٍّ للحاضر والمستقبل.

فإنّ ذا الكتاب عماده استكتابٌ وجّه للباحثين، مشتملاً على أبوابٍ بحثيّةٍ تغطّي أبرز المجالات التي يمكن العمل عليها، منها باب يتعلّق ببيدات الاستعمار وإرهاصات الاحتلال البريطاني للعراق، ومنها ما يتعلّق بالاستعمار والمؤسّسات العلميّة والثقافيّة والإعلاميّة مثل اختياره أنظمة التربية ومناهج التعليم التي تناسبه، ووضع القوانين النفعية التي تعود عليه في مجالات التراث العلمي والمخطوطات والآثار. أو توظيفه للصحافة والإعلام ووسائلها لصالحه. ومنها ما يتعلّق بحقل الاستعمار والمؤسّسات العسكريّة والحقوقية مثل المؤسّسات العسكريّة والأمنيّة، والمؤسّسات الحقوقية والقضائية. ومنها ما يتعلّق بالاستعمار والتنمية والاقتصاد مثل مجالات الثروات والصناعات الوطنيّة، والزراعة والتجارة. ومنها حقل يتعلّق بسياسة الاستعمار النقديّة في العراق، والتصرّف في الاحتياط النقدي، والديون والقروض. وأبرز الأبواب بابٌ يتعلّق بالاستعمار وآليات تغريب القضايا الاجتماعيّة، مثل مشاريعه في تغريب أنظمة السلوك والأعراف والثقافات والعادات العامة، ومشروع الانقسامات والفتن الطائفيّة والقوميّة والعنصريّة.

وأخيراً وُضِعَ بابٌ يبيّن موقف الشعب العراقي من الاستعمار عبر مناهضته ومقامته بوساطة المؤسسة الدينية في النجف الأشرف ودورها في حركة التحرير، وموقفها من الانتداب والنفوذ البريطاني، ودور الحركة العلميّة والشعريّة والأديبيّة الفنون في المقاومة. ودور الثوّار مثل زعماء العشائر، والأحزاب، والحركات الوطنيّة والشبابيّة في المقاومة والجهاد وتكوين الثورات الوطنيّة الكبرى من البصرة الى النجف الأشرف حيث ثورة العشرين الخالدة.

ليتم الاستكتاب عبر هذا الكتاب على ستة عشر بحثاً موزعةً على المحاور والموضوعات المستهدفة، وقد جاءت في جزئين:

الجزء الأول تضمّن ثمانية بحوث، البحث الأوّل (إرهاصات الاحتلال البريطانيّ للعراق)، يعرض للواقع العراقيّ السياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ والثقافيّ، وفيه قراءة لتأريخ الاستعمار، وأسباب الاحتلال البريطانيّ للعراق، وأهدافه، ودوافعه، وطرقه.

والبحث الثاني بعنوان (الإدارة الاقتصاديّة والمدنيّة للعراق في عهد الاستعمار البريطانيّ)، بيّن سياسة بريطانيا وتجاهلها لحقوق العراقيين بفرضها جملةً من القوانين النفعيّة، وسنّها لقوانين اقتصاديّة تفرض زيادة الواردات والضرائب الباهظة على المزارعين لتغطية نفقات جنودها وتعزيز مواردها الماليّة؛ مما أسهم في ترك كثير من الفلاحين للزراعة، فتضرّر البلد بذلك، فضلاً عن فرض نظامٍ عزّز الاقطاعيات. بل شمل نظام الضرائب شتى ضروب الانتاج، والثروات الحيوانية والصناعيّة البسيطة.

أمّا البحث الثالث فعنوانه (التنظيم القانوني للآثار العراقية في ظلّ الاستعمار البريطانيّ)، وقد أوضح كيف عملت المس بيل على إصدار قوانين تفرض قسمة

الآثار المستخرجة بين الجهات القائمة على التنقيب، والتحليل بقرارٍ يفرض منع تهريب الآثار الى العراق وليس منه، مما سبب زيادة التهريب والسرقة لآثار البلد. ثم جاء البحثان الرابع والخامس عن دور وسائل الإعلام والصحافة في بيان الواقع السياسي والسلوكيات الاستعمارية التي سلبت العراقيين حقوقهم ومنعتهم من حكم أنفسهم، وقد اتخذنا من جريدتي الاستقلال والفرات النجفيتين مثالاً لذلك.

وتلا ذلك البحث السادس عن (الاستعمار البريطاني والملف العسكري والقضائي للعراق) الذي تناول فرض الاستعمار للحاكم العسكري ووضع أفرادٍ للشرطة والشبابة لفرض الأمن العام، التي كان تركيزها الرئيس وهدفها الأساس خدمة الجانب البريطاني؛ إذ كلفت بحماية الطرق والمواصلات التي تسلكها القوات البريطانية، ومخازن أسلحتها.

وجاء البحث السابع بعنوان (خطط التنمية الزراعية للإدارة البريطانية وآثارها على العراق)، وقد كشف فيه الباحث عن الخطة الزراعية السيئة التي وضعها الاحتلال لنظام الزراعة في العراق لغرض ربطة بالسوق العالمي بالاعتماد على استيراد المصنّعات المكلفة، فتسبب ذلك بترك الزراعة المحلية لعدم القدرة على شرائها، أو يتم إقراض المزارع برأس مال وفوائد عالية، فضلاً عن استيراد البذور الأجنبية وترك البذور المحلية، وغير ذلك مما سبب تباطؤ النمو الاقتصادي للزراعة، فنجم عن ذلك انقسام كبير في الطبقات الاجتماعية بنشوء طبقة الاقطاعيين وسيطرتها على طبقة الفلاحين. ذلك كله يدخل في سعي بريطانيا للاستيطان أكثر في العراق بتضييق الخناق عليه، وإبقائه تحت أغلال الحاجة إليها.

أما البحث الثامن (موقف الإدارة الاستعماريّة البريطانيّة في العراق حيال القوميّات والأقليّات الدينيّة) فقد أظهر كيف استغلت الإدارة البريطانيّة إثارة قضايا القوميّات والأقليّات، في تمزيق النسيج الاجتماعي، وافتعال الأزمات، ثم استغلال بحجّة حمايتهم كورقة ضمانٍ يعزّز حجة وجودهم واستيطانهم.

أما الجزء الثاني فقد تضمن تغطيةً واسعةً لملف مناهضة الاستعمار ومقاومته من شتّى الجهات التي أسهمت في تحرير العراق، مع تبيين الأسباب الكامنة وراء الثورات العسكريّة. وتم التركيز على الدور الكبير للمرجعية الدينيّة في النجف الأشرف حيث الفتوى بالجهاد، والتعبئة المنظّمة، والتحشيد الهائل، والاستجابة العظمى للثوّار في محافظات وسط العراق وجنوبه. وتضمّن البحث الرصين في بيان الحقائق في توقيت فتوى المرجعية وأسبقيّتها على الأحداث التي وقعت متفرقة في العراق، لردّ تلك المحاولات التي سعت إلى التغطية على أسبقيّة المرجعية ودورها في بدء النهضة، ونسبت ذلك إلى مسمّيات هنا وهناك.

وكان من أبرز الشخصيات الدينيّة التي أسّست لمناهضة الاستعمار البريطاني الميرزا محمد تقي الشيرازي - وهو من علماء الحوزة في العراق - الذي أفتى بالجهاد، فنهضت الأمة ملييّةً نداءه، ونجّله الشيخ محمد رضا، والشيخ فتح الله الأصفهاني (شيخ الشريعة) الذي تسلّم زمام القيادة خلفاً للميرزا الشيرازي، والسيد هبة الدين الشهرستاني، والقائد الفذ السيد محمد سعيد الحبوبي، والشيخ مهدي الخالصي، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ محمد جواد الجزائري، والشيخ محمد رضا الشيبيني، والسيد أبو القاسم الكاشاني.

ولم تغفل بحوث نهضة المقاومة عن إبراز دور كثيرٍ من الشخصيّات

الاجتماعية الكبيرة التي كان لها أثرٌ واضحٌ في الاستجابة والنصر والتحرير، ودور الجمعيات والصحافة والمثقفين والأدباء وزعماء العشائر والشخصيات الاجتماعية ذات التأثير في الوسط الاجتماعي.

وقدمت بحوث هذا الجزء تفصيلاً كبيراً عن الثورات التي حصلت في جنوب العراق ووسطه منذ اليوم الأول للاستعمار سنة ١٩١٤ حتى الثورة الكبرى ١٩٢٠م، مع التركيز الدقيق على أسباب تلك الثورات، وصور الوحشية التي مارسها الاحتلال البريطاني، وصور ظلمه، وانتهاكه للحقوق، وسلبه للحريات، وإشعاله للفتن، ونهبه للثروات الوطنية والشخصية، وإرهاق العراقيين بالضرائب والجبايات. وغير ذلك من أسبابٍ قادت إلى النهضة والتحرير.

هذه المحتويات جاءت متفرقةً في الجزء الثاني في بحوثٍ منها (قيادة المرجعية الدينية لثورة العشرين)، و(مناهضة الاستعمار البريطاني ومقاومته «الثوار والثورات»)، و(مصاديق الجهاد ضد الاستعمار وفق رؤية السيد هبة الدين الشهرستاني)، و(مقاومة الكوفة للاستعمار البريطاني)، و (دور الحركة العلمية والأدبية في مقاومة الاستعمار).

إن تجديد الكتابة في هذا الموضوع يبين الصور المأساوية والأضرار العميقة التي يخلّفها الاستعمار أينما حلّ، فأحياء الكتابة فيه واستدامتها بمنزلة التحذير من خططه الجديدة وأساليبه المعاصرة الأكثر إيهاً وخديعةً وفتكاً؛ لتجنب إعادة مأساة الماضي، والخلاص من أغلال الحاضر، ومواجهة تحديات المستقبل.

أخذ هذا المشروع الاستكثابي الجماعي طريقه إلى الاكتمال بمشاركة مجموعة من الباحثين، وعرفاناً بإسهاماتهم في إنجاز الكتاب يتقدّم المركز الإسلامي لهم

بوافر الشكر والتقدير على ما جادت به أفكارهم، من جهودٍ علميةٍ كريمة. كما تقدم إدارة التحرير بالغ شكرها إلى الأخوة المسهمين في إنجاز العمل، بدءاً من الدكتور فضاء ذياب لجهوده في التدقيق اللغوي، والأستاذ علاء الأعسم، والدكتور فرقان الحسيني، والأستاذ مصطفى الشمري.

نأمل أن يحقق هذا الكتاب منفعةً علميةً للقراء الكرام، ويثري موضوعه الذي كُتب فيه.

والحمد لله رب العالمين

وصلّى الله على رسوله الأمين محمدٍ وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين

د. عمّار عبد الرزاق علي الصغير

المركز الإسلامي للدراسات الإستراتيجية / النجف الأشرف.

التاسع من ذي الحجة ١٤٤٦ هـ

٢٠٢٥/٦/٦ م



## إرهاصات الاحتلال البريطاني للعراق

د. ياسين شهاب شكري<sup>١</sup>

### المُلخَص

اهتمت بريطانيا بموقع العراق والرغبة في السيطرة على إمكاناته منذ وقتٍ مبكّرٍ امتد لأكثر من قرنٍ ونصفٍ من الزمان قبل احتلالها المباشر له عام ١٩١٤م، حيث بدأ الاهتمام من حيث الاستفادة من الموقع الاستراتيجي الرابط بين الخليج العربي من جهة، والبحر المتوسط من جهة أخرى، والإمكانات الاقتصادية المتوفرة فيه من الملاحة والنقل والتجارة في أنهار العراق، وكذلك المواصلات وخطوط التلغراف، وتبني مشاريع لمد سكة الحديد التي تربط المصالح البريطانية في الهند والشرق الأقصى بأوروبا.

وهذه المصالح تقاطعت مع الوجود العثماني في العراق، ومن منافسات الدول الأخرى مثل: ألمانيا، وهذا ما دفع بريطانيا إلى وضع الخطط والتمهيد لغزو العراق منذ مطلع القرن العشرين، وتكلفت الظروف عند قيام الحرب العالمية الأولى ودخول العثمانيين الحرب، فتم التحرك البريطاني لاحتلال العراق عبر حملة عسكرية انطلقت من الهند باتجاه الخليج العربي، ومن ثم نحو أقصى جنوب العراق، غير أن القوات البريطانية احتاجت إلى أربع سنواتٍ لاستكمال السيطرة على جميع مناطق العراق، بسبب المقاومة الشعبية المليئة لفتاوى الجهاد الصادرة من المرجعية الدينية.

الكلمات المفتاحية: الاحتلال البريطاني، درّة التاج البريطاني، سكة حديد وادي الفرات، النفوذ الألماني، الدولة العثمانية.

١. متخصص في التاريخ المعاصر / جامعة الكوفة - العراق.

## المبحث الأول:

### الاكتشاف البريطاني لأهميّة العراق والتغلغل السلمي فيه

اهتمّت بريطانيا – التي كان يطلق عليها إنكلترا ( حتى القرن الثامن عشر الميلادي) – منذ وقتٍ مبكّرٍ في الوصول إلى الشرق بحثاً عن التجارة، خاصة بعد تأسيس شركة الهند الشرقيّة البريطانيّة عام ١٦٠٠م، ولئن كان العراق قد زاره العديد من الرحالة الإنكليز، وهم في طريقهم إلى الهند وبلاد فارس، ودونوا ما شاهدوه عن مدنه ومناطقه أمثال: جون نيو بري (١٥٨٣م)، وراف فتش (١٥٨٣م)، وجون إيلدرد (١٥٨٣م)، والأخوين شيرلي (١٥٨٩م)، وتوماس هيربرت (١٦٢٨م) ... الخ<sup>١</sup>، إلّا أنّ اكتشاف أهميّة موقع العراق جاء بمحض الصدفة لحادثةٍ حدثت في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي أثناء قيام حرب السنوات السبع (١٧٥٦-١٧٦٣م) في أوربا، إذ كان الخليج العربي يشهد تنافساً كبيراً بين الفرنسيين والبريطانيين، ووصلت أخبار الحرب إلى الفرنسيين أوّلاً عن طريق رسائل القناصل الفرنسيين من طريق حلب بصرة للقوافل التجاريّة بعد خمسة أشهر من قيامها، فقامت السفن الفرنسية بهاجمة ميناء بندر عباس حيث مقرّ شركة الهند الشرقيّة البريطانيّة، وتم الاستيلاء على المقرّ بعد حرق عددٍ من السفن الإنكليزيّة، في الوقت الذي تأخر وصول أخبار الحرب إلى الإنكليز عن طريق رأس الرجاء الصالح بالدوران حول أفريقيا بعد سنة كاملة<sup>٢</sup>، ومن هنا تنبه الإنكليز إلى ضرورة زيادة النفوذ التجاري والسياسي في شمال الخليج وتحديدًا

١. علاوي، حسين كريم، مدينة بغداد في كتابات الرحالة الأجانب، ص ١٩-٢٣.

٢. ويلسون، سير أرنولد، تاريخ الخليج، ص ٩٦؛ عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، حكومة الهند البريطانيّة

والإدارة في الخليج العربي، ص ٨٧-٨٨.

في البصرة والعراق، إذ قامت الشركة بنقل مقرّها التجاري في الخليج من بندر عباس إلى البصرة عام ١٧٦٣م، ومن هنا بدأ العراق يكتسب أهميةً كبيرةً لدى البريطانيين ومحاولاتهم للتغلغل الاقتصادي والسياسي فيه.

أولت بريطانيا اهتمامًا أكبر في زيادة نفوذها في العراق في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر الميلاديين نتيجة للحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨-١٨٠١م)، إذ تَوَقَّع الإنكليز أن هدف الحملة هو التوجّه بعد مصر نحو الهند، ورشحوا أن يكون ذلك من طرقٍ متعددةٍ أهمها وأيسرها طريق العراق عبر بادية الشام نزولاً إلى بغداد، ثم البصرة، والخليج، وإلى الهند<sup>١</sup>، ولغرض مواجهة هذا الاحتمال قامت بريطانيا بنقل المقيمة التابعة لها من البصرة إلى بغداد؛ لتكون قريبةً من مركز قرار الحكم، ومراقبة التطورات التي تحدث في المنطقة، واحتمالية تعاون حكومة المهالك في بغداد مع الفرنسيين، حتى زوال الخطر الفرنسي على المصالح البريطانية بعد فشل الحملة على مصر عام ١٨٠١م وخروجهم منها<sup>٢</sup>.

ازداد التمثيل السياسي البريطاني في العراق خلال القرن التاسع عشر من خلال وجود مقيمتين بريطانيتين إحداها في البصرة والأخرى في بغداد، والمقيمة البريطانية في بغداد كانت متربطةً بقسم الشؤون الخارجية في حكومة الهند من جهة، وكذلك بوزارة الخارجية البريطانية عبر السفير البريطاني في إسطنبول<sup>٣</sup>، كما تم تأسيس وكالة قنصلية في الموصل عام ١٨٣٩م تحت إشراف

١. النجار، مصطفى وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص ٢٢.

٢. العابد، صالح محمد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨-١٨١٠م، ص ٣٣-٤٤.

٣. صالح خضر محمد، الدبلوماسيون البريطانيون في العراق ١٨٣١-١٩١٤م، ص ٧٨.

القنصل البريطاني العام في بغداد لحماية المصالح البريطانية الاقتصادية والدينية من خلال النشاط البريطاني في الأوساط المسيحية هناك، وأوجدت بريطانيا في كربلاء وكيلاً أو ممثلاً لها منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي بهدف رعاية مصالح رعايا من المسلمين الهنود الزائرين<sup>١</sup>، وقد تولّى إدارة تلك الوكالة بعض الرعايا من الهنود أو الأفغان أمثال: الميرزا محمد حسن محسن الأفغاني خلال المدة (١٩٠٣-١٩١٤ م)<sup>٢</sup>.

بدأ التوجّه البريطاني نحو العراق خلال القرن التاسع عشر يأخذ طابع المصالح الاقتصادية، بسبب أهمية العراق كموقع استراتيجي وما فيه من إمكانات اقتصادية كبيرة، حيث عملت بريطانيا على توقيع اتفاقية مع الدولة العثمانية عام ١٨٠٩ م، ضمنّت فيها ترجيح بريطانيا على بقية الدول الأوربية من حيث الامتيازات التجارية بحيث إنّها كانت تدفع رسوم ٣٪ فقط عن التجارة الإنكليزية في أراضي الدولة العثمانية ومنها العراق، ولعب المقيم البريطاني الدبلوماسي في بغداد كلوديوس جيمس ريج (Claudius James Rich) دوراً كبيراً في زيادة المصالح البريطانية التجارية في العراق، خاصة وأنه كان قد عمل قنصلاً لمدة طويلة من الزمن (١٨٠٨-١٨٢١ م)<sup>٣</sup>، ويبدو أنّ النفوذ البريطاني في العراق تعدّى المصالح الاقتصادية إلى التدخل في شؤون الحكم من قبل المقيم البريطاني المذكور، وكاد الأمر أن يُحدث مواجهةً عسكرية بين حراس المقيمة البريطانية وبين والي بغداد داوود باشا (١٨١٧-١٨٣١ م)،

١. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، ٢٠٨٢\٤.

٢. المصدر نفسه، ص ٢٣٣٨.

٣. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، ص ١٩٤٨-١٩٥١.

لولا تراجع الأخير بسبب خشيته من تعاضم المشكلة مع بريطانيا<sup>١</sup>. كانت الدولة العثمانية تسيطر على العراق بشكلٍ غير مباشرٍ من خلال وجود حكم المماليك في بغداد طيلة المدة (١٧٥٠-١٨٣١ م)، ثم وجدت الدولة في ضرورة إنهاء هذا الحكم والسيطرة المباشرة على العراق، فتم إرسال حملةٍ عسكريةٍ بقيادة والي حلب علي رضا باشا اللازر، فيما ضغط السفير البريطاني في استانبول من أجل التريث في تحرك العثمانيين، ويبدو أنّ هدف البريطانيين كان الخشية من تعرض مصالحهم السياسية والاقتصادية في العراق إلى الخطر في حال عودة السلطة المركزية العثمانية المباشرة إلى العراق، إلا أنّ قائد الحملة كان قد تعهّد لهم بالمحافظة على مصالحهم فيها، وقد تمكّنت الحملة من السيطرة على بغداد عام ١٨٣١ م<sup>٢</sup>.

وفي الثلاثينيات من القرن التاسع عشر الميلادي ظهرت بوادر التوجّه البريطاني نحو الاستفادة من موقع العراق في أعمال النقل والتجارة عبر إيجاد طريقٍ يربط بين الشرق والغرب يمرّ إما بمصر وإما بالعراق، وبدأ التفكير من قبل شركة الهند الشرقية الإنكليزية بالملاحة في نهري دجلة والفرات؛ ولهذا الغرض تم إرسال بعثة إنكليزية عام ١٨٣٠ م بقيادة الضابط الإنكليزي جسني (Chesney)، الذي قام بمسح المنطقة في رحلته من أعالي نهر الفرات في الشام نزولاً إلى الفلوجة وبغداد والبصرة خلال المدة ١٨٣٠-١٨٣١ م، جمع فيها معلوماتٍ واسعةً وخرائط مفيدةً عرضها على المسؤولين في لندن عام

١. المصدر نفسه، ص ١٩٥٢-١٩٥٧

٢. شكري، ياسين شهاب، المرجع في تاريخ العراق الحديث، ص ١٤١-١٤٢.

١٨٣٢م، ذكر فيها بأن هناك صعوباتٍ تمنع الملاحة فيه من احتمالية مهاجمة العشائر للسفن، وأنه من الضروري استرضائها القبائل<sup>١</sup>، عاد جسني بعدها من جديدٍ إلى العراق عام ١٨٣٤م، وبطلبٍ من الحكومة البريطانية لغرض دراسة الملاحة في نهر الفرات من جديد، وبيان مدى إمكانية الاستفادة منه في فتح طريقٍ سريعٍ إلى الهند ولتنمية التبادل التجاري، ونقل البريد بين بريطانيا والهند، إذ عمل في النهر عام ١٨٣٥م، طيلة ثلاث سنواتٍ أخرى، وتوصل إلى نتيجة مفادها فشل الملاحة في الفرات لوجود الموانع الطبيعية، كما جرت محاولاتٍ أخرى للبحث في الملاحة في نهر دجلة غير أن النهر كان أصعب من الفرات<sup>٢</sup>.

وبالرغم من تقارير بعثة جسني المخيبة للآمال فإن مشروع الملاحة في نهر الفرات ظلّ يراود البريطانيين، ففي عام ١٨٦١م، تم تأسيس أول شركة تجارية بريطانية في العراق وهي شركة لنج (Lynch)، التي قامت بأبحاثٍ في الملاحة ونقل في نهر الفرات، وبدأت نشاطها التجاري فيها عام ١٨٦٢م، من خلال عددٍ من السفن التجارية التي كانت تعمل في النهر لنقل السلع والبضائع من البصرة إلى بغداد، ومن هناك يتم نقلها إلى حلب براً، غير أن سفن الشركة كانت تواجه صعوبات في النقل والتجارة، خاصة ما تعلق منها بهجمات العشائر الموجودة على ضفتي النهر في حالة عدم دفع الإتاوات من قبل السفن<sup>٣</sup>.

ولم يكن الاهتمام البريطاني بالعراق منصباً فقط على الملاحة والتجارة في

١. عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، ص ٦٩-٧٠.

٢. نوار، عبد العزيز، تاريخ العراق الحديث من نهاية داوود باشا إلى نهاية مدحت باشا، ص ٢٤٨-٢٦٣.

٣. القهواتي، حسين محمد، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩-١٩١٤، ص ٩٣.

أنهار العراق، وإنَّما القيام بمشروع فتح المكاتب البريدية في مدن العراق، حيث تولت بواخر (شركة لنج) بموجب الاتفاقية التي تم التوقيع عليها مع الحكومة العثمانية سنة ١٢٧٩ هـ / ١٨٦٢ م على نقل البريد الذي يأتي من الهند إلى البصرة إلى بغداد ومنها إلى أوروبا<sup>١</sup>، وقد افتتحت بريطانيا عام ١٨٦٨ م مكاتبين بريديين، الأول في البصرة، والثاني في بغداد<sup>٢</sup>.

كما اهتمت بريطانيا بإنشاء خطوط التلغراف في العراق من أجل ربط بريطانيا بمستعمراتها في الهند، خاصة بعد قيام ثورة الهندوس ضد الاستعمار البريطاني في الهند عام ١٨٥٧ م، وشعور بريطانيا بأهمية إقامة خطوط اتصالات سريعة مع مستعمراتها في الهند عبر آسيا الصغرى والعراق وفارس والخليج العربي، فتمَّ مدُّ تلك الخطوط بعد حصول الإنكليز على موافقة الدولة العثمانية عام ١٨٦١ م، وجرى افتتاح الخط البرقي الممتد بين بغداد وإسطنبول في عام ١٨٦١ م، كما جرى اتفاق بين الدولتين عام ١٨٦٣ م، تعهدت فيه بريطانيا على مد خطين للتلغراف فوق الأراضي العراقية على نفقتها الخاصة، الخطَّ الأول يمتد بين بغداد و خانقين، ومنها إلى كرمنشاہ وطهران، ثم إلى ميناء بوشهر على الخليج العربي حيث ترتبط بخطوط الاتصال البرقي مع الهند، وجرى افتتاحه عام ١٨٦٤ م، أما الخطَّ الثاني فيمتد بين البصرة إلى القرنة ليتفرع منها إلى فرعين، يمتدُّ الأول من القرنة إلى بغداد عبر مدن دجلة ليرتبط بخطَّ آخر عبر كركوك وأربيل ونصيبين وماردين وديار بكر، ثم إلى إسطنبول، والخط

١. غنيمه، يوسف رزق الله، تجارة العراق قديماً وحديثاً، ص ٨٤؛ ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ١/ ٣٧٧.

٢. لوريمر، دليل الخليج، القسم التاريخي، ٦/ ٣٥٣٢.

الآخر من القرنة إلى بغداد عبر مدن الفرات، ماراً بسوق الشيوخ والساوة والديوانية<sup>١</sup>.

وفي مجال مدّ خطوط السكك الحديدية، فإنّ الإنكليز حاولوا الاستفادة من موقع العراق من خلال طرح فكرة مدّ سكك الحديد عبر أراضيه للربط بين أوروبا من جهة، وبين الهند والشرق الأقصى من جهةٍ أخرى عبر سلسلةٍ من الخطوط الممتدّة من مناطق شبه القارة الهندية المستعمرة البريطانيّة الأكبر في العالم، التي كان يطلق عليها (درة التاج البريطاني)، ومنها نحو الخليج العربي مروراً بالعراق وبلاد الشام وسواحل البحر المتوسط، ومن ثمّ النقل بحرًا إلى أوروبا، وصولاً إلى بريطانيا بمسافة تصل إلى أكثر من ستة آلاف ميل، وفقاً للخريطة التالية:

١. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، القسم الجغرافي، ٣/ ١٠٣٤-١٠٣٥.



وتعود بدايات التفكير في إنشاء خط سكة الحديد للنقل التجاري إلى عام ١٨٥٦م، عندما طرح أحد المهندسين الإنكليز ويدعى آندرو ( Andraw ) — وهو من العاملين في سكة الحديد بالهند عام ١٨٥٧م — على حكومة بلاده مشروع إنشاء سكة حديد للربط عبر العراق وبلاد الشام، وتم الحصول على التأييد والدعم من الحكومة والبرلمان البريطاني، غير أن الشركة عجزت عن البدء بالعمل؛ بسبب عدم توفر الأموال اللازمة للقيام بذلك، وتم تأجيل المشروع لمدة خمس عشرة سنة، ثم أعيد التفكير به خلال المدة (١٨٧١-١٨٧٢م)، بعد شعور بريطانيا بتضرر مصالحها الاقتصادية نتيجة لافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩م، فشكّلت لجنة خاصة لدراسة المشروع، وقامت باستشارة الخبراء والمهتمين بالمشروع، وقدمت جميع الآراء والمقترحات الداعمة للفكرة في تقرير مفصّل من سبعين صفحة، وتمت طباعته ونشره في لندن سنة ١٨٧٢م بعنوان (سكة حديد وادي الفرات) (The Euphrates Valley Railway)<sup>١</sup>، وفي الوقت ذاته نشر تقرير آخر سنة ١٨٧٣م، كان قد أعدّ منذ سنة ١٨٥٨م بعنوان: (الأهمية الاستراتيجية لسكة حديد وادي الفرات) (The Strategical Importance of The Euphrates Valley Railway)، ركّز فيه على أهمية هذه الخط لمواجهة تغلغل روسيا القيصريّة في الدولة العثمانيّة، التي ستهدد المصالح البريطانيّة في المنطقة<sup>٢</sup>.

تناول التقرير الأوّل (سكة حديد وادي الفرات) أهمية الطريق وضرورة الاستفادة منه لمُد سكة حديد تربط أوروبا بالهند عبر بادية الشام والعراق، بنحو تكون أكثر أهميّة من قناة السويس، كما طرح التقرير الآراء المتعددة حول بداية الطريق، واستقر الرأي بأن تبدأ السكة من نقطة أو ميناء ما على البحر المتوسط

1. William Francis Ainsworth, The Euphrates Valley Railway, (London: 1872).

2. Baron k Von Kohenfield, Op. cit, pp.15-22.

كالإسكندرونة باتجاه حلب، ومن هناك إلى منطقة مسكنة، إلى دير الزور، وعبر وادي الفرات باتجاه عانة وحديثة، ومنها إلى بغداد، ومن ثم إمكانية تفرع الخط إلى فرعين عبر دجلة والفرات إلى البصرة، مع وجود خطوطٍ فرعيةٍ ترتبط الخط من الموصل ومن مندلي باتجاه الحدود الإيرانية، وبين التقرير المعوقات والتكاليف مقابل النتائج الاقتصادية الكبيرة والإيرادات المالية الهائلة في حالة إنجاز الخط وتشغيله، فضلاً عن الاستفادة من موقع العراق وخيراته<sup>١</sup>.

أهملت الحكومة البريطانية التقرير لمدة ثلاث سنوات، لكونها كانت تفضل الاستحواذ على طريق قناة السويس المنجز آنذاك، عبر قيامها بشراء حصة مصر من أسهم قناة السويس سنة ١٨٧٥م تمهيداً للسيطرة الكاملة على القناة بدلاً من الذهاب إلى مشروع سكة لا يزال في طور التخطيط والبحث، فضل مشروع سكة حديد وادي الفرات حيبس الوثائق والأدراج لدى الحكومة والبرلمان البريطاني حتى سنة ١٩٠٩م، عندما أعيد طرح المشروع من قبل الحكومة من جديد كمحاولة منها لإيجاد طريق منافسٍ لخط سكة ( حديد برلين - بغداد ) المزمع إنشاؤه من قبل ألمانيا بعد منحها الامتياز من قبل الدولة العثمانية عام ١٩٠٢م، وقيام بريطانيا بإحياء مشروعها القديم لم يكن الهدف منه وجود رغبة حقيقية لإنشائه، وإنما الضغط على ألمانيا والدولة العثمانية من أجل الوقوف ضد المشروع الألماني، فتحرّكت بريطانيا باتجاه إعادة طرح فكرة مشروع سكة وادي الفرات، ومن الجدير بالذكر هنا أنّ الخط البريطاني كان يمتاز بأنه أقصر من الخط الألماني، وتكاليف إنشائه أقل من الناحية المادية؛ لكونه يمرّ بمناطق منبسطة من حلب إلى بغداد والبصرة، في الوقت الذي كان المشروع الألماني يمرّ بمناطق

---

1. Ibid, p.58.

وعرة في الأناضول حتى الوصول إلى مدينة الموصل، غير أن الحكومة البريطانية لم تكن جادة في طرح المشروع، وإنها كانت تحاول من خلاله الضغط على الدولة العثمانية وألمانيا للقبول بتسوية ودية لمشروع سكة حديد برلين- بغداد قبيل قيام الحرب العالمية الأولى<sup>١</sup>، وفي الوقت ذاته فإن دخول ألمانيا على خط مد النفوذ والمصالح الاقتصادية إلى العراق والمنطقة، دفع بريطانيا إلى التفكير الجدي في كيفية السيطرة على العراق ولو بالقوة العسكرية.

كانت بريطانيا ترى بأن التغلغل السياسي والاقتصادي في العراق سيؤدي حتماً يوماً ما إلى السيطرة عليه؛ لذا اهتم البريطانيون في إيجاد موطئ قدم لهم في الواقع الاجتماعي العراقي عن طريق التبشير الديني البروتستانتي من خلال إرسال رجال الدين بروتستانت بغية خلق جماعات تعتمد عليها بريطانيا في حماية مصالحها في العراق، فكان جوزيف وولف (Wolff) (١٧٩٦-١٨٦٢) أول مبشّر أوفدته جمعية لندن لنشر البروتستانتية بين اليهود، حيث وصل إلى سنجار والتقى بعدد من اليهود واليزيديين<sup>٢</sup>، كما أن بعثة جسني المار ذكرها سابقاً كانت قد اصطحبت معها أحد المبشّرين البريطانيين ويدعى صموئيل (Samuel)، فبدأ نشاطه في البصرة، ثم انتقل إلى بغداد، وقد وجد بعض العراقيين أن وجود هذا المبشّر وحماسه الكبير في دعم البعثة الملاحية جزءاً من خطة عامة نحو احتلال البلاد الإسلامية، وتحويل المسلمين إلى النصرانية، فأخرج من العراق<sup>٣</sup>.

وفي عام ١٨٣٨م، أقرت الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية (Royal

١. للتفصيل ينظر: شكري، ياسين شهاب، العراق ومشروع سكة حديد وادي الفرات دراسة تاريخية في

ضوء التقارير البريطانية، ص ١٢٥-١٥٠

٢. غنيمه، حارث يوسف، البروتستانت والإنجيليون في العراق، ص ٥٠.

٣. نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث من نهاية داوود باشا إلى نهاية مدحت باشا، ص ٣٠٨.

(Geographical Society)، وجمعية تعزيز المعرفة المسيحية (Society For The Promotion Of Christian Knowledge) مشروعًا مشتركًا لمدة سنتين عرف بـ (بعثة استكشاف كردستان)، والهدف المزعوم للبعثة هو اكتشاف وسط وشرق الأناضول وشمال العراق، وتقديم تقرير عن الكنائس النسطورية واليعقوبية وعن القبائل الكردية واليزيدية ولغتها ومعتقداتها وأحوالها العامة<sup>١</sup>، واستمر النشاط التبشيري البريطاني في العراق خلال العقود اللاحقة، خاصة في أوساط الطوائف الدينية المسيحية وتحديدًا النساطرة، حيث اختار لهم رئيس أساقفة كنتربري البريطانية عام ١٨٨٦م تسميةً جديدةً هي (الآثوريين) أو (الآشوريين)، وأوفد بعثةً تبشيريةً إليهم لتغيير التسمية بهدف رفع منزلتهم التاريخية في الأوساط العالمية<sup>٢</sup>، كما تم فتح مقر للإرسالية التبشيرية البروتستانتية في منطقة العمادية شمال العراق عام ١٩١١م<sup>٣</sup>.

بدأت بريطانيا بجمع المعلومات والأخبار عن الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية في العراق من خلال تقارير المقيم البريطاني والقناصل المنتشرين في بعض مدن العراق، كما أمّتها أرسلت الجواسيس بعناوين مختلفة للاطلاع على الأوضاع عن كثب، فمثلاً قام النقيب البريطاني ماونسل (Maunsel) بجولات في شمال العراق في عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٢م، زار خلالها دهوك والعمادية والزيبار وأربيل والموصل<sup>٤</sup>، وكذلك قام الميجر سون (E. soon) بزيارة إلى شمال العراق وتحديدًا إلى السليمانية متنكرًا باسم ميرزا غلام حسين الشيرازي، وكتب تقريرًا

١. السعدي، محمد داخل كريم، المصالح الأجنبية في الموصل ١٨٣٤-١٩١٤، ص ٤٨-٤٩.

٢. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، ص ٥٩.

٣. السعدي، محمد داخل كريم، المصالح الأجنبية في الموصل ١٨٣٤-١٩١٤، ص ٧١.

٤. نوار، عبد العزيز سليمان، تاريخ العراق الحديث من نهاية داوود باشا إلى نهاية مدحت باشا، ص ٢٢٤-٢٢٥.

تضمن في ملحقة تفاصيل عن القبائل الكردية وفروعها ومواطن انتشارها على الحدود العراقية - الإيرانية<sup>١</sup>.

ولعل من أشهر الشخصيات الإنكليزية التي زارت العراق قبل الاحتلال الرحالة الآثارية المس جترو د بيل (G. Bell) عام ١٩٠٩م، التي قُدِّر لها أن تلعب دوراً أساسياً في تاريخ العراق بعد الاحتلال كسكرتيرة المندوب السامي البريطاني، إذ إنها جمعت معلوماتٍ تفصيليةً عن العشائر العراقية من خلال زياراتها لمناطق حوض دجلة، كما زارت القبائل الكردية في شمال العراق والأقليات غير المسلمة التي تسكن المنطقة الشمالية كالنصارى واليزيدية وغيرهم<sup>٢</sup>، وقد أقامت سنةً كاملةً في خيام البدو عند قبيلتي شمر وعززة، وأصبحت لها علاقاتٌ كبيرةٌ مع عددٍ كبيرٍ من الإقطاعيين في مناطق العراق المختلفة<sup>٣</sup>.

ومن الجواسيس البريطانيين الآخرين الكولونيل ليجمن (Leachman) الذي زار العراق عدّة مراتٍ ما بين ١٩١١-١٩١٣م، والهدف من الزيارة تأليب زعماء العشائر ضد الحكم العثماني في العراق<sup>٤</sup>.

١. خليل علي مراد، دوافع رحلات الإنكليز الى الموصل وأطرافها في القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، ص ١٦٥.

٢. المس بيل، العراق في رسائل المس بيل، ص ١٤-١٦.

٣. ستيفن لونكريك، عراق البريطانيين والأترك خلال ١٩١٥-١٩١٦، ص ٥١.

٤. ن. براي، مغامرات ليجمن في العراق والجزيرة العربية ١٩٠٨-١٩٢٠، ص ٧٦.

## المبحث الثاني: دوافع وأهداف الغزو البريطاني للعراق

تباينت رؤية المصادر التاريخية في النظر إلى الغزو البريطاني للعراق عام ١٩١٤م، من حيث بيان دوافعها الأساسية، وهل أُنْهتْ جاءت ردة فعل لدخول العثمانيين الحرب العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا ضد كل من بريطانيا وفرنسا وروسيا؟ فأرادت بريطانيا فتح جبهة جديدة للحرب انطلاقاً من الخليج العربي باتجاه العراق الواقع تحت سيطرة العثمانيين، أم أنّ فكرة الغزو والتخطيط لاحتلال العراق قد سبق ذلك بفترة زمنية طويلة كجزء من التوجهات الاستعمارية البريطانية للسيطرة على المناطق الحيوية في العالم.

والحقيقة أنّ دوافع الغزو البريطاني للعراق قد ارتبطت بمحاولاتها السابقة لتغلغل السلمي عبر المصالح السياسية والاقتصادية، ثم التفكير بإعداد خطة عسكرية للاحتلال، تم الإعداد لها قبل الحرب بسنوات، ناهيك عن المتغيرات السياسية والاقتصادية الإقليمية والدولية، والتي دفعت بالبريطانيين ضمن عوامل وأهداف عديدة، وعلى النحو التالي:

### أولاً: حماية المصالح البريطانية:

عملت بريطانيا على تثبيت نفوذها ومصالحها السياسية والاقتصادية في منطقة الخليج العربي وما يجاورها منذ منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، ووقعت العديد من الاتفاقيات والمعاهدات الثنائية خلال القرن التاسع عشر مع المشيخات الخليجية ابتداءً من معاهدة ١٨٢٠م، مع الساحل العماني وعرب القواسم، وحتى معاهدة الحماية البريطانية للكويت عام ١٨٩٩م، والدولة القاجارية في إيران في السنوات (١٨٧٢م، ١٨٩٠م)، التي منحت الأفضلية لبريطانيا في المصالح السياسية والاقتصادية على بقية الدول الأوروبية بحيث

أصبح الخليج في مطلع القرن العشرين كأنه بحيرةٌ بريطانية<sup>١</sup>، وهذا ما أعطاها فرصةً للتدخل وزيادة النفوذ في المنطقة، غير أن مصالحها الحيوية في أراضي الدولة العثمانية والعراق جزءٌ منها، كانت تواجهها العراقيل والسياسات المتضاربة بين الجانبين؛ فالعثمانيون كانوا يرون أن نفوذهم التاريخي على الجزء الغربي من ساحل الخليج العربي يعطيهم المشروعية في حكم المناطق الممتدة من جنوب العراق والكويت والإحساء وقطر والبحرين، وهذا ما أدى إلى توتر العلاقات العثمانية البريطانية في الخليج العربي طيلة الفترة الممتدة من عام ١٨٧١م، ولغاية عام ١٩١٤م، وهذا ما دفع السياسة البريطانية إلى التعبير صراحةً بضرورة المحافظة على المصالح السياسية والتجارية، وتأمين الطريق إلى الهند عبر الأملاك العثمانية، خاصة بالنسبة للعراق<sup>٢</sup>.

لقد عبر السياسة البريطانية منذ وقتٍ مبكرٍ عن فكرة الذهاب إلى احتلال العراق، فمنذ منتصف القرن التاسع عشر أرسل القنصل البريطاني في بغداد راولنسون (Rawlinson) بمذكرةٍ إلى وزارة الخارجية البريطانية في ٣ حزيران ١٨٥٣، أشار فيها بأنه في حالة تقسيم الإمبراطورية العثمانية فعلى بريطانيا العمل على القيام «باحتيال جنود من الهنود كامل قطاع الإقليم من الزاب الأسفل إلى البحر»<sup>٣</sup>، وتكررت فكرة الاحتلال في العقود اللاحقة مع ازدياد أهمية العراق بالنسبة لبريطانيا، إذ أكد حاكم الهند أو نائب الملك البريطاني اللورد كيرزن (Gurzon) في عام ١٨٩٢م بأن «بغداد تقع ضمن موانئ الخليج، ويجب أن تدخل ضمن السيادة البريطانية التي لا تنازع»، وأشار في خطابه بمجلس

١. غانم محمد صالح والكبيسي، خليل فضيل محمد، الخليج العربي، ص ٧١-٧٤.

٢. النجار، مصطفى وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، ص ١١١.

٣. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني، ص ٩٣.

اللوردات البريطاني عام ١٩١١م إلى ذلك بالقول: «من الخطأ أن نفترض أنّ مصالحنا السياسية تنحصر في الخليج، فإنّها ليست كذلك، كما أنّها ليست منحصرة بالمنطقة الواقعة ما بين البصرة وبغداد، وإنّها تمتد شمالاً إلى بغداد نفسها»<sup>١</sup>، وحدثت العديد من التوترات السياسية والعسكرية بين الدولتين في شمال الخليج، بعد أن وجدت بريطانيا أنّ العثمانيين يحاولون إعادة فرض نفوذهم في رأس الخليج والتضييق على النشاط التجاري البريطاني، وهو ما يمثل تهديداً لمصالحها الحيوية، وأنّه لا بدّ من التحرك سياسياً وعسكرياً لمنع ذلك، فجاءت الحرب العالمية الأولى فرصة سانحة للبريطانيين للقضاء على النفوذ العثماني في الخليج العربي والعراق.

#### ثانياً: ازدياد النفوذ الألماني

كانت ألمانيا قد حقّقت وحدتها عام ١٨٧١م، وبدأت بالظهور على مسرح الأحداث الأوربية والعالمية كقوةٍ سياسيةٍ واقتصاديةٍ وعسكريةٍ كبيرة، ونشطت دعوات المفكرين الألمان إلى ضرورة الاستفادة الألمانية من الإمكانيات الاقتصادية في مناطق الدولة العثمانية وتحديدًا بالنسبة للعراق، حيث قام المفكر الألماني شبنغلر (Schpringer) برحلةٍ طويلةٍ في الدولة العثمانية، وكتب كتاباً بعنوان بابل أغنى بلدٍ في الماضي وأكثر المناطق ملائمةً للاستيطان في الحاضر، وأنّه لا توجد في العالم كلّ منطقة أكثر ملائمةً منها لاستيطان الألمان مثل العراق، وأمّا المفكر الألماني هوجو كروتة (Hougo Kroteh) فقد أصدر عام ١٩٠٢م، كتاباً بعنوان (سكة حديد بغداد والفلاحون الشفابيون فيما وراء القفقاس وفلسطين)، حمل فيها دعواتٍ إلى الاستيطان في العراق<sup>٢</sup>.

١. فيليب ويلارد إيرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٢٥-٢٤.

٢. التكريتي، هاشم صالح، التغلغل الألماني في المشرق العربي قبيل الحرب العالمية الأولى، ص ٤٤-٤٥.

حدث آنذاك تقاربٌ كبيرٌ بين ألمانيا وبين الدولة العثمانية منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، واعتقد العثمانيون بأن ألمانيا ليس لها أطماعٌ استعماريةٌ في أراضي الدولة العثمانية كبريطانيا وفرنسا وروسيا، كما أعجب العثمانيون بالتقدم الكبير الذي حدث في ألمانيا خاصّةً في المجال العسكري والاقتصادي، وعملوا على الاستفادة من تجربتها من أجل زيادة قوة الدولة العثمانية لمواجهة تدخلات الدول الكبرى، وجرى تعاونٌ كبيرٌ بين الدولتين من خلال إرسال البعثات العسكرية العثمانية إلى ألمانيا أو جلب الضباط العسكريين الألمان لتنظيم وتدريب الجيش العثماني، وكذلك العمل على زيادة النشاط الاقتصادي الألماني في أراضي الدولة العثمانية من خلال المؤسسات المالية التابعة لها.

بدأت المفاوضات بين الدولتين من أجل الوصول إلى امتياز منح إنشاء خط سكة حديد بغداد- برلين منذ سنة ١٨٩٨م، وتكلّلت بمنح العثمانيين امتياز بناء سكة حديد بغداد- برلين إلى شركة حديد الأناضول المدعومة من البنك الألماني في ٥ آذار ١٩٠٢م، وحدد بنود الاتفاق على أن يكون الامتياز لمدة زمنية طويلة (٩٩ عامًا)، وأخرى تتعلّق باستغلال المناطق المجاورة لخط السكة اقتصادياً من قبل الشركة، فضلاً عن بنودٍ أخرى جرى التعديل على بعض منها بعد مرور سنة واحدة<sup>١</sup> إذ كانت ألمانيا ترغب في الاستفادة من هذا الخط من أجل زيادة نفوذها الاقتصادي لمناطق بعيدة ذات أهمية اقتصادية كبيرة، ومنها العراق الذي وجدت فيه مصدرًا مهمًا للمواد الأولية والغذائية الداخلة في الصناعات والاحتياجات الألمانية، خاصّةً بالنسبة للحبوب التي كانت تستوردها آنذاك من

١. بحري، لؤي يونس، سكة حديد بغداد - برلين : دراسة في تطور دبلوماسية قضية سكة حديد برلين

روسيا، إلى جانب إمكانية تطوير بعض المحاصيل الزراعية الضرورية للألمان في العراق كالقطن<sup>١</sup>.

كان الامتياز ينصّ على تمديد خطّ سكّة الحديد من قونية إلى الموصل، ومن هناك إلى بغداد، وعبر مدن الفرات الأوسط وصولاً إلى الناصرية، ثم البصرة والخليج العربي، مع إقامة عددٍ من الخطوط الفرعية لها منها خط خانقين-بغداد من أجل ربط الحدود والدواخل الإيرانية بالمدن العراقية، وتحديدًا مدن العتبات المقدسة لنقل المسافرين من الزوار والتجار.

عارضت بريطانيا منح الامتياز، ورأت في المشروع تهديدًا لنفوذها السياسي والاقتصادي في المنطقة، إذ إنّ مدّ سكك الحديد إلى تلك المنطقة سيكون بمنزلة بداية لاقتحام ألمانيا للمنطقة ومنافسة للطريق البحري المار عبر قناة السويس الذي كانت تسيطر عليه بريطانيا آنذاك<sup>٢</sup>، وقد أشارت بعض التقارير البريطانية إلى ذلك بالقول: «إن الآثار المحتملة لمد سكّة حديد بغداد إلى الخليج سوف لن يكون تأثيرها على المصالح البريطانية في العراق فقط وإنما ستؤثر على مصالح كلٍّ من بريطانيا والهند في منطقة الشرق الأوسط وخاصّةً في إيران والخليج»<sup>٣</sup>.

وجرت مناقشاتٌ واسعةٌ في الأوساط السياسية والبرلمانية البريطانية حول مدى إمكانية مشاركة بريطانيا في هذا المشروع، وفي الوقت ذاته عملت بريطانيا على الاحتفاظ بمكانتها المتقدمة في نشاطها التجاري مع العراق لمنع تغلغل التجارة الألمانية إليه، حيث إنه ازدادت الصادرات البريطانية إلى العراق عام ١٩٠٣م إلى (٢٥٨,٠٠٠, ١) جنيه إسترليني، التي شكلت نسبة ٨٠٪

١. ألكسندر آدموف، ولاية البصرة ماضيها وحاضرها، ٢/٢٠٨، ٢٤٨.

٢. ز. ي هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، ص ٦٧.

٣. شكري، ياسين شهاب، ولاية بغداد: ١٨٧٢-١٩٠٩م، ص ١٤٩.

من المستوردات الأجنبية الداخلة إلى العراق، كما قامت بدعم نشاطات شركة (لنج) البريطانية العاملة في النقل النهري بالعراق عبر دعم مطالبيها في زيادة عدد بواخرها العاملة في هذا المجال<sup>١</sup>، كما حاولت بريطانيا الضغط على ألمانيا لقبول مشاركة بريطانيا في الامتياز من خلال إعادة طرح فكرة مشروع (سكة حديد وادي الفرات) المار ذكرها سابقاً عام ١٩٠٩م، غير أن المشروع البريطاني لم يكن سوى تهديد للقبول بتسوية لمشروع سكة حديد برلين- بغداد، فتم الاتفاق بين بريطانيا والدولة العثمانية في حزيران سنة ١٩١٣م حول النفوذ البريطاني في الخليج وتحديدًا في الكويت، وكذلك تم الاتفاق بين بريطانيا وألمانيا في حزيران عام ١٩١٤م، حول القبول بوجود مساهمين بريطانيين في شركة سكة الحديد، وبأن يكون نهاية الخط في مدينة البصرة والتنازل عن مده إلى ساحل الخليج العربي<sup>٢</sup>، وعلى أية حال كانت الشركة المنفذة للامتياز قد تمكنت من إنجاز معظم خط سكة حديد بغداد- برلين قبيل قيام الحرب العالمية الأولى، وتم تشييد أول قطار بين بغداد وسميكة (الدجيل) في حزيران ١٩١٤م.

### ثالثاً: قيام الحرب العالمية الأولى

كانت أجواء التحالفات السرية والعلنية في أوروبا قبيل قيام الحرب العالمية الأولى تنذر بنشوبها، حيث أفرزت في النهاية بروز جبهتين رئيسيتين هما: تحالف الوسط (ألمانيا، إمبراطورية النمسا والمجر، الدولة العثمانية، بعض الدول الصغيرة)، وجبهة الحلفاء (بريطانيا، فرنسا، روسيا، إيطاليا، وبعض الدول

1. Stuart Acohen, British policy in Mesopotamia 1903-1914, (London, 1967), pp.35-39.

٢. بحري، سكة حديد بغداد - برلين: دراسة في تطور دبلوماسية قضية سكة حديد برلين بغداد حتى عام

الأوربية الأخرى)، وجاء اغتيال ولي عهد النمسا (فرانز فرديناند) في حزيران ١٩١٤م، من قبل جماعةٍ صربيةٍ قوميةٍ متشددةٍ في مدينة سرايفو ليكون السبب المباشر لاندلاع الحرب العالمية الأولى.

كانت الدولة العثمانية التي تسيطر على العراق قد تعاطفت مع ألمانيا قبيل قيام الحرب، إذ تأثر جماعة (الاتحاد والترقي) الحاكمة بالمؤسسة العسكرية الألمانية وإنجازاتها، فحدث تقاربٌ كبيرٌ بين الدولتين في المجالات السياسية والعسكرية والاقتصادية، وأشارت المصادر التاريخية بأن اتفاقاً سرياً جرى بين الدولة العثمانية وألمانيا في ٢ آب ١٩١٤م، في اليوم التالي لإعلان ألمانيا الحرب على روسيا، والذي نصّ على تزويد الجيش العثماني بالأسلحة والعتاد والتنسيق العسكري المشترك بين الطرفين ضد روسيا<sup>١</sup>.

كانت القيادة العسكرية والسياسية العثمانية منقسمةً بين مؤيِّدٍ للانضمام إلى ألمانيا في الحرب، وبين معارضٍ لذلك ومطالبٍ بالبقاء على الحياد، وتغلبت وجهة نظر المؤيِّدين بالرغم من إعلان الدولة العثمانية الوقوف على الحياد في بادئ الأمر، وردت كلٌّ من بريطانيا وروسيا وفرنسا بالقبول باحترام استقلال الدولة العثمانية شريطة بقائها على الحياد المعلن، وإبعاد الخبراء من الضباط الألمان من الخدمة في جيشها، غير أنّ الأتراك رفضوا الشرط الأخير، وصادف أنّ رفضت بريطانيا تسليم طرادين بحريين كانت الدولة العثمانية قد أوصلت عليهما بعد أن تم دفع ثمنهما من تبرعات الأهالي في أرجاء الدولة الأمر الذي ولد ردة فعلٍ عنيفةٍ ضد بريطانيا لدى الأوساط العامة، وبالمقابل كان هناك طرادان ألمانيان قد دخلا المضائق التركية هرباً من الأسطول البريطاني في البحر المتوسط فجرى

---

1. Mustafa Aksakal ,The Ottoman Empire and the First World War, Cambridge, University Press, 2008), pp. 13-111.

بيعهما بشكلٍ صوريٍّ للأتراك، كما قام الأتراك بغلق المضائق أمام السفن الأجنبية وإلغاء الامتيازات الأجنبية الممنوحة سابقاً للدول الأوروبية، فسمح الدولة العثمانية للطرادين وتحت قيادة أحد الضباط الألمان بالدخول إلى البحر الأسود ومهاجمة السفن والموانئ الروسية في ٢٩ تشرين الأول ١٩١٤ م؛ فاحتجّ الحلفاء على ذلك وأعلنوا الحرب على الدولة العثمانية في ٢ تشرين الثاني لتصبح أراضي الدولة وولاياتها، ومنها العراق ضمن جبهات الحرب آنذاك<sup>١</sup>.

ومن الجدير بالذكر هنا أن احتمالية قيام الحرب العالمية الأولى وانضمام العثمانيين إليها إلى جانب ألمانيا قد تمت مناقشتها من قبل البريطانيين منذ وقتٍ مبكرٍ، إذ تم تأليف لجنة بريطانية حكومية عام ١٩١١ م من أربعة خبراء سياسيين وعسكريين من بينهم المقيم السياسي البريطاني في الخليج السير بيرسي كوكس (Percy Cox)، فوضعت اللجنة تقريراً في ١٥ كانون الثاني سنة ١٩١٢ م، تضمّن توصياتها بتعزيز نفوذ بريطانيا في الخليج، وتأييد احتلال البصرة، إلا أن حكومة الهند عدت الاحتلال سابقاً لأوانه، إلا في حالة قيام الحرب مع الدولة العثمانية.

#### رابعاً: اضطراب الأوضاع وضعف المؤسسة العسكرية العثمانية في العراق

كانت الدوائر السياسية البريطانية في العراق تراقب الأوضاع العامة في العراق من خلال التقارير السرية التي كان يرسلها قناصلها الموجودين في بغداد والبصرة والموصل حول أوضاع الجيش العثماني وتحركاته، وإرسال الخرائط عن الأماكن والطرق في العراق<sup>٢</sup>، وكذلك مواقف العراقيين من الحرب ومن الدولة العثمانية نفسها التي حكمتهم منذ أكثر من أربعمئة عام، ومدى تدمرهم

١. أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٢٨٣-٢٨٧.

٢. فيليب ويلارد آيرلند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٢٤.

من سياسة الولاية المتعاقبين وممارسات السلطة، والموقف من التجنيد الإجباري العثماني، وهذه الأمور كانت تراه بريطانيا ذات أهمية كبيرة قبل قيامها بغزو العراق.

كانت الأوضاع في الدولة العثمانية قد تدهورت بشكل كبير منذ أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ومطلع القرن العشرين؛ نتيجة للسياسات الداخلية والتدخلات الخارجية، الأمر الذي أدى إلى قيام ثورة الاتحاد والترقي عام ١٩٠٨م، ضد حكم السلطان عبد الحميد الثاني، وتسلبت فئة عسكرية ذات توجهات قومية على السياسات العثمانية من خلال اتباع سياسة التريك، ومن ثم الطورانية اتجاه الشعوب والقوميات في مناطق الدولة، ولم يكن العراق بمنأى عن تلك الأحداث، إذ حدث انقسام كبير داخل المجتمع العراقي بين أنصار الحرية والتقدم من المثقفين والنخب المطالبين بتغيير الواقع المزري الذي عاشه العراقيون، والمطالبة بالحرية والتعددية والمساواة التي جاءت بها جماعة الاتحاد والترقي من خلال نشر تلك الأفكار والمطالب في الصحف والمجلات التي أنشأت آنذاك، لكن هؤلاء سرعان ما اصطدموا بالواقع الجديد وما قام به الحكام الاتحاديون الجدد من ممارسات سياسية متشددة، وكذلك محاولة التدخل في نتائج الانتخابات لانتخاب ممثلي الولايات العراقية في مجلس المبعوثين العثماني.

وفي المقابل وقفت الاتجاهات المحافظة ضد الحكم الجديد وعدت ما قام به الاتحاديون من ثورة بأنها موجهة ضد الدين الإسلامي، خاصة أن بعض الممارسات التي حدثت آنذاك أثرت على هذا الموقف من خلال قيام بعض من الفئات بممارسات خاطئة باسم الحرية والمساواة من قبيل استخدام الحرية بشكل مفرط كسرب الخمر وارتكاب الموبقات وانتشار الأسلحة والملاهي في بغداد،

وهي سلوكياتٌ كانت منافيةً للقيم الدينية والعادات الاجتماعية<sup>١</sup>. ومن جهةٍ أخرى، فإنَّ الأوضاع العامة ازدادت سوءاً في العراق، فمن الناحية الإدارية لم تتغير كثيراً من قبيل تعيين عددٍ كبيرٍ من الولاة على الولايات العراقية وقصر مدة حكمهم، وتوَّي عددٍ منهم من الولاة الفاسدين الذين لم يكن يهتم سوى الحصول على الأموال والتسلط على المجتمع<sup>٢</sup>، وانعكس ذلك على انتشار الفساد الإداري والمالي بين الموظفين الذين كان معظمهم من غير العراقيين من حيث استخدام مناصبهم ونفوذهم في زيادة الثراء على حساب السكّان المحليين من خلال الرشوة التي انتشرت بشكلٍ فاحشٍ آنذاك، فيما لم تكن الإدارة الحكومية تفسح المجال لأهل القطر أن يتولوا المناصب الإدارية المهمة<sup>٣</sup>.

أمّا بالنسبة للجوانب الاقتصادية، فإنَّ سياسة توزيع الأراضي الأميرية وتفويضها قد أدى إلى ظهور فئات كبار الملاكين من شيوخ العشائر وكبار المتنفذين وأصحاب الأموال، فيما تحوّلت حياة الفلاحين إلى شبه القنانة لدى صاحب الأرض، وقد يؤدّي ظلم كبار الملاكين للفلاحين إلى قيام انتفاضاتٍ فلاحيةٍ كبيرةٍ ضدّهم كالذي حدث في لواء المنتفق عام ١٩١٣ م، وقد أدّى ذلك كلّهُ إلى زيادة هجرة الفلاحين للبحث عن فرص العمل في المدن، وانتشار البطالة والفقر في الأوساط الاجتماعية المتوسطة والدنيا.

كان أكثر ما يعانیه العراقيون من الحكم العثماني هو التجنيد الإجباري الذي كان يحتم على الأفراد الخدمة الإلزامية لسنواتٍ طويلةٍ وفي أماكن بعيدةٍ حتى في خارج العراق، ثم يصار إلى تسريحهم إلى مناطقهم لخدمة الاحتياط (الرديف)

١. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٣/ ١٦١-١٦٢.

٢. العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين، ٨/ ١٨٠.

٣. المصدر نفسه، ص ٢٠٧.

لسنواتٍ أخرى؛ لذا وقف العراقيون ضد عمليات التجنيد الإلزامية التي كانت تقوم بها السلطات العثمانيّة منذ محاولات تطبيقها عام ١٨٦٩ م<sup>١</sup>، وكذلك ما جرى من قبل سكّان النجف وكربلاء عام ١٨٧٧ م عندما حاولت السلطات أخذ الأفراد للخدمة العسكريّة بغية إرسالهم إلى الحرب مع روسيا<sup>٢</sup>، والمرة الثالثة والأخيرة التي تم فيها إرسال الجنود إلى الخارج كانت إبان قيام الحرب العالمية الأولى عندما أرسلت القوات العسكريّة من بغداد إلى الجبهة الروسية في قفقاسيا<sup>٣</sup>.

كانت التقارير الاستخباريّة البريطانيّة تشير بأنّ السكّان العراقيين متذمّرون من سياسات الحاكم العثمانيين، وأنّ الجيش العثماني المتواجد فيه في حالة ضعفٍ كبيرٍ من حيث الاستعداد للدخول في حروبٍ تقليديّةٍ مع جيوش الدول الأخرى، خاصّةً بالنسبة للجيش البريطاني الذي كان يعد من أقوى جيوش دول العالم آنذاك، فالجيش العثماني لم يتم تهيئته أو تدريبه للقتال والقيام بالمناورات العسكريّة التي تقوم بها الجيوش لمحاكاة الحرب وظروف القتال المختلفة، فضلاً عن نقص التجهيز والتموين والافتقار إلى الأسلحة الحديثة<sup>٤</sup>، ومن هنا تحرّك البريطانيون لإعداد الخطط العسكريّة لاحتلال العراق مستفيدين من أوضاع العراق المضطربة، وضعف المؤسسة العسكريّة العثمانيّة فيها.

١. جريدة الزوراء، العدد ١٢، ٢٣.

٢. العمر، عبد الجبار، ذيل مطالع السعود أو تاريخ الشاوي، مجلة آفاق عربية، العدد السادس والسابع، السنة السادسة، ص ٧٧.

٣. الورد، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٨٢/٤.

٤. شكري، محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٣-١٤.

### المبحث الثالث: الاحتلال العسكري البريطاني للعراق

دخلت الدولة العثمانية الحرب العالمية الأولى في ٢ تشرين الثاني ١٩١٤م، إلى جانب ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر، فأعلنت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا وروسيا الحرب على الدولة العثمانية ضمن ست جبهاتٍ عسكرية، ومنها جبهة الحرب في العراق، وتم إعداد خطةٍ عسكريةٍ بقيام قواتٍ بريطانيةٍ انطلقت من الهند باتجاه الخليج في ٢ تشرين الأول ١٩١٤م بقيادة الجنرال ديلا مين (De-lamine)، وأعطيت تلك القوات الرمز السري (D)، حيث وصلت القوات من الهند إلى البحرين التي اتخذتها القوات البريطانية كنقطة انطلاقٍ رئيسيةٍ نحو شمال الخليج بحجة حماية المصالح النفطية البريطانية في عبادان والمحمرة، التي كانت الشركات البريطانية قد حصلت على حق التنقيب والاستخراج فيها. وأصدرت بريطانيا عشية الغزو بياناً على لسان الضابط السياسي المرافق للقوات البريطانية بيرسي كوكس (Percy Cox) برر فيه قيام الحملة وتوجهها نحو جنوب العراق بالقول: «إنَّ حكومته قد أُجبرت على الحرب نظراً للموقف المعادي للعثمانيين؛ لذا أرسلت بريطانيا قواتها لحماية تجارتها وأصدقائها، وإجلاء الأتراك من المنطقة، وأنها لا أعداء لها مع العرب شريطة ألاَّ يجموا الجنود العثمانيين، ولا يحملوا السلاح في تجواهرهم، وأكد مهدداً على منع ذلك لكي يجرد السكان من وسائل الدفاع عن أنفسهم في ظروف غابت فيه السلطة المحلية الحامية...»<sup>١</sup>.

بدأت الحرب بين العثمانيين والبريطانيين في العراق بعد نزول القوات البريطانية المؤلفة في بادئ الأمر من ٤٥٠٠ مقاتل في أقصى جنوب العراق في الفاو بتاريخ ٦ تشرين الثاني ١٩١٤م، وحدثت ثلاث معارك بين الطرفين

١. إبراهيم خليل أحمد وجعفر عباس جميدي، تاريخ العراق المعاصر، ص ١١.

على الطريق بين الفاو والبصرة: (معركة السنية) في ٨ تشرين الثاني ١٩١٤م، و(معركة سيحان) في ١٥ تشرين الثاني ١٩١٤م، و(معركة ساحل كوت الزين)) في ١٧ تشرين الثاني ١٩١٤م، وخسرها الجيش العثماني جميعاً<sup>١</sup>، وقاموا بالانسحاب إلى مدينة البصرة نفسها، وأدركت السلطات العثمانية في بغداد بأنه من الضرورة بما كان الاتصال بالمرجعية الدينية الشيعية في النجف و كربلاء من أجل الحصول على الدعم والفتوى، فأرسلت السلطات العثمانية في بغداد وفدّاً رفيع المستوى إلى مدينة النجف، وصادف ذلك مع وصول نداء الاستغاثة من وجهاء وأعيان البصرة في ٩ تشرين الثاني جاء فيها: «نغر البصرة الكفّار محيطون به، الجميع تحت السلاح نخشى على بقايا بلاد الإسلام، ساعدونا بأمر العشائر بالدفاع»، فحدث اجتماعٌ عاجلٌ في مسجد الهندي قرب مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام حضره العلماء وشيوخ العشائر الوفد المرسل من بغداد، وتم إعلان الجهاد ووجوب الدفاع عن البلاد الإسلامية<sup>٢</sup>، خاصة بعد سقوط البصرة بأيدي القوات البريطانية من دون قتال في ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٤.

انطلقت قوافل المجاهدين من النجف و كربلاء والكاظمية، ولحقت بها بقية المدن العراقية وكان العلماء في مقدمة القوافل، ومن كانوا يقودونها: السيد محمد سعيد الحبوبي، وشيخ الشريعة فتح الله الأصفهاني، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والسيد محسن الحكيم، والسيد هبة الدين الشهرستاني، وآخرون، وشاركت العشائر وبكثافة في حركة الجهاد من خلال التحرك بجموعها نحو مناطق القتال، فيما كانت العشائر الأخرى القريبة من القوات البريطانية تهاجم

١. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني، ص ١٦٣-١٧٨.

٢. الياسري، عبد الشهيد، البطولة في ثورة العشرين، ص ٦٨-٦٩.

قطعاته ومعسكراته منذ المعارك الأولى، وقبل تقدّم البريطانيين لاحتلال البصرة، وهذا ما لم تكن بريطانيا ترغب فيه؛ لأنّها ستواجه السكّان المحليين والعثمانيين معاً، في الوقت الذي حاولت الظهور ومن خلال بياناتها بأنّها لا تستهدف في حملتها العراقيين<sup>١</sup>.

كانت قوافل المجاهدين العراقيين قد انقسمت إلى ثلاثة أقسام، القسم الأول: كان محور نهر الفرات، والثاني: محور نهدر دجلة، والثالث: ضمن محور الحويّزة، وكان القسم الأول هو الأكثر فاعلية بقيادة السيد محمد سعيد الحويّبي الذي وصل إلى الناصرية في منتصف كانون الثاني ١٩١٥م، وبدأ بزيارة العشائر وتحريضها على المشاركة في الجهاد، فلبّت نداءه من خلال الجموع التي حضرت للانطلاق من الناصرية إلى الشعيبة في ١٩ كانون الثاني، والتي بلغت حوالي ثلاثين ألفاً من المشاة وعشرة آلاف من الخيالة، وأمّا محور نهر دجلة فقد تحرك العلماء باتجاه تحريض العشائر في العمارة وغيرها يتقدّمهم الشيخ مهدي الخالصي ونجلاه الشيخ محمد، والسيد محمد الزيدي نجل المرجع الديني السيد كاظم الزيدي في النجف وآخرون، وكذا الحال مع المحور الثالث وبمشاركة عشائر الأحواز بعد محاولة البريطانيين التقدم باتجاه المحمرة.

بعد احتلال البصرة قامت القوات البريطانيّة بالتقدم شمالاً نحو القرنة الموقع الاستراتيجي المهم، حيث ملتقى نهري دجلة والفرات وإمكانية استفادة البريطانيين من ذلك في التحرك بسهولة، وهناك حدثت المواجهات بينها وبين الجيش العثماني وبمساعدة العشائر العربية، غير أنّ البريطانيين تمكّنوا من الاستيلاء على القرنة في ٩ كانون الأول ١٩١٤م، بعد أن فقد العثمانيون أكثر من

١. التميمي، المصدر السابق، ص ١٧٥.

ألفي جندي من قواتهم<sup>١</sup>، وبعد وصول المزيد من التعزيزات العسكرية للجيش البريطاني من الهند والمناطق الأخرى، بدأ التحرك من القرنة باتجاه الشمال وبمسارين محاذيين لنهري الفرات ودجلة، وعلى النحو التالي:

### ١. جبهة الفرات

كانت المعارك أشد ضراوةً في جبهة الفرات نتيجة لوجود المقاومة الشعبية ومشاركة المجاهدين والعشائر للقوات العثمانية، خاصةً بعد وصول أعداد كبيرة منهم من النجف وبقية المدن الأخرى بقيادة العالم الديني السيد محمد سعيد الحبوبي إلى الناصرية في منتصف كانون الثاني ١٩١٥م، وبعدها إلى سوق الشيوخ، ثم الشعبية التي بدأ التحضير فيها للمعركة مع البريطانيين، حيث حدثت المواجهة العسكرية هناك في معركة (الشعبية) بتاريخ ١٢ - ١٤ نيسان ١٩١٥م، حاول فيها العثمانيون طرد البريطانيين واستعادة مدينة البصرة غير أنهم فشلوا بعد ثلاثة أيام من القتال، وذلك بسبب فارق التسليح والتخطيط بين الجيشين والأخطاء التي وقع فيها القائد سليمان العسكري، فخسر الجيش العثماني ومن معه المعركة وكانت النتيجة انتحار القائد العثماني، وتراجع الجيش إلى الناصرية<sup>٢</sup>.

استمر تقدّم القوات البريطانية على جبهة الفرات، وحدثت مواجهاتٌ أخرى مع الجيش العثماني في (هور الحمار) في ١٩ حزيران ١٩١٥م، تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرةً بالأرواح والمعدات، وفي ٢٥ تموز ١٩١٥م، دخلت القوات البريطانية مدينة الناصرية، وهناك تغيرت الخطط العسكرية البريطانية في

١. طونزند، مذكرات الفريق طونزند، ص ٨.

٢. شكري محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ص ٢٩-٣٠.

عدم الاستمرار بالمسير في مدن ومناطق الفرات الأوسط؛ لأنها أدركت بأن ذلك سيؤدي إلى المزيد من المواجهات مع العشائر والمجاهدين، خاصة مع وجود مدن العتبات المقدسة في النجف و كربلاء التي تمثل مركز النشاط الديني والجهادي ضد البريطانيين، وفضل البريطانيون التحرك من الناصرية باتجاه طريق الشمال الشرقي نحو مناطق الشطرة والغراف والحي للالتقاء بالمحور الآخر الذي كان قد وصل إلى الكوت على نهر دجلة، ومن الجدير بالذكر هنا أن مناطق الفرات الأوسط قد شهدت اختلالات أمنية كبيرة جرّاء خسارة العثمانيين لكثير من المعارك؛ فثار السكّان ضد السلطة العثمانيّة التي كانت تمارس آنذاك التعسف والاستهانة ضدّ السكّان المحليين بذريعة البحث عن الفارين من الخدمة العسكريّة ومن جبهات الحرب بعد الهزيمة في معركة الشعبية، وهذا ما أدّى إلى ثورة شعبيّة في تلك المناطق ضد الإدارة العثمانيّة الموجودة في بعض المدن والمناطق مثل: النجف، و كربلاء، والحلة، وطويريج، فطردت جميع الحاميات العسكريّة والإدارات الحكومية العثمانيّة منها<sup>١</sup>، فاضطرت السلطات العثمانيّة إلى إصدار عفوٍ عامٍّ بهدف تهدئة الأوضاع شريطة عودة السلطة العثمانيّة وإدارتها إلى تلك المناطق وعدم تكرار ما حدث مرة أخرى<sup>٢</sup>.

## ٢. جبهة نهر دجلة

كان تحرك القوات العسكريّة البريطانيّة من القرنة باتجاه (العمارة - علي الغربي - الكوت) سريعاً، وتفاجأ العراقيون بحركة القوات البريطانيّة وعدم قدرة الجيش العثماني على الصمود، إذ سقطت مدينة العمارة بأيدي البريطانيين

١. النفيسي، عبد الله فهد، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، ص ٩١.

٢. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٢٦، السنة السابعة والأربعون.

في ٣ حزيران ١٩١٥م، بعد استسلام أكثر من ألفي جندي من القوات العثمانية للقوات البريطانية، وهذا ما أعطى الثقة للجيش البريطاني في التقدم شمالاً باتجاه الكوت واحتلالها من دون قتال في ٢٩ أيلول ١٩١٥م<sup>١</sup>.

وبعد أسبوعين بدأ البريطانيون بالزحف شمالاً نحو العزيبية التي تقع في منتصف المسافة بين الكوت وبغداد الأمر الذي أحدث صدمة للعراقيين بسبب سرعة تقدم البريطانيين بقيادة الجنرال تاونزند (Townshend)، ففقد الأهالي الثقة بالجيش العثماني، فأخذ سكّان بغداد يتهمون على القوات العسكرية العثمانية وهزائمها المتتالية، وشعروا بالتهديد الجدي والحقيقي من قبل البريطانيين لمدينتهم بعد أن تجاوزوا مدينة العزيبية، ووصلوا إلى المدائن (سلمان باك) التي لا تبعد عن بغداد سوى ٣٠ كيلو متراً، إلى الجنوب الشرقي منها، وهذا يعني إمكانية سرعة تقدم البريطانيين ووصولهم إلى بغداد خلال أيام أو أسابيع<sup>٢</sup>، ومن هنا بدأ التحرك من جديد للدعوة إلى الجهاد من قبل المرجعية الدينية في النجف الأشرف، وتوجيه المجاهدين من المتطوعين للقتال على هذه الجبهة للحيلولة دون تقدّم البريطانيين نحو بغداد، فبدأت الموجه الثانية من الدعوة إلى الجهاد في النجف الأشرف من خلال الحضور الجماهيري الواسع قرب مرقد الإمام علي عليه السلام وإلقاء الكلمات الحماسية فيهم، حيث تم إخراج العلم الشريف كراية للجهاد من أعلى قبة المرقد في يوم ١١ محرم / ١٩ تشرين الثاني ١٩١٥م، وهذا ما ألهب الحضور وتطوعوا للدفاع عن بغداد ومنعها من السقوط بأيدي البريطانيين، وجيء بالعلم الحيدري مع جموع المتطوعين يتقدمهم عدد العلماء إلى

١. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ص ١٦٦-١٦٧.

٢. الوردي، علي، لمات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ص ٢٣٣.

بغداد حيث جرى استقبالٌ كبيرٌ ومراسيمٌ خاصةٌ للعلم ومواكب المتطوعين فيما تحركت الجموع من بغداد باتجاه الكوت بعد وصول الأنباء بهزيمة البريطانيين وانسحابهم إلى الكوت ومحاصرتهم فيها<sup>١</sup>.

كان الجيش العثماني قد استعد للمواجهة المصيرية في منطقة سلمان باك، وبعد وصول القوات البريطانية إلى هناك تمكّن العثمانيون من تحقيق أول نصرٍ مهمٍ عليهم خلال المعارك التي دارت هناك لأربعة أيام ١٠-١٣ تشرين الثاني ١٩١٥ م، خسر فيها البريطانيون أكثر من ألفي قتيل<sup>٢</sup>، وعدّ ذلك أول هزيمة عسكرية للجيش البريطاني في العراق منذ قيام الحرب، حيث انسحبت القوات البريطانية بشكلٍ غير منظمٍ من منطقة المدائن تاركةً خلفها كثيرًا من القتلى والأسلحة والعتاد، فشنت القوات العثمانية وبمعية بعض العشائر والمجاهدين المهجوم المعاكس لملاحقة القوات المنسحبة ولأكثر من ثلاثين كيلو مترا، وكانت لتلك للانتصارات صدى واسع لدى الأوساط الرسمية والشعبية في العراق؛ فأقيمت الاحتفالات في بغداد، وزينت جميع المباني الرسمية والأسواق والمحلات<sup>٣</sup>.

### ٣. حصار الكوت

تمكّنت القوات العثمانية من ملاحقة القوات البريطانية المنسحبة حتى مدينة الكوت التي وصلها الجنرال تاوونزد في ٣ كانون الأول ١٩١٥ م، من أجل اتخاذها كموقع للصمود لحين وصول المزيد من التعزيزات العسكرية البريطانية من جنوب العراق، وقد تمكّنت القوات العثمانية من فرض الحصار العسكري على البريطانيين هناك منذ يوم ٧ كانون الأول ١٩١٥ م، وحاولت القوات

١. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٤٤، السنة الثامنة والأربعون.

٢. المصدر نفسه، العدد ٢٥٤٤، السنة الثامنة والأربعون.

٣. المصدر نفسه، العدد ٢٥٤٧، السنة الثامن والأربعون.

البريطانية الموجودة في جنوب العراق إرسال التعزيزات العسكرية إلى مدينة العمارة ومنها إلى الكوت لغرض إنقاذ المحاصرين غير أن تلك المحاولات باءت بالفشل نتيجة لتصدي القوات العثمانية<sup>١</sup>.

كان حصار القوات العثمانية للجنرال تاوونزد وجنوده شديداً، واعتمد الأخير على ما هو متوفر من مؤن وأغذية داخل المدينة سواء تلك التي كانت مخزنة لدى قواته أم ما قام به من عمليات شراء من الأهالي، ثم مصادرة جميع ما هو متوفر في الأسواق والبيوت<sup>٢</sup>، وفي الوقت ذاته استمرت المحاولات البريطانية لإيصال النجادات والمساعدات للقوات المحاصرة من خلال العديد من المعارك التي حدثت مع الأتراك: (الفلاحية الأولى) في ٢١ كانون الثاني ١٩١٦م، و(الفلاحية الثانية) في ٢٢ شباط، و(سابس) في ٨ آذار، و(الفلاحية الثالثة) ٥-٩ نيسان، إلا أنها جميعاً لم تعيّر من الواقع شيئاً من حيث استمرار حصار القوات العثمانية للقوات البريطانية في الكوت<sup>٣</sup>.

نتيجة لتكبّد البريطانيين الخسائر الكبيرة من المعارك، ونفاذ المواد الغذائية لديهم، والشعور باليأس من إمكانية اختراق القوات العثمانية، بدأ التفكير في استسلام القوات البريطانية، حيث بدأ الجنرال تاوونزد اتصالاته لذلك الغرض بقائد الجيش العثماني خليل بك، حيث جرت عملية الاستسلام في يوم ٢٥ نيسان<sup>٤</sup>، وأقيمت الاحتفالات الكبيرة في مدن العراق بهذه المناسبة، وبعد

١. رسل برادون، حصار الكوت في الحرب بين الإنكليز والأتراك في العراق ١٩١٤-١٩١٨، ١/٢١٨-٢١٩.

٢. طونزند، مذكرات الفريق طونزند، ص ٤١٨-٤١٩، ص ٤٨٩-٤٩٠، ص ٥٢٧.

٣. شكري محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ص ٨٧ وما يليها.

٤. المصدر نفسه، ص ١٠١.

أيام وصل الجنرال تاونزند وثلاثة عشر ألفاً من الجنود البريطانيين الأسرى إلى بغداد<sup>١</sup>.

كانت عملية استسلام القوات البريطانيّة في الكوت بمنزلة انتصارٍ عسكريٍّ كبيرٍ لدى العثمانيين، وتركت صدىً واسعاً لدى كبار رجالات الدولة في إسطنبول. وتعبيراً عن الامتنان من قبل الدولة قام وزير الحربية أنور باشا بزيارة بغداد في ٦ مايس ١٩١٦م، فأقيمت الاحتفالات طيلة أسبوعٍ كاملٍ من مدة مكوثه في بغداد، كما قام الوزير المذكور بزيارة العديد من الأماكن الدينية في الأعظميّة والكاظميّة، وقدم الهدايا إليها وأرسل هدايا أخرى إلى العتبات المقدّسة في النجف و كربلاء<sup>٢</sup>، وفي الوقت ذاته أطلع الوزير على الخطط العسكريّة للجيش العثماني السادس لمرحلة ما بعد الانتصار في الكوت قبل أن يغادر بغداد عائداً إلى العاصمة إسطنبول، ويبدو أنّ الخطة العسكريّة العثمانيّة تركزت على مواجهة التهديد الروسي القادم من إيران الذي بدأ يقترب من الحدود العراقيّة عبر كرمنشاه، بدلاً من مواصلة تعقب الجيش البريطاني المتواجد في جنوب العراق، فتحرّكت القوات العثمانيّة نحو الحدود لمواجهة هذا الخطر الجديد وتوغّلت في الأراضي الإيرانيّة حتى تمكّنت من دخول مدينتي كرمنشاه همدان بعد مواجهاتٍ عسكريّةٍ كبيرةٍ مع الجيش الروسي<sup>٣</sup>.

#### ٤. احتلال بغداد

كان حصار الكوت واستسلام القوات البريطانيّة للعثمانيين صدمةً كبيرةً

١. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٦٦. العدد ٢٥٦٧، السنة الثامنة والأربعون.

٢. المصدر السابق، العدد ٢٥٦٨، السنة الثامنة والأربعون.

٣. العمري، محمد أمين، تاريخ حرب العراق، ٢٣٠\٣.

لبريطانيا ومخططاتها في السيطرة على العراق، وهذا ما أّخر التحركات العسكرية البريطانية باتجاه بغداد بضعة شهور، فيما لم يستفد الأتراك من ذلك الانتصار لمواصلة القتال والزحف باتجاه العمارة والبصرة من أجل استعادتها من الجيش البريطاني، وقد جرى تغيير في القيادة العسكرية البريطانية في العراق بتعيين الجنرال مود (Maude)، القادم من جبهة الدردنيل على رأس القوات العسكرية البريطانية في محور دجلة في ١١ تموز ١٩١٦م، كما أصبحت الحكومة البريطانية هي المسؤولة على تنفيذ السياسات في العراق بدلاً من حكومة الهند، وأعطى الجنرال المذكور مطلق الصلاحيات في إعادة الهيئة والاعتبار لبريطانيا وجيشها بعد الانكسار التاريخي الذي أصابها، فبدأ بدراسة الخطط العسكرية الممكنة للتقدّم من جديد بعد تحركه للمواقع القريبة من مدينة الكوت، وتمكن من الاستيلاء عليها من جديد بعد معارك سريعة مع القوات العثمانية الموجودة هناك، التي اضطرت إلى الانسحاب إلى بغداد في ٢٥ شباط ١٩١٧م، وبعد يومين وبتاريخ ٢٧ شباط ١٩١٧م، صدرت أوامر أخرى من الوالي بسحب جميع المخازن والمؤن والأسلحة من بغداد باتجاه سامراء شمالاً بعد أن وصلت الأنباء بوصول الجيش البريطاني سريعاً إلى العزيزية<sup>١</sup>.

كانت الأجواء في بغداد تنذر بوقوع الاحتلال البريطاني للمدينة، فالموظفون العثمانيون بدأوا بمغادرة المدينة والمستودعات الحكومية أفرغت من جميع ما فيها، وشعر السكّان بقرب وقوع الكارثة فقاموا بتخزين المواد الغذائية التي ارتفعت أسعارها بشكل كبير فيما قام التجّار بنقل ما لديهم في محلات البيع إلى أماكن أكثر أمناً خشية النهب أو السرقة<sup>٢</sup>.

١. المصدر نفسه، ١/ ١٢١.

٢. الوردى، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ج ٤/ ٣٢٤.

اجتمع الوالي خليل باشا بأركان قواته وللمرة الأخيرة في بغداد مساء يوم العاشر من آذار للتباحث بشأن الصمود والقتال في بغداد أم الانسحاب منها، وكان الرأي الغالب هو الانسحاب خشية وقوع الجنود الأتراك تحت وطأة الحصار والاستسلام، وتكرار ما حدث للبريطانيين في الكوت، فتم اتخاذ القرار بالانسحاب الذي بدأ فعلاً في الليلة ذاتها، فلم يبقَ في صباح يوم ١١ آذار أحدٌ من القادة والجنود، فيما تم تفجير ما تبقى من ذخائر وأعتدة، وكذلك الجسر الرابط بين ضفتي نهر دجلة ببغداد بهدف إعاقة حركة البريطانيين ومنعهم من الاستفادة منه، ومع اشتعال النيران في المدينة حدث هياجٌ كبيرٌ في بغداد وهرب السجناء من السجون، وحدث النهب في الأسواق والخانات وبعض الدور والمحلات، ولم تسلم منها أيضاً مقرات الحكومة والدوائر<sup>١</sup>، ودخلت القوات البريطانية بغداد صباح اليوم التالي في ١١ آذار ١٩١٧ م.

#### ٥. احتلال بقية مناطق العراق

بعد احتلال الإنكليز لمدينة بغداد بدأ التحرك العسكري لاستكمال السيطرة لبقية مناطق العراق عبر ثلاثة محاور هي: (محور دجلة شمالاً باتجاه سامراء تكريت - الموصل)، (محور الفرات باتجاه الفلوجة - الرمادي - عانة)، (محور الشمال الشرقي باتجاه ديالى)، فبالنسبة لمحور دجلة كان الأتراك قد انسحبوا إلى سامراء قبل سقوط بغداد بعد أن تركوا بعض القطعات المعيقة لحركة الجيش البريطاني في الطريق، وحدثت معارك شديدة شمال بغداد بالقرب من المشاهدة في ٢٤ آذار ١٩١٧ م، تكبد فيها الطرفان خسائر كبيرة، ثم استأنف الجيش البريطاني الزحف بعد استكمال التعزيزات في المنطقة حتى تمكنوا من السيطرة على منطقة

١. الزبيدي، فخري، بغداد من ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٣٤، ص ٨٠-٨١.

بلد في ٨ نيسان، وسامراء في يوم ٢٤ نيسان، بعد دخولهم في معركة ضارية مع الأتراك.

وفي محور الفرات تقدّمت القوات البريطانية وسيطرت على العديد من المناطق حتى مدينة الرمادي، حيث جرت هناك في يوم ١١ تموز معركة كبيرة مع القوات العثمانية التي كانت قد انسحبت من منطقة الفرات الأوسط، وتعدادها حوالي ألف جندي استطاعوا الصمود بوجه القوات البريطانية التي اضطرت إلى الانسحاب بعد خسارتها حوالي مائة وخمسين قتيلًا عدا من مات بسبب الحر الشديد آنذاك، فيما كان خسائر الأتراك مائة وخمسون فقط<sup>١</sup>، وفي الوقت ذاته وصلت الإمدادات العسكرية العثمانية من حلب إلى الرمادي لتقوية صمود المقاتلين فيها، فيما جهّز الجنرال مود فرقة عسكرية كاملة لاحتلال الرمادي ومنع اتّخاذها قاعدةً للعمليات العسكرية العثمانية في غرب العراق بعد أن كان الأتراك قد صمموا على استعادة بغداد عبر هذا الطريق من خلال تشكيلهم قوات الصاعقة من الجيشين السادس في العراق والسابع في سورية وبخبرات ألمانية، فتمكّنت القوات البريطانية من محاصرة الجيش العثماني في الرمادي وإجباره على الاستسلام في ٢٩ أيلول ١٩١٧م، واستمرّ التقدّم البريطاني نحو بقية المناطق الأخرى بعد خوضها لمعارك عديدة مع القوات التركية القادمة من سورية، حتى تم استكمال سيطرتها عليها بالكامل في آذار ١٩١٨م<sup>٢</sup>.

أما جبهة ديالى التي كانت تتضمن القوات التركية من الفرقة الثالثة عشرة المنسحبة من إيران، والتي كانت قد توغلت في أعقاب الانتصار في معركة الكوت، وبعد ورود أخبار سقوط بغداد عادت إلى العراق وتحديدًا إلى خانقين،

١. العمري، محمد أمين، تاريخ حرب العراق، ٤٨/٣.

٢. شكري محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٥٣-١٥٦، ص ١٥٨-١٦٠.

غير أنّها واجهت القوات البريطانيّة المتقدمة من بغداد والقوات الروسية التي كانت تلاحقها من كرمشاه، وحدثت المواجهة العسكرية بين القوات البريطانيّة والأتراك في ٢٥ آذار ١٩١٧م في المنطقة الواقعة بين شهربان وقزلرباط، تكبّد فيها البريطانيون خسائر كبيرة، فيما كان الروس قد استغلوا ذلك وتمكّنوا من احتلال خانقين في الأول من نيسان، لكن الأتراك استطاعوا العودة إليها في أواخر حزيران بعد طرد القوات الروسية، وظلّوا فيها حتى نهاية شهر آب ١٩١٧م، عندما انسحبوا منها باتجاه العظيم وكركوك بعد وصول القوات البريطانيّة الى خانقين<sup>١</sup>.

ولم يبقَ أمام البريطانيّين سوى التقدّم نحو الموصل لاستكمال السيطرة على العراق بالكامل، حيث طلبت الحكومة البريطانيّة من القائد العسكري البريطاني مارشال الذي كان قد خلف الجنرال مود بعد وفاة الأخير ببغداد في ١٨ تشرين الثاني ١٩١٧م، بالتقدم من أجل السيطرة على الموصل، فنشبت عدة معارك في الطريق إليها خلال المدة ١٨-٢٩ تشرين الثاني، تمكنت خلالها القوات البريطانيّة من الوصول إلى جنوب الموصل عند منطقة (القيارة)، في الوقت الذي كانت تجرى مفاوضات الاستسلام بين الأتراك والحلفاء في جزيرة مودروس حيث تم عقد الهدنة في ٣٠ تشرين الثاني ١٩١٨م، وكان على القوات البريطانيّة إيقاف تقدمها إلا أنّها واصلت زحفها في اليوم التالي لضم مدينة الموصل، وهذا ما تم فعلاً بعد دخول القوات البريطانيّة للمدينة بالرغم من احتجاج الأتراك على ذلك، وبذلك استكملت بريطانيا السيطرة على جميع مناطق العراق، وليبدأ فصلٌ جديدٌ من تاريخ العراق تحت الاحتلال البريطاني.

١. الوردى، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٤/٣٨٩-٣٩٠.

## الاستنتاجات

في ضوء ما تقدّم في هذا الفصل يمكن الإشارة إلى الاستنتاجات الآتية:  
إنّ بريطانيا بدأت الاهتمام الفعلي في مدّ نفوذها إلى العراق منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي، وتحديدًا بعد حرب السنوات السبع في أوروبا، نتيجة لاكتشاف سرعة وصول المعلومات وأهمية الطريق الواصل من خلاله بين الهند والخليج من جهة وأوروبا من جهةٍ أخرى، وازدادت رغبتها في مدّ النفوذ بعد إحكام سيطرتها على الخليج العربي، والذي يمثّل العراق فيه الرأس ونقطة الاتصال مع الدواخل في المشرق العربي والدولة العثمانيّة وإيران، خاصة مع وجود طموحات وتنافس إقليمي ودولي للسيطرة على المنطقة.

تحوّل الاهتمام البريطاني بالعراق خلال القرن التاسع عشر الميلادي من التركيز على الأهمية الاستراتيجية والسياسيّة إلى التغلغل الاقتصادي عبر الملاحة والنقل والتجارة في أنهار العراق، وكذلك المواصلات وخطوط التلغراف، وتبني مشاريع لمّد سكك الحديد تستطيع من خلالها ربط مصالحها الحيوية في الهند والشرق الأقصى بأوروبا من خلالها.

تقاطعت المصالح البريطانيّة في العراق مع الوجود العثماني في العراق، وكذلك رغبات دول أخرى في تثبيت مصالحها الحيوية في المنطقة، خاصة بالنسبة لألمانيا؛ لذا فإنّ البريطانيين منذ مطلع القرن العشرين بدأوا في التفكير ووضع الخطط للسيطرة المباشرة على العراق عبر احتلاله.

كانت الأوضاع المضطربة في العراق تساعد على توجهات البريطانيين لاحتلال العراق؛ بسبب ممارسات السلطات العثمانيّة، وسوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية.

امتدت العمليات العسكرية لاحتلال العراق لمدة أربع سنوات ١٩١٤-١٩١٨م، نتيجة للمقاومة الشعبية للاحتلال، الأمر الذي خالف توقعات البريطانيين في أن تكون الحرب قصيرة نتيجة لضعف العثمانيين. كانت لفتاوى الجهاد الصادرة من قبل المرجعية الدينيّة الشيعيّة الأثر البارز في تحريك المجتمع العراقي لمواجهة الاحتلال البريطاني حتى احتلال بغداد.

## المصادر

### أولاً: المصادر والمراجع

١. إبراهيم خليل أحمد وجعفر عباس حميدي، تاريخ العراق المعاصر، الموصل، ١٩٨٩ م.
٢. أحمد سوسة، ملامح من التاريخ القديم ليهود العراق، الطبعة الثانية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١ م.
٣. أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، بيروت، دار الشروق، ١٩٨٢ م.
٤. ألكسندر أداموف، ولاية البصرة ماضيها وحاضرها، ترجمة: هاشم صالح التكريتي، البصرة، ١٩٨٩ م.
٥. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٧٩ م.
٦. ج.ج. لوريمر، دليل الخليج، ترجمة: مكتب أمير دولة قطر، الدوحة: ١٩٦٧ م، القسم التاريخي الجزء الرابع، القسم الجغرافي الجزء الثالث.
٧. حارث يوسف غنيمية، البروتستانت والإنجيليون في العراق، بغداد، مطبعة الناشر المكتبي، ١٩٩٨ م.
٨. حسين محمد القهواتي، دور البصرة التجاري في الخليج العربي ١٨٦٩-١٩١٤، بغداد، مطبعة الإرشاد، ١٩٨٠ م.
٩. خليل علي مراد، دوافع رحلات الإنكليز إلى الموصل وأطرافها في القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، جامعة الموصل، ١٩٩٧ م.
١٠. رسل برادون، حصار الكوت في الحرب بين الإنكليز والأترراك في العراق ١٩١٤-١٩١٨ م، ترجمة: سليم طه التكريتي وعبد المجيد ياسين التكريتي، بغداد، دار إحياء التراث العرب، ١٩٨٥ م.
١١. ز. ي هرشلاغ، مدخل إلى التاريخ الاقتصادي الحديث للشرق الأوسط، نقله إلى العربية مصطفى الحسيني، بيروت، ١٩٧٣ م.

١٢. سير أرنولد ويلسون، تاريخ الخليج، ترجمة: محمد أمين عبد الله، سلطنة عمان، ١٩٨١ م.
١٣. شكري محمود نديم، حرب العراق ١٩١٤-١٩١٨، الطبعة الرابعة، بغداد، شركة النبراس للنشر والتوزيع، ١٩٦٤ م.
١٤. صالح خضر محمد، الدبلوماسيون البريطانيون في العراق ١٨٣١-١٩١٤ م، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠٠٥ م.
١٥. صالح محمد العابد، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي في الخليج العربي ١٧٩٨-١٨١٠، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٧٩ م.
١٦. طونزند، مذكرات الفريق طونزند، ترجمة: حامد أحمد الورد، ط٢، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٦ م.
١٧. عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية داوود باشا إلى نهاية مدحت باشا، الطبعة الثانية، بغداد، وزارة الثقافة، ٢٠١٣ م.
١٨. ١٨. عبد العزيز عبد الغني إبراهيم، حكومة الهند البريطانية والإدارة في الخليج العربي، الرياض، دار المريخ، ١٩٨١ م.
١٩. عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، بغداد، مطبعة الأهالي، ١٩٣٥ م.
٢٠. عبد الله فهد النفيسي، دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث، بيروت، دار النهار، ١٩٧٣ م.
٢١. العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين إحتلالين، بغداد، مطبعة بغداد، ١٩٥٦ م.
٢٢. علي الورد، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، قم، مطبعة أمير، ١٣٧١ هـ ش.
٢٣. العمري، محمد أمين، تاريخ حرب العراق، بغداد، مطبعة النجاح، ١٩٣٥ م.
٢٤. غانم محمد صالح و خليل فضيل محمد الكبسي، الخليج العربي، بغداد، مطبعة جامعة بغداد، ١٩٨٥ م.
٢٥. فخري الزبيدي، بغداد من ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٣٤، الطبعة الثانية، بغداد: وزارة القافة والإعلام، ٢٠١٣ م.
٢٦. فيليب ويلارد ايرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت، دار الكشاف للنشر والطباعة والتوزيع، ١٩٤٩ م.
٢٧. لؤي يونس بحري، سكة حديد بغداد - برلين دراسة في تطور دبلوماسية قضية سكة حديد

- برلين بغداد حتى عام ١٩١٤، بغداد، شركة الطبع والنشر الأهلية، ١٩٦٧م.
٢٨. المس بيل، العراق في رسائل المس بيل، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٣م.
٢٩. مصطفى النجار وآخرون، تاريخ الخليج العربي الحديث والمعاصر، البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٤م.
٣٠. ن. براي، مغامرت ليجمن في العراق والجزيرة العربية ١٩٠٨-١٩٢٠م، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد، دار واسط ١٩٩٠م.
٣١. الياسري، عبد الشهيد، البطولة في ثورة العشرين، النجف، مطبعة النعمان، ١٩٦٦م.
٣٢. ياسين شهاب شكري، المرجع في تاريخ العراق الحديث، بغداد، بيت الحكمة، ٢٠٢١م.
٣٣. يوسف رزق الله غنيمه، تجارة العراق قديماً وحديثاً، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٩٢م.

### ثانياً: الرسائل والأطاريح

٣٤. حسين كريم علاوي، مدينة بغداد في كتابات الرحالة الأجانب، (رسالة ماجستير)، جامعة الكوفة، كلية الآداب، ٢٠٢٤م.
٣٥. محمد داخل كريم السعدي، المصالح الأجنبية في الموصل ١٨٣٤-١٩١٤، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٩٩م.
٣٦. ياسين شهاب شكري، ولاية بغداد: ١٨٧٢-١٩٠٩م (رسالة ماجستير)، جامعة الموصل، كلية الآداب، ١٩٩٤م.

### ثالثاً: المصادر الأجنبية

37. Baron k Von Kohenfield, The Strategical Importance of The Euphrates Valley Railway, (London: 1873).
38. Mustafa Aksakal ,The Ottoman Empire and the First World War, Cambridge , University Press, 2008 )
39. Stuart Acohen, British policy in Mesopotamia 1903-1914, (London, 1967).
40. William Francis Ainsworth, The Euphrates Valley Railway, (London: 1872).

### رابعاً: البحوث والمقالات

٤١. التكريتي، هاشم صالح، (التغلغل الألماني في المشرق العربي قبيل الحرب العالمية الأولى)، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٢٧، السنة الثانية عشرة، بغداد ١٩٨٦ م.
٤٢. ستيفن لونكريك، (عراق البريطانيين والأتراك خلال ١٩١٥-١٩١٦ م)، ترجمة: سليم طه التكريتي، مجلة آفاق عربية، العدد ٦، شباط، بغداد، ١٩٧٩.
٤٣. العمر، عبد الجبار، (ذيل مطالع السعود أو تاريخ الشاوي)، مجلة آفاق عربية، العدد السادس والسابع، السنة السادسة، بغداد شباط آذار ١٩٨١ م.
٤٤. ياسين شهاب شكري، (العراق ومشروع سكة حديد وادي الفرات دراسة تاريخية في ضوء التقارير البريطانية)، مجلة كلية التربية للبنات / جامعة الكوفة، العدد ٢٤، السنة الثالثة عشرة، ٢٠١٩ م.

### خامساً: الجرائد

٤٥. جريدة الزوراء، العدد ١٢، ٢٣ جمادي الأولى ١٢٨٦ هجرية، ١٩ أغسطس ١٢٨٥ شمسي.
٤٦. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٢٦، ١٦ رمضان المبارك ١٣٣٣، ١٦ تموز ١٣٣١، السنة السابعة والأربعون.
٤٧. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٤٤، ٢٤ محرم الحرام ١٣٣٤، ١٩ تشرين الثاني ١٣٣١، السنة الثامنة والأربعون.
٤٨. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٤٧، ١٦ صفر الخير ١٣٣٤، ١٠ كانون الأول ١٣٣١، السنة الثامن والأربعون.
٤٩. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٦٦، ٢ رجب الفرد ١٣٣٤، ٢١ نيسان ١٣٣٢، السنة الثامنة والأربعون.
٥٠. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٦٧، ٩ رجب الفرد ١٣٣٤، ٢٨ نيسان ١٣٣٢، السنة الثامنة والأربعون.
٥١. جريدة الزوراء، العدد ٢٥٦٨، ٢٣ رجب الفرد ١٣٣٤، ١٢ مايس ١٣٣٢، السنة الثامنة والأربعون.

# أهميّة العراق الإستراتيجيّة للسياسة البريطانيّة

## «قراءة في دوافع وتطوّرات العلاقات البريطانيّة - العراقيّة

### حتّى عهد الانتداب ١٩٢٢م»

د. صباح كريم رباح الفتلاوي<sup>١</sup>

#### الملخّص

إنّ التنافس الاستعماري من أجل الحصول على مناطق نفوذ جديدة بدأ من القرن السابع عشر، وقد عرّض المنطقة العربيّة للسيطرة الأجنبيّة، فالتنافس الفرنسي - الإنكليزي أدّى بالأخيرة إلى احتلال مصر ١٨٨٢م، إلّا أنّ هذا التنافس قد تلاشى ظاهرياً بعد أن وجدت هاتان الدولتان ما يهدّد مصالحها بظهور ألمانيا دولةً قويّة منافسةً لهما، فقد توطّد الوفاق بين الدولتين والذي ظهرت آثاره خلال الحرب الأولى في توزيعات سايكس - بيكو.

وفي الوقت الذي تُعلن فيه الدول الاستعماريّة المتنافسة أهدافها الظاهريّة في تخليص المنطقة من السيطرة العثمانيّة، كما تُعلن أنّها تهدف إلى تطوير المنطقة وإنهائها، نراها في حقيقة الأمر تُخطّط من أجل أهدافها الجوهريّة الرامية إلى خدمة مصالحها الاستعماريّة.

وبعد الحرب الأولى وفي الوقت الذي ركّزت بريطانيا نفسها في مصر بإعلان

---

١ . متخصص في التاريخ المعاصر / جامعة الكوفة - العراق.

الحماية عليها، وتركيزها بالذات في قناة السويس بوصفها القاعدة البريطانية البحرية في منطقة الشرق الأوسط، كانت تحاول في الوقت نفسه إيجاد مناطق أخرى للدفاع الجوي، فالتجته نحو العراق بوصفه موقعاً وسطاً بين مصر والهند. وهكذا تجسّدت المواقف البريطانية بناءً على إستراتيجية واضحة، بدفع من الرأسمال البريطاني التجاري في محاولة لإيجاد أسواق وموارد، كالمواد الأولية مع تصاعد أهمية المنطقة من الناحية الدفاعية والإستراتيجية.

وفي هذه الدراسة سنسلط الأضواء على دوافع وتطورات العلاقات البريطانية العراقية حتى عهد الانتداب ١٩٢٢م، من خلال النظرة البريطانية إلى أهمية العراق الإستراتيجية آنذاك.

تضمّنت الدراسة مقدمة ومبحثين، تناول المبحث الأول بإيجاز علاقة بريطانيا بالعراق وعوامل الاهتمام البريطاني به، بينما تطرّق المبحث الثاني إلى أثر الأوضاع الدولية في علاقات بريطانيا بالعراق وعوامل الاهتمام البريطاني به، وجاءت خاتمة الدراسة بأهمّ الاستنتاجات والخلاصة في تحديد عوامل وتطورات علاقة بريطانيا بالعراق، فيما احتوت قائمة المصادر على جملة من الكتب والوثائق باللغتين العربية والإنكليزية فضلاً عن الكتب المعرّبة.

الكلمات المفتاحية: الاحتلال العثماني، التنافس الاستعماري، المصالح البريطانية، سايكس بيكو.

## المبحث الأول: أثر الأوضاع الدوليّة في علاقات بريطانيا بالعراق

### وعوامل الاهتمام البريطاني به

ارتبط مفهوم العلاقة بين بريطانيا والعراق منذ البدء بالمصالح والأطماع والاستعمار، وكان ذلك مع أوائل القرن السابع عشر، حين كان العراق ثلاث ولاياتٍ تابعة للدولة العثمانيّة (The Ottoman Empire) المترامية الأطراف، ومع مرور الأيام توسّعت وترسّخت هذه العلاقة، حتّى أخذت شكلها الاستعماري بقيام بريطانيا بغزو وادي الرافدين واحتلاله أثناء الحرب العالمية الأولى، ومع النتائج المعروفة التي آلت إليها تلك الحرب، أُسّست دولة العراق المعاصر كدولة واقعة تحت الانتداب البريطاني، بيد أنّ ذلك لم يكن شيئاً عابراً، فقد ترسّخ في العقل الجمعي العراقي، مفهوم الاستعمار المرتبط ببريطانيا، فهي التي احتلت العراق في الحرب العالمية الأولى بعد حربٍ داميةٍ مكلفة استغرقت أربعة أعوامٍ بحجّة التحرير، وهي التي فرضت عليه الاحتلال، وهي التي أسّست الجيش العراقي، ثمّ قامت (بإنشاء) الدولة المعاصرة من الولايات العثمانيّة السابقة (بغداد، البصرة، الموصل)، وفرضت عليه الانتداب ونصّبت عليه ملكاً من الحجاز، ثمّ كبّلتة بالمعاهدات الاستعماريّة، وأنشأت فيه القواعد العسكريّة<sup>١</sup>.

لقد تركت هذه العلاقة المعقّدة بصماتها الواضحة بعمق على الدولة والمجتمع العراقي، فكان بناء العراق المعاصر، والانتقال به من المجتمع المتخلف، يحمل بصمات وطباع وأهداف بريطانيّة، فبريطانيا كانت وراء إنشاء كلّ مؤسّسات الدولة الجديدة، وأصبحت اللغة الإنكليزيّة هي اللغة الثانية في العراق، وكانت هي اللغة الأولى والسائدة في مؤسّساتٍ كثيرة كالتعليم العالي والسكك والموانئ

١. العطية، غسان، العراق... نشأة الدولة (١٩٠٨-١٩٢١م)، ص ١٣٠.

والطيران، وهذا يعني من بين أمور أخرى انعكاس الأنظمة البريطانية على مناح كثيرة من الحياة في العراق مما يتطلب وجود جالية بريطانية كبيرة فيه، لا سيما أنّ كثيراً من مؤسّساته كانت تُدار بصورة مباشرة أو غير مباشرة من الإنكليز كشركات النفط والمصافي، وأنّ الأمر يتطلب وجود المستشارين كما في كلّ الوزارات والجيش والدوائر المهمة الأخرى، الأمر الذي أوجد دوراً مهماً وخطيراً للسفارة البريطانية في بغداد؛ إذ جعلها تتحكّم في كلّ أمور الحياة<sup>١</sup>. ولسعة وتشعب هذه العلاقة، سنقف على أهمّ المحطّات التي تخدم الغرض من هذه الدراسة وبحدود ما يسمح به البحث.

### العراق والسيطرة العثمانية

بعد سلسلة حروب متصلة بين الدولتين العثمانية والصفوية، أصبح العراق جزءاً من الدولة العثمانية وذلك منذ القرن السادس عشر الميلادي، عندما احتلّ السلطان سليم الأول<sup>٢</sup> مدينة بغداد في العام ١٥٣٤م، ومن المعروف أنّ الدولة العثمانية استمرت تبسط سلطانها على المنطقة العربية في قلب الشرق الأوسط ما يقرب من أربعة قرون، لحين زوال تلك السلطة نهائياً من هذه المنطقة في القرن العشرين عند انتهاء الحرب العالمية الأولى، وعلى هذا فإنّ مصير (العراق) ومستقبله كان قد تقرر استناداً إلى علاقات الدولة العثمانية مع الدول الأوروبية،

١. المرجع نفسه، ص ١٣٣-١٣٤.

٢. السلطان سليم الأول: سليم الأول بن بايزيد الثاني، تاسع سلاطين الدولة العثمانية. ولد في مدينة اماسية بالأناضول في ١٤٧٠م، اتّصف بالشجاعة والإقدام، وتولّى مناصب عدّة في عهد والده، وبعد وفاة والده في مايس ١٥١٢م تولّى عرش السلطنة. هزم الجيش الصفوي بقيادة الشاه إسماعيل في معركة جالديران ١٥١٤م وأنهى احتلالهم للعراق، دخل في حروب مع المماليك والبرتغاليين. توفي في ٢٢/ أيلول/ ١٥٢٠م، للمزيد، يُنظر: المحامي، محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٨٦.

لا سيَّما أنَّ التوجهات العثمانيَّة نحو الشرق قد اصطدمت بجدار دولة فارس الصفوية<sup>١</sup>.

كانت ملامح الضعف والتراجع في الدولة العثمانيَّة قد بدأت في الظهور أواخر القرن الثامن عشر، وقد شغل أذهان الساسة في أوروبا التفكير في مصير هذه الدولة ووراثتها أملاكها، ومنذ ذلك الوقت المبكِّر وأثناء القرن التاسع عشر، كانت بريطانيا وروسيا وفرنسا هي الدول الأكثر اهتمامًا بمصير الدولة العثمانيَّة ومصير أملاكها، فبريطانيا رغبت في تأمين طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى والهند خصوصًا، سواء عن طريق قناة السويس والبحر الأحمر أو عن طريق الخليج العربي ونهري دجلة والفرات، أمَّا روسيا فقد أرادت أن تجد لها منفذًا من البحر الأسود إلى البحر المتوسط بالاستيلاء على القسطنطينية ومضائق البسفور والدرديل، فضلًا عن أحلامها في الوصول إلى المياه الدافئة في الخليج العربي<sup>٢</sup>، بينما أخذت فرنسا على عاتقها منذ زمن مبكِّر حماية مصالح رعايا الدولة (المسيحيين في شرق المتوسط)، إنَّ هذه الدول الثلاث كما سنرى فيما بعد هي

١. المرجع نفسه، ص ١٤٤.

٢. أوصى بطرس الأكبر Peter the Great (١٦٨٢-١٧٢٥ م) قيصر روسيا القيصرية الذين جاءوا من بعده بالوصول إلى مياه المحيط الهندي الدافئة، بعد أن استطاع بموجب معاهدة ١٧٢٣ م، مع الدولة العثمانيَّة، السيطرة على الأقاليم الفارسية المجاورة لبحر قزوين. ينظر: نورس، علاء موسى كاظم، العراق في العهد العثماني دراسة في العلاقات السياسية (١٧٠٠-١٨٠٠ م)، (بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٧٩ م)، ص ٩٦؛ ويذكر كرزن أن إنشاء ميناء روسي على الخليج العربي هو حلم الوطنيين المتحمسين من أهل الفولكا (نهر مشهور يمر في موسكو)، لكن هذا الحلم سيكون عنصر اضطراب في الخليج العربي حتَّى في وقت السلم، وسيضرب بتوازن القوى الذي فرضته بريطانيا بعد مجيئ شاق. للمزيد عن الموضوع، يُنظر: Gurson. G. N., Persia and the Persian, London: question 1892, Vol.2, p.49.

الدول التي شاركت في رسم قسمة أملاك العثمانيين، (رجل أوروبا المريض)<sup>١</sup> أثناء الحرب فيما عُرف باتفاقية (سايكس - بيكو)<sup>٢</sup>.

### المسألة الشرقية<sup>٣</sup>

رَكَزَت الدول الأوروبية عند النظر في مصير الدولة العثمانية، على ضرورة المحافظة على توازن القوى، وعدم الإخلال بالتوازن الدولي في أوروبا. ولقد ترتب على محاولة الوصول إلى حلٍّ لمشكلة مصير الدولة العثمانية وأملاكها في القرن التاسع عشر وحتى أوائل القرن العشرين، أن برز ما صار يُعرف باسم (المسألة الشرقية). وانبرى كثيرون لتعريف هذا المصطلح في ضوء المحاولات التي هدفت للتوفيق بين مصالح الدول المتضاربة على حساب الدولة العثمانية<sup>٤</sup>،

١. الرجل المريض: اسم أطلقه قيصر روسيا نيقولاي الأول (Nicholas I) (١٨٢٥-١٨٥٥ م) على الدولة العثمانية سنة ١٨٥٣ م بسبب ضعفها، ودعا بريطانيا إلى أن تشترك معه في اقتسام أملاك الدولة، ثمَّ شاع هذا الاسم بعد ذلك واستعملته الدول الأوربية الأخرى. للمزيد، يُنظر: الصلابي، محمد علي، الدولة العثمانية.. عوامل النهوض وأسباب السقوط، ص ٢٢-٢٤.

٢. اتفاقية سايكس - بيكو (Sykes-Picot Agreement): هي الاتفاقية التي وقعت في ١٦/أيار/١٩١٦ م، بين بريطانيا وفرنسا وانضمت إليها روسيا، وبموجبها حصلت بريطانيا على العراق وفلسطين وحصلت فرنسا على سوريا، أمَّا روسيا فحصلت على ولايات أرضروم وطرابزون وبتليس وجزء كبير من شمالي كردستان يمتد إلى الحدود الفارسية. للمزيد، يُنظر: مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، ص ١٩٠-١٩٢.

٣. المسألة الشرقية: المقصود بها النزاع بين الدول الأوربية الكبرى في المدة من أواخر القرن الثامن عشر حتى انتهاء الدولة العثمانية في ١٩٢٣ م، وتمحور هذا النزاع حول الدولة العثمانية بشأن البلاد الواقعة تحت سلطتها، وبعبارة أخرى هي مسألة وجود الدولة العثمانية نفسها في أوروبا، وقد استخدم مصطلح المسألة الشرقية لأول مرة في مؤتمر فيرنا الذي عقده المحفل الأوربي سنة ١٨٢٢ م. للمزيد، يُنظر: التكريتي، هاشم صالح، المسألة الشرقية.. المرحلة الأولى (١٧٧٤-١٨٥٦ م)، (بغداد، بيت الحكمة، ١٩٩٠ م)، ص ٢١؛ حسين، فاضل وآخرون، التاريخ الأوربي الحديث (١٨١٥-١٨٣٩ م)، ص ٥٢-٥٨.

٤. أنيس، محمد والسيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص ١٩٩.

وكان واضحاً أنّ أكثر اهتمام الدول الأوروبية كان موجّهاً لتقرير الكيفية التي يمكن بها ملء الفراغ الذي ينجم من تقلص الحكم العثماني في أوروبا (البلقان)<sup>١</sup>، بيد أنّ الدول الأوروبية تمكّنت من إيجاد حلٍّ للمسألة الشرقية عن طريق مؤتمر برلين (١٨٧٨م)، إذ استطاعت تصفية القسم الأكبر من هذه المسألة باستقلال دول البلقان<sup>٢</sup>، وهكذا يصح القول إنّهُ أمكن تسوية المسألة الشرقية قبل قيام الحرب العالمية الأولى.

من الواضح أنّ التسوية التي تمّ الاتفاق عليها قد تركّزت في أملاك تركيا في البلقان، ولذلك لم تفقد تركيا من أملاكها العربية سوى ليبيا، إذ بقيت الدولة العثمانية محتفظةً بسطانها الفعلي أو بحقوق سيادتها أو بنفوذها الاسمي على المنطقة العربية في الشرق الأوسط، حتّى قيام الحرب العالمية الأولى<sup>٣</sup>.

تجدّد البحث في مصير الدولة العثمانية وأملاكها التي بقيت لها بعد الحروب السابقة، منذ أن بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، وذلك لانضمام تركيا إلى جانب ألمانيا والنمسا ضدّ دول الوفاق الثلاثي (بريطانيا وفرنسا وروسيا) في هذه الحرب. ولهذا فإنّ كسب الحرب وهزيمة الدولة العثمانية كانا أمرين ضروريين لتحقيق هدف تجريد الدولة العثمانية من أملاكها وإنهاء نفوذها في الشرق الأوسط،

---

١. حرب البلقان: في تشرين الأول من عام ١٩١٢م، اشتعلت الحرب بين دول البلقان المتحالفة (بلغاريا والصرب واليونان) والدولة العثمانية، تمكّنت خلالها دول البلقان من تحقيق انتصاراتٍ سريعة على الدولة العثمانية، واستطاعت الدول الكبرى من خلال مؤتمر لندن أن تضع حدّاً لهذه الحرب في أيار من عام ١٩١٣م، وتحقيق السلام الذي اضطرت الدولة العثمانية بموجبه إلى التخلي عن جزيرة (غاليبولي) التي كانت تحت سيطرتها منذ النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي. للتفاصيل، يُنظر: هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠م)، ص ٤٥٣-٤٥٤.

٢. المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

٣. مجموعة من الأساتذة العراقيين، العراق في التاريخ، ص ٦٣٣.

قبل معالجة موضوع ملء الفراغ الذي نشأ في تلك المنطقة، ويبدو أنه على خلاف ما حدث عند تسوية المسألة الشرقية، لم تشأ دول الوفاق أن يملأ الفراغ المنتظر حدوثه وحدات سياسية ذات كيانٍ مستقلٍّ، كالدول التي أُسِّست في البلقان، بل أرادت إخضاع المنطقة إمَّا لسلطانها الفعلي وإمَّا لنفوذها غير المباشر<sup>١</sup>.

وكانت مسألة التعجيل في هزيمة الأتراك وإخراجهم من الشرق الأوسط هي الشغل الشاغل لدول الوفاق - لا سيَّما بريطانيا -، إذ رأت تلك الدول أنَّ الحلَّ يكمن في تحريض العرب في تلك المنطقة على الأتراك؛ لذلك حرك الإنكليز بوساطة جواسيسهم ورجلهم في المنطقة ومنهم (لورانس)<sup>٢</sup> القبائل العربيَّة في الحجاز لإعلان الثورة، وسعوا لاستمالة الشريف حسين بن علي شريف مكَّة<sup>٣</sup> إلى جانبهم، ومساعدته في إعلان الثورة، بيد أنَّ مطامح الإنكليز كانت ترنو بشغف ورغبة كبيرة إلى منطقة وادي الرافدين<sup>٤</sup>.

أكد السير مكماهون<sup>٥</sup> في رسائل عدَّة بعث بها إلى الشريف حسين، ضرورة

١. المرجع نفسه، ص ٦٣٤.

٢. توماس إدوارد لورنس Thomas Edward Laurence (١٨٨٨-١٩٣٥م): مغامر سياسي بريطاني، عميل في المخابرات التابعة للجيش البريطاني أثناء الحرب العالمية الأولى في مصر، ثمَّ انضم سنة ١٩١٦م إلى القوات العربية المحاربة ضدَّ الدولة العثمانيَّة بقيادة فيصل الأول، ألَّف كتبًا كثيرة، أهمها: أعمدة الحكمة السبعة. يُنظر: الكيالي، عبد الوهاب وكامل زهيري، الموسوعة السياسية، ص ٤٦٣.

٣. الشريف حسين بن علي (شريف مكَّة): هو الحسين بن علي بن مُحَمَّد بن عبد المعين من آل عون، ولد في إستانبول عام ١٨٥٣م، ثمَّ انتقل مع أسرته إلى مكَّة عام ١٨٥٥م عند إسناد منصب الشرافة لجدِّه، وفي عام ١٨٩٣م عيِّن عضوًا في مجلس شورى الدولة، وفي تشرين الثاني ١٩٠٨م عيِّن أميرًا لمكَّة وبقي على شرافتها إلى أن أُجبر على التنازل عن الملكية لابنه الكبير الشريف علي في أيلول ١٩٢٤م، ونُفي إلى جزيرة قبرص في حزيران ١٩٢٥م. توفي في ٤/ حزيران/ ١٩٣١م. للمزيد، يُنظر: جار شلي، إسما عيل حقي أوزون، أمراء مكَّة المكرمة في العهد العثماني، ص ١٨٢-١٨٥.

4. P. Graves, The life of sir Persy Cox, London: 1941, p.182.

٥. سير هنري مكماهون Sir Henry McMahon: ولد في ٢٨/ نوفمبر/ ١٨٦٢م في الهند. الممثل الأعلى

قيام العرب بالثورة ضدَّ الأتراك، ووعدهم بمُساعدتهم في نيل الاستقلال، وجاء في بعضٍ من تلك الرسائل ما يلي: «أمَّا في خصوص ولايتي بغداد والبصرة، فإنَّ العرب تعترف أنَّ مركز بريطانيا العظمى الموطَّدة ومصالحها هناك تستلزم اتخاذ تدابير إدارية، لا سيَّما لوقاية هذه الأقاليم من الاعتداء الأجنبي، وزيادة خير سكَّانها، وحماية مصالحنا الإقتصادية المتبادلة»<sup>١</sup>، وأكَّد السير مكماهون للشريف حسين: «أنَّ حكومة بريطانيا العظمى كما سبقت فأخبرتكم مستعدة لأن تعطي كلَّ الضمانات والمساعدات إلى المملكة العربية، ولكن مصالحها في ولاية بغداد تتطلَّب إدارة ودية ثابتة كما رسمتم، على أنَّ صيانة هذه المصالح كما يجب تستلزم نظرًا أدق وأتمَّ ممَّا تسمح به الحالة الحاضرة والسرعة التي تجري بها هذه المفاوضات»<sup>٢</sup>.

### بريطانيا والاهتمام بالعراق

يرجع تفكير بريطانيا في العراق إلى عهدٍ سابقة طويلة سبقت الحرب العالمية الأولى، فنظرًا لموقعه الجغرافي، ومركزه السوقي، وعلاقته الوثيقة بجنوب إيران وخليج البصرة، فإنَّه من غير الطبيعي أن تغفل عنه دولةٌ استعماريَّة وتجاريَّة كبرى كبريطانيا العظمى<sup>٣</sup>، ولم يكن الاهتمام بسلامة المواصلات الإمبراطوريَّة

الملك بريطانيا في الهند. عميل مديراً في الهند، اشتهر بمراسلاته مع شريف مكة الحسين بن علي بين عامي (١٩١٥-١٩١٦م) خلال الحرب العالمية الأولى. توفي في كانون الثاني من عام ١٩٤٩م في لندن. للمزيد،

يُنظر: The New Britannic Encyclopedia, London: 1973, vol.3, p.993.

١. مذكرة السير مكماهون الثانية إلى الشريف حسين بن علي، القاهرة، ٢٤/ تشرين أول/ ١٩١٥م. مقتبس من: العطية، غسان، العراق نشأة الدولة (١٩٠٨-١٩٢١م)، ص ١٨٢.

٢. مذكرة السير مكماهون الثالثة إلى الشريف حسين بن علي، القاهرة، ١٣/ كانون أول/ ١٩١٥م. مقتبس من: العطية، غسان، العراق نشأة الدولة (١٩٠٨-١٩٢١م)، ص ١٩١.

٣. البزاز، عبد الرحمن، العراق من الاحتلال حتَّى الاستقلال، ص ٤٢.

والمحافظة على طريق الهند (درة التاج البريطاني) الحافز الوحيد للتفكير والاهتمام بأرض ما بين النهرين<sup>١</sup>، إذ كانت هناك أسبابٌ مهمّةٌ أخرى لاهتمام بريطانيا بالعراق، منها:

١. إنَّ موقع العراق الإستراتيجي بين الشرق والغرب، كان عاملاً جوهرياً وأساسياً في توجيه انتباه البريطانيين وتحديد مسارات تغلغلهم ونفوذهم فيه، وإنَّه قلب الشرق الأوسط، وخطورة موقعه هذا تُفسّر جوانب من صراعه الطويل مع قوىٍ أجنبية عديدة<sup>٢</sup>.

إنَّ لكلِّ دولةٍ من عالمنا هذا موقع جغرافي له ميزاته الخاصّة، ولكن هناك دول لعبت موقعها الجغرافي أخطر دور في تاريخها، ومن هذه الدول (العراق)، فهو معبر عالمي بين الشرق والغرب، كما أنَّه قلب العالم الإسلامي، وفي الوقت نفسه يقع على الطرف القصي الشرقي للوطن العربي<sup>٣</sup>. ويقع العراق في موضع يجعله طريقاً عالمياً، وفي الوقت نفسه مُلتقى لطرق العالم كلّها، ولقد كانت هذه القطعة من الأرض تبدو بالنسبة إلى القطعان البشرية الجائعة خلال العصور، كنزاً للكثير من أولئك الذين كان يحركهم الشعر القائل (وطن الإنسان هو المكان الذي يجد رفاهه فيه)، فأين يمكن العثور على منطقةٍ مثل هذه، كبيرة كانت أم صغيرة، قد منحت العالم، أو أخذ منها العالم هذا الشيء الوفير؟<sup>٤</sup>.

وفي ظلِّ اشتداد التنافس الاستعماري الذي شهدته المنطقة في القرن التاسع عشر، تمكّنت بريطانيا من تحقيق الأرجحية في العراق، حتّى غدا يشغل حيزاً كبيراً في تفكيرها الإستراتيجي.

١. المرجع نفسه، ص ٤٣.

٢. ويلسون، آرنولدي، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ترجمة: فؤاد جميل، ١/ (أ).

٣. نوار، عبد العزيز سلمان، المصالح البريطانيّة في أنهار العراق، ص ٣.

٤. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ٧/١.

إنَّ ثلاثة عقودٍ من القرن التاسع عشر (١٨٣٠-١٨٦٠م) كانت خطيرةً جدًّا في تاريخ العراق؛ إذ تميَّزت بتضخم مصالح بريطانيا، وتعدد مشاريعها واستقرار نفوذها في ربوعه، فقد كان الهدف الإستراتيجي البريطاني في تأمين السيطرة على خطوط المواصلات الدوليَّة المؤدِّيَّة إلى الهند، يعني الدفاع عن وجود الإمبراطوريَّة البريطانيَّة التي لا تغيب عنها الشمس، والعراق عظيم الأهميَّة من وجهة نظر الدفاع عن هذه الإمبراطوريَّة وحفظ مواصلاتها<sup>١</sup>.

٢. كان الموقف السياسي في العراق أثناء القرن الثامن عشر، يساعد على تغلغل النفوذ البريطاني، فقد كان المماليك يحكمون العراق منذ العام ١٧٠٤م، وكان هؤلاء رغم تبعيتهم الاسميَّة للسلطان العثماني، ينفردون بالحكم في العراق؛ ولذلك هم في حاجة إلى المساعدة وتأييد دولة كبرى ضدَّ أيِّ محاولةٍ من جانب السلطنة العثمانيَّة لإرجاع نفوذها المباشر في العراق، وفي الوقت نفسه ضدَّ محاولات فارس في بسط نفوذها على العراق، وقد نتج عن ذلك تقارب بين ولاية بغداد والسلطات البريطانيَّة في بومباي، فقد وافق ولاة بغداد على تطبيق قاعدة الامتيازات التي كانت تمنحها الدولة العثمانيَّة للأوروبيين، كما أنَّ بغداد كانت في أشدِّ الحاجة إلى مساعدة بريطانيا لمواجهة الخطر الوهابي الذي ظهر في نجد، جنوب العراق<sup>٢</sup>.

٣. الصراع الدولي، فقد شهدت منطقة الخليج العربي منذ بداية القرن السابع عشر صراعاتٍ دامية بين الدول المتنافسة، فكان الصراع البريطاني البرتغالي، ثمَّ الصدام البريطاني الهولندي، وانتهت الأمور أخيرًا لصالح السيادة البريطانيَّة في

١. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ص ٧.

٢. أنيس، محمد والسيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، ص ١٠٠-١٠٣.

الخليج، ففي أواخر القرن الثامن عشر أصبحت لبريطانيا العظمى الأرجحية تجارياً وسياسياً<sup>١</sup>.

لكن التطور الخطير في سياسة بريطانيا وموقفها ليس تجاه الخليج العربي فحسب، بل تجاه وادي الرافدين ومنطقة الشرق الأوسط حدث مع بداية القرن التاسع عشر، وعند ذلك لم يعد إحراز الأرجحية في نظر بريطانيا مجرد أمر مُجَبَّد أو مرغوب فيه، بل لا بدَّ منه لصيانة مصالحها، وهبتها في هذه البقعة من العالم، ولقد كان العامل الأكبر في حدوث هذا التطور الخطير، ظهور منافس عتيد على مسرح الشرق، ذلك هو نابليون بونابرت<sup>٢</sup> بقيامه بغزو مصر، واتضح خطره على الهند، فكان عصر نابليون هو العصر الذي أسَّس فيه النفوذ البريطاني في الشرق الأوسط بصورةٍ جديدة<sup>٣</sup>.

وكان على العراق أن يتحمَّل المزيد من عبء الصراع الدولي الذي أخذ أبعاداً أكثر تعقيداً وخطورة، لا سيَّما مع التقارب التركي الألماني والأطماع الروسية في فارس والخليج العربي، ومعها دخلت المصالح الإستراتيجية البريطانية في العراق مرحلةً جديدة شَهدت أوجهًا أخرى من التغلغل البريطاني، من خلال العديد من المنافذ والوسائل ومنها: خطوط السكك الحديدية، والمواصلات التلغرافية، ومشاريع التنقيب الآثاري، ومؤسَّسات التبشير، والجاليات البريطانية، وتعدد

١. غازي، علي عفيفي علي، الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، ص ١١-١٦.

٢. نابليون الأول Napoleon Bonaparte: هو قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين (١٧٦٩-١٨٢١م)، خاض معارك عديدة احتل بها نصف أوروبا، وفي النهاية خرج مهزوماً على أيدي بريطانيا وحلفائها، للمزيد، يُنظر: سليمان، علي حيدر، تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة، ص ١٩٩-٢١٦.

٣. صالح، زكي، بريطانيا والعراق حتَّى عام ١٩١٤م، ص ٥٧.

القنصليات، فضلاً عن زيادة عدد الشركات التجارية والملاحية البريطانية. وهذا يعني أنّ أهمية العراق الإستراتيجية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، لم تزد إلاّ قوةً وتأكيداً، بل إنّ العراق أصبح منطقة نفوذ بريطانية فعلاً، لذلك عبّر أحد الإنكليز المهتمين بالسياسة والتاريخ، قائلاً: «لم يكن ليغيب عن بال الجميع في العراق، أنّ مستقبل بريطانيا العظمى في العراق سائرٌ إلى الأهمية لا محالة، وربما ليصبح شيئاً أعظم»<sup>١</sup>.

٤. العامل الاقتصادي، فقد كان العراق مصدرًا مهمًا للموارد الاقتصادية والمواد الأولية التي تغذي الصناعة البريطانية، كما يُعد سوقًا مهمًا لصناعاتها وبضاعتها التي تحتاج إلى أسواق لتصريفها<sup>٢</sup>.

ولقد قامت بعثات الخبراء البريطانيين وفي المقدمة منهم مهندسو الري بإرسال بعثةٍ فنيّةٍ للقيام بمسح مشاريع الري القديمة في العراق، وتحديث التصاميم اللازمة لإحيائها، وإنّ مهمة بعثة الري الفنية هذه التي استمرت زهاء سنتين، تمكّنت من دراسة مختلف نواحي العراق وطبيعة أرضه وتضاريسه، وهي خطوةٌ مهمّةٌ عززت فيها بريطانيا من نفوذها في العراق قبل نشوب الحرب العالميّة الأولى<sup>٣</sup>.

وفضلاً عن النفوذ التجاري والاقتصادي المتزايد فقد سعى البريطانيون في النصف الثاني من القرن التاسع عشر في الكشف عن سُبُلٍ جديدةٍ للتوغل في أرض ما بين النهرين، فأنشؤوا مثلاً دوائر بريد بريطانية هندية في بغداد والبصرة،

١. لونكريك، ستيفنسن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص ٣٣٦.

2. Mohammed A. Tarbush, The Role of the military in politics,.. a case study of Iraq to 1941, Isted, London: 1983, p.31.

٣. نظمي، وميض جمال عمر، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، ص ٤٠٠-٤٠١؛ البزاز، العراق من الاحتلال حتّى الاستقلال، ص ٥٩.

وكذلك كانت طريقاً لأسلاك البرق التي تصل الهند بإنكلترا، التي تربط الأسلاك البرية للخط التركي بأسلاك بحرية تتصل عبر مدينة الفاو، كما وضعوا الخطط اللازمة لإنشاء خط سكة حديدية يمتد من بغداد إلى البصرة؛ لاستخدامها في المواصلات العسكرية والاقتصادية التي تخدم مصالح بريطانيا الحيوية داخل العراق وخارجه من خلال ربطه بالخليج العربي<sup>١</sup>.

إنّ المصالح الاقتصادية كما هي الحال عبر التاريخ، تجلب معها النفوذ السياسي والتدخل الأجنبي، فقد تحول خليج البصرة إلى بحيرة بريطانية هندية، الأمر الذي دفع بـ (اللورد كرزون) نائب الملك في الهند<sup>٢</sup> إلى القول بأن: «العلاقة بين بريطانيا والخليج قد انفصلت عن دفا تر التجارة إلى حقائب الساسة»<sup>٣</sup>.

٥. الحرب العالمية الأولى، فهناك عوامل عدّة ربطت دخول بريطانيا الحرب العالمية الأولى، بالعراق. ومن أبرز تلك العوامل ما يأتي:

أ. إنّ العراق جزءٌ من الدولة العثمانية التي انضمت إلى جانب ألمانيا والنمسا ضدّ دول الوفاق (بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية)، فمن الطبيعي أن تهاجم بريطانيا (العراق) بوصفه من أملاك الدولة العثمانية، فضلاً عن ميراث الموقع والثروات والخصائص الأخرى التي يمتلكها.

١. إبراهيم، عبد الفتاح، على طريق الهند، ص ٧٢؛

Zaki saleh, Mesopotamia (Iraq) (1900- 1914), Baghdad: 1957, Pp.153- 154.

٢. اللورد كيرزن Lord George Curzon (١٨٥٩-١٩٢٥م): سياسي بريطاني معروف، تولّى مناصب إدارية وسياسية عديدة في حكومة الهند البريطانية حتّى أصبح نائباً للملك في الهند بين (١٨٩٩-١٩٠٥م)، ثمّ أصبح عضواً في مجلس اللوردات عام ١٩٠٨م، وظلّ في هذا المنصب حتّى وفاته. لتفاصيل، يُنظر: The New Encyclopedia Britannic، vol.3, London: 1973, p.807.

٣. آيرلاند، فيليب، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٣٧.

ب. النفط: حصلت بريطانيا بوساطة المهندس البريطاني (وليام دارسي)<sup>١</sup> في سنة ١٩٠١م من مظفر الدين شاه<sup>٢</sup> على امتياز التنقيب عن النفط، واستخراجه في منطقة جنوب إيران لمدة ستين سنة، فتشكّلت (شركة النفط الإنكليزية الفارسية)، لتتولّى القيام باستثمار ينابيع النفط في الأراضي الإيرانية<sup>٣</sup>، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى، تبين للجميع أن لا سبيل إلى النصر إلا بتأمين إمدادات النفط، إذ أصبح النفط المحرك الرئيس لماكنة الحرب، بيد أن هناك من كان يعتقد أن الدفاع عن مصالح شركة النفط البريطانية في إيران، هو الباعث إلى حملة العراق، مع أن الحكومة البريطانية كانت تعتقد أن النفط وحده لا يدعو إلى إرسال حملة كحملة العراق، فثمة مصالح أخرى ذات أهمية بالغه وذات جذور تاريخية دعت إلى تلك الحملة، ولكن سرعان ما ازداد الأمر أهمية بعد أن أصبح النفط المُجهّز من حقول عبّادان، العامل الأول في تحقيق أهداف الحرب، الأمر الذي جعل الشركة تُضاعف جهودها، فقد زاد إنتاج شركة النفط الإنكليزية

١. وليام نوكس دارسي William N. Darcy (١٨٤٩-١٩١٧م): مهندس بريطاني هاجر إلى أستراليا، وعمل في مناجم الذهب فجمع ثروة كبيرة، ثم عاد إلى بريطانيا، وفي عام ١٩٠١م حصل على امتياز النفط على سواحل الخليج العربي في إيران، وبعد سنتين على منح الامتياز قام دارسي بتأسيس شركة لاستثمار النفط برأس مال مقداره (٦٠٠) ألف جنيه إسترليني، وحصل دارسي على أرباح كبيرة خلال أعماله في حقول النفط الإيرانية، وقدم بعدها طلباً إلى الحكومة العثمانية للحصول على امتياز النفط العراقي. للتفاصيل، يُنظر: ميكائيل بروكس، النفط والسياسة الخارجية، ص ٤٢؛

S. H. Longrigg, Oil in the Middle East, London: Groom Hel, Mltd., 1968, Pp.17- 36.

٢. مظفر الدين شاه (١٨٥٣-١٩٠٧م): خامس ملوك أسرة آل قاجار، اختاره والده ناصر الدين شاه ولياً للعهد وهو في سن الخامسة من عمره، اتصف بالثقافة والتحدث بأكثر من لغة، كان ضعيف الشخصية مما أدى إلى سيطرة حاشيته على مقاليد الحكم. للتفاصيل، يُنظر: المالكي، لازم لفته ذياب، إيران في عهد مظفر الدين شاه (١٨٩٦-١٩٠٧م)، أطروحة دكتوراه، جامعة البصرة، كلية الآداب، ١٩٧٩م، ص ٣٩-٤٣.

٣. إبراهيم، عبد الفتاح، على طريق الهند، ص ١٧٤.

الفارسيّة من (٢٧٠) ألف طن في عام ١٩١٤م، إلى (٩٠٠) ألف طن في نهاية الحرب<sup>١</sup>.

كانت بريطانيا تنظر إلى ولاية البصرة أثناء تلك الحقبة، بوصفها جزءاً وثيق الصلة بالقسم الجنوبي من إيران والخليج، فكثّفت جهودها لتثبيت مركزها العسكري والسياسي والاقتصادي في البصرة وإيران والخليج، ولقد كانت البصرة وما يُحيط بها ذات أهمية حيوية للإنكليز، أمّا القسم الشمالي (بغداد والموصل) فلم يكن يمثل الأهمية الإستراتيجية للإمبراطورية البريطانيّة، وكان هذا التقسيم واضحاً في أذهان البريطانيين منذ العام ١٨٩٨م، إذ إنّ النصف الجنوبي من العراق يؤلّف جزءاً من الخليج، وهو المنطقة «التي خلقت فيها الدبلوماسية البريطانيّة لمدة قرنين وضعاً فريداً، تتداخل فيه المصالح الإنكليزية والملاحه البحريّة، والطريق الإستراتيجي إلى الهند جميعاً»<sup>٢</sup>.

كتب لويد جورج<sup>٣</sup> رئيس وزراء بريطانيا في أواخر أيلول ١٩١٤م: «أصبح واضحاً أنّ تركيا ستنضم إلى الدول العدو على الأرجح، وهذا الأمر جعل من المهم على الفور اتخاذ خطواتٍ للمحافظة على تجهيز النفط في الخليج والتي كانت مملوكةً لشركة النفط الإنكلو-فارسيّة، كوسيلة لتأمين تجهيزات الوقود النفطي للبحريّة»<sup>٤</sup>.

١. بولارد، ريد، بريطانيا والشرق الأوسط، ص ٩٧.

2. (40)Stephan H. Longrigg, Iraq 1900 to 1950: Apolitical, Social and Economic History, London: Oxford University Press, 1953, p.3

٣. ديفيد لويد جورج David Lioyd-George (١٧/ كانون الثاني/ ١٨٦٣-٢٦/ آذار/ ١٩٤٥م): سياسي بريطاني، عضو في مجلس العموم للمدة من (١٨٩٠-١٩٤٥م)، تولى لأول مرة منصب وزير التجارة سنة ١٩٠٥م، ثمّ وزيراً للخزانة للمدة (١٩٠٨-١٩١٥م)، عُيّن وزيراً للحربية لبضعة أشهر سنة ١٩١٦م، حتّى أصبح رئيساً للوزارة، استقال من رئاسة الوزارة سنة ١٩٢٢م للاختلاف حول الميزانية. للمزيد، يُنظر: The New Encyclopedia Britannica, op. ct., Vol, V1., p.28.

٤. نظمي، وميض جمال عمر، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية)

ومع اندلاع الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م، تحركت قوة عسكرية بريطانية نحو جنوب البصرة، وفي ٦/ تشرين الثاني نزلت في الفاو، ثم تقدمت إلى البصرة فاحتلتها. ويمكن الاستنتاج بأنَّ الهدف البريطاني الأساس لم يكن احتلال كل العراق، بقدر ما كان ضمان المصالح البريطانية في الخليج وجنوب إيران، ولكن فيما بعد وللسهولة التي أحرزتها القوات البريطانية الهندية في احتلال البصرة وانسحاب القوات التركية شمالاً، واستثماراً للفوز الذي حصل، ومع الواقع السياسي الجديد والتحالفات الناشئة، فقد اندفعت القوات البريطانية شمالاً حتى أكملت احتلال العراق مع نهاية الحرب<sup>١</sup>.

وكان من الواضح قبل الحرب العالمية الأولى أنَّ العراق قد أصبح من مناطق النفوذ البريطانية المهمة، فتعمقت مصالح بريطانيا في هذا الجزء من الدولة العثمانية وتشعبت، وكان منها وضع العراق الزراعي وأهميته كمجال حيوي لاستيطان عدد كبير من السكَّان الذين يفيضون عن قابلية الهند، وأيضاً أطماع بريطانيا الإقليمية في العراق ورغبتها في احتلال القسم الجنوبي منه على وجه الخصوص وربطه بالهند؛ ولذلك قامت بريطانيا بعد احتلال البصرة باتخاذ إجراءات على الأرض، لربط الجزء الجنوبي من العراق بنظام حكومة الهند البريطانية، وذلك باعتماد النُظم والقوانين الإدارية الهندية؛ لغرض ضمَّ جنوب العراق للهند تحقيقاً للسياسة التي أنتجتها المدرسة الهندية البريطانية من رجال الاستعمار البريطاني، التي كانت تُهيمن على دائرة نائب الملك في بومباي<sup>٢</sup>؛ لذلك فإنَّ تلك السياسة قد تمَّ تثبيتها تماماً مع بداية الحرب، ففي ٢٨/ تشرين ثاني/ ١٩١٤م كتب ويلسون

في العراق، ص ٤٠١.

١. حميدي، جعفر عباس، تاريخ العراق المعاصر (١٩١٤-١٩٦٨م)، ص ١٦-٢١.

2. Gurson, Op., cit., p.49.

— الذي أصبح وكيل الحاكم البريطاني العام في العراق<sup>١</sup>: «أودَّ أن أُعلن أنَّه من الضروري ضم ما بين النهرين إلى الهند كمستعمرة للهند والهنود، بحيث تقوم حكومة الهند بإدارتها وزراعة سهولها الواسعة بالتدريج، وتوطين أجناس البنجاب المُحاربة فيها»<sup>٢</sup>.

لقد كانت سياسة ويلسون ومشروع ربط العراق بالهند. من أخطر المشاريع الاستعماريَّة البريطانيَّة التي لو حالفها النجاح لغيَّرت مستقبل العراق والمنطقة بالكامل، ومن المعروف والمُسلَّم به أنَّ ثورة ١٩٢٠م في العراق كانت هي العامل الحاسم الذي أطاح بتلك السياسة وذلك المشروع.

١. آرنولد ويلسون Arnold Talbot Wilson (١٨٨٤-١٩٤٠م): عسكري بريطاني، خدم في الهند ثمَّ في الأحواز، وقَدِمَ مع الحملة البريطانيَّة على العراق عام ١٩١٤م، وعيِّن وكيل الحاكم المدني في العراق منذ عام (١٩١٨-١٩٢٠م)، غادر العراق نهائيًّا على إثر قيام انتفاضة ١٩٢٠م والنتائج التي ترتبت عليها. قُتل في معركة جوية خلال الحرب العالمية الثانية في الأول من حزيران عام ١٩٤٠م. للمزيد، يُنظر: Encyclopedia Britannica, Vol.15, p.312.

٢. نظمي، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، ص ٣٩٩.

## المبحث الثاني: مشاريع بريطانيا في الاهتمام بولادة العراق المعاصر

اهتمت بريطانيا بتعزيز طموحاتها في بسط سيطرتها على بلاد وادي الرافدين، من خلال العديد من المشاريع والوسائل، منها:

### مشروع سكة حديد بغداد:

يُعد مشروع سكة حديد بغداد، أحد أهم أسباب اهتمام بريطانيا بالعراق، فضلاً عن كونه أحد أهم الدوافع التي أدت إلى خوض غمار الحرب العالمية الأولى.

كانت بريطانيا تنشئ منذ أوائل القرن التاسع عشر طريقاً سهلاً قصيراً إلى جوهرة إمبراطوريتها يومذاك (الهند)، وفي سنة ١٨٣٧م، أنفقت مالا كثيراً على مسح وادي الفرات لهذه الغاية، وحصلت من تركيا على امتياز مد خط سكة حديد تصل الإسكندرية على البحر المتوسط بالخليج العربي وكان ذلك سنة ١٨٥١م، إلا أن بريطانيا نبذت مشروع الملاحه في الفرات سنة ١٨٧٦م، عندما استطاعت شراء ما قيمته (٤) أربعة ملايين باون من أسهم قناة السويس، ورأت أن الإفاده من القناة أفضل من الاستفادة من مشروع ملاحه وسكة حديد عبر الفرات وواديه<sup>١</sup>، وقبل الحرب العالمية الأولى أخذت ألمانيا تفكر في مشروع سكة حديد تمتد من برلين فاستانبول فبغداد فالبصرة، وهذا شيء أقلق مضاجع السياسة البريطانيين، وهم الذين كانوا يسعون جاهدين إلى الحفاظ على حياد تركيا وإبعاد النفوذ الألماني عنها، فلقد أراد الألمان من وراء سكة حديد برلين البصرة، التقرب من الهند وخلق المتاعب وإثارة القلاقل في أرجاء العالم الإسلامي، لخلخلة كيان الإمبراطورية البريطانية من جهة، وتهديد استثمار النفط، إذ تعمل شركة النفط الإنكليزية الفارسية منذ سنة ١٩٠٦م في جنوب إيران وتمتد أنابيبها ومصافيها

١. حافظ، طالب حسين، النفط والسياسة في العراق، ص ٤٧.

إلى عبّادان على شطّ العرب<sup>١</sup>، هذا فضلاً عن الامتيازات الإقتصادية المُتحققة من مدّ خط السكّة، عن طريق الاستثمار (ومنها النفط) على جانبي امتداد الخط في منطقة بين النهرين.

لقد كان مشروع سكّة حديد بغداد من أشدّ مشكلات الاستعمار التي جابهتها الدول الأوربيّة في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين تعقيداً، ومن أقوى العوامل في سوق هذه الدول للانغمار في أتون الحرب الأولى، وكان أيضاً من أهمّ الدوافع التي جعلت بريطانيا تقرر استعمار العراق، والسيطرة على المنطقة العربيّة لضمان سلامة أقصر طرق المواصلات إلى الهند، وإبعاد التهديد الأوروبي عنها، فقد شكّل هذا المشروع تنافساً استعماريّاً، وصراع قوى بين أهمّ الدول الفاعلة آنذاك على الساحة الأوروبيّة: بريطانيا، وألمانيا، وفرنسا، وروسيا<sup>٢</sup>.

لقد أثّرت في بريطانيا قضية إنشاء الطريق البري للوصول إلى الهند أكثر من أيّ وقتٍ مضى، بعد أن شرع الفرنسيون في فتح قناة السويس، فقد شعرت بريطانيا أنّ إيجاد طريقٍ مختصرة كليّاً لفرنسا للوصول إلى الهند هو أمرٌ في غاية الخطورة بالنسبة لوجودها ومصالحها في تلك المنطقة من العالم، وهكذا أثّرت في بريطانيا مسألة إنشاء الطريق البري نحو الهند، على أساس إقامته كمنافسٍ وبديلٍ بريطانيٍّ لقناة السويس، بمدّ سكّة حديد من السويداء على خليج الإسكندرية حتّى قلعة جابر في أعالي الفرات، وكان الأمر معقوداً أن تكون هذه السكّة حلقة وصل بين البحر المتوسط والطُّرق النهرية في الفرات، وفي الوقت نفسه إمكانيّة مد السكّة المذكورة نحو بغداد ومنها إلى البصرة<sup>٣</sup>.

١. ويلسون، آرنولدي، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ص ١١.

٢. حافظ، طالب حسين، النفط والسياسة في العراق، ص ٤٧.

٣. بحري، لؤي، سكّة حديد بغداد، ص ١٠-١٢.

وضمن تقرير اللجنة التي شكّلتها الحكومة البريطانية في مجلس العموم البريطاني برئاسة السير نورثكوت لدراسة المشروع، وردت النقاط المهمة الآتية<sup>١</sup>:  
أولاً: إنّ قضية موضوع بناء سكة حديد وادي الرافدين كما أسمتها اللجنة (TRANS MESOPOTMIAN RAIL WAY) هو أمرٌ في غاية الضرورة لبريطانيا ومصالحها الحيوية في المنطقة، وهو من الناحية الأخرى يؤمن سرعة نقل البريد نحو الهند والخليج، وله مزايا وفوائد اقتصادية مهمة لبريطانيا.  
ثانياً: إنّ من الممكن استعمال السكة للأغراض الحربية الخاصة بنقل القطعات والأسلحة والمؤن نحو الهند، ويمكن عدّها حاجزاً لإيقاف أي توسع روسي تجاه الخليج<sup>٢</sup>.  
وبما أنّ المشروع كان موضوعاً للمنافسة والصراع الاستعماري، فقد تقدمت روسيا القيصرية بعرضٍ لمدّ سكة حديد من طرابلس على البحر المتوسط إلى الكويت على الخليج العربي عبر الصحراء، على أن يُربط بالعراق بواسطة طريق فرعي يمتد نحو كربلاء<sup>٣</sup>. كما أنّ فرنسا تبنت أيضاً إنشاء مشروع سكة حديد بغداد، الأمر الذي رأت فيه بريطانيا تهديداً مباشراً لمصالحها، فإنّ ذلك إلى جانب حصّة فرنسا الواسعة في قناة السويس يعني سيطرتها على الطريق البري نحو الهند، الأمر الذي يُشكّل تهديداً مباشراً لمصالح وسياسة بريطانيا في الشرق الأوسط والهند<sup>٤</sup>. ولأسبابٍ عدّة لم تلقَ كلّ تلك المشاريع موافقة السلطان العثماني<sup>٥</sup>.

١. حسين، علي ناصر، تاريخ السكك الحديدية في العراق (١٩١٤-١٩٤٥م)، ص ٢١؛

E. M. Earle, Turkey The Greet Power and The Baghdad Railway, A study in Imperialism, New York: 1966, p.135.

2. Zaki Saleh, Op. cit., p.154.

٣. حسين، علي ناصر، تاريخ السكك الحديدية في العراق (١٩١٤-١٩٤٥م)، ص ٢٢؛ Earle, Ibid., p.135.

٤. المصدر نفسه.

٥. بحري، لؤي، سكة حديد بغداد، ص ٢١.

وفي الجانب الألماني كان استلام القيصر وليام الثاني<sup>١</sup> الحكم عام ١٨٨٨ م قد شكّل تغييرًا جذريًا إزاء سياسة التحفظ الألمانية حيال الإمبراطورية العثمانيّة، تحت تأثير حاجة الاقتصاد الألماني لإيجاد أسواق جديدة في الشرق، ودخول ألمانيا مُعترك التنافس التجاري والسياسي مع الدول الرأسمالية الكبرى، إذ كان القيصر الألماني يُجَبِّد فكرة التوسّع الألماني في الدولة العثمانيّة، ويرى في الأمر تقويةً للمراكز الألمانية في آسيا كلّها<sup>٢</sup>.

وفي سنة ١٨٩٨ م قام القيصر وليام الثاني برحلةٍ إلى بيت المقدس في فلسطين عَبَرَ إسطنبول، وكان لهذه الرحلة تأثيرٌ عميقٌ في نفس السلطان عبد الحميد<sup>٣</sup>، إذ كان الرأي العام الأوروبي ناقمًا عليه نعمةً شديدةً من جراء مذابح الأرمن<sup>٤</sup> التي وقعت حوادثها قُبيل هذه الرحلة، على أنّ المنافع الاقتصادية كانت هي الأصل

١. ويليام الثاني William II (١٨٥٩-١٩٤١ م): ملك بروسيا وإمبراطور ألمانيا، والدته ابنة الملكة فيكتوريا ملكة بريطانيا، سعى إلى تبني سياسة النهج الجديد التي أكّدت حق ألمانيا في زعامة العالم، تلك السياسة التي أثارت البريطانيين ضده، كان يُعاني من عقدة الشعور بالنقص بسبب عوق في يده اليسرى، وفي تشرين الثاني من عام ١٩١٨ م تنازل عن العرش بعد أن انهزمت ألمانيا في الحرب، وتُفي خارج ألمانيا، وعاش في المنفى حتى وفاته في عام ١٩٤١ م. آلان بالمر، موسوعة التاريخ الحديث (١٧٨٩-١٩٤٥ م)، ٣٩١-٣٩٢؛ Encyclopedia Americana, New York: 1968, Vol.28, p.779; Paul Kennedy Randon, The Rise and Fall of the Great Powers, U.S.A: 1987, p.25.

٢. بحري، لؤي أسكّة حديد بغداد، ص ٢٢.

٣. السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٤٢-١٩١٨ م): سلطان عثماني، حكم من (١٨٧٦-١٩٠٩ م)، كان عهده طافحًا بالحروب، حكم البلاد حكمًا استبداديًا قاسيًا، أُكره على منح دستور للبلاد عام ١٩٠٨ م، وفي عام ١٩٠٩ م أجبرته حركة تركيا الفتاة على التنحي عن الحكم. وتوفي عام ١٩١٨ م. يُنظر: علي، أورهان محمد، السلطان عبد الحميد الثاني وأحداث عصره، ص ١-٣٧؛ والدي، عائشة عثمان أوغلي، السلطان عبد الحميد، ص ١١-٤٨.

٤. مرت القضية الأرمنية بثلاث مراحل تاريخية: حقبة السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩ م)، والاتحاديين الطورانيين (١٩٠٩-١٩١٩ م)، وحقبة تركيا الكمالية (١٩١٩-١٩٢٣ م). للمزيد عن القضية الأرمنية، يُنظر: اليافي، نعيم وخلييل موسى، نضال العرب والأرمن ضدّ الاستعمار العثماني، ص ٢١.

في هذه الرحلة كما يتبين من مذكرة الفون بولو وزير الخارجية الألماني، التي نوه فيها بالمنافع التي عادت بها الرحلة، فقال: «... ومما يجب أن ننوه به هنا ذكر تصميم إيصال سكة حديد الأناضول ببغداد، وهو ما نأمل أن نُحقق به إكمال الفتح الاقتصادي في آسيا الصغرى<sup>١</sup>».

ونتيجةً لهذا التقارب الألماني التركي، فاز الألمان في ٢٧/ تشرين الثاني/ ١٨٩٩م باستحصال موافقة السلطان العثماني المبدئية على منح البنك الألماني امتياز إنشاء سكة حديد تمتد من قونية إلى بغداد فالخليج، وبعد مرور ثلاث سنوات صدرت الإرادة السلطانية بمنح الامتياز نهائياً إلى الألمان في العام ١٩٠٢م، وكانت الشركة الألمانية قد أكملت أثناء هذه المدة أعمال المسح ووضع الخرائط<sup>٢</sup>.

أعطى الامتياز النهائي لسكة حديد بغداد في ٥/ آذار/ ١٩٠٢م، ونصّ الامتياز على موادّ عدّة، يمكن إجمال أهمّها في ما يلي:

١. الحقّ لشركة سكة حديد الأناضول بتمديد الخط من قونية إلى بغداد والبصرة، عبّر أو عند أقرب نقطة من قونية ونصيبين والموصل وتكريت وبغداد وكربلاء والنجف والزبير، مع إقامة فروع للخطّ إلى مناطق عدّة، أهمّها حلب وخنقين ونقطة على الخليج العربي يتفق بشأنها فيما بعد بين الحكومة التركية وأصحاب الامتياز. والملاحظ أنّ نصّ الامتياز لم يُشر صراحةً إلى اسم الموقع الذي تمّ الاتفاق عليه في الخليج العربي لتشديد فرع السكة إليه من الزبير، غير أنّه من المعروف عموماً أنّ الكويت كانت هي تلك النقطة المقترحة كي تكون نهاية سكة حديد بغداد.

١. إبراهيم، عبد الفتاح، على طريق الهند، ص ١٠٢.

٢. المرجع نفسه، ص ١١٣-١١٥.

٢. حدّدت مدة الامتياز بتسعة وتسعين عاماً.

٣. أعطيت الشركة الحق في استغلال كُّل المناجم التي يُعثر عليها لمسافة عشرين كيلو متراً من جانبي الخط<sup>١</sup>.

لقد كانت إحدى النتائج المهمة التي أدت إليها زيارة القيصر الألماني إلى تركيا والأراضي المقدسة، أن عَجَلت بريطانيا بالسعي للقيام بعددٍ من الإجراءات الهادفة إلى حماية خطوط مواصلاتها نحو الهند، إزاء تقدم ألماني مُحتمل في منطقة وادي الرافدين عن طريق تنفيذ سكّة حديد بغداد، وقام اللورد كرزون نائب ملك بريطانيا في الهند باستمالة الشيخ مبارك شيخ الكويت<sup>٢</sup>، لعقد معاهدة حماية سرية بين بريطانيا والكويت في حزيران ١٨٩٩ م، وفرضت المعاهدة المذكورة على شيخ الكويت عدم قبول أي ممثل لدولة أجنبية في إمارته دون الحصول على موافقة مُسبقة من الحكومة البريطانية، كما منعه من رهن أيّ جزءٍ من أراضيه أو بيعه أو إيجاره دون الحصول على تلك الموافقة نفسها<sup>٣</sup>.

امتازت الحِقبة التي أعقبت إعطاء امتياز سكّة حديد بغداد عام ١٩٠٢ م وحتى إعلان الحرب العالمية الأولى بكونها حقبة المفاوضات والمناورات السياسيّة العنيفة بين الدول الأوروبيّة الكبرى لأجل التوصل إلى المساهمة أو منع مساهمة الآخرين في مشروع السكّة. لقد كادت تلك المفاوضات والمناورات التي كانت

١. بحري، لؤي، سكة حديد بغداد، ص ٦٩-٧١.

٢. مبارك الصباح: الشيخ مبارك بن صباح الصباح، حاكم الكويت السابع والمؤسس الحقيقي لها، ولد عام ١٨٣٧ م في الكويت، تولى الحكم في ١٧/مايس/١٨٩٦ م بعد أن قتل أخويه محمد وجراح، لُقّب بمبارك الكبير، ازدهرت الكويت في عهده تجارياً، وشيّد فيها أول المدارس النظامية والمستشفيات. توفي في ٢٨/نوفمبر/١٩١٥ م. للمزيد، يُنظر: براى، ن.، مغامرات لجمن في العراق والجزيرة العربية، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، (بغداد، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠ م)، ص ٤٢.

٣. بحري، لؤي، سكة حديد بغداد، ص ٥١-٥٢.

تسير صعودًا ونزولًا أن تعطي نتائج قائمة على أساس تفاهم الأطراف المعنية لولا قيام الحرب العالمية الأولى. ولقد عدت المشكلات الدولية المتعلقة بسكة حديد بغداد من العناصر الرئيسة للخلافات الأوروبية التي سبقت قيام الحرب العالمية الأولى<sup>١</sup>.

على أن كلاً من بريطانيا وفرنسا وروسيا التي لها أطماعها ومصالحها في تلك المناطق، لم تنظر إلى المشروع بعين الرضا والقبول عندما شرع الألمان في مدّ السكة، فبريطانيا مثلاً اشترطت وفق اتفاقية ١٥ / حزيران / ١٩١٤ م مع ألمانيا، على أن تكون البصرة نهايةً للسكة مهما كانت الظروف، وكذلك عدم القيام ببناء ميناء أو محطة للسكك الحديدية على الخليج العربي، على أن الدبلوماسية الألمانية لم تأل جهداً في محاولة إنهاء معارضة الدول الكبرى لمشروع السكة ووضع حدّ لتلك المعارضة، ولكنها لم تتمتع بمتسع من الوقت لجنّي ثمار جهدها الدبلوماسية وتحقيق حلمها بربط برلين ببغداد، ينقل الوجود الألماني إلى أبواب الهند والشرق، فما أن كادت تصل إلى الاتفاق مع أكبر منافسيها وهي بريطانيا حتى اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى.

وبقيام الحرب العالمية الأولى إنهار مشروع سكة حديد بغداد الذي تمتّ المباشرة به تواء، وتحولت الأنظار الأوروبية واهتمامها نحو الصراع الحربي الدائر<sup>٢</sup>.

### الملاححة النهريّة في العراق

كان القرن السادس عشر قرن الانطلاق عبر المحيطات للاستكشافات والاستعمار، وتزعمت هذه الحركة الكبرى كل من إسبانيا والبرتغال، فكانت

١. م. ن، ص ٥٢.

٢. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، 65-1/59.

الضربة التي وجَّهتها البرتغال للتجارة العربيَّة في مياه المُحيط الهندي والخليج العربي حاسمةً ومروعة، وفشلت مجهودات ممالك مصر ثمَّ سلاطين الدولة العثمانيَّة في إعادة السيطرة الإسلاميَّة على المياه الجنوبيَّة.

وكانت إنكلترا في القرن السادس عشر تسعى إلى الحصول على شيءٍ من ثروات التجارة البحريَّة، فقد كان الأسطول الإسباني البرتغالي حتَّى الثلث الثاني من القرن السادس عشر هو المتحكم في البحار والمُحيطات، لكن البحرية البريطانيَّة استطاعت أن تكسر قوة ذلك الأسطول في عام ١٥٨٨م عندما انتصرت على الأرمادا الإسبانيَّة (Spanish Armada The)، وبذلك أصبحت الطُّرق البحرية إلى المُحيط الهندي مفتوحةً أمام السفن البريطانيَّة، إذ أسَّست شركة الهند الشرقيَّة البريطانيَّة<sup>١</sup> في عام ١٦٠٠م، وبعد أن تمَّ طرد البرتغاليين من هرمز في العام ١٦٢٢م، انفتح الخليج العربي أمام السفن الإنكليزيَّة الذاهبة إلى البصرة، وبذلك أصبحت البصرة واحدةً من أهمِّ مراكز التبادل التجاري مع شركة الهند الشرقيَّة<sup>٢</sup>.

ونظرًا لاتساع نطاق العلاقات السياسيَّة والاقتصاديَّة بين بريطانيا والدولة العثمانيَّة، فقد دارت مفاوضات بين الدولتين، انتهت بعقد معاهدة ١٦٧٥م التي وضعت أسس امتيازات المصالح البريطانيَّة في العراق وتوطيدها بصفةٍ عامة وفي

١. شركة الهند الشرقيَّة الإنكليزيَّة The English East India Company: شركة تجارية أُسِّست للمتاجرة مع الشرق في ٣١/ كانون الأول/ ١٦٠٠م، وكان هدفها استيراد البضائع الشرقية مقابل تصدير البضائع الإنكليزية. للاستزادة عن شركة الهند الشرقية، يُنظر: محمد أمين، عبد الأمير، «التنافس بين الشركات التجارية الإنكليزية في منطقة الخليج العربي والأقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر»، Bennett, Thomas Jewell, «the past and Present Connection of England with the PERSIAN Gulf», «Journal of the Society of Arts, London: June, 13, 1902, Pp.634- 652.

٢. نوَّار، عبد العزيز سلمان، المصالح البريطانيَّة في أنهار العراق، ص ٢٣-٢٤.

نهرى دجلة والفرات بصفة خاصة، فقد تضمّنت معاهدة عام ١٦٧٥ م امتيازاتٍ عدّة فيما يخص الملاحه النهريّة<sup>١</sup>.

لقد تظافرت عوامل عدّة وراء اهتمام بريطانيا بالملاحه النهريّة في العراق، ومن بين أهمّ تلك العوامل:

١. كان أمر حماية الهند وتقريب المسافة بينها وبين لندن، من أهمّ الدوافع في اهتمام إنكلترا بوادي الرافدين، فقد قام الإنكليز بمحاولاتٍ كثيرة لتمهيد طرق الملاحه في الفرات ومدّ السكك الحديدية بين البحر المتوسط وسواحل الخليج.

٢. قيام نابليون بونابرت بغزو مصر.

٣. الخوف من نشوء دولة قوية في مصر تقف في وجه الأطماع البريطانيّة، ولذلك فقد قاومت بريطانيا مُحمّد علي باشا<sup>٢</sup> لما أراد أن يوحد سورية ومصر ويؤسّس دولة حديثة قد تمتدّ إلى العراق وتوحد منطقة الشرق العربي.

٤. المباشرة بإنشاء قناة السويس تحت رعاية فرنسية.

٥. مقاومة توسع النفوذ الروسي في الدولة العثمانيّة وأطماعها في الخليج، فإذا قبضت روسيا على الفرات سهل اجتياح سوريا والساحل الشرقي للبحر

---

١. تضمّنت المعاهدة ما يلي: حق مجيء الإنكليز إلى أراضي السلطان العثماني للتجارة بسفنهم الكبيرة والصغيرة والمتوسطة، وأن يقوموا بالشراء والبيع. أن تُعامل إنكلترا معاملة الدولة الأكثر رعاية. للمزيد، يُنظر:

J. Hurewit, Diplomacy in the Near and Middle East, London: 1958, Vol.I. Pp.25- 32.

٢. محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩ م): ضابط عثماني ألباني الأصل، ولد في مدينة قولة الألبانية، جاء مع الفرقة الألبانية التي أرسلتها الحكومة العثمانيّة بهدف إخراج الغزاة الفرنسيين الذين سيطروا على مصر عام ١٧٩٨ م، وبسبب ذكاء هذا الضابط وبمساعدة الظروف له استطاع أن يكون والياً على مصر وأن يُبني مركزه، وكان الشخصية الأكثر شهرة في تاريخ مصر، إلا أن الدول الأوربية وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا أوقفت طموحاته في معاهدة لندن عام ١٨٤٠ م. توفي عام ١٨٤٩. للمزيد، يُنظر: شبارو، عصام محمد، المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني، ص ١٠٠-١٠٢.

المتوسط وآسيا الصغرى<sup>١</sup>.

لقد تداخلت أهمية الملاحية في وادي الفرات مع سكة الحديد، إذ إنه مهما يكن لقناة السويس من الأهمية لأوروبا، فإنه يمكن غلقها بسهولة، وإنها بمنزلة ثانوية لسكة حديد وادي الفرات التي يمكن أن توفر الميزات الآتية:

١. إنها تُهيئ السبيل لمنع روسيا من التقدم في آسيا الصغرى.

٢. إن المشروع يربط البحر المتوسط بالخليج، ولذلك أهمية كبرى من الوجهتين السياسية والتجارية.

٣. إنه يقصر المسافة بين الهند وإنكلترا ألف ميل، ويُقلل المدة اللازمة لقطعها من عشرين يوماً إلى عشرة أيام.

٤. سيضعف من قوة إنكلترا الحربية، ويجعل آسيا الصغرى وسوريا والعراق وإيران مناطق نفوذ لها، كما أن سيطرة إنكلترا عليه أمر متيسر إذ يسيطر أسطولها على طرفيه في البحر المتوسط والخليج<sup>٢</sup>.

وابتداءً من سنة ١٧٢٨ م أصبح للإنكليز قوارب في نهر دجلة تُبحر بين بغداد والبصرة، وتطور النشاط البريطاني خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فقد بدأ الإنكليز باستخدام قوتهم البحرية ضد هجمات العشائر، وضد حكام العراق إذا ما اتخذوا موقفاً معادياً للأطباع البريطانية، وضد إيران إذا تعرضت المصالح البريطانية في البصرة للخطر<sup>٣</sup>، وفي أعقاب نزول الحملة الفرنسية إلى السواحل المصرية في العام ١٧٩٨ م، تم إرسال سفينة حربية بريطانية لحماية المقيمة البريطانية في بغداد، واستمرت هذه السفينة مع جنودها مُرابطة في بغداد

١. حافظ، طالب حسين، النفط والسياسة في العراق، ص ٥٣.

2. Sir A. T. Wilson, Loyalties, Mesopotamia (1914- 1917) , London: 1930, p.102.

٣. صالح، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤ م، ص ٢٨.

رغم فشل الحملة الفرنسية وانسحابها من مصر، وقد كانت المدة التي حكم فيها علي رضا<sup>١</sup> قائداً للجيش العثماني الذي بعثه السلطان محمود الثاني<sup>٢</sup>، ليضع نهايةً لحكم المماليك في العراق والتي امتدت من (١٨٣١-١٨٤١ م)، هي الحقبة التي وضع فيها الإنكليز أسس حقوقهم في المياه العراقية، بعد أن قام خبراءهم وابتداءً من سنة ١٨٣٠ م بدراسة نهري دجلة والفرات ومسحهما<sup>٣</sup>.  
لقد تكللت أعمال المسح النهري بتأسيس شركة ملاحية غالباً ما تُعرف بشركة (بيت لنج)<sup>٤</sup>، وتُعرف رسمياً بـ (شركة الملاحية البخارية في دجلة والفرات) التي أُسست في سنة ١٨٦٠ م، والتي كانت تُسيّر باخرتين تجاريتين في دجلة، لقد اتسع نطاق أعمال الشركة وتعاظمت أهميتها أثناء الربع الأخير من القرن التاسع عشر نظراً لزيادة النفوذ البريطاني، إذ إنَّ الشركة اعتمدت أثناء الحقبة التي سبقت الحرب العالمية الأولى على حماية الحكومة البريطانية.  
حظيت أعمال شركة لنج بأعلى اهتمام من قبل الحكومة البريطانية؛ لأنَّ

١. علي رضا: ولد في طرابزون الواقعة على البحر الأسود عام ١٧٧٩ م، اتصف بالشدة ضدَّ المماليك حيث ذبح منهم نحو مائتي مملوك ومن بينهم ابن داوود باشا، إلاَّ أنَّه أحسن معاملة داوود باشا، إذ حافظ على حياته وجعله يرحل إلى إسطنبول بسلام. كما اتصف بميله إلى الطرق الصوفية، ومنها البكتاشية. توفي في إسطنبول عام ١٨٤٦ م. للمزيد، يُنظر: العزاوي، عباس، تاريخ العراق بين احتلالين ١٩٧٧؛ همسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ص ٣٢٢.

٢. محمود الثاني (١٧٨٤-١٨٩٣ م): سلطان عثماني من (١٨٠٨-١٨٣٩ م)، أُجلس على العرش بعد خلع أخيه مصطفى، تابع ما بدأه السلطان سليم الثالث من إصلاحات، استمرت في عهده الحرب الروسية - العثمانية (١٨٠٦-١٨١٢ م) والتي فقدت فيها السلطنة بساريبا، وعوضتها باسترجاع صربيا سنة ١٨١٣ م، قضى على ثورة اليونان بمساعدة محمد علي باشا، وقد غزا في عهده محمد علي فلسطين وسوريا والأناضول (١٨٣٣-١٨٣٩ م). للمزيد، يُنظر: غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، ص ١٦٣٣.

٣. المرجع نفسه، ص ٣٣.

٤. تحولت مؤسَّسة (لينش) إلى شركةٍ للملاحية البخارية في أنهار العراق عام ١٨٦١ م، تحت مُسمَّى (شركة السادة لينش للملاحية البخارية في نهري دجلة والفرات) Messrs Lynch of the Euphrates and Tigris steam Navigation Company، وظلَّت قائمةً حتَّى تمَّت تصفيتها عام ١٩٥١ م. للمزيد، يُنظر: نوار، عبد العزيز سلمان، المصالح البريطانية في أنهار العراق، ص ٣٩٨.

المصالح السياسية تتطلب توطيد المصالح التجارية، فهذا لويد جورج رئيس الوزراء البريطاني يكتب في ١٨ / كانون أول / ١٩٠٦ م، قائلاً: «إن من الحكمة، جراء كون نهر دجلة هو أحد خطوط المواصلات المهمة إلى الخليج الفارسي والهند، أن نحذر لئلا يخرج النهر من قبضتنا، ثم إن مركزنا الممتاز في النهر يغدو الآن أكثر قيمةً جراء اقتراب سكة حديد بغداد، وجراء احتمال أن تكون الملاحة هي وسيلة النقل الوحيدة ورأس السكة في بغداد والبصرة»<sup>١</sup>، وقد منحت الحكومة التركية، تحت الضغط البريطاني المستمر، الإذن المطلوب لشركة لنج في العام ١٩٠٧ م لتشغيل باخرة ثالثة في دجلة<sup>٢</sup>.

### ولادة العراق المعاصر

رأينا من خلال ما سبق أن السياسة البريطانية في الشرق الأوسط، قد اهدت تقليدياً بالضرورة السياسية والنزعة النفعية، وكانت كل من فرنسا وروسيا القيصرية وألمانيا تُحيط بالمصالح البريطانية، لاسيما منذ مغامرة نابليون في مصر. لقد حثّ الوهن السياسي والاجتماعي والاقتصادي للرجل المريض (الدولة العثمانية) على التنافس بين القوى العظمى، كما مهّد ذهاب تركيا إلى المعسكر الألماني، والحاجة إلى الإبقاء على روسيا حليفةً لبريطانيا في أي حربٍ أوروبية، مهّد إلى ابتعاد السياسة البريطانية عن نهجها المُعلن في الحفاظ على إعلان وحدة تركيا، فقد ألزمت الحرب بريطانيا باتباع سياسة تفكيك النظام السياسي العثماني، وكان هذا التوجه قد حظي بترحاب أنصار «الإمبريالية الجديدة» (New Imperialism) التي بلغت ذروتها في حكومة لويد جورج (David Lloyd George) (١٨٦٣-١٩٤٥ م)<sup>٣</sup>.

١. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة، ص ١٠٥.

٢. المرجع نفسه، ص ١٠٥.

٣. نعمة، كاظم، الملك فيصل الأول، ص ١٠.

لقد ظهرت المرحلة الأولى في نيل أهداف إمبريالية عزيزة على (الإمبرياليين الجدد) عندما نزلت قوات الاستطلاع الهندي في الفاو على الخليج العربي في ٦/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م، فقبل ذلك لم تكن بريطانيا قادرةً على الانتفاع من كونها أقوى دولة في المنطقة، كما كان يتوجب على رجال السياسة البريطانيين والإستراتيجيين تعزيز الحلقات الواهنة في سلسلة الدفاع عن الهند، ولقد أطلق احتلال القوات البريطانية للبصرة البوابة الإستراتيجية للعراق، الطموحات الأسيرة لدعاة الضم في الهند ودار الحكومة البريطانية، فلقد أبرق السير برسي كوكس بعد احتلال البصرة بأنه من الصعوبة بمكان «تغاضي أخذ بغداد»<sup>١</sup>.

أثارت النجاحات المبكرة في احتلال البصرة جدلاً سياسياً عسكرياً بريطانياً بشأن القضية الكبرى في ماهية المصالح الأساسية البريطانية في العراق، وكيف يمكن بلوغها والذود عنها، فحاجج الإمبرياليون الجدد بأن على بريطانيا أن تبسط مجال نفوذها على العراق كافة، وإلا فإن القوى المنافسة الأخرى ستتحرك، فالعراق لا يمكن الدفاع عنه بالاحتفاظ بالمنطقة الجنوبية وحسب؛ لذا لا بدّ من بلوغ الحدّ الأقصى من الحدود الطبيعية<sup>٢</sup>، وقد كانت (وزارة الهند) من أولى الدوائر التي حاولت وضع سياسة خاصة بالعراق، فكتب السير آرثر هرتزل السكرتير السياسي في الوزارة المذكورة مذكرةً مفصلة بتاريخ ١٤/ آذار/ ١٩١٥م عن مستقبل بلاد ما بين النهرين، فاستناداً إلى نظرية الري في نشوء الدول ووحدتها، كتب يقول: «إنّ الدولة التي تعتمز أن تطور ولاية البصرة يجب أن تكون هي الدولة التي تطور ولاية بغداد، وأن تكون كذلك هي الدولة التي تُسيطر على المجاري العليا للأَنْهار حتّى الموصل والرقّة». وهو يطمح من ذلك

1. P. Graves, The Life of sir Persy Cox, London: 1941, p.182.

٢. نعمة، كاظم، الملك فيصل الأول، ص ١٢.

إلى أن مشاريع الري ستُتيح فرصةً طيبة لهجرة الهنود إلى العراق لحاجته إلى العمّال من جهة، وكذلك لأسبابٍ أخرى أيضاً، منها إنشاء مستوطنة هندية في العراق<sup>١</sup>. وفي خضمّ هذا الجدل تقرر التقدم نحو بغداد واحتلالها؛ لأنّ ذلك سيؤمّن أهداف بريطانيا في العراق، بضمّ البصرة وبغداد والجزء الأكبر من الموصل، وإنّ احتلال بغداد سيرفع السّمة البريطانيّة في الشرق الأوسط، وسيقطع خطوط المواصلات الألمانية مع إيران، ويؤمّن الدفاع عن حقول النفط، وأخيراً وليس آخراً فإنّ بغداد (كوكب جذاب)، واسم رومانسي قد يُثير مخيلة البريطانيين، إذ كانت بغداد هي الجائزة المتلألئة التي تتجه إليها جميع الأنظار<sup>٢</sup>. وهكذا ففي ١١/ آذار/ ١٩١٧م، احتلت القوات البريطانيّة بغداد، ثمّ جرى احتلال مدينة الموصل بتاريخ ٨/ تشرين الثاني/ ١٩١٨م وذلك بعد ثمانية أيام فقط من عقد الهدنة مع تركيا، وبذلك انتهت الحرب العالمية الأولى والولايات الثلاث جميعها، البصرة وبغداد والموصل تحت السيطرة البريطانيّة.

### اتفاقية سايكس بيكو

لمّا دخلت تركيا الحرب، بدأت الرغبات الاستعماريّة الحبيسة تتحرّس طريقها نحو التجسد، فأرادت روسيا أخذ القسطنطينية والمضائق، وطالبت فرنسا بسوريا، وبدأت إنكلترا تحس بحاجتها إلى طريق برية إلى الشرق، وتودّ أيّ شيءٍ آخر ضروري يمكن أن يشل أثر المطامح الفرنسيّة والروسية، كما أنّ حكومة الهند كانت تصوب أطماعها بقوة نحو العراق، فافتتح باب المفاوضات في أوائل العام ١٩١٥م وأُبرمت بين تلك الدول سلسلة من المعاهدات السرية

١. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة (١٩٠٨-١٩٢١م)، ص ص ١٧٤-١٧٥.

٢. المرجع نفسه، ص ٢٠٠.

لاستقطاع أراضي الإمبراطورية العثمانية بعد الحرب، فيما كانت بريطانيا في الوقت نفسه تعقد عهداً جديدةً تُناقض عهودها التي أعطتها للعرب بوساطة السير (مكماهون) في سنة ١٩١٦م، وكانت أولى تلك المعاهدات هي اتفاقية سايكس بيكو (The Sykes - Picot Agreement)، وقد عقدت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصريّة في ربيع ١٩١٦م، فلم يكد السير مكماهون يُنجز صفقته مع الشريف حسين، حتّى بدأت وزارة الخارجية البريطانية مباحثاتٍ في لندن مع الحكومة الفرنسيّة، هدفها الوصول إلى تدبيرٍ ما، بحيث يمكن التوفيق بين ما تدّعيه فرنسا من حقّ في بلاد الشام وما تعهدت به بريطانيا للعرب. ولأسبابٍ مختلفة أثرت وزارة الخارجية البريطانية أن تُخفي عن فرنسا شروط الاتفاق الذي عقده مع الشريف حسين<sup>١</sup>. وكان المندوب الفرنسي هو الميسيو جورج بيكو (François Marie Denis Georges-Picot) (١٨٧٠-١٩٥١م)، أمّا زميله الإنكليزي فهو السير مارك سايكس (Sir Tatton Benvenuto Mark Sykes) (١٨٧٩-١٩١٩م)، ورسم المندوبان مشروعاً لاحتياز تلك الأجزاء التي ترغب كلٌّ من بريطانيا وفرنسا أخذها من الإمبراطورية العثمانية، ثمّ توجهتا بعد ذلك إلى بطرسبرغ لبحث مقترحاتهما مع الحكومة الروسيّة، وابتدأت المفاوضات في

١. إنّ من أهمّ الأسباب التي دعت وزارة الخارجية البريطانيّة إلى إخفاء شروط الاتفاق الذي عقده مع الشريف حسين، يعود لخشيتهما من تعارض الاتفاق مع ما تريده فرنسا، فضلاً عن عدم رغبتها في الإيفاء بتعهداتها للشريف حسين وخوفها من تحالف الأخير مع فرنسا فيما لو كشفت الأخيرة سر ما تُضمّره بريطانيا، ناهيك عن إحساس بريطانيا بحاجتها إلى طريق برية إلى الشرق ورغبتها في عمل أي شيء ضروري يمكن أن يشل أثر المكاسب الفرنسيّة والروسية من اتفاقية سايكس - بيكو، إضافةً إلى أنّ حكومة بريطانيا وعدت الشريف حسين بتنصيب ولده فيصل ملكاً على سوريا دون أن تُعلم حليفاتها فرنسا بذلك، وكانت مخاوف حكومة بريطانيا في محلها، إذ أخرج الفرنسيون فيصلاً من سوريا بعد احتلالهم لها في معركة ميسلون آذار ١٩٢٠م؛ أنطونيوس، جورج، يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، ص ٣٤٨-٣٤٩.

آذار ١٩١٦ م ونتج عنها تفاهم ثلاثي، تبلورت عنه مسودات التفاهم رسمياً في نيسان وأيار من تلك السنة<sup>١</sup>.

وفيما يخصّ دراستنا فقد احتفظت فرنسا لنفسها بالقسم الأعظم من سوريا، وبحصّة غير صغيرة من جنوب الأناضول ومنطقة الموصل، أمّا حصّة بريطانيا فكانت تتألف من شريطٍ يمتدّ من أقصى جنوب سوريا عبر العراق ليشمل بغداد والبصرة وكلّ المنطقة الواقعة بين الخليج العربي والمنطقة المُخصّصة لفرنسا، وأيضاً مينائي حيفا وعكا في فلسطين مع قطعةٍ صغيرة من المنطقة الداخلية، وهناك مناطق أخرى تضم منطقةً من فلسطين لتكون تحت حكم دولي خاص<sup>٢</sup>. إلا أنّ انتصار الثورة البلشفيّة في روسيا نهاية العام ١٩١٧ م، وقيام السلطة الجديدة فيها بنشر بعض الوثائق السريّة الموضوعية في محفوظات وزارة الخارجية القيصريّة، ومن بينها نصوص اتفاقية سنة ١٩١٦ م، أدّى إلى فضح اتفاقية سايكس بيكو وانسحاب روسيا منها<sup>٣</sup>.

وفي كانون الأول ١٩١٨ م حاول كليمنصو<sup>٤</sup> رئيس وزراء فرنسا أن يُقنع لويد

١. وقعت الاتفاقية بين مندوب الحكومة البريطانيّة مارك سايكس Mark Sykes ومندوب الحكومة الفرنسيّة شارل فرانسو بيكو Charles Francis Picot، سنة ١٩١٦ م، لذا عُرفت بهذا الاسم ووضعت ولايتي البصرة وبغداد تحت الوصاية البريطانيّة، أمّا ولاية الموصل فقد وضعت تحت الولاية الفرنسيّة. يُنظر: البراوي، راشد، البترول في الشرق الأوسط، ١٢١٤-١٢٢٠.

٢. أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٣٤٨-٣٤٩.

٣. أنطونيوس، يقظة العرب، ص ٤٣٨.

٤. جورج كليمنصو George Clemenceau (١٨٤١-١٩٢٩ م): من أبرز السياسيين الفرنسيين، رأس الوزارة مرتين (١٩٠٦-١٩٠٩ م) و (١٩١٧-١٩١٩ م)، انتُخب عضواً في مجلس النواب عام (١٨٧٦-١٨٩٣ م)، وفي مجلس الشيوخ عام ١٩٠٢ م، وفي عام ١٩٠٦ م أصبح رئيساً للوزارة ووزيراً للداخلية، وفي تشرين الثاني ١٩١٧ م أصبح رئيساً للوزراء مرةً ثانية، وأقام حكومةً ائتلافية (حكومة الاتحاد المقدس)، واصلت الحرب حتّى إحراز النصر، عدّ كليمنصو معاهدة فرساي غير كافية لضمان سلامة

جورج رئيس وزراء بريطانيا الاعتراف باتفاقية سايكس بيكو من جديد، ولكن لويد جورج طالب بتعديل الاتفاقية فيما يخص ولاية الموصل وفلسطين، ومن ثم وافق كليمنصو على نقل ولاية الموصل إلى منطقة النفوذ البريطاني على شروط، منها أن تنال فرنسا حصّة من نفط الموصل<sup>١</sup>. بيد أن الحلفاء اتفقوا في أثناء مؤتمر الصلح في باريس، على توزيع الانتدابات، وقد أعطيت بريطانيا الانتداب على العراق وفلسطين، وأعلنت هذه القرارات في ٢٦/ شباط/ ١٩٢٠م، إذ كان المفروض أن الانتداب قد وجد كحلّ وسط بين سياسة الاستعمار القديمة ووعود الحلفاء في أثناء الحرب، وذلك وفقاً للمادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم<sup>٢</sup>.

لقد كانت الحرب العالمية الأولى نهاية قصّة طال أمدها وتشعبت فصولها، وبداية مرحلة جديدة في تاريخ البلاد التي أصبحت تُعرف بالمملكة العراقية، ثم استمرت العلاقات البريطانية العراقية تجري بوساطة أجهزة وأساليب جديدة وفي ظروفٍ تختلف جوهرياً عن كلّ ما سبق، غير أن الإستراتيجية بقيت على حالها من حيث الباعث والهدف وغموض المصير، وفي ظلّ آمالٍ وعودٍ وشكوك غدا العراق تحت الانتداب البريطاني، وبقيام ثورة العشرين انقلبت كلّ الخطط وعصفت بها الثورة إلى حيث لا رجعة، فقد انتهت وإلى الأبد مشاريع ربط العراق بالهند وتقسيمه، فكان تشكيل أول حكومة عراقية برئاسة عبد الرحمن

فرنسا، للمزيد، يُنظر: بالمر، آلان، موسوعة التاريخ الحديث (١٧٨٩-١٩٤٥م) ١٩٠١.

١. حافظ، مرجع سابق، ص ٦٠.

٢. عصبة الأمم League of Nations: هي إحدى المنظّمات الدولية السابقة التي تأسست عقب مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩م، الذي أنهى الحرب العالمية الأولى التي دمرت أنحاء كثيرة من العالم وأوروبا خصوصاً، وهي أول منظّمة دولية هدفت إلى الحفاظ على السلام العالمي. للمزيد، يُنظر:

النقيب<sup>١</sup> (٢٥ / تشرين أول / ١٩٢٠م)، وتتويج فيصل ملكاً على العراق (٢٣ / آب / ١٩٢١م)<sup>٢</sup>، واستعاضت بريطانيا عن صكّ الانتداب بمعاهدة تحالفٍ مع العراق (١٩٢٢م)<sup>٣</sup>.

وبرز في تلك المرحلة دور النفط في سياسة السيطرة البريطانية على العراق واستخدمه في دائرة مساوماتها السياسية معه، وهو دور لا يقلُّ عن الاعتبارات الإستراتيجية التي كانت تشغل أذهان المسؤولين البريطانيين تجاه العراق، وكان خبراء النفط البريطانيون قد درسوا إمكانيات العراق النفطية منذ السنوات الأولى من القرن العشرين، وبعد الحرب أتمَّ أولئك الخبراء وضع تقارير شاملة لأغلب مناطق النفط في العراق<sup>٤</sup>. وغدَّت قضية النفط وامتيازاته في الحقب اللاحقة، أحد أبرز صور الوجود البريطاني في العراق ونفوذه واستغلاله.

١. عبد الرحمن النقيب (١٨٥٤-١٩٢٧م): من رجال السياسة والحكم في العراق، ولد في بغداد وتعلَّم فيها، وتولَّى نقابة الأشراف فيها، تولَّى أول وزارة عراقية بعد ثورة العشرين، ثمَّ بعد تولِّي فيصل الأول عرش العراق تولَّى رئاسة الوزارة مرتين، عُقدت في عهده المعاهدة العراقية - البريطانية عام ١٩٢٢م. توفي في بغداد عام ١٩٢٧م ودفن فيها. للمزيد، يُنظر: كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، (بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٧م)، ج ٥، ص ١٥٦.

٢. الملك فيصل الأول (١٨٨٣-١٩٣٣م) (١٩٢١-١٩٣٣م): ولد في مدينة الطائف في العشرين من أيار عام ١٨٨٣م. ودرس في أسطنبول، شارك في الثورة العربية الكبرى التي اندلعت في العاشر من حزيران عام ١٩١٦م، إلا أنَّ الفرنسيين أزاحوا فيصلاً عن عرش سوريا بعد موقعة ميسلون في الرابع والعشرين من تموز عام ١٩٢٠م، وفي آذار ١٩٢١م رشَّحت بريطانيا فيصلاً ملكاً على العراق في مؤتمر القاهرة، وفي الثالث والعشرين من آب ١٩٢١م اعتلى عرش العراق. توفي في ليلة السابع على الثامن من أيلول عام ١٩٣٣م. للتفاصيل، يُنظر: التكريتي، عبد المجيد كامل عبد اللطيف، فيصل الأول ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة (١٩٢١-١٩٣٣م)، (بغداد، ١٩٩١م)، ص ص ١٠-١٥.

٣. حافظ، طالب حسين، النفط والسياسة في العراق، ص ٦١.

٤. م. ن، ص ٦١.

## الخاتمة

لقد كان الجانب المادي الاقتصادي السبب الكبير والواضح من وجهة النظر الاستعمارية في احتلال بريطانيا المناطق المختلفة من العالم، خاصةً المنطقة العربية ومنها العراق، وفق إستراتيجية بُنيت على أساس الأسواق الجديدة والمواد الأولية المعدنية منها، والزراعية إضافةً إلى أهمية الموقع الإستراتيجي والدفاعي الذي يدخل ضمن الحفاظ على هذه المصالح.

إنَّ اهتمام بريطانيا بالعراق قد سبق تدخلها العسكري المباشر فيه، ولكن بعد الحرب وبعد نزول القوات البريطانية في ولاية البصرة في شهر تشرين الثاني ١٩١٤م، وجدت السلطات البريطانية، وخصوصاً وزارتي الخارجية والهند واللجنة الوزارية للشؤون الشرقية، أنَّه لا بدَّ من التفكير في مستقبل الولايات العثمانية الثلاث: البصرة، بغداد، الموصل. وقد ازدادت الحاجة لبلورة سياسةٍ مُحدَّدة على هذا الصعيد مع التطوُّر في المعارك الحربية وتوسيع القوات البريطانية في احتلال أراضي ما بين النهرين (Mesopotamia)، وقد كانت هناك أسباب مهمة أخرى لاهتمام بريطانيا بالعراق، ومنها:

أولاً: إنَّ موقع العراق الإستراتيجي بين الشرق والغرب، كان عاملاً جوهرياً وأساسياً في توجيه انتباه البريطانيين وتحديد مسارات تغلغلهم ونفوذهم فيه، أنَّه قلب الشرق الأوسط، وخطورة موقعه هذا تُفسَّر جوانب من صراعه الطويل مع قوى أجنبية عديدة.

ثانياً: كان الموقف السياسي في العراق أثناء القرن الثامن عشر يساعد على تغلغل النفوذ البريطاني، فقد كان المهاليك يحكمون العراق منذ العام ١٧٠٤م، وكان هؤلاء رغم تبعيتهم الاسمية للسلطان العثماني ينفردون بالحكم في العراق؛ ولذلك هم بحاجة إلى المساعدة وتأييد دولة كبرى ضدَّ أية محاولةٍ من جانب

السلطة العثمانيّة لإرجاع نفوذها المباشر في العراق، وفي الوقت نفسه ضدّ محاولات فارس في بسط نفوذها على العراق. وقد نتج عن ذلك تقارب بين ولاية بغداد والسلطات البريطانيّة في بومباي، فقد وافق ولاة بغداد على تطبيق قاعدة الامتيازات التي كانت تمنحها الدولة العثمانيّة للأوروبيين، كما أنّ بغداد كانت في أشدّ الحاجة إلى مساعدة بريطانيا لمواجهة الخطر الوهابي الذي ظهر في نجد، جنوب العراق.

ثالثاً: الصراع الدولي: شهدت منطقة الخليج العربي منذ بداية القرن السابع عشر صراعاتٍ دامية بين الدول المتنافسة، فكان الصراع البريطاني البرتغالي ثمّ الصّدام البريطاني الهولندي، وانتهت الأمور أخيراً لصالح السيادة البريطانيّة في الخليج، ففي أواخر القرن الثامن عشر أصبحت لبريطانيا العظمى الأرجحية تجاريّاً وسياسياً.

رابعاً: العامل الاقتصادي: كان العراق مصدرًا مهمًا للموارد الاقتصاديّة والمواد الأولية التي تغذي الصناعة البريطانيّة، كما يُعد سوقًا مهمًا لصناعاتها وبضاعتها التي تحتاج إلى أسواق لتصريفها.

خامساً: الحرب العالميّة الأولى: هناك عوامل عدّة ربطت دخول بريطانيا الحرب العالميّة الأولى، بالعراق. ومن أبرز تلك العوامل ما يأتي:

١. إنّ العراق جزءٌ من الدولة العثمانيّة التي انضمت إلى جانب ألمانيا والنمسا ضدّ دول الوفاق (بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية)، فمن الطبيعي أن تُهاجم بريطانيا (العراق) بوصفه من أملاك الدولة العثمانيّة، فضلاً عن ميراث الموقع والثروات والخصائص الأخرى التي يمتلكها.

٢. النفط: حصلت بريطانيا في سنة ١٩٠١م من مظفر الدين شاه على امتياز التنقيب عن النفط واستخراجه في منطقة جنوب إيران لمدة ستين سنة، فتشكّلت

شركة النفط الإنكليزية الفارسيّة، لتتولّى القيام باستثمار ينابيع النفط في الأراضي الإيرانية، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى، تبين للجميع بأن لا سبيل إلى النصر إلا بتأمين إمدادات النفط، إذ أصبح النفط المحرك الرئيس لماكنة الحرب.

سادساً: كان من الواضح قبل الحرب العالمية الأولى أنّ العراق قد أصبح من مناطق النفوذ البريطانيّة المهمة، فتعمّقت مصالح بريطانيا في هذا الجزء من الدولة العثمانيّة وتشعبت، وكان منها وضع العراق الزراعي وأهميته كمجال حيوي لاستيطان عدد كبير من السكّان الذين يفيضون عن قابلية الهند، وأيضاً أطماع بريطانيا الإقليمية في العراق ورغبتها في احتلال القسم الجنوبي منه على وجه الخصوص وربطه بالهند.

## المصادر

١. إبراهيم، عبد الفتاح، على طريق الهند، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ٢٠٠٤م.
٢. آلان بالمر، موسوعة التاريخ الحديث (١٧٨٩-١٩٤٥م)، بغداد، دار المأمون للطباعة والترجمة والنشر، ١٩٩٢م.
٣. أنطونيوس، جورج، يقظة العرب تاريخ حركة العرب القومية، ترجمة: ناصر الدين الأسد وإحسان عباس، ط٦، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٨٠م.
٤. أنيس، محمد والسيد رجب حراز، الشرق العربي في التاريخ الحديث والمعاصر، القاهرة، دار النهضة العربية، د.ت.
٥. آيرلاند، فيليب، العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة: جعفر الخياط، بيروت، دار الكشّاف للطباعة، ١٩٤٩م.
٦. بحري، لؤي، سكة حديد بغداد، شركة الطبع والنشر الأهلية، ١٩٦٧م.
٧. البراوي، راشد، البترول في الشرق الأوسط، القاهرة، مطبعة دار العرب، ١٩٥٥م.
٨. براي، ن، مغامرات لجمن في العراق والجزيرة العربية، ترجمة وتعليق: سليم طه التكريتي، بغداد، دار واسط للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م.
٩. البزاز، عبد الرحمن، العراق من الاحتلال حتّى الاستقلال، ط٣، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٧م.
١٠. بولارد، ريد، بريطانيا والشرق الأوسط، ترجمة: حسن أحمد السلیمان، بغداد، مطبعة الرابطة، ١٩٥٦م.
١١. التكريتي، عبد المجيد كامل عبد اللطيف، فيصل الأول. ودوره في تأسيس الدولة العراقية الحديثة ١٩٢١-١٩٣٣م)، بغداد، ١٩٩١م.
١٢. التكريتي، هاشم صالح، المسألة الشرقية المرحلة الأولى (١٧٧٤-١٨٥٦م)، بغداد، بيت الحكمة، ١٩٩٠م.
١٣. جار شلي، إسماعيل حقي أوزون، أمراء مكة المكرمة في العهد العثماني، ترجمة: خليل علي مراد، البصرة، مطبعة جامعة البصرة، ١٩٨٥م.

١٤. حافظ، طالب حسين، النفط والسياسة في العراق، بغداد، دار الكتب العلمية، ٢٠١٧م.
١٥. حسين، علي ناصر، تاريخ السكك الحديدية في العراق (١٩١٤-١٩٤٥م)، بغداد، ١٩٨٦م.
١٦. حسين، فاضل وآخرون، التاريخ الأوربي الحديث (١٨١٥-١٨٣٩م)، بغداد، ١٩٨٢م.
١٧. حميدي، جعفر عباس، تاريخ العراق المعاصر (١٩١٤-١٩٦٨م)، بغداد، دارعدنان للطباعة والنشر، ٢٠١٥م.
١٨. سليمان، علي حيدر، تاريخ الحضارة الأوربية الحديثة، بغداد، دارواسط للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٠م.
١٩. شبارو، عصام محمد، المقاومة الشعبية المصرية للاحتلال الفرنسي والغزو البريطاني، بيروت، دار التضامن للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٢م.
٢٠. صالح، زكي، بريطانيا والعراق حتى عام ١٩١٤م، بغداد، مطبعة العاني، ١٩٦٨م.
٢١. الصلابي، محمد علي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، القاهرة، ١٩٧٩م.
٢٢. عائشة عثمان أوغلي، السلطان عبد الحميد، ترجمة: صالح سعداوي صالح، عمّان، ١٩٩١م.
٢٣. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة (١٩٠٨-١٩٢١م)، ترجمة: عبد الوهاب الأمين، لندن، دار اللام، ١٩٨٨م.
٢٤. علي، أورخان محمد، السلطان عبد الحميد الثاني وأحداث عصره، بغداد، مطبعة الخلود، ١٩٨٧م.
٢٥. غازي، علي عفيفي علي، الصراع الأجنبي على العراق والجزيرة العربية في القرن التاسع عشر، بيروت، دار الرافدين، ٢٠١٥م.
٢٦. غربال، محمد شفيق، الموسوعة العربية الميسرة، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٤م.
٢٧. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ترجمة: سليم طه التكريتي، بغداد، المكتبة العالمية، ١٩٨٩م.
٢٨. كحالة، عمر رضا، معجم المؤلفين، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٩٦٧م.
٢٩. الكيالي، عبد الوهاب وكامل زهيري، الموسوعة السياسية، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٤م.

٣٠. لونكريك، ستيفنسن هيمسلي، أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث، ترجمة: جعفر الخياط، ط٦، بغداد، مكتبة اليقظة العربية، ١٩٨٥ م.
٣١. المالكي، لازم لفته ذياب، إيران في عهد مظفر الدين شاه (١٨٩٦-١٩٠٧ م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة البصرة، كلية الآداب، ١٩٧٩ م.
٣٢. مجموعة من الأساتذة العراقيين، العراق في التاريخ، بغداد، مطبعة الثورة، ١٩٨٣ م.
٣٣. محمد أمين، عبد الأمير، التنافس بين الشركات التجارية الإنكليزية في منطقة الخليج العربي والأقطار المجاورة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، مجلة كلية الآداب، بغداد، ع٤٨، ١٩٦٣ م.
٣٤. محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق: إحسان حقي، القاهرة، دار النفائس، ٢٠٠٦ م.
٣٥. مصطفى، أحمد عبد الرحيم، في أصول التاريخ العثماني، بيروت، ١٩٨٣ م.
٣٦. ميكائيل بروكس، النفط والسياسة الخارجية، ترجمة: غضبان السعد، بغداد، ١٩٥١ م.
٣٧. نظمي، وميض جمال عمر، الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٤ م.
٣٨. نعمة، كاظم، الملك فيصل الأول، (بيروت، الدار العربية للموسوعات، ١٩٨٨ م).
٣٩. نوار، عبد العزيز سلمان، المصالح البريطانية في أنهار العراق، القاهرة، مكتبة الإنجلو المصرية، ١٩٦٨ م.
٤٠. نورس، علاء موسى كاظم، العراق في العهد العثماني.. دراسة في العلاقات السياسية (١٧٠٠-١٨٠٠ م)، بغداد، دار الرشيد للنشر، ١٩٧٩ م.
٤١. هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠ م)، تعريب: أحمد نجيب هاشم وديع الضبع، ط٨، القاهرة، ١٩٨٤ م.
٤٢. ويلسون، آرنولد تي، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ترجمة: فؤاد جميل، ط٢، بغداد، دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩١ م.
٤٣. اليافي، نعيم و خليل موسى، نضال العرب والأرمن ضد الاستعمار العثماني، اللاذقية، دار الحوار، ١٩٩٥ م.

44. Bennett, Thomas Jewell» ,the past and Present Connection of England with the PERSIAN Gulf ,«Journal of the Society of Arts, London: June, 13, 1902.
45. E. M. Earle, Turkey The Greet Power and The Baghdad Railway, A study in Imperialism, New York: 1966.
46. Encyclopedia Americana, New York: 1968, Vol.28.
47. Encyclopedia Britannica, Vol.15.
48. Graves, The life of sir Persy Cox, London: 1941.
49. Graves, The Life of sir Persy Cox, London: 1941.
50. Gurson. G. N., Persia and the Persian, London: question, 1892, Vol.2
51. J. Hurewit, Diplomacy in the Near and Middle East, London: 1958, Vol.I. Pp.
52. Mohammed A. Tarbush, The Role of the military in politics,.. a case study of Iraq to 1941, Isted, London: 1983.
53. Paul Kennedy Randon, The Rise and Fall of the Great Powers, U.S.A: 1987.
54. S. H. Longrigg, Oil in the Middle East, London: Groom Hel, Mltd., 1968.
55. Sir A .T. Wilson, Loyalties, Mesopotamia (1914– 1917), London: 1930.
56. Stephan H. Longrigg, Iraq 1900 to 1950: Apolitical, Social and Economic History, London: Oxford University Press, 1953.
57. The New Britannic Encyclopedia, London: 1973, vol.3.
58. The New Encyclopedia Britannic «vol.3, London: 1973.
59. The New Encyclopedia Britannica, New York: Vol.VI.
60. The New Encyclopedia Britannica, op. ct., Vol,V1.
61. Zaki saleh, Mesopotamia (Iraq) (1900– 1914), Baghdad: 1957.



# الاستعمار البريطاني

وملف الإدارة المدنيّة والاقتصاديّة للعراق ١٩١٤ - ١٩١٨

د. حسن موات حسين<sup>١</sup>

## الملخّص

شكّلت السياسة الإداريّة والاقتصاديّة للاحتلال البريطاني للعراق (١٩١٤ - ١٩١٨) مرحلةً مفصليّةً في تاريخ البلاد، إذ لم تقتصر على الجانب العسكري والسياسي، بل امتدت لتغور بعمق في بنية الاقتصاد العراقي وأنماط الإدارة المدنيّة، فمع تمكّن القوات البريطانية من دخول البصرة، ثم امتداد نفوذها لمناطق العراق المختلفة فرضت سلطة الاحتلال البريطاني نظامًا ماليًا واقتصاديًا يعكس مصالحها الاستعمارية، متجاهلةً في كثيرٍ من الأحيان متطلبات العراقيين واحتياجاتهم الأساسية.

الكلمات المفتاحية: الاستعمار البريطاني، الإدارة الاقتصاديّة، الضرائب، الصحة، تفويض الأرض، العمل (السخرة).

---

١. متخصص في التاريخ المعاصر / جامعة ميسان - العراق.

## المبحث الأول: الإدارة الماليّة والاقتصاديّة

### أولاً: الضرائب

تعدّ السياسة الماليّة من أهمّ أركان الإدارة المدنيّة التي أسستها سلطات الاحتلال البريطاني في العراق، وبسبب ضرورة توفير ما تحتاج إليه قوات الاحتلال لسدّ نفقاتها الحربيّة الضخمة، وتأمين مصاريف الدائرة السياسيّة ورواتب موظفيها، أنشأت دائرة الواردات؛ حتى تستفيد منها لتمكّن من السيطرة على اقتصاد البلاد وخيراته الوفيرة وتنظيم عملية استغلالها<sup>١</sup>.

لذلك عُهد بإدارتها وتنظيمها في كانون الثاني ١٩١٥ إلى هنري دوبس (Henry Dobbs)<sup>٢</sup>، ومواطنه ريد بولاد (Reid Bulad) مساعداً، إضافة إلى ثلاثة موظفين هنود، كما أبقى هنري دوبس (Henry Dobbs) على شركة (مكنزي) لتوليها جباية واردات الجمارك البحريّة<sup>٣</sup>. وبعد توسّع السيطرة البريطانيّة على الأراضي العراقيّة، أُضيفت مهامٌ أخرى إلى هنري دوبس (Henry Dobbs)، شملت إدارة شؤون الأوقاف والطابو والأراضي الأميرية، والدين العثماني، فضلاً عن المؤسسات التربويّة والدوائر البلديّة<sup>٤</sup>.

واجه هنري دوبس (Henry Dobbs) في تنظيم الإدارة الماليّة صعوباتٍ عدة،

١. نبيل عامر فليح، المهتمات الإداريّة والأمنيّة لوزارة الداخلية العراقيّة خلال سنوات الانتداب البريطاني

١٩٢٠ - ١٩٣٢، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصريّة، كلية التربية، ٢٠١١، ص ٢٥.

٢. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانيّة في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ٨٧.

٣. الشجيري، عدنان هريير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخيّة، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٥، ص ٣١.

٤. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانيّة في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ٨٨.

تمثلت بضيق الوقت اللازم<sup>١</sup>، وجمع الواردات وإدارتها بموجب الأصول العثمانية من دون سوء تصرف، فضلاً عن تداخل القضايا بعضها ببعض، كقضايا التزام الأرض، وجباية الواردات، وإدارة الأوقاف التي كانت تعاني التعقيد والغرابة، فكان يجب دراستها وحلها، إضافةً إلى مسؤوليات أعمال أخرى كأعمال الجمارك، والسيطرة على الشركات التجارية المعادية للاحتلال البريطاني، والديون العمومية وأعمال المصارف، يُضاف إليها مشكلةٌ رئيسةٌ تتمثل بالسجلات الرسمية التي كانت تستخدمها إدارة الاحتلال العثماني؛ إذ كانت تكتب بطريقةٍ قديمة الطراز، إن وجدت غير تالفة، إذ أغلب هذه السجلات أتلقت قبل الانسحاب العثماني من مدينة البصرة<sup>٢</sup>.

لذا التجأ هنري دوبس (Henry Dobbs) إلى تعيين بعض العراقيين الذين كانوا يمثلون صغار الموظفين في الإدارة العثمانية، وحاول الاستفادة منهم، خاصة في قراءة السجلات العثمانية وتحويلها إلى اللغة العربية، وكان من حسن حظ سلطات الاحتلال أنّها عثرت على عددٍ من سجلات إدارة الاحتلال العثماني، لا سيّما التي تخصّ الطابو التي كان لها أهميةٌ كبيرةٌ في معرفة الملاكين<sup>٣</sup>. ولعدم إمكانية إيجاد نظام للواردات على غرار النظام المالي البريطاني بصورة عاجلة — إذ إنه يتطلّب ذلك موظفي واردات أكفاء، وحلّ مشكلة الزراعة الأساسية بتحديد حقوق الفلاحين والمُلتزمين والملاكين<sup>٤</sup> — عكف هنري دوبس

١. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٥٢.

٢. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائتين، ١٥٤١؛ فيليب ويلارد إيرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٥٥.

٣. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ١٩.

٤. فيليب ويلارد إيرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٨٢.

(Henry Dobbs) على دراسةٍ معمّقةٍ لنظام الواردات العثماني في مناطق البصرة كافة، فوجده نظاماً (معقولاً ومتساحاً) ولا يوجد ما يحول من دون استخدامه مجدداً من قبل البريطانيين؛ لأنّ العلة على حد وصفه ليست في النظام، وإنّما في موظفي الإدارة الذين يتّصفون بالتراخي واللامبالاة؛ لذلك أقر استمرار العمل في نظام واردات سلطات الاحتلال العثماني<sup>١</sup>.

بدأت دائرة الواردات عملها بالجمارك، بعد أن أوكلت عملها لضابط محصلة الجمارك الهندية (واتكنس)، ولم تفرض الضرائب على الأراضي الزراعية التي تُعدّ الأهم والأضخم في الواردات؛ لكيلا تصطدم بالعشائر الرافضة للضرائب على أراضيها الزراعية، خاصة أنّ هذه العشائر خاضت عدة معارك مع الاحتلال العثماني من أجل هذا السبب<sup>٢</sup>، وإلى هذا المعنى يشير الميجر دكسون بقوله: «إنّ واقع عدم دفع أيّ وارداتٍ عن الرز أو التمور أو الحنطة للأتراك لسنواتٍ كثيرة، قد كان له أثره لا سيّما بين الجيل الفتي من أفراد العشائر الذين أصبحوا بالنتيجة متعجرفين، مغرورين، متغطرسين، وأنّ حججهم منطقية وتجري على النحو التالي، إنّ عبارة (لا حكومة) تعني إنّنا نحتفظ بحاصلاتٍ أو نقودٍ يمكن أن تُؤخذ منّا في غير هذه الحالة على شكل واردات، وإنّنا نحتفظ بأرض أخرجنا منها مالكيها (الشرعيين)؛ ولذلك لسنا مضطّرين إلى دفع الملاكية لأحد، وأصبحنا

١. الشجيري، عدنان هيرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٥، ص ٣١؛ سكران، عبد ربه، عشائر البصرة والإدارة العسكرية البريطانية أثناء الاحتلال عامي ١٩١٦ - ١٩١٨، ص ٣٢١.

٢. فيليب ويلارد إيرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٥٥؛ الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٦١؛ الجيلاوي، إيناس حمزة، ص ١٩٨.

نملك الأرز وأراضي جيدة مقابل لا شيء، وإننا أحياء ومستعدون للدفاع عن أنفسنا بقوة سواعدنا...»<sup>١</sup>.

فضلاً عن الأضرار الكبيرة التي حلت بالأراضي الزراعية، نتيجة العمليات العسكرية، وترك الفلاحين لأراضيهم، وإجبارهم على العمل في معسكرات الاحتلال أو الاشتراك في القتال، الأمر الذي أدى إلى انخفاض إنتاج الأراضي الزراعية بشكل كبير، مع حاجة سلطات الاحتلال الماسّة إلى الناتج الزراعي من أجل توفير الحبوب لقواتها وكونها مورداً اقتصادياً مهماً<sup>٢</sup>.

بدأت سلطات الاحتلال البريطاني بفرض الضرائب بالتدرّج وبطرقٍ مختلفة على السكّان، واشترطت على الضبّاط السياسيين أن يكونوا مرّنين في جمع الضرائب حتى يكسبوا وُدّ العشائر ولا تعارضهم. وكانت طرق جمع الضرائب تختلف من منطقة إلى أخرى، ففي منطقة العمارة أقطعت الواردات بالالتزام للشيوخ الكبار، بشرط أن يكونوا موالين لسلطة الاحتلال، كما اقترحت تخفيضات بلغت نصف المبالغ المقرّرة في عهد الاحتلال العثماني، وأُلغيت في الوقت نفسه الديون المتركمة للدولة التي كانت بذمة الشيوخ الملتزمين عن السنوات السابقة<sup>٣</sup>.

أمّا في المنتفق، فقد بدأت سلطات الاحتلال البريطاني بفرض الضرائب

---

١. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٦١.

٢. نبيل عامر فليح، المهتمات الإدارية و الأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني ١٩٢٠ - ١٩٣٢، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، ٢٠١١، ص ٢٦.

٣. فيليب ويلارد إيرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٥٦؛ عبد ربه سكران، عشائر البصرة والإدارة العسكرية البريطانية أثناء الاحتلال عامي ١٩١٦ - ١٩١٨، ص ٣٢١.

بالتدرّج، حتى لا يعارض أبناء العشائر تلك الإجراءات، فقد فُرضت أول الأمر ضرائب رمزية على النخيل، من دون أن تُفرض على الأراضي الزراعية؛ ممّا ضمن عدم معارضة الأهالي لتلك الإجراءات، وفي نيسان ١٩١٨ تمت جباية الضرائب على المحاصيل الشتوية لأول مرة، وقد أنيطت جباية الضرائب بشيوخ العشائر الذين تم تعيينهم لإدارة مناطقهم<sup>١</sup>.

وبعد أن سيطرت القوات البريطانية على العراق ازدادت الضرائب وتنوّعت أشكالها، منها ضريبة الأراضي الزراعيّة، وضريبة صيد الأسماك والطيور، وضريبة الزواج، وضريبة الملح، وضرائب الحاجات الاستهلاكية، وغيرها من الضرائب التي بلغ عددها العشرة تقريباً<sup>٢</sup>. فضلاً عن ضريبة الدفن التي تأخذ على كلّ من يُدفن في مقبرة وادي السلام في النجف أو في مرقد الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وعلى أن لا يقلّ عمر المتوفّي ثلاث سنوات؛ إذ وصل إيرادها عام ١٩١٨ إلى (٤٨،٠٠٠) روبية، إضافة إلى ضريبة (الكرنينية) الحَجْر الصحي التي وصل مردودها عام ١٩١٨ إلى (٥٣،٠٠٠) روبية<sup>٣</sup>.

كما تفنّنت سلطات الاحتلال بتنوّع الضرائب؛ إذ فرضت التبرعات التي كانت شبه إجبارية، وكانت تجمع بأسماء مختلفة؛ منها تبرعات للصليب الأحمر، إذ وُجّهت الدعوات لرؤساء العشائر لهذا الغرض، وعدّت السلطات البريطانية

١. الحسيناوي، إيناس جبار، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٦٢؛ العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المنتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١١٢.

٢. العكيدي، عمار يوسف عبد الله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص ١٦٨؛ الساعدي، محمد حسين زبون، ص ٤٢.

٣. البياتي، فلاح محمد خضير، أساليب السياسة البريطانية في العراق ١٩١٧-١٩٢٠، ص ١٥-١٦.

امثالهم لهذا الأمر دليلاً على إخلاصهم لسلطات الاحتلال البريطاني<sup>١</sup>. وإلى جانب عددٍ كبيرٍ من الضرائب، تميّزت سلطات الاحتلال البريطاني بالدقة في جمع الضرائب من سابقتها سلطات الاحتلال العثماني، إذ نجحت باستخدام العراقيين في دائرة الواردات؛ لمعرفتهم بالعشائر وحدود مقاطعاتها، ونوعية المحاصيل الزراعية في كل منطقة، ولعملهم السابق في الإدارة العثمانية<sup>٢</sup>، كما تمّ تنفيذ جمع الضرائب بصفةٍ رئيسيةٍ عن طريق تعهّد الشيوخ إما بالالتزام وإما بالتخمين؛ ولهذا الإجراءات الدقيقة وزيادة عدد الضرائب، تمكّنت سلطات الاحتلال البريطاني من جباية ضرائب وصلت وارداتها لسنة ١٩١٨ إلى (١٠،٣٠١،٧٨٤) روبية، وهذا فاق ما جمعه سلطات الاحتلال العثماني عام ١٩١١؛ إذ وصل إلى (٦٩٠،٠٠٠) روبية<sup>٣</sup>.

ويرى الباحث أنّ زيادة الواردات لسلطات الاحتلال لم تأت من تحسين الخدمات أو تطوير الزراعة للمناطق العراقية، وخاصّة المناطق العشائريّة التي تحمّلت الجزء الأكبر من هذه الضرائب، وإنّما أتت من خلال دقة التنظيم، وصلابة الإجراءات المتّخذة بحق المخالفين، كما سهّل لهم الأمر كثيراً تعاون بعض شيوخ العشائر المالية لهم، والذين كلّفوا بجمع هذه الضرائب مقابل امتيازاتٍ كبيرة، وقد كانت الأداة الفاعلة لهؤلاء الشيوخ هو قوات الشبابة العشائريّة، التي نجحت إلى حدٍّ ما في تسهيل مهمّة شيوخ العشائر.

ويبدو أنّ السياسة المالية التي اتّبعتها سلطات الاحتلال البريطاني قد نجحت

١. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولايتين، ٢٩٢١٢.

٢. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المتفق في سنوات الاحتلال البريطاني، ص ١١١.

٣. فيليب ويلارد إيرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٨٢؛ العكيدي، عمار يوسف عبدالله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة

إلى حدٍّ كبيرٍ في تقليل العبء المالي على الإدارة المدنية لسلطات الاحتلال، وذلك بتوفيرها الأموال اللازمة لإدارة البلاد، لكنّها في الوقت نفسه انعكست سلبيًا على أبناء العراق بصورة عامة وعلى أبناء العشائر بصورة خاصّة؛ إذ كانت الحاصلات الزراعية من الأراضي العشائرية هي الهدف الرئيس في الابتداء، ولكن سرعان ما صار تحصيل الإيرادات هو الاعتبار الأول الذي يعدّ معيارًا لخضوع العشائر للنظام الجديد<sup>١</sup>، كما شجّعت ونمّت نظام الإقطاع من خلال تسليم الأراضي لشيوخ العشائر وتفويضهم جباية الضرائب.

وفي النهاية كان موقف أبناء العشائر، متسمًا بالرفض لسياسة الضرائب التي فرضتها عليهم جورًا سلطات الاحتلال البريطاني، إلا أن أسلوب الشدّة والتنكيل، وكسب جانب الشيوخ الكبار عن طريق الأغراء أو التهديد، مكّن المحتلّين من تنفيذ سياستهم المالية، التي كان لها دور فعال في إثارة سخط الشعب العراقي وقيام ثورة العشرين الكبرى ضدّ الاحتلال البريطاني.

### ثانيًا: تفويض الأرض

من أهمّ مقومات المواطنة والحياة الرغيدة، أن يمتلك المواطن أرضًا يعيش عليها أو يقات منها؛ ليشعر بالأمان في البلد الذي يعيش عليه، ويشعر بأنّه جزءٌ منه، بيد أن أغلب العراقيين، ومنهم أهل الجنوب كانوا مسلوبي هذا الحقّ الشرعي؛ إذ كانت سلطات الاحتلال العثمانية قد صادرت أراضي العراق ووضعتها تحت تصرّفها على أنّها المالك الشرعي لها، وغدا أهل العراق أبناء الوطن يعيشون في أرضٍ مستأجرةٍ من أناسٍ لا يملكونها وهم المحتلّون العثمانيون.

١. العكيدي، عمار يوسف عبدالله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة

دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص ١٧٠.

وعلى الرغم من محاولة الوالي العثماني مدحت باشا (١٨٦٩ - ١٨٧٢) تمليك الأرض لأهلها ومستحقيها، التي كانت في الواقع محاولة لتطبيق قانون الأراضي العثماني لعام ١٨٥٨ على العراق، من أجل الحد من سلطة زعماء العشائر الذين كانوا شبه مستقلين، إلا أنها لم تأتِ بالنتائج المطلوبة، فضلاً عن أن العثمانيين حاولوا الاستفادة من مبدأ الملكية الحكومية للأرض لغرض تعيين الشيوخ الموالين كمستأجرين، ومن جهة أخرى عملوا على حجب هذا الامتياز عن أي عشيرة أو شيخ معارضٍ لسلطتهم<sup>١</sup>.

وعندما حلَّ الاحتلال البريطاني في العراق، كانت مشكلة الأراضي الزراعية قائمة؛ لذا اتَّبِعَ المحتلُّون الجدد سياسة سلفهم العثمانيين باستغلال هذا الأسلوب مع عشائر العراق، وخاصة الجنوب؛ إذ استخدمت هذه السياسة بوصفها سلاحاً قوياً تجاه العشائر، وذلك من أجل التحكم بهم وإجبارهم على الخضوع لسلطاتها؛ إذ عملت إدارة الاحتلال على إعطاء الأراضي للموالين لها، وتساهلت بإعفاء الشيوخ الملتزمين من الضرائب وإلغاء ما تبقى عليهم من ديون<sup>٢</sup>، ومنع شيوخ العشائر المعادية لسلطات الاحتلال، بل سلبهم حقهم الشرعي في العيش على الأرض التي وُجدوا عليها وإخراجهم منها بالقوة<sup>٣</sup>.

اختلفت سياسة الاحتلال البريطاني من منطقة إلى أخرى، وذلك وفقاً لمحدّداتٍ فرضتها عائلية الأرض، ففي مقاطعة العمارة، حيث أغلب أراضيها عائدة إلى الدولة، قد رفع هنري دوبس (Henry Dobbs) بعد شهر من احتلالها

١. العكيدي، عمار يوسف عبدالله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص ١٦٠.

٢. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المنتفق في سنوات الاحتلال البريطاني، ص ١٧٢.

٣. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة ١٩٠٨-١٩٢١، ص ٣١١.

ودراسته لأوضاعها تقريراً جاء فيه: «إنَّ غالبية الأراضي والمياه من الناحية التقنية تحت تصرف الحكومة. وسنواجه مشكلة فيما لو أنهيت العقود في وقت أبكر؛ لأنَّ نظام التلزييم الثانوي الواسع، والمعقّد سوف يفسد<sup>١</sup>».

وفي هذا التقرير إشارة واضحة إلى ضرورة استمرار النظام العثماني السابق في توزيع الأراضي على العشائر بطريقة الالتزام، وهنا استغلَّ المحتلون عامل الأرض في الضغط على العشائر، إذ أُشترط في منح الالتزام لشيوخ العشائر ولاؤهم لسطات الاحتلال، وعدم معارضة مصالحهم في البلاد<sup>٢</sup>، وذلك كما حصل مع الشيخ زبون الياسر، أحد شيوخ ابو محمد، الذي كان يزرع إحدى المقاطعات في قضاء قلعة صالح في لواء العمارة، وبسبب موقفه المعادي للاحتلال طرد منها في عام ١٩١٦، كما حرموا شيخ عشيرة ابو درّاج محمد الخطاب عام ١٩١٥ من مقاطعته، بسبب رفض الشيخ محمد الخطّاب لوجود قوات الاحتلال البريطاني<sup>٣</sup>، كما انتزعوا مقاطعة الشيخ غضبان البنية الذي كان رافضاً للاحتلال لبريطاني، وللأسف نفسه أنتزعت مقاطعتا شيخي السودان فنجان السعد ومحمد السعد وتم منحهما إلى غيرهما<sup>٤</sup>.

ويمكن أن نبيّن أنّ حرمان الشيخ من التزام مقاطعته لا يعني حرمانه وحده فقط، وإنّما يعني حرمان عشيرته من التواجد على هذه الأرض المحدّدة، وفي

١. نقلاً عن: السعدون، خالد حمود، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة خلال الحكم العثماني الأخير والاحتلال البريطاني ١٩٠٨-١٩١٨، ص ٣٨٧.

٢. محمد أحمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٠، ص ٢٣٧.

٣. الطاهر، عبد الجليل، العشائر العراقية، ص ٣٠٩؛ العطية، غسان، العراق نشأة الدولة ١٩٠٨-١٩٢١، ص ٣١١.

٤. محمد أحمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٠، ص ٢٣٧.

بعض الأحيان تهجيرهم منها، لكي تسكن فيها عشيرة الملتزم الجديد؛ وبذلك تكون مئات العوائل مهتدةً بالمجاعة، إذ كانت الزراعة مصدر عيشهم الرئيس، فضلاً عن فقدانهم لأرضهم التي عاشوا وترعرعوا على ظهرها، وبهذا الأسلوب كانت هذه السياسة تمثل العصا الغليظة لسلطات الاحتلال للتنكيل بالعشائر التي تهدد وجود قوات الاحتلال البريطاني.

أمّا في لواء المنتفق، فقد كانت الأوضاع مغايرةً لما هو موجود في العمارة، حيث إنّ عائدة الأراضي في المنتفق لم تكن للدولة جميعها، بل أغلب أراضيها استحوذ عليها آل سعدون بسندات الطابو من الدولة العثمانية مقابل مبالغ زهيدة<sup>١</sup>، وهذا خلق مشاكل كثيرة، منها كثرة المدّعين للملكية الأرض، وعدم وضوح رسوم السندات المقدمة كإثبات للملكية الأرض، فضلاً عن صعوبة تمييز الحدود المرسومة على السندات والحدود الفعلية، إضافة إلى عدم اعتراف العشائر بملكيّة آل سعدون<sup>٢</sup>.

لذا كانت هذه المشكلة مقلقةً لسلطات الاحتلال البريطاني، خوفاً من إثارة الاضطرابات في المنتفق، ممّا جعلها في مأزقٍ حرج، فهي لا تريد إغضاب آل سعدون لأسبابٍ عسكريّةٍ وسياسيّةٍ، وفي الوقت نفسه لا تستطيع تأييد حقوقهم القانونية بقوة السلاح ضدّ مستأجري أراضيهم من أبناء العشائر للأسباب نفسها، بل عملت على استمالتهم إلى جانبها؛ فضلاً عن توجيهات القيادة الحربية بعدم التورّط في أيّ قضيةٍ تثير المتاعب وتؤثّر سلباً على الهدف الرئيس للقوات

١. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المنتفق في سنوات الاحتلال البريطاني، ص ١٧٣.

٢. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٦٦.

البريطانية، وهو دحر الجيش العثماني<sup>١</sup>.

وعلى هذا الأساس، أتت سلطات الاحتلال إجراءاتٍ توفيقيةً بين الطرفين المتنازعين بصورة مؤقتة، إذ حظر على المحاكم النظر في أي قضية تتعلق بتقرير ملكية الأرض الزراعية، وتعيين مخصصات مالية لبعض ملاكي الأراضي بدلاً من واردات أراضيهم انتظاراً للتسوية النهائية، وتحصيل الرسوم من المستأجرين على أساس مساحة الأرض المثبتة في السند، وليس على المساحة الواقعة ضمن الحدود فعلاً، ويبدو أن هذه الإجراءات نجحت في تهدئة الخواطر، ولم تقم معظم العشائر باضطراباتٍ على سلطات الاحتلال بسبب الأراضي الزراعية<sup>٢</sup>.

وعلى الرغم من نجاح هذه الإجراءات الوقتية، إلا أنها لم تضع حداً نهائياً للمشكلة؛ لذلك أصدرت سلطات الاحتلال البريطاني بيان (الأراضي الأميرية المتنازع عليها)، وذلك في ١٨ كانون الأول ١٩١٨، وقد جاء فيه<sup>٣</sup>:

كل شخص يملك مستمسكاً يخوّله التصرف بأرضٍ وصادراً من الحكومة العثمانية، يعدّ مستأجراً لأراضي الطابو.

مستأجرو الطابو أو من يدعي حق التملك على أرضٍ معينة من الذين شملهم هذا البيان، فعليهم أن يقدموا طلباً للحاكم السياسي لوقف الإجراءات الخاصة التي تجري في مناطقهم، وذلك بعد أن تُسمع هذه الادعاءات من قبل

١. السعدون، خالد حمود، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة خلال الحكم العثماني الأخير والاحتلال البريطاني ١٩٠٨-١٩١٨، ص ٣٨٨.

٢. عبد ربه سكران، عشائر البصرة والإدارة العسكرية البريطانية أثناء الاحتلال عامي ١٩١٦-١٩١٨، ص ٣٢٠-٣٢١.

٣. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٦٧.

الحاكم السياسي أو من ينوب عنه، ويُرفض أيّ ادّعاءٍ يُحدث خلافاتٍ تؤدّي إلى تهديد الأمن العام أو سلامة جيش الاحتلال وراحته.

منح الحاكم السياسي أو من ينوب عنه، أن يحدّد صاحب الحقّ في الأرض، بعد أن يحدّد الإيجار والشروط، وإن لم يجد للأرض أصحابًا، فله الحقّ في أن يؤجّرها إلى الشخص المناسب، كما يحقّ له تقدير حصّة الحاصلات التي تُعطى للفلاح والمستأجرين في أراضي الطابو، وله الحقّ أيضًا في تحديد الضرائب التي تستحقها سلطات الاحتلال<sup>١</sup>.

لذلك استغلّ المحتلّون هذا المشكلة في تفويض الأرض وتحديد عائدتها وقدر الأموال التي تُفرض عليها؛ إذ حرّموا الشيوخ المعارضين لسلطات الاحتلال من حقّهم ومنحوها للذين أظهروا الولاء لسلطات الاحتلال، وبموجب هذه السياسة انتقلت مساحاتٌ شاسعةٌ من الأراضي الزراعيّة إلى أيدي الشيوخ المواليين لهم.

### ثالثًا: العمل (السخرة)

بدخول القوات البريطانية المحتلة للعراق، كان الاحتلال بأمسّ الحاجة إلى عملٍ مدني يسند العمل العسكري؛ إذ برزت الحاجة إلى الأيدي العاملة من السكان المحليين من أجل تنفيذ فتح الطرق البرية والنهرية لغرض نقل معداتها العسكريّة، وتزويد جيشها بالموادّ الغذائيّة والحربيّة<sup>٢</sup>؛ لذلك أنشأت

١. عادل علي عبيد، من أحداث عامي ١٩١٨ - ١٩١٩، بغداد، ١٩٨٤، ص ٢٣١-٢٣٢؛ الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٦٧.

٢. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٧٠.

دائرة الأشغال ضمن الدائرة المدنيّة التي أسّست في البصرة، وتولّى إدارتها القائد هاملتون (Hamilton)، وانحصرت مهامها بالإشراف على إدارة ميناء البصرة، والري، ووسائل النقل النهري والبري<sup>١</sup>.

ولمّا كانت تحتاج إلى كلّ جندي في ساحات القتال، فضلاً عن قلة قواتها بالنسبة لجبهات القتال الواسعة، اعتمدت سلطات الاحتلال على العمّال المحليين رغم ما في ذلك من خطورة، قد تهدّد جيش الاحتلال<sup>٢</sup>. ولتسهيل المهمّة التجأت إلى تطبيق السياسة التي كانت تتبعها سلطات الاحتلال العثماني عند حاجتها لقوى العمل، المتمثلة بالطلب إلى شيوخ العشائر بتجهيز العمّال اللازمين من أبناء العشائر عند الحاجة، وفعلاً نجحت هذه السياسة، فقد لجأت سلطات الاحتلال البريطاني إلى أعمال السخرة بعد احتلالها البصرة بسبب حاجتها الشديدة للعمّال من أجل شقّ الطرق وتعييدها، وبناء الجسور، وإنشاء المعسكرات، فحشرت عشرات الألوف من الفلاحين لهذا الغرض<sup>٣</sup>، كما حقّق الشيوخ المتعاونون مع جيش الاحتلال جميع طلباتهم بخصوص توفير الأعداد اللازمة من العمّال في مشاريع الاحتلال؛ إذ جهّز بعض شيوخ القرنة من سكّان مناطقهم ما يقارب من ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ عامل من أبناء العشائر، للعمل في السكك الحديدية على نهر دجلة خلال عام ١٩١٧<sup>٤</sup>.

أمّا العمارة فلم يختلف وضع الفلاحين فيها عن أبناء العشائر؛ إذ دفع بعض

١. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ٩٠.

٢. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٦٣.

٣. العكيدي، عمار يوسف عبد الله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص ١٧٧.

٤. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ١٦٧.

شيوخ العشائر، مئات الفلاحين للعمل في المشاريع المختلفة، إذ تولّت دائرة الأشغال التي تأسّست في العمارة بعد احتلالها، مهمّة الإشراف على هؤلاء الفلاحين (العمال) من خلال عملهم في إنشاء الطرق بين قلعة صالح والعمارة وعلى الغربي، وتشديد القناطر على القنوات والأنهر<sup>١</sup>.

كما أسّست دائرة الأشغال في المنتفق؛ إذ قدّم لها بعض شيوخ سوق الشيوخ ٤٠٠٠ عاملٍ من أبناء العشائر، للعمل في كربي بحيرة الحمار، وبناء السدود لدرء خطر الفيضانات<sup>٢</sup>، كما كان يحصل المحتلّون على العمّال من الناصرية<sup>٣</sup>.

ومن الجدير ذكره أنّ سلطات الاحتلال استخدمت طرقاً عديدةً من أجل جلب أبناء العشائر للعمل في مشاريعهم المختلفة، منها الاستعانة بشيوخ العشائر المتعاونين معهم، أو من خلال المقاولين، أو استخدام القوة لإجبارهم على ترك مزارعهم تحت تهديد السلاح<sup>٤</sup>، أو دفع الأجور التي كانت تتراوح بين ١١ - ١٣ آنة يومياً للرجال، وحوالي ٨ آنات للنساء والأطفال<sup>٥</sup>، كما لجأت سلطات الاحتلال إلى استغلال الأعراف والتقاليد القبلية بنحوٍ مخطّطٍ له ولمصلحتها لنخوة أبناء العشائر للحصول على العمل المجاني، إضافة إلى أنّ بعض الشيوخ

---

١. العكيدي، عمار يوسف عبدالله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص ١٧٦.

٢. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة ١٩٠٨-١٩٢١، ص ٣١٧؛ الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٧٤.

٣. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ١٦٨.

٤. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٦٣؛ العكيدي، عمار يوسف عبدالله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢، ص ١٧٦؛ الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٧٤.

٥. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ١٦٨.

سَخَّرُوا الفلّاحين للقيام بأعمال الحفر وبناء السدود مجاناً، لقاء حصول الشيخ على تخفيضٍ في حصّة السلطات الحكوميّة على الواردات<sup>١</sup>. وقد بلغ عدد الذين أُسْتُخدموا في أعمال السخرة حوالي ٩٠,٠٠٠ فلاح، فقد كانوا يستخدمون في أعمال أغلبها أعمال شاقّة مثل شقّ الطرق وكري الأنهار. وقد كانت أوضاعهم مزرية؛ إذ يعيشون ظروفاً صحيّةً صعبة، وغالباً ما تنتشر بينهم الأمراض التي تقتل العديد منهم، وكثيراً ما يُفصلون عن ذويهم وبيتعدون عن بيوتهم ومزارعهم لفتراتٍ طويلة، فضلاً عن سوء التغذية الذي أدّى كثيراً إلى عجز الفلاحين عن العمل<sup>٢</sup>.

ويمكن أن نقول إنّ الشعب العراقي، لا سيّما طاقاته الشابة، تعرّضت إلى أقصى حدٍّ من الاستغلال البشع، من قبل قوات الاحتلال ومن الشيوخ المتعاونين معهم الذين فضلوا الإثراء على تجويع وقتل أبناء عشائهم في الأعمال الشاقة، إذ فقد كثيرٌ من أبناء العشائر مصدر عيشهم (الزراعة) بعد أن هجروها غضباً، ومنهم رحل للعمل لفتراتٍ طويلةٍ من دون أن يترك خلفه من يعيل عائلته، ممّا أدّى إلى آثارٍ سلبيةٍ على بعض العوائل الفلاحية التي دفعت أبناءها إلى ممارسة أعمال السخرة.

١. العكيدي، عمار يوسف عبدالله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة

دكتوراه، كلية التربية، جامعة الموصل، ص ١٨٠.

٢. المصدر نفسه، ص ١٧٦؛ الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة

تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٧٤.

## المبحث الثاني: الادارة المدنية

### أولاً: الصحة

كانت الأوضاع الصحيّة في العراق عمومًا، وفي جنوب العراق خصوصًا، مترديةً جدًّا، وتعاني من الإهمال التامّ خلال عهد الاحتلال العثماني، فعلى الرغم من محاولات سلطات الاحتلال العثماني للاهتمام بالجانب الصحي<sup>١</sup>، فإنّها كانت شبه مفقودة، وكان أغلب السكّان يعتمدون الطرق البدائية في علاج الأمراض؛ لذلك انتشرت الأمراض والأوبئة الخطيرة، مثل الطاعون<sup>٢</sup> والملاريا<sup>٣</sup> التي حصدت آلاف الأرواح من العراقيين، لا سيّما أنّ تلك الأمراض والأوبئة قد وجدت البيئة المساعدة للنمو، والمتمثلة بالجو الحار القاسي المتبدّل في الصيف والشتاء وفي الليل والنهار، ووجود الأهوار والمستنقعات الآسنة، وشيوع الغبار والأوحال، وكثرة الديدان والحشرات والبعوض، يضاف إلى ذلك الممارسات الخاطئة التي يستخدمها الناس لعلاج تلك الأمراض والأوبئة التي زادت من خطورتها وانتشارها أحيانًا<sup>٤</sup>.

١. للتفاصيل حول الحالة الصحية في العراق في العهد العثماني ينظر: لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ٣٠٢-٣٢٢.

٢. الطاعون: هو من الأمراض الخطيرة، وأعراضه التي يتميز بها حمى مع التهاب الغدد اللمفاوية في الجسم، وهو مرض مخيف؛ لأنّ فترة الإصابة به حتى الوفاة تكون قصيرة، أي فترة حضانة الفيروس في جسم الإنسان تكون سريعة جدًّا، وغالبًا ما يقترن اسمه بموت أعداد كبيرة من الناس. العرس، عمار عبد الرضا ماهود، الأوضاع الصحية في لواء العمارة ١٩٢١ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣، ص ١٦٦.

٣. الملاريا: تعد الملاريا من الأمراض الخطرة الواسعة الانتشار في العراق، سببه ميكروب حيواني يسمى طفيلي الملاريا، وينتقل بوساطة نوع من إناث البعوض يسمى (الإنوفيليس) تعيش على دم الإنسان؛ وتعدّ الملاريا أشد الأوبئة فتكًا في المناطق الريفية، وتحدث أكبر نسبة من الوفيات بسببها. المصدر نفسه، ص ١٤٢.

٤. العرس، عمار عبد الرضا ماهود، الأوضاع الصحية في لواء العمارة ١٩٢١ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير،

وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى لم يكن في العراق سوى ثلاثة مستشفيات؛ واحدة في بغداد، والثانية في الموصل، والثالثة في البصرة، سعة كل واحدٍ منها عشرون سريراً، أمّا لواء المنتفق والعمارة، فيوجد فيها مستوصفات، سعة كل منها (١٥) سريراً، تكاد تنعدم خدماتها، كما أنّ عدد الأطباء العراقيين كان قليلاً جداً؛ لهذا لم يترك العثمانيون عند انسحابهم من العراق ما يمكن أن يعتمد عليه من المؤسسات الصحيّة، غير أبنية متداعية لمستشفياتٍ عسكريّة<sup>٢</sup>.

وبعد أن احتلّ الجيش البريطاني مدينة البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ اتخذها قاعدةً عسكريّة للانطلاق باتجاه جميع أراضي العراق، وقد تعرّضت هذه القوات إلى خسائر بشريّة ليست بقليلة، كانت أغلبها ناتجةً عن الإصابة بالأمراض المتوطّنة أو الوافدة، لا سيّما أنّ جيش الاحتلال ساعد على ظهور هذه الأمراض؛ بسبب ما خلفه من ازدحام في مدينة البصرة؛ الأمر الذي أدّى إلى تراكم النفايات، ومياه المجاري في قنوات المياه، فأدّى ذلك إلى اندثار بعضها، وتعرّقت عملية المد والجزر في النهيرات التي تسقي البساتين، فضلاً عن أنّ دخول القوات البريطانيّة ترافق مع حلول الشتاء الذي يتّصف بهطول الأمطار

---

جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣ م، ص ١٤٠؛ السامرائي، أحمد محمود علو مهدي، أحوال العراق الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩٢٠، ص ٣٤٦.

١. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٧٣؛ العرس، عمار عبد الرضا ماهود، الأوضاع الصحيّة في لواء العمارة ١٩٢١ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣ م، ص ٦٩.

٢. الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦ - ١٩١٧، ص ٧٣٥؛ العرس، عمار عبد الرضا ماهود، الأوضاع الصحيّة في لواء العمارة ١٩٢١ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣ م، ص ٦٩.

وانتشار الأوبال، الأمر الذي أدى إلى انتشار الأمراض<sup>١</sup> بين الناس عامّة، وبين أفراد قوات الاحتلال البريطاني خاصة<sup>٢</sup>.

وبما أنّ حياة الجنود البريطانيين كانت مهددةً بالأمراض التي يرتبط بعضها بنظافة المدينة، فقد اهتمّت الإدارة المدنية بشؤون التنظيف والخدمات الصحيّة، كضرورة لإبقاء القوات البريطانيّة بمنأى عن الأمراض لتواصل إتمام مهمتها العسكريّة، فضلاً عن المردود الاقتصادي المتوقّع حصوله من وراء تقديم هذه الخدمات<sup>٣</sup>.

إنّ حاجة القوات الاحتلال البريطاني الملحّة لمبانٍ صحيّة في البصرة، ولعدم صلاحيتها إنّ وُجدت، دفعها إلى السيطرة على بعض مباني السكن، وترميم بعض المباني الحكومية، واتّخاذها مستشفياتٍ عسكريّة لمعالجة أفراد قواتها، منها قصر الشيخ خزعل في محلّة الرباط لاستقبال مرضى القاعدة البريطانيّة العسكريّة، وقصر الحاج محمود النعمة المطلّ على شطّ العرب في منطقة يوسفان لمعالجة الضباط، كما استولت على أحد الدور السكنيّة في القرنة، وحوّلتها إلى مستشفى بريطاني، بعد أن زوّده بملاك طبي؛ إذ تمت الاستعانة بأحد الأطباء العراقيين ومساعد طبي هندي، وكان لمستشفى البعثة التبشيريّة البروتستانتية الأمريكيّة (مستشفى لانستك التذكاري) دورٌ في تقديم الخدمات الصحيّة لقوات

١. أدّى دخول جيش الاحتلال البريطاني مع أعدادٍ كبيرةٍ من الأجانب إلى البصرة إلى انتقال أمراض وافدة إلى العراق، مثل مرض النزلة (الإنفلونزا) الوافدة من الهند وأوروبا، وانتشار أمراض التهاب السحايا والحمى بين سكّان البصرة، إذ أدّت هذه الأمراض إلى قتل أعدادٍ كبيرةٍ من الأهالي. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٤٠٤.

٢. المنصور، جعفر عبد الدائم بنيان، الحالة الصحيّة في البصرة ١٩٢١-١٩٣٩، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ١٩٩٨، ص ٥٤.

٣. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٥٦-٥٧.

الاحتلال، كما اتّخذت من بعض السفن الراسية في شطّ العرب مستشفيات مهيّأة لمعالجة أفراد قوّاتها أو نقل المرضى والجرحى منهم إلى الكويت، ومن ثم إلى الهند لمعالجتهم هناك<sup>١</sup>.

وللارتباط الوثيق بين النظافة والأمراض، فقد اهتمّت الإدارة المدنية كثيرًا بنظافة المدينة، وبما أنّ العمل في الخدمات التنظيفيّة ليس مرغوبًا به من السكّان المحليين؛ ولأنّه يتطلّب جانبًا اقتصاديًا كبيرًا، فقد فضّلت سلطات الاحتلال جلب عمّالٍ من الهند ليقوموا بهذه الأعمال، وليكونوا بمنزلة عيونٍ لسلطات الاحتلال البريطاني في المدينة تراقب المواطنين، ولتكون جيشًا مدنيًا يمكن الاعتماد عليه عند الحاجة<sup>٢</sup>.

ويعتقد الباحث أنّ عزوف الأهالي عن العمل في المشاريع الخدمية ناتجٌ عن تفضيلهم العمل الحرّ أو الزراعة، فضلًا عن احتقارهم لأعمال التنظيف، إذ يعتقد العراقيون خطأً بأنّ العمل في التنظيف، سواء في البيت أم في الشارع يعدّ من الأعمال المعيبة على الرجل.

إنّ أهمية الجانب الصحيّ دفع الإدارة المدنيّة إلى تشكيل دائرة الصّحة المدنيّة في البصرة في ٣٠ كانون الأول ١٩١٤ برئاسة الرائد (نورمن سكوت<sup>٣</sup> N.Scott)،

١. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٨٥؛ المنصور، جعفر عبد الدائم بنيان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١-١٩٣٩، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ١٩٩٨، ص ٥٧؛ الزبدي، حمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦-١٩١٧، ص ٧٣٦.

٢. المنصور، جعفر عبد الدائم بنيان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١-١٩٣٩، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ١٩٩٨، ص ٥٦.

٣. نورمن سكوت N. Scott: طبيب جراح مدني بريطاني، كان يعمل لدى الصحة الهندية، وعمل أيضًا جراحًا في دار المقيم البريطاني في بغداد قبل الاحتلال البريطاني لها، ويتميّز بمعرفته بلغة أهل العراق

الذي تولّى الإشراف على الخدمات الصحيّة بقسميها (البصرة والعشار)، وجعلت لكلّ قسم ضابطاً صحياً؛ إذ أصبح الطبيب المدني يشرف على أعمال التنظيف والصحة العمومية في منطقة البصرة إلى جانب إدارته لمستشفى الحميات، أما الطبيب العسكري، فيشرف على الخدمات الصحية والنظافة في قسبة العشار<sup>١</sup>. ونظراً إلى إيمان قوّات الاحتلال بالتأثير الكبير للمؤسّسات الصحيّة على السكّان؛ بما يخدم مساعيهم لكسب رضی الأهالي، فقد باشرت دائرة الصحة المدنيّة فور تشكيلها بوضع خطة لفتح عددٍ من المستشفيات والمستوصفات بواقع مستشفى في كلّ منطقة (سنجق)، ومستوصف في كلّ قضاءٍ وناحية، وقد تولّى إدارة هذه المستشفيات أطباء عسكريون بريطانيون، فيما عهد بإدارة المستوصفات إلى مساعدي أطباء هنود، وقد اعتمدت هذه المستشفيات في تجهيزاتها الطبيّة على مخازن الجيش البريطاني المحتلّ<sup>٢</sup>.

بدأت دائرة الصحة المدنيّة بفتح أوّل مستوصفٍ في البصرة، بعدما حوّلت أحد الأبنية التي كانت تابعةً لحكومة الاحتلال العثماني التي كانت تستفيد منه كمحل لبيع المواد الكيماوية، وقد تم تحويله إلى مستوصفٍ في كانون الثاني ١٩١٥، مزوّد كادرٍ طبيّ محدود، ثم حوّلت إلى مستشفى بعد أن وسّعته عقب تحويل دائرة الكهرباء العثمانية الملاصقة له إلى جناحٍ إضافيٍّ ألحق به، وتبرّع أحد أثرياء البصرة بعشرة آلاف روبية، وبذلك تمكّنت سلطات الاحتلال من

---

١. الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦ - ١٩١٧، ص ٧٣٥؛ المنصور، جعفر عبد الدائم بنيان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ص ٥٦.

٢. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٣٣٩.

استحداث صالة عملياتٍ جراحيةٍ وشراء أجهزةٍ ومعداتٍ طبيةٍ من الهند، إذ أصبح أواخر عام ١٩١٧ يتسع لـ ١٥٠ سريرًا، وبلغ عدد مراجعيه حتى مطلع العام التالي ٢،٤٨٠ مراجعًا<sup>١</sup>.

كما فتحت سلطات الاحتلال بين عامي ١٩١٥ - ١٩١٦ ثلاثة مستوصفات في البصرة والعشار والزبير، إذ افتتح الأول في محلة الرشدية إلى الشمال من بلدة الزبير، حيث اشتمل على ثلاث غرف تم تخصيصها للمرضى، وغرفة للعمليات الجراحية، وصيدلية، فضلًا عن مرافق خدمية أخرى، وعلى الرغم من صغر بنيته، إلا أن خدماته كانت جيدة نسبيًا إذ أُجريت فيه بعض العمليات الجراحية الصغرى<sup>٢</sup>، أما مستوصف العشار، فقد أُفتتح في ١٩١٥، وذلك تحت إشراف مساعد الطبيب فرانسيس Dr.Francis، وكان يزوره الطبيب المدني في البصرة ثلاثة أيام في الأسبوع لملاحظة المرضى، كما ألحق به في العام التالي من تأسيس المستوصف غرفة لتشريح الجثث التي كان يتم العثور عليها في النهر، بدلًا من إرسالها إلى مستشفى البصرة، أما الأخير فقد فُتح في تموز ١٩١٥ في منطقة الزبير، إلا أن قلة المراجعين، والحاجة في مستشفى البصرة إلى خدمات المشرف الطبي المشرف عليه، جعل الجراح المشرف على شؤون الصحة المدنية في البصرة يقترح إغلاقه، وبالفعل أغلق على فترات متقطعة، إلا أنه سرعان ما عاد إلى العمل

١. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩١٨، ص ٣٨٧-٣٨٩.  
 ٢. المنصور، جعفر عبد الدائم بنیان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ١٩٩٨، ص ٥٨؛ الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦ - ١٩١٧، ص ٧٣٧؛ لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ٣٣٥.

من جديد<sup>١</sup>، وقد وصل عدد المراجعين لتلك المستوصفات خلال المدة ١ نيسان ١٩١٥ إلى ٣١ كانون الأول ١٩١٧ ما يقارب ٧٩،٥٥٧ مراجعاً<sup>٢</sup>.  
ومن أجل الحدّ من ظاهرة الأمراض المعدية التي كانت تنتشر في البصرة، فقد حوّلت سلطات الاحتلال مستشفى الحميات (العزل) في منطقة دويد جنوب غرب مدينة البصرة، والذي كانت تعزل فيه المومسات المصابات بالأمراض الزهرية في العهد العثماني إلى معزل للمصابين بالأمراض المعدية أمثال الطاعون والكوليرا، كما اتّخذت من مستشفى البحرية الواقع في التنومة، محجراً صحياً لمعالجة أفراد قوّاتها المصابين بالأمراض المعدية، بعد أن تمّت إعادة تأهيله، حيث أصبح يستوعب ألف شخصٍ تقريباً، كما فرضت إجراءات الحَجْر الصحي على السفن الوافدة<sup>٣</sup>.

أمّا في لواء العمارة، فقد افتتحت سلطات الاحتلال مؤسّساتٍ صحيّة في قلعة صالح والعمارة، وفي علي الغربي<sup>٤</sup>، وقد كانت هذه المستوصفات عسكرية خاصة بمعالجة أفراد جيش الاحتلال، ممّا دفع الشيخ فالح الصيهد، أحد شيوخ عشيرة البو محمد في قلعة صالح بتقديم (٤٥٠) روية، مساهمة في إنشاء المستوصف في قلعة صالح الذي أنشئ في عام ١٩١٦، فضلاً عن تعهّده بدفع مبلغ الأدوية التي تُصرف للمستوصف؛ وكان الهدف من هذا الإجراء هو السماح لأفراد عشيرته

---

١. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٩٧؛ لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ٣٣٥.

٢. المنصور، جعفر عبد الدائم بنیان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١-١٩٣٩، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ١٩٩٨، ص ٥٨.

٣. م. ن، ص ٥٨-٥٩.

٤. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٥٧.

بالمعالجة في المستوصف المذكور<sup>١</sup>.

أمّا مستوصف العمارة، فقد أنشئ عام ١٩١٧، وكان يحتوي على عشرة أسرة، وبلغ مجموع من رقد فيه خلال فترة الاحتلال ٦٥ مريضاً تقريباً، كما افتتحت سلطات الاحتلال البريطاني في مستوصف العمارة عيادةً خارجيّة، كانت من أكثر الأقسام تعاملًا يوميًا مع السكّان<sup>٢</sup>.

والجدير ذكره أنّ مستوصف قلعة صالح أنشئ قبل مستوصف العمارة، والسبب يعود إلى أغراضٍ عسكريّةٍ منها تركز القوات البريطانيّة في قلعة صالح، وبسبب بعد المسافة بين قلعة صالح والقرنة البالغة حوالي ٦٠ كم<sup>٣</sup>.

أمّا لواء المنتفق، فإنّه بعد احتلال المنتفق من قبل الجيش البريطاني، تشكّلت مؤسساتٌ صحيّةٌ هناك؛ إذ نشأت مستشفى مدني في مدينة الناصرية بعد احتلالها في ٢٥ تموز ١٩١٥، وكان يديرها جراح مدني، إلّا أنّ هذا المستشفى بقي عاجزاً عن استيعاب حالات المرض الشائعة التي تسببها الظروف البيئية المتردّية، وأعداد المراجعين الكبيرة التي وصل عددهم خلال عام ١٩١٨ إلى ٤٦،٢٠٠ مراجع، وعدد الراقدين ٢٧٨ مريضاً، وكان لقلّة الأطباء السبب الرئيس في التأخّر في فتح مستوصفٍ في سوق الشيوخ حتى عام ١٩١٧<sup>٥</sup>، وكان

١. الساعدي، محمد حسين زبون، لواء العمارة في عهد الاحتلال والانتداب البريطاني ١٩١٥-١٩٣٢، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٠، ص ٤٥.

٢. العرس، عمار عبد الرضا ماهود، الأوضاع الصحيّة في لواء العمارة ١٩٢١-١٩٥٨، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣ م، ص ٧٢.

٣. الساعدي، محمد حسين زبون، لواء العمارة في عهد الاحتلال والانتداب البريطاني ١٩١٥-١٩٣٢، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٠، ص ٤٥.

٤. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المنتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٢٦.

٥. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٥٧.

هذا المستوصف يستقبل ما يقرب من (١٤،٧٣١) مراجعاً في السنة، كما أقيمت فيه بالعام نفسه ثلاث عمليات جراحية كبرى، و٣٦٧ عملية جراحية صغرى، وقد فتح مستوصف مؤقت خارج أسوار مدينة سوق الشيوخ في عام ١٩١٨ بعد أن أصابها وباء الطاعون<sup>١</sup>؛ أمّا مدينة الشطرة وقلعة سكر، فلم تتمكن سلطات الاحتلال بعد احتلالها من فتح مؤسسةٍ صحيّةٍ لعدم وجود الأطباء ومساعدتهم أو الموظّفين الصحيّين، ولحاجة الأهالي الملحّة أرسل معاون الحاكم العسكري في الشطرة شخصين من الشطرة وقلعة سكر إلى الناصرية لغرض تدريبهما على عملية اللقاح، كما طلب أيضاً من الحاكم العسكري في الناصرية إرسال معاونٍ جراحٍ إلى الشطرة<sup>٢</sup>.

وعلى الرغم من أنّه لا وجود لبديلٍ غير المؤسّسات الصحيّة التي أنشأها المحتلّون في مدن البصرة والعمارة والناصرية وقصباتها، وإقبال المواطنين عليها، إلّا أنّهم بدأوا يعزفون عنها، وبدأت أعدادهم تتناقص منذ عام ١٩١٧؛ وذلك إثر فرض السلطات المحتلة ضريبةً نقديةً على الدواء والعلاج فيها، ممّا قلّل من قيمة الخدمات التي تقدّمها، فضلاً عن أنّ أغلب المستوصفات كانت تشكو بصورةٍ خاصّةٍ من قلة عدد العاملين فيه، وضعف في كفاءتهم، فضلاً عن قلة في الوسائل الطبيّة اللازمة للعلاج، مضافاً إلى عدم ملائمة أغلب بنايات المستوصفات لتكون بنايات صحيّة<sup>٣</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ سياسة المسؤولين في الدائرة الصحيّة، اتّسمت

١. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢، ص ٧٣.

٢. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٢٧.

٣. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٩٧.

بالتشدد في تنفيذ التعليمات الصحية والمبالغ في تطبيقها، لمنع انتشار الأمراض بين صفوف قواتها، وصل بعضها إلى أثارت مشاعر العراقيين<sup>١</sup>، كما أنّها مارست نوعاً من التمييز فيما يتعلّق بمعالجة المرضى في المستوصفات والمستشفيات البريطانية، وتمثّل ذلك بتقديم الأجانب على العراقيين في المعالجة الطبية كما كانت تفضّل البريطانيّين على غيرهم من الأوروبيّين والهنود<sup>٢</sup>.

وعلى الرغم من هذه الاحتياطات والتشدد في الإجراءات الصحية، التي سارت مع التدابير الوقائية لتحسين الصحة وإشاعة النظافة، إذ استخدمت المراحض والمحارق وتفتيش المجازر والأسواق وشن حملة على الذباب والفئران، وترتيب جمع القمامة من الشوارع، إلا أنّها لم تنجح بإيقاف انتشار كثير من الأمراض والأوبئة التي وفدت مع القوات البريطانية، إذ سجّل في البصرة وحدها ٥١٤ إصابة بوباء الطاعون خلال سنوات الاحتلال، وتوفي ما لا يقلّ عن نصفهم<sup>٣</sup>.

ويبدو أنّ سبب ضعف الخدمات الصحية كان ناتجاً عن قلة المؤسسات الصحيّة بالنسبة لأعداد السكان، وقلة العاملين فيها، إضافة إلى قلة كفاءتهم، فضلاً عن قلة التخصيصات المالية، إذ بلغت نفقات الخدمات الصحية لعام ١٩١٦ - ١٩١٧ (٨٧،١٨٠) روبية من مجموع النفقات العامة البالغة (٣،١٦٣،٢٠٠) روبية، فيما بلغت تخصيصات عام ١٩١٧ - ١٩١٨ (١٣٩،٨٨٧) روبية من

١. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ٨٩.

٢. العرس، عمار عبد الرضا ماهود، الأوضاع الصحية في لواء العمارة ١٩٢١ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣ م، ص ٧٣.

٣. المنصور، جعفر عبد الدائم بنیان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية، ١٩٩٨، ص ٦٠؛ المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٥٧.

مجموع (٢٨٦، ٢٨، ١٠، ٠٢٨، ١٠) روبية<sup>١</sup>.

ويُتضح مما تقدّم أنّ قوات الاحتلال البريطاني لم تكن جادةً في وقاية الشعب العراقي وعلاجه، إلّا بقدر المحافظة على سلامة أفراد قواتها، وتجنّبهم انتقال العدوى للأمراض الفتّاقة، فضلاً عن أنّها رأت في الجانب الصحي أفضل وسائل الإعلام وأسرعها بالوصول إلى المواطنين، وكسب ودّ الأهالي رغم تواضع ما تقدّمه من خدماتٍ صحية؛ لأنّهم كانوا محرومين منها في العهد العثماني، وما يحدث يعطيهم انطباعاً جيداً على وجود الاحتلال البريطاني.

### ثانياً: التعليم

على الرغم من الخطط العثمانية في العراق للنهوض بالواقع التعليمي<sup>٢</sup>، فإنّه لم يرتقِ إلى المستوى المطلوب، فقد كان التعليم نظرياً لا تطبيقياً؛ الأمر الذي عكس حالةً من الفوضى، فضلاً عن قلة المدارس والكوادر التعليمية، كذلك إرهاب الطلاب بكثرة الدروس وباللغة التركية، كما اقتصرت هذه المدارس على مراكز المدن فقط<sup>٣</sup>، كما كان هناك ثلاثة اتجاهات للتعليم، الاتجاه الأول: الاتجاه الرسمي الذي تبنته الدولة، وهو اتجاهٌ عكس سياسة سلطات الاحتلال العثماني الطائفية تجاه أبناء الشعب العراقي من المذهب الشيعي، إذ اقتصر التعليم في المدارس

---

١. الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦ - ١٩١، ص ٧٧٩ - ٧٨٠.

٢. للتفاصيل حول التعليم في العهد العثماني ينظر: التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩١٨، ص ٣٥٨ - ٣٦٢؛ لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩ - ١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ٣١ - ١٠٨.

٣. الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦ - ١٩١٧، ص ٧٢٨.

الحكوميّة على أبناء المذاهب (السنيّة)، ممّا دفع أبناء المذهب الشيعي إلى اللجوء لرجال الدين لتعليم أبنائهم؛ إذ يقتصر هذا التعليم على القراءة والكتابة وتعليم القرآن، وهو يمثل الاتجاه الثاني<sup>١</sup>، أمّا الاتجاه الثالث، فتمثّل بالمدارس الأجنبية أو مدارس الطوائف من غير المسلمين، وينحصر تعليمها بالتعليم الابتدائي فقط<sup>٢</sup>. إنّ سياسة سلطات الاحتلال العثماني الطائفية، وعدم كفاءة المعلمين الأتراك، إضافة إلى قلّة المدارس الرسمية واقتصارها على أبناء المدن من الأثرياء، جعل التعليم متخلفاً كثير في العراق.

وعندما فرضت القوات البريطانية سيطرتها على البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ لم يكن في البصرة سوى دار للمعلمين، ومدرسة ثانوية في البصرة، وثلاث مدارس ابتدائية، واحدة في البصرة، وواحدة في العشار، وأخرى في أبي الخصيب، كما كان هناك مدرسة ابتدائية في الدعيجي تتولّى الإنفاق عليها سابقاً دائرة الأملاك السنية، فضلاً عن عدد من الكتاتيب<sup>٣</sup>، وإلى جانب هذه

١. السامرائي، أحمد محمود علو مهدي، أحوال العراق الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩٢٠، ص ٣٤٧.

٢. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٣٣.

٣. الكتاتيب: وهي نوعٌ من المدارس التي انتشرت في الدولة العثمانية ومنها الأراضي العراقية، وكانت تُعرف باسم مدارس الصبيان (صبيان مكتليري)، وغالبًا ما توجد ملاصقة للمساجد أو مستقلة عنها في مبانٍ مشيدة لهذا الغرض أوكل إليها مهمة تحفيظ آيات القرآن الكريم وتعليم القراءة والكتابة وضبط الأخلاق، ولم يقتصر التعليم في الكتاتيب على الذكور فحسب، بل أوكل إلى بعض النسوة (الملايات) مهمة تدريس الفتيات مع شيء من الاختلاف في طريقة التدريس، إذ كانت الفتيات يتلقين دروسًا في الأشغال اليدوية والمنزلية، فضلاً عن الدروس الدينية، وكانت الدراسة تبدأ في سن السادسة، ولم تكن مدة الدراسة محددة، بل تعتمد على نباهة الصبي ومقدرته على حفظ القرآن وسرعة تعلّمه القراءة والكتابة. لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ٣٣.

المدارس كانت هناك المدارس الأجنبية، وهي المدرسة الأمريكية، والتي تولى إدارتها جون فان آيس، ومدرسة البرت التي يديرها الإباء الكرملين، ومدرسة الكلدان، ومدرسة الالينس اليهودية، والمدارس المتحدة الكاثوليكية، وهي مدارس اللاتين والأرمن والكلدان<sup>١</sup>.

إذ كانت المدارس الحكومية بصورة عامة مغلقة والتدريس فيها معطلاً، حيث غادر معلموها المدينة هرباً من الحرب، وانسحب بعضهم الآخر مع القوات العثمانية المنسحبة من البصرة، كما تعرّضت أغلب أبنيتها إلى الهدم والتخريب، ونهبت أثاثها<sup>٢</sup>.

لم يهتم المحتلون بالجانب التعليمي، لا سيما أنّها وجدت حالة المدارس يُرثى لها؛ إذ كانت تعاني نقصاً شديداً في اللوازم والكتب والأثاث، ويتطلب إصلاحها مبالغ كبيرة، في الوقت الذي لم تكن فيه سلطات الاحتلال مستعدة للإنفاق على هذه المدارس<sup>٣</sup>؛ لذلك لم يكن للتعليم نصيب في الإدارة المدنية التي أسستها سلطات الاحتلال عقب سيطرتهم على البصرة، بل عدّ من الأمور الثانوية، ويشير إلى ذلك السر أرنولد ولسن (Arnold Talbot Wilson) بقوله: «إنّ التعليم يجب أن يؤجّل لحين بلوغ أهدافنا العسكرية»<sup>٤</sup>.

ومن أجل تجميل صورتها أمام المجتمع الدولي، ولكي لا يُقال عنها بأنّها تهمل التعليم وتتخلّى عنه، كلّفت سلطات الاحتلال هنري دوبس (Henry

١. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٦٠-٣٦١.

٢. حضارة العراق، ص ٣٠٢.

٣. الكعبي، جاسم محمد شغيث، أوضاع التعليم في العمارة ١٩٢١-١٩٥٨، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٩، ص ١٨.

٤. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولايتين، ١٦٥١.

(Dobbs) بدراسة قضايا التعليم، بوصفه جزءاً من دائرة الواردات التي يشرف عليها<sup>١</sup>، وقد أوعزت إليه بضرورة الإفادة من الخبرة التعليمية لجون فان آيس مدير المدرسة الأمريكية في وضع الخطوط الرئيسة لسياسة بريطانيا التعليمية في المناطق المحتلة<sup>٢</sup>.

وبعد دراسته لواقع المدارس العثمانية في ولاية البصرة، قدم ملاحظاته حول التعليم في مذكرة رفعها إلى الحاكم العسكري العام في ١٥ شباط ١٩١٥، انتقد فيها السياسة التعليمية العثمانية، مشيراً إلى أن معظم المعلمين كانوا من الأتراك، وهم أناسٌ ذوو أخلاقٍ سيئة، تُدفع لهم أجورٌ عالية لا تتناسب مع مؤهلاتهم، ومدة دوامهم لا تتجاوز الساعتين يومياً، أمّا بالنسبة لبنايات تلك المدارس، فوصفها بأنها غير صحيحة وقذرة، فكان ذلك أحد الأسباب الرئيسة في تردّد الأهالي في إرسال أبنائهم إلى تلك المدارس<sup>٣</sup>.

وقد اقترح هنري دوبس (Henry Dobbs) بضرورة الحذر الشديد من تأسيس نظام جديد للمعارف خوفاً من الأخطاء التي ارتكبت في الهند، إذ لا يمكن إنشاء تعليم عالٍ من دون أساسٍ متينٍ من التعليم الابتدائي والثانوي، كما يجب حلّ مشكلة قلة المؤهلين للتعليم الحديث، من خلال الاهتمام بأعداد المعلمين، عن طريق التعاون مع البعثة التبشيرية الأمريكية، وتقديم منحٍ مالية لها، كي تهيئ

١. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٣٤؛ التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد

الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٦١.

٢. لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه

جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ١٠٩.

٣. الكعبي، جاسم محمد شغيث، اوضاع التعليم في العمارة ١٩٢١-١٩٥٨، رسالة ماجستير، جامعة

البصرة، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٩، ص ١٨-١٩.

صنوفاً لأعداد المعلمين، كما تُعطي منحةً ماليةً أيضاً إلى المعلمين المتدربين لجذب المواطنين لها، ولسدّ حاجة الدوائر الحكومية من الموظفين المحليين تُفتح مدرسة أو مدرستان ابتدائيتان<sup>١</sup>، على أن يكون التدريس باللغة العربية وإلى جانبها اللغة الإنكليزية، وفرض ضريبة على كلّ طالبٍ بمقدار روبية واحدة مع إعفاء أبناء الفقراء الذين لا يستطيعون دفعها<sup>٢</sup>.

وبناءً على تلك التوصيات، فقد سارت سلطات الاحتلال في مجال نشر التعليم ببطء شديد، واقتصرت اهتمامها على المدن وأهل الريف إهمالاً تاماً؛ إذ فُتحت في تشرين الأول ١٩١٥ مدرستان ابتدائيتان حكوميتان، الأولى في البصرة والثانية في أبي الخصيب، أمّا المناهج التي تدرّس فيها فقد سارت أول الأمر على تقديرات المدارس والمعلمين الذين يضعون مناهج دراسية اعتقدوا أنّها تلائم الأحوال والمستوى العلمي للطلبة، ممّا أدّى إلى كثرة المفردات وازدحامها، فضلاً عن أنّها كانت فوق مستوى الطلبة<sup>٣</sup>.

كما تم في الأول من حزيران ١٩١٦ فتح مدرسة ثالثة في الزبير، وبذلك ضمت المدارس الثلاث في عام ١٩١٦-١٩١٧ (١٧٩) تلميذاً، و (١١) معلّمًا، وبعد أن طلب أهالي قلعة صالح من معاون الحاكم السياسي (هيجكوك Hedgecick)، افتتحت لهم مدرسة ابتدائية في ١٦ حزيران ١٩١٦ إذ سُجّل فيها (٩٠) تلميذاً<sup>٤</sup>.

١. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٦٢.

٢. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٣٧.

٣. الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦ - ١٩١، ص ٧٣٢؛ العرس، عمار عبد الرضا ماهود، الأوضاع الصحية في لواء العمارة ١٩٢١ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣ م، ص ١٨٠؛ المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٣٦.

٤. حضارة العراق، ص ٣٠٢؛ الكعبي، جاسم محمد شغيث، أوضاع التعليم في العمارة ١٩٢١-١٩٥٨،

وفي عام ١٩١٧ تشكلت (دائرة معارف البصرة) من مجلس يدعى (مجلس المعارف)، وضمّ في عضويته ممثلًا عن أهالي البصرة، وآخر من دائرة الواردات، وثالثًا عن المدرسة الأمريكية في البصرة، واختير جون فان آيس لرئاسة المجلس، لمعرفته بأحوال سكان البصرة وخبرته في مجال التعليم، فضلًا عن تعاونه مع سلطات الاحتلال، وتولّى المجلس الإشراف على شؤون المعارف في ولاية البصرة<sup>١</sup>.  
وفي آذار من العام نفسه أُفتتحت مدرسة ابتدائية في الناصرية، وقد كان عدد طلابها (٥٠) تلميذًا، وفي العام نفسه أُفتتحت مدرسة ابتدائية في سوق الشيوخ أيضًا، وكان عدد التلاميذ المسجلين فيها (٥٦) تلميذًا<sup>٢</sup>، وفي منتصف عام ١٩١٧، تم افتتاح مدرسة ابتدائية في القرنة بلغ مجموع تلاميذها (٢٠) تلميذًا<sup>٣</sup>، في حين شهد العام التالي افتتاح عددٍ من المدارس الرسمية في كلٍّ من المدينة، وسوق الشيوخ، وعلي الغربي<sup>٤</sup>.

أمّا التعليم الثانوي والنسوي، فلم يحصل على اهتمام سلطات الاحتلال؛ إذ بقي التعليم الثانوي محصورًا بمدارس البعثة التبشيرية الأمريكية، كما تم عام ١٩١٧ فتح صف ثانوي في مدرسة أبي الخصيب الابتدائية، أمّا التعليم النسوي، فقد اقتصر على بعض المدارس الأهلية والأجنبية، منها: المدرسة الأمريكية

١. رسالة ماجستير، جامعة البصرة، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٩، ص ١٨ - ١٩.

٢. الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦ - ١٩١٠، ص ٧٣٣؛ لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ١١٦.

٣. حضارة العراق، ص ٣٠٢.

٤. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩١٨، ص ٣٦٢.

٥. لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ١١٤.

(مدرسة الرجاء العالي)، حيث تولّت دوروثي (Dorothy) زوجة فان أيس إدارتها، حيث قدّمت لها سلطات الاحتلال منحةً ماليةً قدرها (١،٢٠٠) روبية سنويًا، فيما أسست مدرسة أخرى للبنات بأشراف الراهبات الكرمليات<sup>١</sup>، وسمح للصبيان الصغار بالدوام فيها، في حين نُظّمت الدراسة في المدرسة الابتدائية في القرنة بشكلٍ يسمح بمشاركة البنات في المدرسة، إذ فُتح صفٌّ لدوام البنات والصغار، أما الأولاد الكبار، فيسمح لهم بالدوام بعد الظهر، كما أنشأت الطائفة اليهودية مدرسةً ابتدائيةً للبنات في البصرة<sup>٢</sup>.

أمّا التعليم الديني، ورغم الظروف الصعبة، فإنّه لم يتلاش، بل تولّت دائرة الأوقاف الأشراف على المدارس الدينية البالغ عددها (٤) مدارس، موزعةً في البصرة، والعشار، وناحية (السيبة) التابعة لقضاء ابي الخصيب، أعقبها افتتاح مدرسةٍ مماثلةٍ في محلة المشراق سنة ١٩١٨.

وعلى المستوى العام للتعليم في ولاية البصرة، فقد كان يعاني من الإهمال وعدم الاهتمام الجدي في النهوض بالواقع التعليمي في الأراضي المحتلة.

---

١. رهبنة الكرمل: وهم طائفة من أتباع الكنيسة الكاثوليكية تأسست من مجموعة من الرهبان في القرن الثالث عشر الميلادي، وجاءت التسمية نسبةً إلى جبل الكرمل في فلسطين مكان تأسيس هذه الطائفة، ويتميز أتباعها الرهبان بقضاء أغلب حياتهم داخل الدير، ويقضون أغلب يومهم في الصلاة والتأمل، وتتميز الراهبات الكرمليات بملاسهن الطويلة البنية مع غطاء رأس أسود. الموسوعة العربية المسيحية <http://www.christusrex.org/www1/ofm/1god/ordini/karmel/index.htm>

٢. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٦٧؛ الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي - ام - كريستجي) ١٩١٦ - ١٩١، ص ٧٣٢.

٣. لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ١١٦.

ومن الجدير ذكره أنّ سلطات الاحتلال اتبعت في سياستها التربويّة سياستها المقية المتمثلة في فصل مجتمع الريف عن المدينة، إلى حدّ التخطيط لإيجاد مدرسةٍ داخليةٍ خاصّة لأبناء مشايخ العشائر على طراز مدرسة (غوردن كوليدج -Gor-donCollege) <sup>١</sup> في الخرطوم، أو كليات الرؤساء (العشائرين) في الهند <sup>٢</sup>.

ويبدو أنّ عدم الاهتمام بقطاع التعليم انعكس سلباً على التخصيصات المالية لهذا القطاع، فقد كانت التخصيصات المحدّدة لا تكفي إلاّ لتأسيس عددٍ قليلٍ جدّاً من المدارس، ففي سنة ١٩١٥-١٩١٦ لم يُنفَق على المعارف سوى ٦٥٠٠ روبية، أي ما يعادل ٤,٠٪ من مجموع مصروفات الدوائر المدنية الأخرى البالغة ١,٦٢٢,٣٤٤ روبية، في حين بلغت نفقات المعارف في السنوات ١٩١٦-١٩١٧ مبلغ ٢٣,٥٣٠ روبية وفي ١٩١٧-١٩١٧ مبلغ ٣٥,٥٠٠ روبية <sup>٣</sup>.

ومما تقدّم يتّضح لنا بأنّ سلطات الاحتلال لم تهتم بقطاع التعليم، ولم تكن جادةً في مسعاها من أجل النهوض بالواقع العلمي لأبناء المناطق المحتلة، إلاّ بقدر ما كانت تحتاجه من إعداد موظّفين محليين، يساعدها في إدارة حكم

١. مدرسة غوردن كوليدج Gordon College: أنشأت في السودان بناء على اقتراح اللورد كتشنر عند تسلمه الدرجة الفخرية من جامعة أدنبرة عام ١٨٩٩، تخليداً للذكرى الجنرال تشارلز جورج غوردون، في ٨ تشرين الثاني ١٩٠٢. وكانت في البداية بمستوى مدرسة ابتدائية ثم طبق نظام الدراسة الثانوية بعد المرحلة الابتدائية في العام ١٩٠٥، وبعد عام أنشأ قسم لتخريج معلمين للمدارس الأولية تمتدّ فترة الدراسة فيه لمدة أربع سنوات بعد الابتدائي؛ وبذلك أصبحت كلية غوردون متخصصة في إعداد الإداريين والفنيين والمعلمين للعمل بخدمة الحكومة. <https://www.britannica.com/place/Gor-don-Memorial-College>

٢. حنا بطاطو، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ١/٢٠١٢.

٣. لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣، ص ١٢٥.

العراق، كما أنّها عملت على تغييب التعليم في الريف العراقي بغية إبقائه بعيداً عن التنوير والاندماج في الحياة الحديثة، من أجل تعزيز سلطة الشيوخ والنظام الإقطاعي الذي أكدت عليه قوانين الاحتلال، خاصة أنّ هذا النظام لا يتم إلا في مجتمع متخلف علمياً، وبعيد عن الحضارة.

ويبدو أنّ سلطات الاحتلال البريطاني، لم تكن قد خطّطت مسبقاً للإدارة المدنية في العراق؛ لذلك لجأوا إلى استخدام نظام آني مزيج من النظام العثماني والهندي، يُدار مباشرة من قبل الموظّفين البريطانيين عسكريين كانوا أم مدنيين، وذلك من أجل السيطرة المباشرة على العراق، وتحويله إلى مستعمرة خاضعة إلى حكومة الهند البريطانية، ومرتبطة بها اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً.

## الخاتمة

بعد استعراض بعد استعراض وتحليل الإدارة الاقتصادية والمدنية في العراق خلال فترة الاستعمار البريطاني (١٩١٤-١٩١٨)، يتضح أن هذه المرحلة شكّلت نقطة تحوّل مهمّة في تاريخ العراق الحديث؛ فقد فرضت الإدارة البريطانية نظامًا إداريًا يستهدف تحقيق مصالحها الاستراتيجية، ممّا أدى إلى تغييراتٍ جوهرية في الهيكل الإداري والاقتصادي، وكذلك في قطاعات الصحة والتعليم.

أُتّسمت سياسات الاحتلال البريطاني بإعادة تشكيل المؤسسات الإدارية وفق رؤية استعمارية تهدف إلى تعزيز السيطرة المركزية. فقد أولت الإدارة البريطانية اهتمامًا كبيرًا لاستغلال الموارد العراقية لتلبية متطلباتها الحربية والاقتصادية، وهو ما انعكس سلبيًا على القطاعات الإنتاجية التقليدية، لا سيّما الزراعة والتجارة، وأسفر عن تشوّه في بنية الاقتصاد الوطني.

وفيما يتعلّق بالسياسة المالية، التي تُعد من الركائز الأساسية للإدارة المدنية للاحتلال البريطاني، فقد ركّزت على فرض الضرائب كأداة للسيطرة على الاقتصاد العراقي واستغلال موارده؛ لذا، أنشئت دائرة الواردات للإشراف على الشؤون المالية، وشهدت الضرائب تنوعًا وازديادًا ملحوظًا بعد بسط القوات البريطانية سيطرتها على البلاد. كما لجأت الإدارة البريطانية إلى استغلال العمالة العراقية من خلال نظام السخرة، حيث أُجبر عشرات الآلاف من الفلاحين على العمل في مشاريع مختلفة تحت ظروفٍ قاسية وغير إنسانية.

أمّا على الصعيد الصحي، فقد استمرت معاناة السكّان في ظلّ الاحتلال البريطاني، فعلى الرغم من اهتمام الإدارة المدنية البريطانية بتطوير خدمات النظافة

والرعاية الصحيّة، فإنّ ذلك كان يهدف بالدرجة الأولى إلى الحفاظ على صحّة القوات البريطانيّة. وقد أُنشئت بعض المستشفيات والمستوصفات، لكنّها عانت من نقصٍ في الإمكانيات والكوادر الطبيّة، ممّا يدلّ على أنّ الاحتلال لم يكن جاداً في تحسين الأوضاع الصحيّة للسكّان المحليين إلّا بالقدر الذي يخدم مصالحه. وفيما يخصّ قطاع التعليم، فقد بقي متخلّفاً وضعيفاً خلال فترة الاحتلال؛ إذ عانى من قلة المدارس والكوادر التعليميّة. ولم تُبدِ السلطات البريطانيّة اهتماماً فعلياً بتطوير التعليم، إذ عدّته مسألةً ثانويّةً، ولم تسع إلى تحسينه إلّا بالقدر الذي يلبي حاجتها إلى موظفين محليين لخدمة إدارتها. وفي الختام فإنّ تجربة الاستعمار البريطاني في العراق لم تكن مجرد محلة انتقاليّة، بل كانت ذات تأثير عميقٍ على مستقبل البلاد السياسي والاقتصادي، وتفاقم المشاكل الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة في العراق.

## المصادر

### أولاً: الرسائل والأطاريح الجامعية

١. البياتي، فلاح محمد خضير، أساليب السياسة البريطانية في العراق ١٩١٧ - ١٩٢٠، جامعة بابل، كلية التربية الأساسية، ٢٠٠٩.
٢. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢.
٣. الساعدي، محمد حسين زبون، لواء العمارة في عهد الاحتلال والانتداب البريطاني ١٩١٥-١٩٣٢، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٠.
٤. الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٥.
٥. العرس، عمّار عبد الرضا ماهود، الأوضاع الصحية في لواء العمارة ١٩٢١ - ١٩٥٨، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة، كلية الآداب، ٢٠١٣ م.
٦. العكيدي، عمّار يوسف عبد الله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢.
٧. الكعبي، جاسم محمد شغيث، أوضاع التعليم في العمارة ١٩٢١-١٩٥٨، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة، كلية التربية للبنات، ٢٠٠٩.
٨. لمى عبد العزيز مصطفى عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة الموصل، كلية الآداب، ٢٠٠٣.
٩. محمد أحمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٠.
١٠. المنصور، جعفر عبد الدائم بنيان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة، كلية التربية، ١٩٩٨.

### ثانياً: الكتب العربية والمعربة

١١. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩١٨، بغداد،

.١٩٧٩

١٢. حنا بطاطو، العراق، الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، ترجمة عفيف الرزاز، بيروت، ١٩٩٥.

١٣. سرارنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولاتين، ترجمة فؤاد جميل، تقديم علاء نورس، بغداد، ط٢، ١٩٩١.

١٤. السعدون، خالد حمود، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة خلال الحكم العثماني الأخير والاحتلال البريطاني ١٩٠٨-١٩١٨، لبنان، ط١، ٢٠٠٦.

١٥. الطاهر، عبد الجليل، العشائر العراقية، بغداد، ١٩٧٢.

١٦. الطاهر، عبد الجليل، العشائر والسياسة، تقرير سري لدائرة الاستخبارات البريطانية عن العشائر والسياسة، د. ت.

١٧. عادل علي عبيد، من أحداث عامي ١٩١٨ - ١٩١٩، بغداد، ١٩٨٤.

١٨. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة ١٩٠٨-١٩٢١، لندن، ١٩٨٨.

١٩. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، بغداد، ٢٠٠٨.

٢٠. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المنتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، النجف الأشرف، ط١، ٢٠٠٨.

٢١. فيليب ويلارد ايرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، ١٩٤٩.

٢٢. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، ط١، ٢٠١٠.

### ثالثاً: البحوث المنشورة

٢٣. الزيايدي، محمد صالح، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البصرة من خلال كتاب الرحالة الهندي (سي-ام-كريستيحي) ١٩١٦ - ١٩١٧، مجلة آداب البصرة، ع ٦٣، م ٢، ٢٠١٢.

٢٤. السامرائي، أحمد محمود علو مهدي، احوال العراق الاجتماعية في ظل الاحتلال البريطاني ١٩١٤ - ١٩٢٠، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، م ١٦، ع ٩، ايلول ٢٠٠٩.

٢٥. عبد ربه سكران، عشائر البصرة والإدارة العسكرية البريطانية أثناء الاحتلال عامي ١٩١٦ -

١٩١٨، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مجلد ١٣، ع ٥، ٢٠٠٦.

٢٦. الموسوعة العربية المسيحية

[www.christusrex.org/www1/ofm/1god/ordini/karmel/index.htm](http://www.christusrex.org/www1/ofm/1god/ordini/karmel/index.htm)

# خَطُّ التَّنْمِيَةِ الزَّرَاعِيَّةِ لِلإِدَارَةِ الْبَرِيْطَانِيَّةِ وآثارها على العراق (١٩١٧-١٩١٩)

د. فراق داود سلمان الشلال<sup>١</sup>

## المُلخَص

تُعد بريطانيا في مقدمة الدول الأوربيَّة التي أبدت اهتمامها بالعراق منذ القرن التاسع عشر، وإبان اندلاع الحرب العالميَّة عام ١٩١٤م، قامت باحتلاله لموقعه الاستراتيجي المتميز، الذي يربط بين القارات، فضلاً عن وفرة موارده الطبيعيَّة؛ ولذلك سخَّرت الإدارة البريطانيَّة في أثناء سيطرتها على العراق، كلَّ إمكانيَّاتها للاستحواذ على مقدرات العراق الاقتصاديَّة؛ ولتحقيق هذه الغايات دأبت سلطات الاحتلال البريطاني على التستر بإقامة مشاريع اقتصاديَّة زراعيَّة وصناعيَّة وتجاريَّة، ورفع شعارات المصلحة العامَّة ومنفعة العراقيين، إلا أنَّ هذه الشعارات لن تقنع العراقيين الوطنيين الذي قاوموا المحتل لنيل الحرية والاستقلال.

الكلمات المفتاحية: القطاع الزراعي، التنمية، الإدارة البريطانيَّة، ويلكوكس، الاقطاع.

١. متخصصة في التاريخ الحديث والمعاصر / جامعة البصرة - العراق.

## المقدمة

يعتمد اقتصاد أيّ دولةٍ على القطاع الزراعيّ لتحقيق الأمن الغذائيّ، وتوفير مستلزمات الإنتاج للقطاعات الأخرى، فضلاً عن تغطية حاجة الاستهلاك المحليّ من الموادّ الغذائيّة، واعتمد العراق على الزراعة طيلة عهوده السابقة لتلبية الحاجات الاستهلاكيّة الغذائيّة، ولكن خلال مدة الاستعمار البريطاني للعراق أُستغلّت أراضيّه الزراعيّة لتحقيق المآرب الاستعماريّة، وكرست الإدارة البريطانيّة كلّ جهودها الممكنة من أجل تعزيز منفعتها الماديّة، فتهاوت بذلك شعاراتها التي رفعتها بشأن التطوير؛ إذ من الحقائق الواضحة للعيان أنّه لا يمكن بأيّ حالٍ من الأحوال تطوير العراق وهو ساحةٌ للعمليات العسكريّة البريطانيّة.

وبالرغم من وضع العديد من مخططات التنمية الزراعيّة البريطانيّة للأراضي العراقيّة من شماله الى جنوبه، إلّا أنّها لم تعمل على إجراء أيّ تغييراتٍ رئيسيّةٍ في ملكيّة الأراضي؛ ولذلك استوجبت مصالح الإدارة البريطانيّة إيجاد دعامةٍ اجتماعيّةٍ محليّةٍ لها كي تبقى سيطرتها بفعالية أكبر، وبتكلفةٍ زهيدةٍ. ووجدت ضالتها في إعطاء بعض شيوخ العشائر الذين تعهّدوا بالمحافظة على الوضع القائم، امتيازاتٍ كثيرةً كان من أهمّها استحصال الضرائب، التي وقع ثقلها على المالكين الأصليين للأراضي وهم الفلاحون العراقيون، الذين قامت على اكتافهم الانتفاضات الوطنيّة والثورات للتحرّر من السيطرة البريطانيّة.

ومن هنا جاءت أهميّة البحث التي تتمثّل في توضيح نوايا الإدارة البريطانيّة في ربط الاقتصاد العراقي بالاقتصاد والرأس المال الاجنبي. وبناءً على ذلك ينطلق البحث من سؤالٍ مفاده: هل نجحت الإدارة البريطانيّة في تحقيق أهداف التنمية الزراعيّة في العراق؟

وتدور مشكلة البحث حول سعي الإدارة البريطانيّة الى تأمين احتياجات

جيشها عن طريق الاستيلاء على الأراضي والممتلكات العراقيّة، وتشغيل العراقيين فيها بنظام السخرة بعد أن تنكّرت بريطانيا لوعودها للشعب العراقي بحماية أمن العراق وصون كرامة العراقيين.

لقد نُظّم البحث في مبحثين سبقهما مقدمةٌ وتلاههما استنتاجات، ولقد تناول المبحث الأوّل (خطط التنمية الزراعيّة للإدارة البريطانيّة)، واستعرض المبحث الثاني (آثار خطط التنمية الزراعيّة للإدارة البريطانيّة على العراق).

### المبحث الأول: خطط التنمية الزراعية للإدارة البريطانية

كانت الزراعة إبان الاحتلال البريطاني للعراق عام ١٩١٤ م في حالة بدائية جداً؛ لانعدام الأمن وانتشار الجهل بين الناس، وكانت هناك مشاكل مناخية عانى منها القطاع الزراعي مثل كثرة الفيضانات والأمطار، هذا فضلاً عن انتشار الأمراض والآفات الزراعية التي أدت إلى ضعف نمو المحصول وقلة إنتاجه، وفي بعض الأحيان موته، وهذه الأمور بطبيعة الحال أدت إلى إهمال الانتاج الزراعي وإصابته بأضرارٍ بالغةٍ إلى الحد الذي لم يتمكن من سد الاستهلاك المحلي، فكثرت المجاعات التي أدت إلى وفاة العديد من العراقيين جوعاً<sup>١</sup>.

ونظراً لحاجة الإدارة البريطانية إلى الغذاء عملت في عام ١٩١٧ م على تأسيس مشروع التنمية الزراعية لتلبية احتياجات القوات العسكرية البريطانية وتغطية نفقاتها، وهذا ما أكدته القائم بأعمال المفوض المدني العقيد لافات أ. ت. ويون. وفي ١٧ ديسمبر ١٩١٧ م. أرسل المقيم السياسي البريطاني رسالة إلى حكومة الهند بشأن مسؤوليتها عن خطط التنمية الزراعية، وأبدت حكومة الهند امتعاضها حيال تنازع الإدارة السياسية والمدنية، إذ أبدى المفوض المدني (أ. ت. ويلسون امتعاضه الشديد أيضاً؛ لأنه حرم من الإشراف على تنفيذ المخطط، في الوقت الذي رضخت فيه السلطات العسكرية لهذا الترتيب؛ لأنه لا يوجد قانون مكتوب يذكر أنه يجب أن تكون الحبوب ملكاً للحكومة المدنية<sup>٢</sup>.

وحددت المبالغ التالية: (٢٨٠ روبية لطن واحد من القمح)، و(١٨٨ جنيه

١. ستيفن همسلي لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى ثورة تموز ١٩٥٨، ١٥.

2. Report For the Army Council on Mesopotamia, By Sir John p. Hewett, IOR\L\

MIL\17\15\55, p.7-

إسترليني) و(١٦٨ رويية لطنٍ واحدٍ من الشعير)، و(٦١١ جنيه إسترليني)، التي وجب على الإدارة العسكريّة دفعها للإدارة المدنيّة مقابل الحبوب التي تتلقّاها من أصحاب الأراضي، وإزاء ذلك شعرت حكومة الهند أن هذا هذه الأسعار مرتفعة جدًّا، ومن شأنها أن تمنح الإدارة المدنيّة ربحًا على حساب الجيش، وهذا الأمر يخلو من العدالة.<sup>١</sup> وبقيت مشكلة تنفيذ المخطّط قائمة؛ وذلك لأنّ من الصعوبة التمييز بين حبوب الإيرادات الناتجة عن الزراعة العادية، والحبوب الناتجة عن زيادة الناتج عن المخطّط، فضلًا عن أن عائدات الحبوب قد تمّ التعامل معها على أنّها لإدارة الضرائب، ولم يبقَ سوى حلٍّ وحيدٍ فرض نفسه وهو أن تكون إدارة الضرائب مسؤولةً مسؤوليّةً كاملةً عن الإيرادات للمخطّط.

وافق المفوض المدني على مضمّن لقبول الإشراف وتنفيذ المخطّط الزراعي باستثناء النفقات المتنوّعة التي كان يقصد بها نفقات الجيش؛ لذلك أعرب المفوض المدني عن رأيه في هذا الخصوص بأنّ الإنفاق العسكري يجب أن يحسب على الأموال العسكريّة، ويجب أن يكون للحكومة جزءٌ من أموال الجيش وبأيّ طريقةٍ كانت؛ لأنّ الإدارة العسكريّة كانت قد اعترضت مسبقًا على إنشاء الجسور التي تمت لأغراضٍ عسكريّة<sup>٢</sup>. ووقع اختيار الإدارة البريطانيّة على جاربيت (Garbet)، لإدارة وتنفيذ مخطّط التنمية الزراعيّة في العراق، لمعالجة شحّة الغذاء والقضاء على المجاعة؛ ولذلك تولّى مهام رئاسة مجلس الإيرادات العام<sup>٣</sup>.

١. لمى عبدالعزيز عبدالكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب / جامعة الموصل، ٢٠٠٣، ص ٢٣١.

2. Report For the Army Council on Mesopotamia، By Sir John p. Hewett, IOR\L\MIL\17\15\55,p.11

٣. ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث ١٩٠٠-١٩٢٠، ١٥٩.

وكان جاربيت يمتلك خبرةً في ضبط الإيرادات، وبالرغم من أنه لم يكن لديه موظفون أكفاء يعملون معه إلا أنه كان يمتلك معرفةً كبيرةً بطبيعة الأراضي العراقية الزراعية، انتبه جاربيت في أثناء زيارته الرسمية الأولى للمنطقة أن الأراضي الواقعة على قناة الدغارة هي من الأراضي الصالحة لزراعة القمح والشعير<sup>١</sup>. ورأى جاربيت أن البذور الهندية من القمح والشعير والأرز والبالغة (٩٨٢٧ طن) لم تكن تلائم بيئة العراق؛ لأن الظروف المناخية في البنجاب تلائمها كثيرًا، والمساحة المروية بالقناتين المنطقتين من سدّ الهندية أقلّ كثيرًا مما كان متوقعًا من تدفق المياه الجوفية، والري في هذه المنطقة يجب أن يرتفع ليصل إلى الأراضي المزروعة، وكانت توقعات جاربيت أن المحصول سيبلغ (٢٥٦ طن سنويًا) في حال توفر مياه صالحة للري من القنات<sup>٢</sup>.

وسعى رجال الأعمال البريطانيون إلى استثمار أموالهم في العراق من خلال سعيهم للحصول على امتياز لتنمية الأراضي الواقعة جنوب نهر دجلة، فأرسلت شركة شرق إفريقيا للأراضي والتنمية (-East Africa For Land and Development)، وشركة فانتى (Fanti) للمناجم الموحدة المحدودة مديرها التنفيذي إ. جيدج (E.Judge) إلى العراق في ٢٣ حزيران عام ١٩١٧م، والتقى بالقائم بأعمال المفوض المدني في بغداد أرنولد تالبوت ويلسون (-Arnold Talbot Wilson)، ووزير الدولة لشؤون الهند إدوين صامويل مونتاجو (Edwin Samuel Montagu). وبعد هذا اللقاء توصلت الأطراف المجتمعة إلى أن المشاكل التي

1. Report For the Army Council on Mesopotamia ,By Sir John p .Hewett -,IOR\L\MIL\17\15\55,p.13.

2. Report For the Army Council on Mesopotamia ,By Sir John p .Hewett ,IOR\L\MIL\17\15\55,p.14.

يعاني منها القطّاع الزراعي في جنوب نهر دجلة هي<sup>١</sup>:

١. كثرة المستنقعات بسبب عدم قدرة الأنهار على تزويد القنوات بكميّات كافية من المياه.

٢. انتشار البدو الرُّحّل.

٣. الظروف المناخيّة السائدة من ارتفاع درجات الحرارة في الصيف، والأمطار الغزيرة في الشتاء، التي تؤدّي إلى الفيضانات.

ويبدو أنّ الإدارة البريطانيّة وجدت أنّ عملية تحسين الأنهار العراقيّة للملاحة البريطانيّة أو استخدام مياهها للري أمرٌ غاية في الصعوبة؛ لأنّها من المشكلات المرتبطة بعلم الجيولوجيا والجغرافيّة الطبيعيّة للأرض والزراعة والغابات؛ لذلك أوعزت الإدارة البريطانيّة في فبراير/ شباط عام ١٩١٨م، إلى إيفاد جون وارد (Johan Wared) المفتّش العام للري في الهند، وجي أس هندرسون (G.S, Henderson) المزارع الإمبراطوري من الهند، لمساعدة القائد العام في البحث عن أفضل الأساليب لضمان التنمية الكاملة للموارد المحليّة في العراق، وهما مكلفان بإعداد التقديرات الخاصّة بتكاليف الزراعة لموسم الحصاد لعام ١٩١٩م، ورافقت زيارتهم زيارة إدوارد أاثام (Edward Atham) مدير الإمدادات العام في الهند، وتوماس هولاند (Thomas Holand) رئيس مجلس الذخائر<sup>٢</sup>. وفي ١٥ آذار ١٩١٨م، أرسل القائد العام للقوات المسلّحة إلى رئيس الأركان العامّة في الهند تقريراً داخليّاً من هذين الرجلين لتمكينهما من صياغة المطالب المتعلّقة بالمعدات الزراعيّة المطلوبة بشكلٍ عاجلٍ قبل مغادرة

١. حسين علي فليح، وزارة الزراعة في العراق، رسالة ماجستير، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد،

٢٠١٥، ص ١٥.

٢. المصدر نفسه، ١٧.

رئيس الأركان العامة، ورئيس مجلس الذخائر بغداد، وقدم هندرسون تقريراً آخر عن الزراعة في العراق إلى رئيس الأركان العامة في الهند ١٥ ابريل ١٩١٨ م. يتم توفير مساحة ١٥٠٠٠٠ فدان للجيش من القمح<sup>١</sup>.

في عام ١٩١٨ م، بلغت الإيرادات العينية بالنسبة لمحصول الربيع لذلك العام نحو (٤٧،٧٤٢ طن)، وهو تقريبا قريب لتقدير (٥٠،٠٠٠ طن)، مثلما توقع جاريت من الحبوب الإيرادية التي تم الحصول عليها من المخطط، يتم تقييم الإيرادات الحكومية بنسبة (١/٥) من الإنتاج، وإن هذا التقييم لم يتم استرداده بالكامل نظراً لنقص الموظفين. وفي حال مضاعفة الطلب على الإيرادات خمسة أضعاف، فإن الزيادة تكون بنسبة ٢٥٪. وإن الطلب على الإيرادات البالغ (٤٨٠٠٠٠ طن) سيعطي عند هذا الحساب محصولاً إجمالياً قدره (٣٠٠٠٠٠٠ طن)، وهذا الأمر لن يحصل ما لم يكن هناك تطهير لقنوات الري<sup>٢</sup>.

أمّا فيما يخص أعمال كري الأنهار والسدود الترابية التي قامت بها الإدارة البريطانية فقد تم تقسيم الأراضي القابلة للزراعة في العراق من حيث طرق الإرواء، إلى نوعين: الأراضي المطرية، والأراضي السحيحة. وفي وسط العراق خضعت السهول الرسوبية في فيضانات نهر دجلة أغلب المواسم الزراعية<sup>٣</sup>. وقبل الاحتلال البريطاني للعراق لم يكن موجوداً في العراق مشاريع للسيطرة على مياه الفيضان سوى سدة الهندية وحوض الحبانية التي كانت تحت إشراف وليم ويلكوكس (William Wilcox)، الذي قام برسم الخرائط ووضع تصاميم لمشاريع الري وإعمارها عام ١٩١٢ م، وكان أول مشروع وضعه هو الاستفادة

١. الحميري، عبد الرضا، نظام الإقطاع في العراق بين مؤيديه ومعارضيه، ٢٠١٧، ص ٣٩.

٢. المس بيل، صفحات من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٧١، ص ٢٤٧.

٣. الشكرجي، محمد سعيد، جذور فشل بناء الدولة ١٨٣١-١٨٦٩، ٧٠.

من بحيرة الحَبّانية، بعد حفر جدول مدخل الرمادي لتصريف الفيضانات، وحفر جدولٍ تحلية المجرة، الذي يوصل البحيرة بمنخفض بحر الملح للإفادة من المياه المخزونة بإعادتها إلى نهر الفرات قبل وصوله إلى الصقلاوية، ولكن بسبب اندلاع الحرب العالميّة الأولى في أيلول من عام ١٩١٤م، لم يكتمل المشروع<sup>١</sup>.

---

١. الصبيحي، منير عبود، الزراعة ونظام الري في الفلوجة ١٩١٧-١٩٥٨، وقائع مؤتمر جامعة الفلوجة ٢٠٢٠، ص ٨٦٤.

### المبحث الثاني: آثار خطط التنمية الزراعية البريطانية على العراق

اشتمل الجهد البريطاني الحربي في العراق على إقامة عدة مشاريع زراعية، فقد أنشئت مزارع للقطن في أوائل عام ١٩١٨م، تحت إشراف خبير بريطاني بالقطن من دائرة زراعة الهندية في ديللي في بلدروز، وفي تشرين الثاني ١٩١٩م، كان تحت الإدارة المدنية دائرة زراعية يديرها مديرٌ بريطاني، واثنان من نواب المدير، وكيميائي بريطاني، وعالمٌ بريطانيٌ بالحشرات والأمراض التي تصيب المزروعات، فضلاً عن وجود أربعة من المساعدين من الهنود<sup>١</sup>.

واستفادت القوات البريطانية من بناء الثكنات العسكرية وتعبيد الطرق ومدّ السكك الحديدية وتشبيد القناطر، وسدّ حاجتها إلى الأطعمة فضلاً عن تأثيرها في منطقة الفرات الأوسط، ولكن أدى هبوط الانتاج الزراعي، وتوقف استيراد البضائع الصناعية إلى ارتفاع الأسعار، وحصول الاحتكار بسبب الأرباح الفاحشة، وانتشرت المجاعة في المناطق الفقيرة من بغداد والموصل والبصرة، وتفشّت أمراض الطاعون والكوليرا فذهب ضحيتها المئات من العراقيين<sup>٢</sup>.

### أولاً: الآثار الاقتصادية

أدت العمليات العسكرية البريطانية في العراق إلى سوء الأوضاع الاقتصادية بسبب خروج مساحاتٍ زراعيةٍ واسعةٍ من الأراضي الزراعية من العملية الإنتاجية، نتيجةً لارتفاع نسبة الملوحة وضياع الأصناف المحسنة من المزروعات وخاصة الأرز والشعير والقمح، وارتفاع الطلب العالمي على الحبوب، واحتياج

١. هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، ترجمة سليم طه التكريتي، ص ٤٧٥.

٢. العمري، محمد ظاهر، تاريخ مقدرات العراق السياسية، ص ٩٥.

القوات العسكريّة البريطانيّة في العراق والهند إلى الغذاء؛ لذلك جاءت الإدارة البريطانيّة بمخطط تنمية الزراعة الذي كان القصد من وراء هو دمج الاقتصاد العراقي بالرأسمال الأجنبي من خلال قيام الإدارة البريطانيّة باستصلاح عددٍ من شبكات الري وإقامة سدودٍ ترابيّة في كلّ من العمارة وسوق الشيوخ، وكانت غايتهم من ذلك رفع مستوى مياه نهر دجلة؛ بغية تسهيل أمر مرور سفنها العسكريّة، فأثّرت بدورها في تنظيم توزيع المياه على الأراضي الزراعيّة التي انخفض انتاجها الزراعي، ووجدت الإدارة البريطانيّة أنّ من مصلحتها إضافة (١٠٪) من الرسوم الإداريّة المعتادة للنقل المائي التي أصبحت تتحكم فيه، بعد إلغاء نقل المحاصيل الزراعيّة بالاكلاك، وإضافة (٥٪) على أجور تعبئة وتغليف المنتجات الزراعيّة، وبالتالي فإنّ تكلفة استيراد طنٍّ من القمح إلى بغداد ستكون (٢٧٠ روبية)، أي ما يعادل (١٨ جنيهًا إسترلينيًّا للطن الواحد)، و(٢٣٧ روبية) أي (١٥٤ جنيه إسترليني) للطنٍّ من الشعير، وكانت تكلفة استيراد (٢٥٠٠٠ طنٍّ من القمح)، و(١٠٠٠٠٠ طنٍّ من الشعير)، ستبلغ (٣٠٤٣٠٠٠٠ روبية)، (٢٠٣٠٠٠٠٠ جنيه إسترليني) <sup>١</sup>. وكانت النتيجة ارباك الإنتاج الزراعي العراقي وتشجيع المنتج المستورد، وكان الهدف الأول والأخير من وراء ذلك هو ربط الاقتصاد العراقي بعجلة السوق الرأسماليّة العالميّة <sup>٢</sup>.

ووقفت مشكلة الري عائقًا أمام البريطانيين في تنفيذ المخطط، ووجدوا الحلّ في تركيب مضخّات للري، وكان هناك شرطان لتركيب المضخّات قبل نهاية شهر كانون الأول من عام ١٩١٨ م: أن يتم تسليم المضخّات في الوقت المناسب

١. دار الكتب والوثائق، الوحدة الوثائقية، وثائق البلاط الملكي، الملف ٣١٠/٢٥٤٤، تقارير الإدارة البريطانيّة الزراعيّة.

٢. المصدر نفسه.

لتركيبها، وأن يتم شراؤها بتكلفةٍ تسمح للمزارعين بشرائها، وفي حالة عدم استطاعتهم شرائها تقوم الإدارة البريطانية بتقديم قروضٍ للمزارعين بفوائد ماليةٍ تحسب على وفق مساحة الأرض المزروعة وحسب جودة المحصول. ومما تجدر الإشارة إليه أن موافقة مكتب الحرب على الخطة كانت مقتصرةً على بعض الأولوية العراقية وليس جميعها، ويبدو أن هذه الانتقائية جاءت تنفيذاً لتعليقات الملازم كامبل روجرز (CAMPEII ROGERS) <sup>١</sup>.

وبسبب عدم استطاعة المزارعين العراقيين شراء المضخّات، بقيت مشكلة الري دون حلٍّ جذري؛ لذلك جاءت نتائج المحصول الصيفي الذي تم حصاده في خريف ١٩١٨م، مخيبةً لآمال الإدارة البريطانية؛ فقد أنفق مبلغ (١٤١٤٤٨ روبية) وما يعادله (١٩٤٣٠ جنيه إسترليني) على القروض الخاصة ببذور الأرز، و(٢٤٦٤٣ روبية) وما يعادلها (١٦٤٣ جنيه إسترليني) على بذور أخرى للحصاد، وتم طلب الذرة والدخن من الهند، لكن وصل الدخن متأخراً للزراعة، وكانت الذرة غير مناسبة للزراعة، ودمّر الجراد الدخن الذي زرع من البذور المحلية، وقد تمّ إجراء استعداداتٍ مكثّفةٍ لزراعة الأرز في الشامية، وهي من الأماكن الأكثر ملائمةً للزراعة، ولكن بسبب نقص المياه زُرِعَ نحو (٢٥٠٠٠ فدان فقط) بدلاً من (١٠٠٠٠٠ فدان)، كما تضرّر المحصول بسبب انخفاض منسوب المياه بشكلٍ غير طبيعي في نهر الفرات، وفي لواء الحلة زُرِعَ نحو (٤٠٠٠٠ فدان)، ولم يكن تحت تصرّف مدير الموارد المحلية وسائل نقلٍ كافية لنقل المحصول من المزارع إلى أماكن التخزين؛ مما أدّى إلى إصابة كمياتٍ كبيرةٍ من المحصول بالعفن <sup>٢</sup>.

١. المس بيل، المصدر السابق، ص ٢٤٩.

2. Report For the Army Council on Mesopotamia, By Sir John p. Hewett, IOR/L\

ويبدو أنّ غياب الدور الإرشادي في التوعية والتوجيه بمخاطر الفيضانات من قبل الإدارة البريطانيّة للفلاحين العراقيين أدّى إلى تفاقم مشكلة الإضرار بالأراضي الصالحة للزراعة؛ لذلك بادرت بريطانيا إلى تأسيس دائرة الري في آب ١٩١٨م، التي كانت تحت إدارة عسكريّة برئاسة بريجيدير لويس (Brigadyer Lewis)، وكانت من صلاحيات هذه الدائرة تطوير شبكات الري وصيانتها، وإقامة عددٍ من الضفاف التي كانت تلحق بها الفيضانات، وحفر عددٍ من الجداول والقنوات المتفرّعة من قناة الصقلاوية وأبي غريب واليوسفية، أمّا عن سدّة الهنديّة فقد أُعيد حفر عددٍ من القنوات المتفرّعة من هذه السدة، ومنها قناة بني حسن وقناة الكفل، كما قامت دائرة الري بتطهير نهر الرضوانية، وفي الكوت درست إمكانيّة رفع الرواسب التي طمرت من النهر الواقع بين الكوت والحلي، وفي ديالى قرّرت وضع الترتيبات اللازمة لتنظيف قناة بلدروز<sup>١</sup>.

وقد يبدو للعيان أنّ تأسيس دائرة الري كان جزءاً من خطط التنمية الزراعيّة التي يسعى البريطانيون إلى تحقيقها في العراق والتي تساهم في ازدهاره وتطوره، إلّا أنّها في حقيقة الأمر كانت تُعدّ من مشاريع الاستيطان البريطانيّ للعراق.

ولقد أدّى تباطؤ معدّل نمو الإنتاج الزراعي مطلع عام ١٩١٩م، وعجز عن تلبية الطلب المحليّ من الغذاء، وعلى سبيل المثال كان الأرز قد احتفظ بمستوى الاكتفاء الذاتي إلّا أنّ ذلك لم يكن نتيجةً لزيادة الإنتاج، وإنّما لانخفاض الطلب بسبب ارتفاع الأسعار، وبذلك فشلت الإدارة البريطانيّة في اتباع سياسةٍ زراعيّةٍ تنمويّةٍ طويلة الأمد تمكّن من النهوض بواقع الزراعة في العراق. وغالبية الفلاحين العراقيين كانوا من صغار المنتجين المحليين، والغرض من إنتاجهم

MIL\17\15\55, p.15.

١. مجموعة باحثين، المفصل في تاريخ العراق المعاصر، ص ٥٨١.

هو الحفاظ على معيشتهم، بدلاً من السعي لتحقيق الأرباح، ولم يتغيّر هيكل وخصائص إنتاج الكفاف هذا في عهد الإدارة البريطانية.

### ثانياً: الآثار الاجتماعية

تركت المخططات والمشاريع البريطانية الزراعية آثاراً اجتماعية كثيرة على طبقة الفلاحين العراقيين، فمن المعروف أنّ الطبقة الفلاحية تعدّ من أكبر الطبقات الاجتماعية في العراق آنذاك، فكان من الطبيعي أن يقع على عاتق أبنائها كلّ ثقل الاستغلال الإقطاعي المباشر، وكذلك الجانب الأكبر من النضال التحرري ضد الاستعمار والإقطاع على حدّ سواء<sup>١</sup>، ومما زاد في الطين بله هو ظهور تناقض كبير بين المصلحة الاستعمارية التي كانت ترغب في الإبقاء على النظام الإقطاعي والاقطاعيين خدمة لمصالحهم، وبين مصلحة الشعب العراقي الذي يدرك تماماً أنّ بقاء النظام الإقطاعي هو العقبة الكبيرة في طريق زيادة وتطور الإنتاج الزراعي ورفع مستوى معيشة الشعب العراقي، وهذا التناقض أسهم إلى حدّ كبير في عرقلة مسيرة العراق الاقتصادية<sup>٢</sup>.

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ التقارير البريطانية الصادرة أواخر عام ١٩١٨م، قد غضّت الطرف عن هذا الأمر، وذكرت أنّ القطاع الزراعي بات يعاني من مشكلات طبيعية عديدة من بينها قلة المياه في بعض المناطق مثل قضاء الهندية، وعلى امتداد فرع الحلة من نهر دجلة وأصبحت إنتاجية المحاصيل الزراعية الناضجة ضئيلة جداً، وفي الوقت ذاته غمرت المياه مدينة كربلاء والأراضي المحيطة بها<sup>٣</sup>. وتسببت الفيضانات التي تأتي أواخر المواسم في غمر المحاصيل

١. كمال مظهر أحمد، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، دراسة تحليلية، ص ١٩.

٢. الحميري، عبد الرضا، المصدر السابق، ص ٢٥٥.

٣. الحسيني، عبد الرزاق، العراق قديماً وحديثاً، الرافدين، ص ٦٨.

الزراعيّة الناضجة، وتعتنّ جذور المحاصيل نتيجة تراكم الطمي وتآكل التربة؛ ممّا سبّب فقدان الفلاحين للعوائد المادية، وممّا زاد من سوء حالهم الضرائب الزراعيّة المفروضة عليهم؛ إذ لم تلتفت بريطانيا إلى أوضاعهم المعيشيّة الصعبة، وكانت تفكّر فقط في الإفادة قدر الإمكان من واردات الضرائب الزراعيّة حينذاك، والذي ساعدهم على ذلك هو ولاء بعض رجال العشائر لهم وعدم معارضة سياستهم؛ وبذلك انتفع هؤلاء في مدة من الحكم الذاتي فضلاً عن الإعفاء من دفع الضرائب؛ وبذلك ضمنت بريطانيا عدم معاداة العشائر لها من خلال سياستها الانتفاعيّة معها، وهذا ما أكّدت عليه المس بيل<sup>١</sup> قائلة: «كان الاستثمار الزراعي أقوى سلاح في أيدينا لتهدئة القبائل»<sup>٢</sup>.

ولذلك لم تلغي الإدارة البريطانيّة الإقطاع في العراق، وإنّما عملت على استمراره، وظهرت الفوارق الاقتصاديّة بين طبقة الملاك الإقطاعيين والفلاحين العاملين في أراضيهم بأجور متدنية، ونتيجة لزيادة حاجات الفلاحين الغذائيّة والماليّة، وقلة المحصول لاستيلاء السلطات البريطانيّة عليه اضطرّ الفلاحون

---

١. ولدت في مقاطعة يوركشاير عام ١٨٦٨ م، وتلقّت تعليمها الأولي على يد المربيّة الألمانية كلوغ التي كانت تعطيها الدروس في داخل المنزل، وأكملت المس بيل دراستها الجامعيّة في كلية الملكة في لندن، ثم التحقت بإحدى المدارس العليا في جامعة أكسفورد كلية السيدة مرفيت، وبعد أن أتمت دراستها الجامعيّة بدأت مرحلة أخرى من حياتها، وهي الرحلات بين الدول وفي عام ١٩١٥ م، عُيّنَت موظفةً في إدارة المخبرات البريطانيّة السريّة في مصر، وبعد عام واحد التحقت بالحملة البريطانيّة الأولى على العراق، وعُيّنَت لأول مرة في المكتب العربي فرع البصرة عام ١٩١٦ م، ثم تولّت مهام معاون الحاكم السياسي برسي كوكس، وبعد أن احتلّ الجيش البريطاني بغداد في عام ١٩١٧ م، عُيّنَت بمنصب السكرتيرة الشريّة للمندوب السامي البريطاني. للمزيد من التفاصيل يُنظر: علي صدام صحن، المس بيل ونشاطها الاجتماعي في بغداد ١٩١٧-١٩٢٦ م، مجلة المستنصريّة للدراسات العربيّة والدوليّة، العدد ٤٢، ص ٢١٣-٢١٦.

٢. المس بيل، المصدر السابق، ص ٢٤٨.

إلى الاقتراض من المُلّاك والتجار، وهذا الأمر ترتب عليه زيادة الديون بذمة الفلاحين للمُلّاك الذين تجرّدوا من أيّ إنسانيّة، وفي سبيل الاستحصال على أموالهم كانوا يقومون بضرب الفلاحين أمام عوائلهم، وهذا الأمر بطبيعة الحال سبّب لهم الأذى النفسي والجسدي ولذلك بدأت هجرة الفلاحين من الريف إلى المدينة أواخر عام ١٩١٩م، وتأسيسًا على ما سبق ذكره يمكن أن نعزو أسباب هذه الهجرة إلى ما يأتي:

١. حالة الفوضى في الملكيات الزراعيّة للأراضي العراقيّة، فقد عدّت الإدارة البريطانيّة هذه الأراضي ملكًا لها، وشجّعت على ظهور الملكيات الكبيرة وإدارتها من قبل شيوخ العشائر وسيادة الإقطاع، وأجرت نوعًا من المسح الزراعي في كلّ من ولايات البصرة والحلّة وبغداد والموصل، وكان الهدف من هذا المسح ليس خلق حقوق ملكيّة جديدة للأراضي الزراعيّة؛ وإنما استقصاء وتثبيت الملكيات الموجودة، وكانت هذه العمليّة تستغرق سنين عديدةً إلاّ أنّ الوضع السياسي في العراق لم يكن يسمح لوقتٍ طويلٍ، ونتيجة لذلك حُرّم بعض المالكين من أراضيهم؛ لعدم امتلاكهم السند الأصلي لملكيتهم بعد احتراق دائرة الطابو العثمانيّة عام ١٩١٦م، وكلّ ذلك أثر على الملكيات الصغيرة، وعلى المستوى المعاشي للفلاحين<sup>١</sup>.

٢. قلّة إيرادات الأراضي الزراعيّة، وتردّي أوضاع الفلاحين العراقيين وخاصّة بعد أن جرّدوا من أراضيهم، ووجدوا في المدن الملاذ الآمن لهم، خاصّة بعد أن اطلّعوا على الأحوال المعيشيّة للساكين في المدن؛ إذ كانوا يتمتعون بنوع

١. غيلان سمير طه، الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة في العراق (١٩٣٣-١٩٤٥)، مجلة كليّة الآداب/

جامعة تكريت، المجلد ٢٠، العدد ١١، ٢٠١١، ص ٦٨٧.

من الاستقرار الاقتصادي، فكان العامل في القطاعات الصناعيّة العراقيّة المختلفة أفضل حالاً منهم<sup>١</sup>.

### ثالثاً: الآثار السياسيّة

إنّ عدم قدرة الحكومة العراقيّة على قيادة التنمية الاقتصاديّة خلال سنوات الاستعمار البريطاني، فسّر لنا إحكام قبضة الإدارة البريطانيّة على الاقتصاد العراقي، وبرز واضحاً في عدم إصدار تشريعٍ ضريبيّ جديدٍ لتعزيز النمو الاقتصاديّ العراقي، واحتكار المنفعة العامّة من الإنتاج الزراعي، التي تقوم على أساس المساواة في التوزيع، وإنّما سعت لتحقيق الرأسماليّة الموجهة، وإزاء تحقيق ذلك لم تراخ الإدارة البريطانيّة الظروف العامّة للزراعة في العراق، بل إنّها فرضت ضرائب جسيمةً على الشعب العراقي وخاصة طبقة الفلاحين، واثقلوا كاهل الشعب بالمصادرات والغرامات بهدف افقارهم، وتغطية الجزء الأكبر من نفقات قوّاتهم العسكريّة في العراق، ولكن الشعب العراقي قاوم تلك الإجراءات التعسفيّة، وكان يسعى لنيل الاستقلال من براثن الاستعمار؛ لذلك حدثت انتفاضة النجف في آذار عام ١٩١٨م، ضدّ الإدارة العسكريّة، وكانت تلك الانتفاضة من قوتها وامتداد تأثيرها أنها وصلت إلى جميع الألوية العراقيّة<sup>٢</sup>؛ ممّا جعل الحاكم العسكري البريطاني يفرض حصاراً على المدينة استمر لمدة أربعين يوماً. وكان من شروط إنهاء الحصار تسليم بعض الأشخاص المسؤولين عن تلك الانتفاضة دون قيدٍ أو شرطٍ، ودفع غرامةٍ قدرها ألف بندقية، وغرامة

١. المصدر نفسه، ص ٦٨٨.

٢. دار الكتب والوثائق، الوحدة الوثائقيّة، وثائق البلاط الملكي، الملفة ٣١١/٢٥٤٤، تقارير الإدارة البريطانيّة الزراعيّة.

مالية قدرها خمسون ألف ليرة إنجليزية<sup>١</sup>.

وفي إطار الانتفاضة السالفة الذكر يمكن القول إنّها كانت تهدف إلى إنشاء اقتصادٍ وطنيٍّ مستقلٍّ وحرٍّ قائمٍ على قاعدةٍ زراعيّةٍ محليّةٍ قويّةٍ؛ لذلك ارتبطت حرية القطاع الزراعي بفكرة التحرّر الوطني، إذ كانت السياسة البريطانيّة الاقتصادية المتبعة في العراق تقوم على أساس التبعية والاستغلال لتغطية احتياجات القوات البريطانيّة.

---

١. الشامي، رحيم حسن محمد، النجف الأشرف في ظلّ الحكم البريطاني المباشر ١٩١٧-١٩٢٠، مجلة كليّة التربية للعلوم الإنسانيّة، جامعة ذي قار، المجلد ١٠، العدد ١، ٢٠٢٠، ص ١٣.

## الاستنتاجات

١. سعت بريطانيا جاهدةً من أجل ضمان بقائها طويلاً في العراق، ولقد كانت العمليات العسكرية البريطانية في العراق، وراء تأزم الوضع الاقتصادي العراقي لاستخدام إمكاناته المتوفرة لخدمة احتياجاتها العسكرية، التي وقعت بثقلها على كاهل الشعب العراقي من الفلاحين ودافعي الضرائب، بل عامة الشعب.
٢. بالرغم من قيام الإدارة البريطانية ببعض المشاريع في العراق التي استهدفت تطوير المواصلات النهريّة وحفر وكري الأنهار والجداول، وبالرغم من أنّ هذه المشاريع استقطبت أعداداً كبيرةً من العمال العراقيين، فإنّها لم تسهم في تحسين الحالة الاقتصادية لهذه الطبقة، بل زادتها سوءاً، إذ إنّ هؤلاء كانوا يعيشون على حافة الفقر؛ لأنّ عملهم عند السلطات البريطانية كان بالسخرة ومن دون مقابل.
٣. عانت المشاريع التي نفّذتها دائرة الري من صعوبات كثيرة، كان لها انعكاسات خطيرة على القطاع الزراعي، وعلى سبيل المثال اهتمام السلطات البريطانية بالري لم يكن مبنياً وفق خطط مدروسة، وإنّما كانت تنفّذ مراعاة لمصالح السياسة البريطانية وإدارتها العسكرية؛ لذلك جاءت وقتيةً وسطحيةً وذات فائدةٍ آنية، وليست مستقبلية.
٤. كان بناء مشروع ويلكوكس ضعيفاً، وكان إصلاحه يؤلّف جزءاً من التنمية الزراعية التي باشرها البريطانيون في أثناء الحرب، وعلى ما يبدو أنّ هذا المشروع وغيره من المشاريع الإروائية عُدت بمنزلة مشاريع مساعدة لانتصار البريطانيين العسكري خلال الحرب العالمية الأولى.
٥. استولت الإدارة البريطانية على بيوت وأملاك الأفراد العراقيين، واتّخذتها

مقرّاً لقواتها ودوائرها الرسميّة الاستعماريّة، وتذرّعت حينذاك بذرائع عديدة، أهمّها أنّ أصحاب هذه البيوت معروفون بانحيازهم للعثمانيين، وهم من الدّ أعدائها.

## المصادر

### أولاً: الوثائق غير المنشورة

#### وثائق البلاط الملكي

١. دار الكتب والوثائق، الوحدة الوثائقيّة، وثائق البلاط الملكي، الملفّة ٣١٠/٢٥٤٤، تقارير الإدارة البريطانيّة الزراعيّة.
٢. دار الكتب والوثائق، الوحدة الوثائقيّة، وثائق البلاط الملكي، الملفّة ٣١١/٢٥٤٤، تقارير الإدارة البريطانيّة الزراعيّة.

### ثانياً: الوثائق المنشورة

3. Report on the Development of Mesopotamia with special reference to the Regeneration of the River Systems. IOR\L\MIL\17\15\53.
4. Report for the Army Council on Mesopotamia, By Sir John p .Hewett, IOR\L\MIL\17\15\55

### الكتب العربيّة والمترجمة

٥. الحسني، عبد الرزاق، العراق قديماً وحديثاً، الرافدين، بيروت، ذات.
٦. الحميري، عبد الرضا، نظام الإقطاع في العراق بين مؤيّديه ومعارضيه، دار الشؤون الثقافيّة، بغداد، ط١، ٢٠١٧م.
٧. الدبوسي، محمد جواد، محاضرات في مشكلات التقدم الاقتصادي في العراق، القاهرة، ١٩٥٨م.
٨. ستيفن همسلي لونكريك وفرانك ستوكس، العراق منذ فجر التاريخ حتى ثورة تموز ١٩٥٨م. ترجمة مصطفى نعمان، دار المرتضى للطباعة، بغداد، ٢٠٠٩م.

خطط التنمية الزراعية للإدارة البريطانية وآثارها على العراق ❖ ١٦٣

٩. ستيفن همسلي لونكريك، العراق الحديث ١٩٠٠-١٩٢٠م، ترجمة سليم طه التكريتي، بغداد، ١٩٨٨م.
١٠. الشكرجي، محمد سعيد، جذور فشل بناء الدولة ١٨٣١-١٨٦٩، دار الكتب العلمية، بغداد، ٢٠١٧م.
١١. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١م، بغداد، ٢٠٠٨م.
١٢. العمري، محمد ظاهر، تاريخ مقدرات العراق السياسية، الجزء الثالث، بغداد، مطبعة دار السلام، ١٩٢٥م.
١٣. كمال مظهر أحمد، صفحات من تاريخ العراق المعاصر، دراسة تحليلية منشورات مكتبة البدليسي، بغداد، ١٩٨٧.
١٤. مجموعة باحثين، المفصل في تاريخ العراق المعاصر، بيت الحكمة، بغداد، ٢٠٠٢م.
١٥. المس بيل، صفحات من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، بغداد، ١٩٧١م.
١٦. هنري فوستر، نشأة العراق الحديث، ترجمة سليم طه التكريتي، بيروت، المكتبة الأهلية، ٢٠٠٦م.

### ثالثاً: الرسائل والأطاريح الجامعية

١٧. حسين علي فليح، وزارة الزراعة في العراق، رسالة ماجستير، كلية التربية ابن رشد، جامعة بغداد، ٢٠١٥م.
١٨. لمى عبد العزيز عبد الكريم، الخدمات العامة في العراق ١٨٦٩-١٩١٨م، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب / جامعة الموصل، ٢٠٠٣م.

### رابعاً: البحوث والدراسات

١٩. الشامي، رحيم حسن محمد، النجف الأشرف في ظلّ الحكم البريطاني المباشر ١٩١٧-١٩٢٠، مجلة كلية التربية للعلوم الإنسانية، جامعة ذي قار، العدد ١، ٢٠٢٠م.
٢٠. الصبيحي، منير عبود، الزراعة ونظام الري في الفلوجة ١٩١٧-١٩٥٨م، وقائع مؤتمر جامعة الفلوجة ٢٠٢٠م.

٢١. الطفيلي، ستار علك، التطوّرات الاقتصادية في العراق خلال فترة الانتداب البريطاني ١٩٢١-  
١٩٣٢م، مجلة العلوم الإنسانيّة، كليّة التربية صفي الدين الحلي.
٢٢. علي صدام صحن، المس بيل ونشاطها الاجتماعي في بغداد ١٩١٧-١٩٢٦م، مجلة المستنصريّة  
للدراسات العربية والدوليّة، العدد ٤٢.
٢٣. غيلان سمير طه، الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعيّة في العراق (١٩٣٣-١٩٤٥م)، مجلة كلية  
الآداب/ جامعة تكريت، العدد ١١، ٢٠١١م.

# التنظيم القانوني للآثار العراقية في ظلّ الاستعمار البريطاني

م. حسين خليل مطر<sup>١</sup>

## الملخص

إنّ ما رافق الحرب العالميّة الأولى من أحداثٍ سياسيّة، وما تمخّض عنها من نتائج غيرت ملامح وجه الخارطة السياسيّة في المنطقة أسفر عن وقوع العراق تحت الانتداب البريطاني بموجب المعاهدات المفروضة على الطرف المنهزم وهي الدولة العثمانيّة.

فكان ملف الآثار من ضمن ملفاتها المهمّة؛ إذ تمّ بموجبها إلغاء قانون الآثار العثماني عام (١٨٨٤ م)، وسُنّ قانون جديد يكرّس تحقيق مصالح بريطانيا؛ لذلك ولكون العراق تحت الانتداب البريطاني فقد سعت (المس بيل) إلى إصدار قانونٍ للآثار، وهو قانون الآثار القديمة لسنة ١٩٢٤ م الذي كان من أبرز سلبياته هو قسمة الآثار العراقيّة بين الجهات القائمة بالتنقيب والحكومة، وكذلك قانون منع تهريب الآثار القديمة سنة ١٩٢٦ الذي كان يشوبه هو اهتمامه بمنع تهريب الآثار إلى داخل العراق، وليس منع تهريبها من داخل العراق إلى خارجه، ممّا يدل على أنّ هذه القوانين كانت انعكاساً لأهداف الانتداب البريطاني.

الكلمات المفتاحيّة: الآثار القديمة، قانون الآثار، الاستعمار البريطاني، الأموال العامة، تهريب الآثار.

١. متخصص في القانون / مركز دراسات البصرة والخليج العربي، جامعة البصرة - العراق.

## المقدمة

إن الآثار تنتشر في مختلف بقاع المعمورة، غير أنّها تتفاوت في كمّياتها من منطقة إلى أخرى تبعاً لاختلاف حجم وعدد الحضارات التي تعاقبت على بقاع الأرض، فالدولة التي تتوافر فيها كمّيات كبيرة من المعالم الأثرية تعدّ صاحبة حضارات وذات تاريخ عريق، ممّا يشير إلى أنّ هذه الدولة لطالما كانت محطّ أنظار الأمم القديمة، نظراً لموقعها في بقعة حساسة من الأرض، أو لقرّبها من منطقة ذات أهميّة، ممّا يجعلها بمنزلة بوابة لتلك المناطق أو امتداداً جغرافياً معيناً، أو لاحتوائها على موارد طبيعيّة ممّا يجعلها ملائمة لإقامة ممالك أو أمبراطوريات في عهود الزمن السحيق. ومن ثم كثرة الآثار التي تمثّل إحدى أبرز تجلّيات التاريخ. وقد شهدت أرض العراق قديماً قيام بواكير الحضارات البشريّة المعروفة على مستوى العالم التي عرفت بمنجزاتها الحضاريّة القيّمة، وكان لها علاقاتها وتأثيراتها مع مختلف دويلات العالم القديم، وعلى هذا الأساس كان الاهتمام بآثار تلك الحضارات العراقيّة القديمة كبيراً، هذا كلّه يجب أن يعطي إشارات واضحة الدلالة إلى من يقطن هذه البقعة من مواطنين أو مؤسّسات بمختلف أصنافها في العصر الحديث، إلى ضرورة الاستفادة من تواجدهم في هذه البقعة دون سواها، وبذل الجهود على كافة الأصعدة لأحاطتها بالحماية، والسعي إلى تفعيل دور القانون في هذا الإطار.

إنّ للآثار أهميّة معنويّة إلى جانب الأهميّة المادية، إذ إنّ الآثار تمثّل تراثاً للإنسانيّة جمعاء، وتشكّل حلقة من حلقات التطوّر الحضاري والثقافي للإنسان، وما يؤكّد هذه الأهمية أنّ ضياع أي أثر أو فقدانه يعدّ خسارة كبرى لا تعويضها الماديات، ليس فقط للدولة صاحبة الأثر، بل للإنسانية كلّها.

إنّ الأهميّة المعنويّة للآثار هي السبب الرئيس الذي يجعل تشريعات الأمم تنصّ على حماية الآثار من كلّ اعتداء سواء القصد من هذا الاعتداء تهريباً، أم متاجرة بها، أم تشويهاً، أم حتى حفظها من التلف أو فقدان، بيد أنّه قد نجد على عكس ذلك تماماً في بعض التشريعات في حالة إذا ما تعرّضت لتأثيرات خارجية تخرجها عن مسارها المعروف، والغاية من سنّها تحقيق المصلحة العامة لتتحول إلى سيفٍ مسلّطٍ على عنق المنطقة التي شرّع القانون من أجلها، وهنا تكمن وتوطن إشكاليّة البحث، والتساؤل الذي يطرح هنا: ما المدى الذي وصلت إليه لمسات الاستعمار البريطاني في بلورة نصوص التشريعات الخاصّة بالآثار؟ لذا نتناول في هذا البحث دراسة التنظيم القانوني للآثار من خلال التشريعات الصادرة في ظلّ الاستعمار البريطاني معتمدين في ذلك على المنهج الوصفي والتحليلي.

تم تقسيم خطّة البحث إلى أربعة مطالب، المطلب الأول بعنوان (مفهوم الآثار) الذي يقسم إلى فرعين هما: تحديد مفهوم الآثار لغةً، وتحديد مفهومها اصطلاحاً، أمّا المطلب الثاني فهو بعنوان (معايير تمييز الآثار)، الذي يقسم إلى فرعين هما: المعيار القانوني، ومعيّار تمييز الآثار بوصفها أموالاً عامّة، والمطلب الثالث سيكون تحت عنوان (الواقع القانوني والعملي للآثار العراقيّة في ظل الاستعمار البريطاني)، أمّا المطلب الرابع والأخير سيخصّص لبيان أهمّ الملاحظات القانونيّة ذات الصلة بالقوانين الخاصّة بالآثار الصادرة خلال مدة الاستعمار البريطاني الذي سيكون تحت عنوان (تأمّلات حول القوانين الخاصّة بالآثار الصادرة في ظلّ الاستعمار البريطاني)، إذ سيُقسم إلى فرعين، فرع خاص بقانون الآثار القديمة لسنة ١٩٢٤م، والفرع الآخر لقانون منع تهريب الآثار القديمة لسنة ١٩٢٦م.

### المطلب الأول: مفهوم الآثار

إنّ دراسة موضوع الآثار يتطلّب بالبدء استيضاح مفهومها بهدف وضع إطارٍ حول المعنى، ومن ثم تحديد مسار البحث، وهذا ما يقودنا إلى التطرّق لتعريف الآثار لغةً واصطلاحاً، وخصائصها وتمييزها عن معنى التراث وعلى النحو الآتي:

#### الفرع الأول: المدلول اللغويّ للآثار

الآثار في اللغة جمعٌ لكلمة (أثر)، ويتمحور مدلولها حول أربعة معانٍ، فهي تعني تتبع الشيء، أي السير خلفه، أو ترك علامةٍ يعرف بها، وأتت كلمة الآثار أيضاً بمعنى المكرمة أو الأثرة، أي بمعنى الشيء المؤثّر أو المفضّل، أي الشيء الذي يذكر، وكما دلّت هذه المفردة على معنى هو في حقيقته الأكثر قرباً وتناعماً مع ما تتجه له الآراء والاتجاهات الفقهيّة والقانونيّة، فجاء في مدلولها: هو ما بقي من الشيء، أو رسمه، أو ما تركه الأقدمون<sup>١</sup>.

#### الفرع الثاني: المدلول الاصطلاحي للآثار

سنيّن هذا المدلول من جانبيين، الجانب الفقهي، والجانب القانوني، بحسب النقاط الآتية:

#### أولاً: المدلول الفقهي للآثار

لقد وردت كثيراً من التعريفات في معنى الآثار هدفها صياغة مدلولٍ فقهيّ يوضّح لنا ملامح هذه المفردة، ويحدّد زواياها وأطرها على نحوٍ مفهوم، غير أنّ بعضها قد جانب الصواب، فقد عرفت الآثار على أنّها «هي الأشياء ذات القيمة

١. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ١/٥. ويُنظر: ابن منظور، لسان العرب، ١/٥٢.

المادية والفنية التي تخصّ أقوامًا قديمةً ورد ذكرها في العهد القديم<sup>١</sup>. وعرفه بعضهم الآخر على «أنه ليس قطعة حجرٍ أو تحفةً فنيّةً أو نقشًا ملونًا، لكنّه يعتبر مظهرًا من مظاهر الحضارات المختلفة التي قامت على أرض الوطن، أو كانت لها صلةٌ تاريخيّةٌ به، فهي تلك الأشياء ذات القيمة التاريخية كالحصون، والقلاع، والأسلحة، والتماثيل، والنقوش التي ترجع إلى العهود القديمة»<sup>٢</sup>. وجاء بعضهم بتعريف للآثار قائلاً: «هي كلّ ما تركه الإنسان القديم من أدواتٍ خلفها، أو كهوفٍ أو قصورٍ عاش فيها، أو معابد نشأ عليها، أو حلي أو قلائد تزيّن بها، أو نذورٍ تقرّب بها، أو كتاباتٍ، أو أسلحة استخدمها، أو رسومٍ أو فنونٍ خلّدها»<sup>٣</sup>.

ومن التعريفات الأخرى للآثار أنّها «كلّ ما خلفه الإنسان من موادٍ ملموسةٍ من صنع يده من الماضي، قد تكون ثابتةً مثل المساكن والحصون والمعابد، وقد تكون متحرّكةً مثل الأواني الفخاريّة والحجريّة»<sup>٤</sup>.

والآثار هي أشياء منقولة أو عقاريّة صنعها الإنسان أو طبيعته تتمتع بقيمةٍ تاريخيّةٍ، ولها أهميّةٌ كبيرةٌ كعنصرٍ من عناصر البيئة الحقيقية؛ لكونها تمثّل تراثاً حضاريّاً للمجتمعات البشريّة؛ ولذلك كان للآثار علمٌ خاصٌّ بها، يُسمّى بعلم الآثار (الأركيولوجيا)، وعلم دراسة جميع الأشكال الملموسة أو المنظورة التي تحفظ أثر نشاطٍ بشريّ، فعلم الآثار هو البوابة التي يمكن من خلالها معرفة الماضي، يسانده في ذلك بعض العلوم، مثل علم اللغات يختصّ بدراسة النصوص

١. الغراوي، عمر جسّام، علم الآثار في العراق (نشأته وتطوّره)، ٧.

٢. منى عبد العلي موسى، هيثم أحمد سلمان محمود، جريمة التنقيب عن الآثار دون موافقة، ٧٥.

٣. جورج ضو، تاريخ علم الآثار، ٧.

٤. بول بان، علم الآثار، ١٣.

المنقوشة، وفك رموزها، إضافة إلى علم (الأنثوغرافيا) علم خصوصيات الشعوب، وعلم (الأنثروبولوجيا) علم الإنسان. فهذه العلوم هي من العلوم المساعدة لعلم الآثار، فهي تشترك معه اشتراكاً وثيقاً لا غنى عنه<sup>١</sup>.

### ثانياً: المدلول القانوني للآثار

إلى جانب التعريفات اللغوية والفقهية فإن للتشريعات مساهمة فاعلة في هذا النطاق حتى وإن اقتصر على بيان دلالة المصطلح الذي تدور حول رحاه كل مواد القانون، وأعني بهذا قانون الآثار القديمة عام ١٩٢٤م، الذي استخدم مصطلح (الآثار القديمة)، مما يدل على أن نص القانون مترجم عن اللغة الانكليزية التي تستعمل مصطلح (Antiquities)، الذي يترجم إلى اللغة العربية (الآثار القديمة)، وقد عرّف قانون الآثار القديمة مصطلح (الآثار القديمة) بأنه كل ما كان قد بُني في العراق، أو أحدث فيه، أو جلب إليه قبل سنة (١١١٨ هـ) أو (١٧٠٠م)، من المباني، والهياكل، والأطلال، والأشياء التي يُستدل بها على فنٍّ أو علمٍ أو صنعةٍ أو تاريخٍ أو دينٍ أو أدبٍ أو عادةٍ، وذلك حسب ما جاء في نصّ (المادة الثانية/ البند أ) من القانون ذاته.

١. جورج ضو، تاريخ علم الآثار، ٧ و ١٠.

## المطلب الثاني: معايير تمييز الآثار

سنبيّن فيما يلي المعايير المعتمدة في تمييز الآثار على حسب الفروع الآتية:

### الفرع الأول: المعيار القانوني

لا يوجد معيارٌ واحدٌ مُعتمَدٌ في إطار منظومة التشريعات، بل هي مُوزَّعةٌ بين ثلاثة معايير، وهي:

أولاً: المعيارُ المادي: أو ما يُسمّى بالضابط المادي، فعلى أساس هذا المعيار لا يدخل في عداد الآثار إلا ما كان من الأشياء المادية؛ فالآثار وإن كانت تُجسّد نتاج العقل من أشياء غير محسوسةٍ مثل المُبتكرات والاختراعات في التجارة والصناعة، كان لا بدّ لها أن تظهر بصورة أشياء مادية ملموسة واضحة للعيان يترتب عليها حقٌّ ماليٌّ، وهي محلُّ هذا الحق.

وإذا نظرنا إلى جوهر هذا المعيار نجد أنّ المادة تمثّل المحورَ في كون حقيقة شيءٍ ما أثراً أم لا، حيث خلفت المجتمعات وثائقَ دُوّنت فيها كتاباتٌ طُبعت على رُقع الطين أو نُقشت على قطعٍ حجريةٍ أو خشبيةٍ، عدّها علم الآثار حقائق من الماضي تكشف عن دلائل الحضارات القديمة بما تحويه من أنشطة اقتصادية أو اجتماعية أو سياسية أو قانونية<sup>١</sup>.

ثانياً: المعيارُ الزمني: أو ما يُسمّى بالضابط الزمني، فوفقاً لهذا المعيار فإن أصحابه قد جعلوا من الزمن المحورَ الأساس الذي يدور حوله تمييزُ الآثار، غير أنّه قد ظهر في هذا الميدان اتجاهان، هما:

الاتجاه الأول: يذهب إلى القول بعدم ضرورة مرور مدّة زمنية محددة حتى يمكن عدُّ الشيء الماديّ أثراً، إذ إنهم يُفضّلون إدراج الأشياء التي تُعدّ آثاراً في قوائم معينة في صلب قوانين تُعدّ لهذا الغرض.

١. علي إبراهيم إبراهيم شعبان، دور الدولة في حماية الآثار، العدد الرابع، ١/ ١٢٥٤.

الاتجاه الثاني: يعتمد أنصارُ هذا الاتجاهِ بشكلٍ أساسيٍّ على عنصر الزمن، إذ إنهم يشترطون مرور المدة التي حددها القانون على الشيء حتى يُعدَّ من قبيل الأثر<sup>١</sup>.  
 ثالثاً: معيارُ المصلحة العامة: المقصود بالمصلحة العامة هو صيانة مصلحة أفراد المجتمع عن طريق الحفاظ على مصلحة المجموع والمصلحة المشتركة، وفي هذا ما يتضمَّن المساواة بين المواطنين، وعدم التحيُّز، والإغفال، والدولة هي المؤسسةُ المسؤولة عن تحقيق المصلحة العامة في ظلِّ فكرة العقد الاجتماعي<sup>٢</sup>.  
 وقد جرت العادة على اعتماد معيار المصلحة العامة في تحديد الأثر في حال تخلف المعيار الزمني، إذ يتمُّ اللجوء إليه على الرغم من عدم الدقَّة التي تشوبه؛ لكونه معياراً مرناً ونسبياً، ويتيح للإدارة سلطةً تقديريةً واسعة<sup>٣</sup>.

#### الفرع الثاني: معيار تمييز الآثار بوصفها أموالاً عامة

يُقصدُ بالأموال العامة تلك الأموال التي تستطيع الإدارة من خلالها ممارسة نشاطها وتحقيق أهدافها، سواء كانت تلك الأموال عقاريةً أم منقولةً، وتتميزُ هذه الأموال بأحكامٍ خاصة<sup>٤</sup>.

وقد ظهرت في هذا الصدد ثلاثة معايير الغاية منها تمييزها:

##### ١. معيار طبيعة المال:

يستند هذا المعيار إلى أساس أنَّ الأموال العامة هي تلك التي لا تصلح بطبيعتها أن تكون مملوكةً ملكيةً خاصةً، وتكون مخصصةً للاستعمال المباشر للجمهور، مثال ذلك: الطرق العامة، والميادين، والحدائق العامة.

١. محمد حسن خمو، الآليات الدولية لإسترداد الآثار العراقية المسروقة، العدد ٦٨، ١٩ / ٢٣٩.

٢. الجبوري، مصطفى طه جواد، التناسب بين المصلحة العامة والخاصة في القانون الجنائي، ٦٥.

٣. علي إبراهيم إبراهيم شعبان، دور الدولة في حماية الآثار، ١٢٥٦.

٤. علي محمد بدير وآخرون، مبادئ وأحكام القانون الإداري، ٣٨٤.

## ٢. معيار تخصيص المال للمرفق العام:

يتجه أنصار هذا المعيار إلى أنّ المال العامّ هو المال المخصّص لخدمة مرفق عامّ، أي ما يكون مخصّصاً لتدبير وتسيير المرفق العامّ، وعلى وفق هذا المعيار تُعدّ المباني والمؤسسات الحكوميّة، وما فيها من أدواتٍ وأثاثٍ أموالاً عامّةً، لكونها جميعاً مخصّصةً لخدمة المرافق العامّة.

## ٣. معيار تخصيص المال للمنفعة العامّة:

مقتضاهُ أنّ المال يكون عامّاً طالما تمّ تخصيصه لتحقيق النفع العامّ، وأياً كانت طريقة التخصيص، فقد استقرّ رأي الفقه والقضاء على أنّ المال العامّ هو ذلك المال المملوك لإحدى الجهات الإداريّة والمخصّص للمنفعة العامّة<sup>١</sup>.

### المطلب الثالث: الواقع العمليّ والقانونيّ للآثار العراقيّة

كانت مرحلة السيطرة العثمانيّة على العراق من عام (١٥٣٤م) إلى عام (١٩١٨م)، وتحديدًا في القرن التاسع عشر، من أكثر المراحل التاريخيّة التي شهدت تدميرًا وتهريبًا للآثار العراقيّة إلى المتاحف الأوروبيّة في ظلّ تهاون الحكومة العثمانيّة في التعامل مع آثار حضارة العراق؛ فسح المجال أمام الرخالة والسيّاح وبعثات التنقيبات الأثريّة، وما زاد الأمر سوءًا هو سهولة الحصول على فرماناتٍ سلطانيّةٍ للقيام بحملاتٍ تنقيبيّةٍ، وبذلك غابت السلطة القانونيّة والسياسيّة الرادعة من قبل العثمانيّين أثناء حكمهم للعراق تجاه ميدان الآثار، وقد استمرت عمليّة نقل ما وجدوه إلى بلدانهم من آثارٍ إلى أن سُنّ قانونٌ بهذا الشأن، وهو قانون الآثار العثمانيّ الذي صدر عام (١٨٨٤م)، والذي نصّ على

١. مازن راضي ليلو، القانون الإداري، ١٤٢ و ١٤٣.

أنَّ جميع الآثار التي اكتشفتها البعثات الأجنبيَّة تكون للحكومة العثمانيَّة<sup>١</sup>. إنَّ الأحداث السياسيَّة اثناء الحرب العالميَّة الأولى، وما نتج عنها من تغييرٍ في الخارطة السياسيَّة الدوليَّة أدَّى إلى وقوع العراق تحت الانتداب البريطاني بموجب الاتفاقيَّات المفروضة على الدولة العثمانيَّة التي أوجبت إلغاء قانون الآثار العثماني، ووجوب سنِّ قانونٍ جديدٍ يقضي بقسمة الآثار العراقيَّة بين البعثات الأجنبيَّة والمتاحف المحليَّة، وعلى هذا الأساس ولكون العراق تحت الانتداب البريطاني فقد سعت (المس بيل) - بوصفها مديرة دائرة الآثار الفخرية - إلى استصدار قانونٍ جديدٍ للآثار الذي سلَّمت مشروعه إلى وزارة المعارف العراقيَّة وطلبت الإسراع في إقراره، وبعد إعلان الحكم الوطني في العراق عام ١٩٢١م، وبناءً على موافقة مجلس الوزراء و لتأمين سلامة الآثار شرَّع قانون عام ١٩٢٤م، تحت اسم قانون الآثار القديمة لعام ١٩٢٤م، ويعدُّ قانون الآثار القديمة لعام ١٩٢٤م، أوَّل قانونٍ خاصٍّ بالآثار في العراق الذي شرَّع من أجل تأمين سلامة الآثار على حسب ما نصَّت عليه المادة الأولى منه، لكنَّ الغرض الحقيقي منه، هو تصدير الآثار العراقيَّة تحت غطاءٍ قانوني. كما أكَّد القانون على قسمة الآثار المكتشفة بين الجهات القائمة بالتنقيب والحكومة (١٧).

كان من الأهداف الرئيسيَّة للحملة العسكريَّة البريطانيَّة الغازية للعراق مع بداية الحرب العالميَّة الأولى، السيطرة على المواقع الأثريَّة والإشراف عليها بشكلٍ مباشرٍ من قبل قوات الحملة البريطانيَّة، إذ التحق بالحملة ضابطٌ من المتحف البريطاني بعنوان (ملحق آثاري) وظيفته الإشراف وتوفير المستلزمات المطلوبة أثناء المعارك بهدف حماية المواقع الأثريَّة، وقد تمكَّنت الإدارة البريطانيَّة من تحقيق أهدافها المنشودة أثناء احتلالها لولاية البصرة.

١. سوِّد كاظم مهدي، شيباء سالم عبد الصاحب، التراث الثقافي بين أصالة الموروث والحماية القانونية، ٢٨٣.

وعند دخول القوات البريطانية بغداد بقيادة الجنرال (ستانلي مود) عام (١٩١٧م)، أصبحت قضية الآثار من أولويات الإدارة البريطانية، إذ أصدر الجنرال (مود) بيان يحمل رقم (٢) في ٢٢ آيار عام ١٩١٧م، تعلق بصيانة الآثار القديمة والاتجار بها، وكان الغرض منه هو المحافظة على الآثار ومنع المتاجرة بها إلا بعد الحصول على إجازة رسمية، واستمر هذا البيان ساري المفعول حتى صدور قانون الآثار القديمة عام (١٩٢٤م) <sup>١</sup>.

#### **المطلب الرابع: تأملات في القوانين الخاصة بالآثار الصادرة في ظل الاستعمار البريطاني**

سنقف في هذه المحطة من البحث على أهمّ المواطن السلبية من القوانين الخاصة بالآثار التي شرّعت خلال مدة الاستعمار البريطاني للعراق، وفيما يلي استعراض لهذه القوانين:

##### **الفرع الأول: قانون الآثار القديمة ١٩٢٤م**

في خريف عام ١٩٢٢م، عاودت مس (بيل) عملها بتوسّع لإعداد قانون للآثار، فاستعانت بقانون الآثار الهندي، وقانون الآثار المصري، وقانون الآثار العثماني، فوضعت مشروعاً للقانون المطلوب الذي عُرض على مجلس الوزراء في (١ / ١١ / ١٩٢٢م) الذي عقد جلسة خاصة لمناقشة مواده، وأخيراً بعد عدّة مداولات صدر القانون في (٢٦ / ٦ / ١٩٢٤م)، باسم قانون الآثار القديمة لسنة ١٩٢٤م، بالإدارة الملكية المرقّمة (٣٦٤) <sup>٢</sup>.

١. كيرترود مركريت لوثيان بيل (المس بيل)، فصول من تاريخ العراق القريب (كتاب يبحث عن العراق في عهد الاحتلال البريطاني بين سنتي ١٩١٤ و ١٩٢٠)، ترجمة جعفر الخياط، ص ٣٢١.

٢. الألوسي، سالم، رواد علم الآثار في العراق، ٩٢.

يتألف القانون من ستة أبوابٍ وثلاثٍ وثلاثين مادةً، المادة الأولى تنصُّ على أنَّ الغرض منه تأمين سلامة الآثار القديمة حرصاً على منافع أهالي البلاد ورغبةً في ترقية العرفان.

أمَّا المادة الثالثة والثلاثون فنصّت على أنه يُلغى بيان القائد العام للقوات البريطانية عام ١٩١٧م، الخاص بصيانة الآثار القديمة ومنع الاتجار بها. وبعد هذه الديباجة سنبيّن أهمّ ما سُجِّلَ على هذا القانون من نقاطٍ سلبيةٍ: أولاً: إنّ هذا القانون هو أوّل قانونٍ صدر بعد إعلان الحكم الوطني في العراق، ورافق صدوره تنامي علم الآثار من الجانب القانوني، إلّا أنّه قد وُضعت أساساته بلمساتٍ واضحةٍ من قبل سلطة الانتداب البريطاني التي تعمل بطبيعة الحال على مراعاة مصالحها، ونلتمس ذلك بصورة واضحةٍ من استخدام مصطلح (الآثار القديمة)، مما يشير إلى أنّ نصّ القانون مترجمٌ عن اللغة الإنكليزية التي تستعمل مصطلح (Antiquities)، الذي يُترجم إلى اللغة العربيّة (الآثار القديمة)؛ لذلك لم يَحْتَوِ القانون على بنودٍ تحمي المواقع الأثريّة، وتمنع العبث بها بصورة مباشرة، أو حتى فقرات تفرّض على الجهات القائمة بالتنقيب صيانة الآثار وترميمها مع الانتهاء من عملها، بل كان القانون أشبه ما يكون بتنظيم للعمل الأثريّ، ومحاولة لإسباغ الصفة الشرعيّة والقانونيّة على عمليات المتاجرة بالآثار وتصديرها وقسمتها على البعثات الأجنبيّة، والغاية هي إيجاد طرقٍ قانونيّةٍ لتصدير الآثار إلى خارج العراق.

ثانياً: من النقاط السلبية التي اعترت القانون هي مسألة المتاجرة بالآثار عبر رُخصٍ قانونيّةٍ وحكوميّةٍ وفق شروطٍ معيّنة، يمنحها مدير دائرة الآثار والوزير المسؤول لأيّ فردٍ يرغب بالمتاجرة بالآثار، إذ نصّت المادة (١٠) من هذا القانون

على أنه «لا يجوزُ احترامُ بيع الآثار القديمة في العراق إلا بإجازةٍ خاصّةٍ بالمتاجرة بالآثار القديمة، يُصدرُها المديرُ بتوقيعهِ وتوقيعِ الوزير»، أمّا المادةُ (١٣) فنصّت على أنه «لا يجوزُ تصدير الآثار القديمة إلا برخصةٍ يُصدرُها الوزير»، وهكذا يتمُّ إخراج الكثير من الآثار القديمة تحت غطاءٍ قانونيٍّ، فضلاً عن الطرق غير القانونية.

ثالثاً: أشار القانون إلى مسألةٍ خطيرةٍ، وهي قسمة الآثار المكتشفة بين الجهات القائمة بالتنقيب والحكومة، إذ نصّت المادة (٢٢) على «عند ختام التنقيب ينبغي للمدير أن يختار من بين الأشياء المكتشفة ما يراه لازماً لإكمال المتحف العراقي من الوجهة العلميّة، وله بعد إفراز هذه الأشياء أن يُخصّص للذي أُعطي رخصةً التنقيب عدداً كافياً من العاديات مكافأةً عن أتعابه بصورةٍ عادلةٍ، وعندما يفعل المدير ذلك ينبغي أن يتوخى بحسب الإمكان جعل حصة ذلك الشخص ممثلةً لجميع النتائج التي حصلت من تنقيبه»، وعلى هذا الأساس تكون حصة الجهة القائمة بالتنقيب نصف الآثار المكتشفة.

رابعاً: من المسائل الأخرى أيضاً ذات البعد الخطير هو عدم اتّخاذ الاحتياطات اللازمة لمراقبة عمليّات التنقيب، وعدد ما يُسجّل منها في سجلّات البعثة، وذلك اعتماداً على أمانة هذه البعثات، وقد فتح هذا الباب على مصراعيه لتهريب الآثار والمتاجرة بها بشكلٍ واسعٍ، فكانت هذه المسألة أحد أكبر عيوب هذا القانون.

#### الفرع الثاني: قانون منع تهريب الآثار القديمة لسنة ١٩٢٦م

تم إصدار قانونٍ تضمّن أربع موادّ قانونيّةٍ تحت اسم قانون منع تهريب الآثار لسنة (١٩٢٦)، إذ جاء في مضمون المادة الثانية من هذا القانون: «للحكومة أن تصدر كلّ أثرٍ قديمٍ يرد العراق دون إجازةٍ من حكومة البلاد المستورد منها،

وتعيده إلى تلك البلاد إذا عُقد اتفاقٌ بين الحكومتين للقيام بمعاملةٍ متقابلةٍ في هذا الباب».

إنّ هذا التشريع قد نالته يد الاستعمار بالعبث أيضًا من جانبين: أولاً: إنّه لم يتطرق إلى منع تهريب الآثار إلى خارج العراق، بل اقتصر على منع دخول الآثار إلى العراق عن طريق التهريب فقط.

ثانياً: كما أنّه لم يلحق بقانون الآثار القديمة لعام ١٩٢٤ م، بوصفه مادةً مضافةً إليه وخصوصاً إذا ما علمنا بأنّ المادة الثانية هي التي أوضحت غاية القانون دون الموادّ الثلاث الأخرى، لكنّه رغم ذلك صدر بوصفه قانوناً مستقلاً، ربما كان المغزى من هذه المسألة هي التلاعب بموضوع تهريب الآثار بحجة وجود قانونٍ خاصٍّ بها.

### الخاتمة

١. تبين لنا من خلال قراءة الواقع القانوني للآثار العراقية بأنّها قد مرّت بانعطافاتٍ خطيرةٍ رافقت مجموعة التشريعات التي سنّت لها بدايةً من العهد العثمانيّ مروراً بفترة الاستعمار البريطانيّ، فإنّ هذه القوانين قد شكّلت ضربةً قاصمةً للآثار بدلاً من دورها في حمايتها.

٢. إنّ قانون الآثار القديمة لسنة ١٩٢٤ م، هو أوّل قانونٍ صدر بعد إعلان الحكم الوطنيّ في العراق، ورافق صدوره تنامي علم الآثار من الجانب القانوني، إلّا أنّه قد وُضعت أساساته بلمساتٍ واضحةٍ من قبل سلطة الانتداب البريطانيّ التي تعمل بطبيعة الحال على مراعاة مصالحها، ونلتمس ذلك بصورة واضحةٍ في استخدام مصطلح (الآثار القديمة)، ممّا يشير إلى أنّ نصّ القانون مترجمٌ عن اللغة الإنكليزية التي تستعمل مصطلح (Antiquities) الذي يُترجم إلى اللغة

العربية (الآثار القديمة)، لذلك لم يحتوِ القانون على بنود تحمي المواقع الأثرية، وتمنع العبث بها بصورة مباشرة أو حتى فقرات تفرض على الجهات القائمة بالتنقيب صيانة الآثار وترميمها بعد الانتهاء من عملها، بل كان القانون أشبه ما يكون بتنظيم للعمل الأثري ومحاولة لإسباغ الصفة الشرعية والقانونية على عمليات المتاجرة بالآثار وتصديرها وقسمتها على البعثات الأجنبية، والغاية هي إيجاد طرق قانونية لتصدير الآثار إلى خارج العراق.

٣. من النقاط السلبية التي اعترت قانون الآثار القديمة هي مسألة المتاجرة بالآثار عبر رخص قانونية وحكومية وفق شروط معينة يمنحها مدير دائرة الآثار والوزير المسؤول لأي فرد يرغب بالمتاجرة بالآثار، إذ يتم على هذا الأساس إخراج الكثير من الآثار القديمة تحت غطاء قانوني، فضلاً عن الطرق غير القانونية.

٤. أشار قانون الآثار القديمة إلى مسألة خطيرة وهي قسمة الآثار المكتشفة بين الجهات القائمة بالتنقيب وبين الحكومة، وعلى هذا الأساس تكون حصّة الجهة القائمة بالتنقيب نصف الآثار المكتشفة.

٥. من المسائل الأخرى أيضاً ذات البعد الخطير هي عدم اتخاذ الاحتياطات اللازمة لمراقبة عمليات التنقيب وعدد ما يُسجّل منها في سجلات البعثة، وذلك اعتماداً على أمانة هذه البعثات، وقد فُتح هذا الباب على مصراعيه لتهريب الآثار والمتاجرة بها بشكل واسع، فكانت هذه المسألة أحد أكبر عيوب هذا القانون.

٦. إن قانون منع تهريب الآثار القديمة لسنة ١٩٢٦ م، لم يتطرق إلى منع تهريب الآثار إلى خارج العراق، بل اقتصر على منع دخول الآثار إلى العراق عن طريق التهريب فقط.

٧. كما أنّ قانون منع تهريب الآثار لم يُلحَق بقانون الآثار القديمة لعام ١٩٢٤م، بوصفه مادةً مضافةً إليه، وخصوصاً إذا ما علمنا بأنّ المادة الثانية هي التي أوضحت غاية القانون دون المواد الثلاثة الأخرى، لكنّه رغم ذلك صدر بوصفه قانوناً مستقلاً، ربما كان المغزى من هذه المسألة هو التلاعب بموضوع تهريب الآثار بحجة وجود قانونٍ خاصٍّ بها.

٨. ندعو المشرّع العراقيّ الموقر أن يتّخذ من التجارب التاريخيّة المعاصرة في إطار سنّ التشريعات أساساً من خلال تجنيب التشريعات التأثيرات الخارجيّة، وأن تكون المصلحة العامة هي القطب الذي تدور في فلكه القوانين كافة.

## المصادر

### أولاً: الكتب العربيّة والمعربيّة:

١. إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، ط ٥، مؤسسة الصادق للطباعة والنشر، طهران، ١٤٢٦هـ.
٢. ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم الأفريقي المصري، لسان العرب، ط ٤، دار صادر، بيروت، ٢٠٠٧م.
٣. بول بان، علم الآثار، ترجمة إبراهيم سند أحمد، مؤسسة هنداوي، ٢٠٢٤م.
٤. جورج ضو، تاريخ علم الآثار، ترجمة: بهيج شعبان، ط ١، دار منشورات عويدات، بيروت، ١٩٧٠م.
٥. الألوسي، سالم، رواد علم الآثار في العراق، ط ١، دار الوراق للنشر، بيروت، ٢٠١٦م.
٦. علي محمد بدير وآخرون، مبادئ وأحكام القانون الإداري، ط ٤، شركة العاتك لصناعة الكتاب، القاهرة، ٢٠٠٩م.
٧. الغراوي، عمر جسّام، علم الآثار في العراق (نشأته وتطوره)، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٣م.
٨. كيرتروود مركريت لوثيان بيل (المس بيل)، فصول من تاريخ العراق القريب (كتاب يبحث عن العراق في عهد الاحتلال البريطاني بين سنتي ١٩١٤ و ١٩٢٠م)، ترجمة جعفر الحياط، وزارة التربية والتعليم، بغداد، ١٩٧١م.
٩. مازن راضي ليلو، القانون الإداري، منشورات الأكاديمية العربيّة في الدنمارك، ٢٠٠٨.
١٠. منى عبدالعالي موسى، هيثم أحمد سلمان محمود، جريمة التنقيب عن الآثار دون موافقة، المركز الأكاديمي للنشر، عمان، ٢٠٢٣م.

### ثانياً: الرسائل والأطاريح الجامعيّة:

١١. مصطفى طه جواد الجبوري، التناسب بين المصلحة العامّة والخاصّة في القانون الجنائي، أطروحة دكتوراه، معهد العلمين للدراسات العليا/ النجف الأشرف، ٢٠٢٠م.

### ثالثاً: البحوث والدراسات

١٢. سؤدد كاظم مهدي، شياء سالم عبدالصاحب، التراث الثقافي بين أصالة الموروث والحماية القانونية، عدد خاص من وقائع المؤتمر العلمي الخامس لتاريخ العلوم عند العرب، ٢٠٢٣ م.
١٣. علي إبراهيم إبراهيم شعبان، دور الدولة في حماية الآثار، مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، دمنهور، العدد الرابع، ٢٠١٩ م.
١٤. محمد حسن حمو، الآليات الدولية لاسترداد الآثار العراقية المسروقة، مجلة الراافدين للحقوق، كلية الحقوق، جامعة الموصل، العدد ٦٨، ٢٠١٩ م.

### رابعاً: القوانين:

١٥. قانون الآثار القديمة لسنة ١٩٢٤ م.
١٦. قانون منع تهريب الآثار لسنة ١٩٢٦ م.

# موقف الإدارة الاستعماريّة البريطانيّة في العراق

## حيال القوميّات والأقليّات الدينيّة

(١٩١٤-١٩٢٠م)

د. سيف عدنان ارحيم القيسي<sup>١</sup>

### الملخص

لقد استغلت الإدارة العسكريّة البريطانيّة التناقضات الدينيّة والمذهبيّة والمناطقية القائمة في العراق لتوظّفها لمصلحتها وديمومة وجودها، فضلاً عن ذلك شجّعت القوميّات والطوائف على تحقيق الانفصال وتجزئة المجرّأ؛ وهذه إشكاليّة العراق اليوم؛ ومنها تنطلق إشكالية هذه الدراسة التي نحن بصددتها. تهدف الدراسة إلى تسليط الضوء على الإدارة العسكريّة البريطانيّة وآلية تعاملها مع القوميّات والأقليّات الدينيّة في العراق، من عشية الاحتلال عام ١٩١٤م وحتى إعلان الحكم الأهلي في العراق ١٩٢٠م، مبينةً بالشواهد والوقائع التاريخيّة كيفيّة افتعالها للأزمات الداخليّة في العراق، ولاسيّما موضوع الأقليّات، وهي فرصة لها للبقاء والنفوذ، وهذا ما حصل واقعاً. الكلمات المفتاحيّة: الاستعماريّة، بريطانيا، الأقليّات، الكرد، اليهود، المسيح.

١. متخصص في التاريخ المعاصر / الجامعة العراقية - العراق.

**تمهيد: العراق في الإستراتيجية الاستعمارية أواخر القرن التاسع عشر**

ارتبط العراق من الناحية الجيولوجية بالكتلتين العربية والإيرانية الواقعة بين منطقة جبال زاغروس (Zagros Mountains The) وطوروس (The Taurus Mountains)، ولا زال يُشكّل هذا الموقع أهميةً في النواحي السياسية والجيولوجية والبشرية، فيلاحظ أنّ حدوده الطبيعية مفتوحة أمام معظم المناطق والدول المجاورة خلال مراحل الحرب والسلم وعبر كلِّ حقب التاريخ بما فيها خضوعه للنفوذ والسيطرة العثمانية ولأكثر من أربعة قرونٍ مضت، فقد ارتبط بالدولة العثمانية (The Ottoman Empire) في ظروف قوتها وضعفها، ولذلك أضحت مميزات موقعه الجغرافي وموارده وإمكانياته محطّ أنظار القوى الدولية الكبرى (بريطانيا، فرنسا، روسيا، ألمانيا)، فضلاً عن ذلك الاستحواذ على خيراته، وفي مقدمتها إمكانية وجود النفط في العراق بعد اكتشافه في إيران، إضافةً إلى استغلال شبكة المواصلات، ولهذا تغلغت الشركات التجارية في ولايات العراق الثلاث. كتب بعض الرحالة الأجانب مؤلّفاتٍ وثقّت الجوانب الحياتية والجغرافية والدينية والاجتماعية في العراق، ومنها رحلة المقيم البريطاني في بغداد كلوديس جيمس ريج<sup>١</sup> (James Rich Claudius) وما بعدها في الموصل عام ١٨٢٠م، كما تعرف الرحالة والسياسيون البريطانيون على مكونات المجتمع العراقي من المسلمين واليهود والمسيحيين والقوميات المتعددة كالعرب والكرد والتركمان

١. كلوديس جيمس ريج (١٧٨٧-١٨٢١م): هو مُستشرق وعالم آثار إنكليزي، شغل منصب المقيم البريطاني في العراق خلال الفترة (١٨٠٨-١٨٢١م)، وكان مندوباً عن شركة الهند الشرقية البريطانية، توفي عام ١٨٢١م بمدينة شيراز بعد إصابته بوباء الكوليرا. للمزيد، يُنظر: الطعمة، باسم حطّاب، تغلغل النفوذ البريطاني في العراق (١٧٩٨-١٨٣١م)، رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥م، ص ٨٥.

تجمعهم روح التعايش السلمي، فحاولوا خرقها بكلِّ وسائلهم والطرق المتاحة لهم، ومنها توثيق العلاقات مع العشائر العراقية العربية والكردية في محاولة إضعافها وتحديد صلتها بالدولة العثمانية، ولم يكتفوا بذلك بل عملوا على تشجيع القوميات والطوائف على إقامة دولٍ مستقلةٍ بذاتها، تدعمها بكل الإمكانات المادية والمعنوية، ولا شكَّ في أنَّ تلك السياسة حققت بعض خطوات النجاح عن طريق استمالتها بعض مَنْ وعدتهم بالاستقلال عن الدولة العثمانية، من دون أن تُظهر لهم حقيقة ما دار في كواليس الغرف المغلقة بين بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية من تقسيم الدول العثمانية والولايات التابعة لها، ومنها العراق ليكون في إطار مطامع بريطانيا بموجب اتفاقية سايكس - بيكو عام ١٩١٦م.

ولكن السؤال هل كان الهدف من التقارب بين الجانبين ورفع راية الدفاع عن حقوق الأقليات هدفه صيانة حقوقهم، أو الهدف منه خلق مكوناتٍ مجتمعيةٍ منقسمةٍ قد تفجر أزمةً داخليةً في أيِّ وقت؟

إنَّ حقيقة فهم فحوى سياسات الدول الكبرى في المشرق العربي يُلزم العودة إلى سياساتها أواخر القرن التاسع عشر وبيان الدوافع السياسية والاقتصادية والعسكرية والدينية، ومنها الأطماع الأوربية الممثلة ببريطانيا وفرنسا، وقد ساعدتها عوامل فرضت هيمنتها على المنطقة ومنها الأقليات القومية والدينية في الولايات العربية التابعة للدولة العثمانية التي ازدادت ضعفاً وتفككاً.

لا شكَّ في أنَّ عوامل الضعف التي شهدتها الدولة العثمانية كانت قد أسهمت في تسهيل مهمة القناصل ووكلاء الدول الأوروبية وزادت من تدخلهم في

الشؤون الداخلية للدولة<sup>١</sup>، فقد كان النشاط البريطاني على أشده في العراق<sup>٢</sup>، كما كان للبعثات التبشيرية دورٌ مهمٌ في بثِّ المفاهيم الأوروبية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ومنها تأسيس المدارس، كمدارس (الإليانس) اليهودية التي تأسست في مدن العراق وفي الموصل والكاظمية والحلّة والعمارة تحت إشراف الدكتور دبليو أي. ويكرام<sup>٣</sup> Wikram. E. W.، إذ نشطت في شمالي العراق وجنوبه وأُسست لها مدرسة في العمّادية، كما أنّ دعم القنصل الفرنسي للإرساليات الدينية الكاثوليكية كان على أشده، وفي الوقت نفسه تأسست مدرسة ألمانية لأول مرة في الموصل عام ١٩٠٩م ولكنها لم تستمر طويلاً، وبعدها كثر تردد البعثات الألمانية للتنقيب عن الآثار العراقية<sup>٤</sup>.

لم يقتصر النشاط التبشيري على البعثات التبشيرية البريطانية والفرنسية، بل تعدى الأمر إلى البعثات التبشيرية الأميركية هذه المرة التي بدأت مع كونها لم تشترك بأيّ نشاطٍ في ذلك الصراع، إلّا أنّها خاضت صراعاً من أجل الحصول على الأسواق لتصريف منتجاتها الصناعية والاشترك في التجارة العالمية، وكشفت الوثائق الأميركية بدورها وبشكل واضح عن نشاطات المبشرين التجسسية في تزويد حكوماتهم بمعلوماتٍ تفصيلية عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وأخذت البعثات التبشيرية الأميركية البروتستانتية

١. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق (١٩١٤-١٩٢١م)، ص ١٥-١٦.

٢. إيناس سعدي عبد الله، تاريخ العراق الحديث (١٢٥٨-١٩١٨م)، ص ٤٠٥.

٣. هو: لاهوتي أسكتلندي، مثقف وأديب وسياسي، قدم في زيارة مكث فيها زهاء عشر سنوات في شرق كردستان مبعوثاً دينياً من لدن رئيس أساقفة كانتربري لاستصلاح أحوال الأثوريين الدينية في موطنهم بكردستان، له مؤلّف بعنوان: (مهد البشرية)، يتناول فيه أوضاع مسيحيي العراق. للمزيد، يُنظر الموقع الإلكتروني:

<http://www.ankawa.com/forum/index.php?topic=761586.0>

٤. قزانجي، فؤاد، العراق في الوثائق البريطانية (١٩٠٥-١٩٣٠م)، ص ٦٠.

بالتزايد في العراق، منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وكان مدعوماً من قبل بريطانيا المُساندة للبروتستانتية تجاه الكاثوليكية الفرنسية، وبسبب تلك الظروف المساعدة تتابع قدوم المبشرين الأميركيين من أمثال بركنز (Perkins) وفورد (Ford) إلى العراق، وكانوا يقدمون لهم الخدمات الطبية والتعليمية إلى السكان<sup>١</sup>.

سجّلت وقائع الحرب العالمية الأولى المحك الذي ركّزت بريطانيا نفسها في مصر ثمّ لتحديد نقاط بقائها في العراق بوصفه موقعاً وسطاً بين مصر والهند، وهكذا تجسّدت المواقف البريطانية بناءً على إستراتيجية واضحة بدفع من الرأسمال البريطاني التجاري في محاولةٍ لإيجاد أسواق وموارد أوليةٍ قد تصاعد مع أهمية المنطقة من الناحيتين الدفاعية والإستراتيجية<sup>٢</sup>.

### الأساليب البريطانية في استيعاب الأقليات وتوظيفها في العراق

سعى القناصل والوكلاء البريطانيون إلى كسب ثقة طوائف العراق بهدف الحصول على نفوذٍ في البلاد، وعملوا على اختراق منظومة العشائر الكردية وإثارة مشكلة العشائر العربية<sup>٣</sup>.

وكان للمناطق الشمالية التي يقطنها الأكراد بوصفها أجزاءً غنيةً ومهمّةً من الناحية الإستراتيجية مكانة خاصة في التوجهات البريطانية، ممّا دعا مسؤوليها وبعض تجارها للسعي بمختلف الوسائل لتعزيز نفوذهم فيها، بغية تأمين الطرق البرية الموصلة إلى الهند، والسيطرة على منطقةٍ واسعةٍ وحساسةٍ من الشرق

١. سعاد رؤوف شير محمد، التغلغل الأميركي في العراق (١٩٢١-١٩٣٩م)، ص ٣٦-٣٨.

٢. العمر، فاروق صالح، العلاقات العراقية - البريطانية (١٩٢٢-١٩٤٨م)، ص ٦.

٣. عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، ص ٣٠١.

الأوسط، من خلال إحكام السيطرة على شمالي العراق، وتحديد الطرق المهمّة والمواقع الإستراتيجية التي وصلها عددٌ من الضباط البريطانيين<sup>١</sup>. لقد كرّست الإجراءات التي اتخذتها الإدارة البريطانية في تعزيز نفوذها في العراق، ومن هذه الإجراءات لجوؤها إلى منح التأييد القوي للمصالح التجارية البريطانية ولاسيما في العراق، فلما طلب خط الملاحه العائد لشركة لينج<sup>٢</sup> إذن الحكومة العثمانية بتشغيل باخرةٍ ثالثةٍ في دجلة، أولت الحكومة البريطانية دعمها التام للشركة، فقد كتب لويد جورج<sup>٣</sup> (Lloyd George) إلى السير تشارلس هاردنج (Charles Hardinge) في ١٨/ كانون الأول/ ١٩٠٦ م يؤيد له دعم الشركة: «أن أبادر القول أن أيّ إضعاف لوضعنا الحاضر في دجلة لا يعني فقط إضعاف مركزنا برمته في بلاد ما بين النهرين، بل يعني كذلك زيادة مقابلة في التجارة ونشاط الألمان»<sup>٤</sup>، وقد اتسع هذا النشاط واكتسب بُعْدًا آخر مع اتساع أساليب الاستعمار في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وأصبح عاملاً مهمًّا للتصارع بين الدول على إخضاع البلاد المضطهدة، فلم يكن الاستعمار مقتصرًا على القوة العسكرية والنشاط الاقتصادي،

١. عبد الرحمن صالح إدريس، سياسة بريطانيا تجاه كُرد العراق، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية (ابن رشد)، ص ٣٩-٤٠.

٢. هي: شركة نهريّة بريطانية، أسستها أسرة لنج في عام ١٨٤١ م، عندما سجلها ستيفن فينس لنج في لندن بمباركة الحكومة البريطانية مع أخويه هنري بلوس وتوماس كير، باسم (شركة لنج إخوان المحدودة)، وتنوع نشاط الشركة بين النقل والتجارة، ولقيت مُساندةً من الوكيل السياسي البريطاني في العراق، وحصلت رسمياً على الحماية من وزارة الخارجية البريطانية.

٣. لويد جورج (١٨٦٣-١٩٤٥ م): سياسي بريطاني، وعضو في حزب الأحرار، انتخب عدّة مرات عضواً في مجلس العموم البريطاني منذ العام ١٨٩٠ م، شغل منصب رئيس الوزراء للفترة (١٩١٦-١٩٢٢ م)، ومُنح لقب لورد. للمزيد، يُنظر:

Encyclopedia Britannica Ultimate Reference Suite, Chicago: 2013.

٤. العطية، غسان، نشأة الدولة (العراق)، ص ١٠٥.

بل عملوا على اتباع سياسة قائمة على الأمور الآتية:

١. إغراء القوميات المنضوية تحت لواء الدولة العثمانية بمنحهم الاستقلال في حال الانتفاض على الدولة العثمانية.
٢. استخدام الأساليب الإنسانية لتحقيق أهداف وتوسعات استعمارية في العراق عن طريق حماية الأقليات الدينية<sup>١</sup>.

ويظهر أن هذا التقارب مع القوميات أخذ بُعداً أكثر قوة من قبل، لاسيما بعد انقلاب الاتحاديين عام ١٩٠٨م، عندما صرّح قادة (جمعية الاتحاد والترقي): «أن الأمة العثمانية كانت وستظل هي الأمة الحاكمة في السلطنة العثمانية، وأن العثمانيين يتمتعون بحقوق وامتيازات سامية بصفتهم فاتحين، فلا مجال إذا للاعتراف بحقوق مساوية للعناصر العرقية الأخرى»<sup>٢</sup>، وكان هذا التصريح كافياً ليولد شعور بالتمرد على الدولة العثمانية آنذاك.

مع ذلك فإنه لم يحدث أيّ تعديل في سياسة الأوساط العثمانية الحاكمة إزاء الشعوب غير التركية بعد انتصار الاتحاديين في عام ١٩٠٨م، بل على العكس من ذلك سرعان ما ظهرت منطلقات جديدة وهي خيبة في نفوس هؤلاء السكّان تجاه الاتحاديين، ومنها أمور أخرى بدأت تمس حياة الفرد اليومية بصورة مباشرة، والتي أسهمت في انتقاد الاتحاديين ليوظّف ذلك الموقف ضدهم<sup>٣</sup>، وفي تقرير بريطاني أوضح أهداف دولته تجاه السكّان المحليين مستفيدين من موقف السكّان العدائي للاتحاديين: «لم يكن لدينا سبيل للاعتقاد بأنهم كانوا معادين كلياً للعثمانيين، وفعلاً فإنّ المليون أو أكثر من السكّان لم يكونوا كذلك، ولكن

١. عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر لأوروبا، ص ٣٠٨-٣٠٩.

٢. محمد إبراهيم محمد، مقاومة العرب للاضطهاد العثماني، ص ٣٣.

٣. النصيري، عبد الرزاق أحمد، دور المجدين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق (١٩٠٨-١٩٣٢م)، ص ٢١٨.

أملنا يعتمد على قدراتنا في إقناعهم منذ البداية أن يتنازنا نحوهم ونحو معتقداتهم طيبة، وبذلك نستطيع إبقائهم على الحياد، فبدعوتنا نسوي خلافاتنا مع العثمانيين دون التأثير عليهم»<sup>١</sup>.

وكان من بين جهود تعزيز مركز بريطانيا إرسال الإرساليات، ومنها الإرسالية الطبيّة في الموصل العائدة إلى الجمعية الإرسالية لكنيسة إنكلترا فيما بين النهرين، وكادت أن تُنهي أعمالها لعدم توفر الأموال لولا تدخل الموظفين البريطانيين لضمان استمراريتها، وبهذا كتب لويد جورج في مذكرة بتاريخ ٣/ أيلول/ ١٩٠٧م، قائلاً: «يجب أن نُدرك بوضوح من وجهة النظر السياسية، أن وجود الإرسالية وعملها لها أهمية عظيمة وبعيدة المدى، ومن المتعين على المصالح البريطانية كذلك، إمّا أن تتطور سريعاً، أو أن تتدهور على مدى العقد القادم من السنين، نظراً للتطور الذي بشرّ بفتح هذه البلاد للاستثمار والمنافسة الأجنبيةتين، ويبدو أن من غير المُستحسن جداً التفريط بمثل هذه الوسيلة القوية من وسائل نشر الحضارة والنفوذ السياسي»، وقد أمكن للإرسالية في الموصل أن تستمر في البقاء بمعونة من القنصلية البريطانية في بغداد، وقد زوّدت القنصلية اعتباراً من ١٩٠٦م إحدى المدارس اليهودية بأموال لقاء المباشرة بتدريسها للغة الإنكليزية<sup>٢</sup>.

### الاحتلال البريطاني للعراق وتشكيل الإدارة العسكريّة

عند اندلاع الحرب العالميّة الأولى في آب من عام ١٩١٤م وانضمام الدولة العثمانيّة إلى جانب ألمانيا، وانضمامها إلى كتلة الوسط في الخامس من تشرين الثاني

١. قرانجي، فؤاد، العراق في الوثائق البريطانيّة، ص ٤.

٢. العطية، غسان، نشأة الدولة (العراق)، ص ١٠٥-١٠٦.

عام ١٩١٤م، نزلت القوات البريطانية مدينة الفاو في السادس من تشرين الثاني عام ١٩١٤م، ومن ثم خاضت غمار حربٍ ضدَّ القوات العثمانية المتواجدة في العراق، واستمرت الحرب على العراق خلال المدة (١٩١٤-١٩١٨م)١.

وحينما أكملت الجيوش البريطانية احتلالها للعراق انتهت مهمة المراكز التجارية، ودبلوماسية تعزيز النفوذ إلى السيطرة البريطانية المباشرة، واتباع أساليب تثبيت الوجود البريطاني القائم على أساس تكريس سياسة الاستيلاء والسيطرة، وإقامة نظام احتلال مطلق وهو ما عُرف بالإدارة العسكرية البريطانية للعراق (١٩١٤-١٩٢٠م)، وبدأت الإدارة البريطانية في العراق ببناء تنظيماتها على شكل مؤسساتٍ يُديرها القادة العسكريون، وكانت سياساتهم قائمة على فرض القوانين والأنظمة الهندية التي أثار امتعاض السكّان منها<sup>٢</sup>، وعلى ما يبدو أنّ الإدارة العسكرية البريطانية وجدت ضالّتها في الأقليات من اليهود والمسيحيين لشغل الوظائف الحكومية.

ومع الاعتراضات على نظام الإدارة العسكرية البريطانية بينت بريطانيا عن عزمها البقاء في العراق، حتّى لو شكّلت حكومة تمثّل الشعب العراقي، فيشير أحد الضباط البريطانيين في العراق برترام توماس<sup>٣</sup> (Bertram Tomas) عن الاستقلال بقوله: «كيف نعطي الاستقلال الناجز والنهائي لشعب لا يعي

١. للمزيد، يُنظر: حميدي، جعفر عباس، تاريخ العراق المعاصر (١٩١٤-١٩٦٨م)، ص ١٦-٢١.

٢. ياسين طه ظاهر، دار الاعتماد البريطانية وتكوين الحكم الوطني في العراق (١٩٢٠-١٩٣٢م)، ص ٢٨-٢٩.

٣. برترام توماس (١٨٩٣-١٩٥٠): موظّف مدني ورحالة إنكليزي، خدم في عدّة وظائف حكومية في

العراق خلال المدة (١٩١٦-١٩١٨م)، وفي الأردن (١٩٢٢-١٩٢٤م)، شغّل بعدها منصب وزير

المالية لسُلطان مسقط وعمّان من (١٩٢٥-١٩٣٢م). للمزيد، يُنظر: مذكرات برترام توماس، ترجمة:

كامل سلمان الجبوري وعبد الهادي فنجان، (بيروت، مؤسّسة العارف للطبوعات، ٢٠٠٢م).

معنى السياسة، وفي كثيرٍ من الأماكن لا تجد ذكرًا أو معنى لكلمة حكومة على الإطلاق، كيف تُقيم حكومات وإدارات وطنية تقودهم إلى التخلّص من التخلّف، وتمكينهم من حق الاختيار في بلدٍ غالبيّة رجاله من الجهلاء»<sup>١</sup>.

وثمة مجموعة من الافتراضات حول الحكم كانت أكثر تعقيدًا من المفهوم الصريح للحكم الاستعماري المباشر، وبات على البريطانيين إقامة دولة تستمد فيها الحكومة من ساكني البلاد، ومع ذلك سيحتفظ البريطانيون بما يكفي من السلطة السياسية لضبط السياسات والقرارات غير المقبولة التي تتخذها الحكومة الوطنية، وتمثل الأمر اللازم بإفساد علاقاتها مع الدولة العراقية<sup>٢</sup>.

وهذا ما دفع بريطانيا لتوظّف من بقائها بعد فرض الانتداب البريطاني على العراق بشكلٍ رسمي، بموجب صكّ الانتداب الصادر من عصبة الأمم في ٢٥/ نيسان/ ١٩٢٠م، التي أبرمت كنتيجة لتصفية الدولة العثمانية، وإدخال مبدأ (حماية الأقليّات) في صكوك الانتداب لتبرير وجودها الدائم والعمل على التفتيت القومي<sup>٣</sup>.

بل تحوّلت مسألة حماية حقوق الأقليّات الدينيّة والعرقية إلى عقبة في تشكيل المملكة العراقية في عام ١٩٢١م، عندما أُجري استفتاء حول ترشيح فيصل بن الحسين (١٨٨١-١٩٣٣م) ملكًا على العراق، فلقد طالب أصحاب الديانات والأقليّات بإضافة بند في التصويت ينصّ على حماية حقوق الأقليّات السياسيّة والثقافيّة<sup>٤</sup>.

١. برترام توماس، مخاطر ورحلات في الجزيرة العربية، ص ٧٦.

٢. عديد دويشا، عراق الحقبة الملكية، ص ٢٩.

٣. شامل عبد القادر ومحمد جبير، يهود العراق المقدمات التاريخيّة والخطاب الثقافي، ص ٢٦.

٤. عديد دويشا، عراق الحقبة الملكية، ص ٩٥.

### اتفاقية سايكس - بيكو (١٩١٦م) ومشروع التقسيم

رَكَزَت بريطانيا نشاطها في العراق بعد تزايد النفوذ الألماني، ومحاولته مد سَكَّة حديد بغداد - برلين التي أثارت جدلاً واسعاً في أروقة الدول الأوروبية المنافسة لألمانيا، فخشيت بريطانيا أن تتزعزع سيادتها على البحار، وأدركت أنه لم يبقَ بعد هذا السبيل إلى التفاهم مع ألمانيا، فتقدمت إلى فرنسا لتتقرب إليها حتَّى عقدت معها اتفاقية عام ١٩٠٤م، ثمَّ توسَّطت فرنسا بين بريطانيا وروسيا القيصرية فتمَّ الاتفاق بينهما على تقسيم مناطق النفوذ في عام ١٩٠٧م<sup>١</sup>.

وبعد قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م ومحاولات الشريف حسين بن علي شريف مكَّة البحث عن مشروع الدولة العربية الكبرى، الذي وعدَّ به من قبل البريطانيين في حال إعلانهِ الثورة على الدولة العثمانية لتتحفظ بريطانيا على الحدود التي حددها الشريف حسين بن علي؛ ولذا وجدت بريطانيا من الضروري التوصل مع حليفها فرنسا إلى تسوية حول تقسيم المشرق العربي، فطلبت بريطانيا أن تُحدد لها مندوباً لوضع اتفاقية التقسيم، فعينت فرنسا مستشار سفارتها الأول بلندن فرانسوا بيكو (Francois Georges-Picot) (١٨٧٨-١٩٥١م)، لتعين بريطانيا من جانبها مارك سايكس (Mark Sykes) (١٨٧٩-١٩١٩م)، لتبدأ مفاوضات التقسيم السرية بينهما<sup>٢</sup>.

وفي حقيقة الأمر إنَّ اتفاقية سايكس - بيكو لم تكن في حقيقتها إلاَّ ردّاً على تحركات الشريف حسين بن علي والقادة القوميين الذين طالبوا بالوحدة العربيَّة

١. عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، ص ١٣٠.

٢. هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠م)، ترجمة: أحمد نجيب هاشم ووديع

الضبع، (القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨م)، ص ٥٧٣.

القوميّة، والذين كانوا يأملون بأنّ الطريق بات مفتوحاً أمام تنفيذ المشروع القومي العربي، الذي كان محور نشاطهم وتفاهمهم مع بريطانيا، والتي أثبتت التطورات اللاحقة أنّ هذا التفاؤل لم يكن في محله<sup>١</sup>، مع أنّ بريطانيا لم تكن عازمةً على تقسيم ممتلكات الدولة العثمانية، وكان لها موقف معروف منذ أن برزت روسيا كقوة كبرى مناوئة لجارتها الدولة العثمانية ومزاحمةً لبريطانيا في مناطق نفوذها، وكان رأي بريطانيا المحافظة على سلامة الدولة العثمانية، ومنع روسيا من الوصول إلى البحر المتوسط<sup>٢</sup> The Mediterranean Sea.

ولكن الموقف تغير بالنسبة لبريطانيا بسبب تدخل الدول الأوربيّة في شؤون الدولة العثمانية بطرقٍ وأساليب مختلفة، وذلك استناداً إلى الامتيازات الممنوحة من قبل الدولة العثمانية للأجانب في تواريخ مختلفة؛ لذا أصبحت الدول الأوربيّة تعد تلك الامتيازات بمنزلة حقوق مكتسبة لها ولرعاياها، ودخول ألمانيا كحليف للدولة العثمانية هو ما أثار بريطانيا المحافظة على بقاء الدولة العثمانية فرأت بضرورة اقتسام أملاكها<sup>٣</sup>.

ولم تكّد الدولة العثمانية تدخل الحرب حتّى بدأت المفاوضات السريّة بين دول الوفاق ترى النور لاقتسام أملاكها، فقد تمّ الاتفاق بين بريطانيا وفرنسا وروسيا في آذار من عام ١٩١٥م على أن تكون القسطنطينية من نصيب روسيا، ووافقت هذه الدول في معاهدة لندن المنعقدة في ٢٦/ نيسان/ ١٩١٥م والتي انضمت إليها إيطاليا على أن يُحفظ التوازن السياسي في البحر المتوسط بمنح إيطاليا عند اقتسام الدولة العثمانية حصّة مُعادلة لحصّة بريطانيا وفرنسا وروسيا،

١. رغيد الصلح، (حربا بريطانيا والعراق (١٩٤١-١٩٩١م)، ص ٣٧.

٢. جورج لنشوفسكي، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية، ١٠٥/٢.

٣. محمد إبراهيم محمد، مقاومة العرب للاضطهاد العثماني، ص ١٠٥.

وأعيد النظر في ٢٦/ نيسان/ ١٩١٦م بمعاهدة لندن وعُقدت على أساسها معاهدة (زازونوف - باليولوك السرية) بين فرنسا وروسيا لتعيين حصّتها من البلدان العثمانية، وفيها مُنحت روسيا ولايات طربزون وأرضروم وبتليسيس، ومُنحت فرنسا ما يُعادل حصّة روسيا من البلدان المحاذية لها من جهة الجنوب، على أن تُعيّن الحدود بمفاوضة بريطانيا والاتفاق معها، وعلى إثر ذلك جرت المفاوضات وتمّ الاتفاق بين الدولتين على اتفاقية سايكس - بيكو في آيار من عام ١٩١٦م، فعُيّن لفرنسا بلاد الشام (سورية ولبنان) وولاية الموصل<sup>١</sup>. وفي ظلّ الانتقادات الموجهة لاتفاقية سايكس - بيكو بكونها أجهضت مشروع الوحدة العربية الذي دعا إليه الشريف حسين بن علي، يتساءل الحاكم العسكري فيما بعد على العراق آرنولد ولسون (Arnold Wilson) (١٩١٨-١٩٢٠م): «إنّ تحقيق آمالهم المزعومة بالوحدة بأن يتحالف وهاوية نجد وعسير وسادة الكويت والعرب في سورية والعراق فما هو مصير تلك الأقليات»<sup>٢</sup>، ولم تكتفِ بتقسيم مناطق نفوذ بل وجدت بريطانيا وفرنسا فيما بعد حجة قائمة وهي أنّه يجب أن يضع العهد الجديد بعد الحرب على كواهل الدول الأوروبية التزامات لا نحو الأقليات العنصرية والدينية التي تعيش بين ظهرانيها فحسب، بل أيضاً التزامات نحو الجماعات الضعيفة المتأخّرة التي بسطت عليها الدول القويّة سيطرتها، وأنّ تقوم علاقاتها بتلك الجماعات على مبدأ الوصاية<sup>٣</sup>.

١. للمزيد، يُنظر: جورج لنشوفسكي، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية، ص ١٠٥-١٠٦؛ عبد الفتاح

إبراهيم، على طريق الهند، ص ٢٢٩-٢٣٠.

٢. سير آرنولد تي ولسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ٣٢/٢.

٣. هـ. أ. ل. فيشر، تاريخ أوروبا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠م)، ص ٥٧٣.

## الإدارة العسكرية البريطانية والكرد

كانت بريطانيا قد بحثت عن مناطق نفوذ لها في العراق وبمختلف الطُّرق، وكانت المناطق الكردية أحد تلك المنافذ لتحقيق أهدافها منذ نهاية القرن التاسع عشر وصولاً إلى القرن العشرين، وهذا يعود إلى العلاقة بين الكُرد والدولة العثمانية التي مرّت في حالاتٍ مدّ وجزر، وسياسة المركزية التي اتبعتها الدولة العثمانية، وأمّا العلاقات بين سلطات الاحتلال البريطاني وبين الكُرد فقد اتّسمت بالتذبذب حسب أهداف بريطانيا الإستراتيجية، بما فيها خيارات الحرب مع الإشارة إلى أمر في غاية الأهمية وهو أنّ الموقع الجغرافي وانعدام وجود منفذ على البحر قد أسهم في تأخر وصولهم إليها<sup>١</sup>.

تعود بدايات الاتصال بين بريطانيا وكُرد العراق إلى أعقاب الحرب الروسية - العثمانية (١٨٧٧-١٨٧٨ م) إذ عيّنت وزارة الخارجية البريطانية الميجر أ. ج. تروتر (Megger.A. J. Trotter) قنصلاً لعموم كردستان العثمانية، قام بإرسال التقارير إلى لندن والنظر إلى الكُرد في أحد تقاريره ما نصه: «لا شك أنّ الكُرد في العديد من الأماكن يعانون من سوء الحكم أكثر من المسيحيين، واتصالهم بالقناصل الأوروبيين ضعيفاً، وأنا لا أرى أيّ داعٍ بأيّ حالٍ من الأحوال يمنع خضوع الكُرد المستقرين إلى ذات القوانين والمؤسسات التي يخضع لها المسيحيون»<sup>٢</sup>.

تطوّرت علاقات الإدارة العسكرية البريطانية مع أكراد العراق<sup>٣</sup> في وقتٍ مبكرٍ

١. أوفرا بينغوي، كُرد العراق.. بناء دولة داخل دولة، ص ٢٣.

٢. سعد بشير إسكندر، من التخطيط إلى التجزئة سياسة بريطانيا العظمى تجاه مستقبل كردستان (١٩١٥-١٩٢٣ م)، ص ٤٦.

٣. حنا بطاطو، العراق الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتّى قيام الجمهورية، ٣١/١.

من قيام الحرب العالمية الأولى، وذلك بإقامة مسح شامل أجرته الاستخبارات البريطانية عن أهمّ العشائر الكردية في الوضع السياسي العام، ونجحت في كسب ودّ بعض زعماء القبائل الكردية المتنفذة ممّا عرض بعضهم للنفي من السلطات العثمانية بعدما نظر إليهم بعين الخشية بسبب ميولهم للجانب البريطاني<sup>١</sup>.

وشدّد الضباط البريطانيون المنتشرون في كردستان والألوية المحيطة مراقبة الأوضاع في كردستان، وأرسلوا التقارير المفصلة للأحداث والمعلومات، بينت الواقع المرير في المنطقة<sup>٢</sup>.

ولا شكّ في أنّ اكتشاف النفط قد عزّز من صلات بريطانيا بالشيوخ الكرّد، ولاسيما خلال السنوات الأولى من القرن العشرين، وقد نظرت إليه بريطانيا بأنّه كنز لا يمكن تجاهله، وعلى هذا النحو عزّزت الإدارة العسكرية من رجالات استخباراتها في المنطقة ومنهم الميجر سون<sup>٣</sup> (Megger. Soan) الذي عدّ خبيراً في الشؤون الكردية<sup>٤</sup>.

وعشية قيام الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤م قدّمت شخصيات كردية تعاونها مع دول الوفاق الودي، إذ أجرى بعضٌ منهم اتصالاتٍ مع روسيا حليفة بريطانيا، وأجرى محمد شريف باشا خندان أحد الشخصيات السياسية

---

١. عبد الرحمن صالح إدريس، سياسة بريطانيا تجاه كرد العراق، أطروحة دكتوراه، جامعة بغداد، كلية التربية (ابن رشد)، ص ٢٩-٣١.

٢. المرجع نفسه، ص ٣٥-٣٦.

٣. ضابط بريطاني، تحول في كردستان العراق قبل الحرب العالمية الأولى، متكرراً بزي رجل فارسي تحت اسم (ميرزا غلام حسين شيرازي)، عُين ضابطاً سياسياً لمنبلي عام ١٩١٧م، ثمّ للسليمانية ١٩١٩م، توفيّ عام ١٩٢٣م. للمزيد، يُنظر: عبد الرحمن صالح إدريس، سياسة بريطانيا تجاه كرد العراق، ص ٣٢.

٤. سعد بشير اسكندر، من التخطيط إلى التجزئة سياسة بريطانيا العظمى تجاه مستقبل كردستان (١٩١٥-١٩٢٣م)، ص ٤٩.

الكرديّة وشيخ عشيرة (بلباس) في السليمانية اتصالاتٍ مع بريطانيا في كانون الأول ١٩١٤م، عارضًا مساعدته للحملة العسكريّة البريطانيّة مقابل حصوله على ضماناتٍ حول استقلال المناطق الكرديّة، إلّا أنّ بريطانيا شكّكت في إمكانيّتها بالاستقرار في مناطق شمالي العراق، ولكن بعد احتلال بغداد في ١٧/ آذار/ ١٩١٧م تغيرت موازين القوى لصالح البريطانيين، فتطّلع الكرّد نحو بريطانيا بعد إنكارهم للسياسة التي اتبعتها القوات الروسيّة في المناطق الكرديّة، ومن ثمّ انسحابها بعد قيام ثورة أكتوبر ١٩١٧م، وأصبحت الفرصة كما يبدو مؤاتية لهم لإحياء فكرة الحكم الذاتي، بعد تصريح القائد البريطاني ستانلي مود (Stanley Maude) (١٨٦٤-١٩١٧م) عند دخوله بغداد وإبداء تعاطفه مع العرب في الحصول على الاستقلال، بعد أن تغيرت سياسة بريطانيا التي أخذت تهتم بكرّد العراق، وتسعى إلى كسب المزيد من الزعماء الكرّد المحليين إلى جانبها<sup>١</sup>.

وإنّ تعزيز صلاتها وبناء جسور علاقاتها مع الأقليّات في العراق بحجّة حمايتهم ما هي إلّا ورقة ضغط تستخدمها عندما ترى أنّ مصالحها في خطر، وأنّ الأقليّات أنفسهم يربطون بقائهم ببقاء بريطانيا في العراق، وقد زرعت الإدارة البريطانيّة قواتها في العراق، وهذا ما أكّده المفوض السامي البريطاني هنري دوبس (Henry Dobbs) (١٨٧١-١٩٣٤م) قائلاً: «لو انسحبت القوات البريطانيّة من العراق أعتقد أنّ الحكومة العراقيّة كانت إمّا تلاشت كليًا خلال أشهر قليلة، أو بقيت ملتصقةً بشكلٍ بائس بشريط من الأرض على امتداد دجلة بين سامراء والكويت

١. عبد الرحمن صالح إدريس، سياسة بريطانيا تجاه كرّد العراق، ص ٦٥-٦٦.

فقط، بينما انشقت بقية البلاد<sup>١</sup>، واستقبل بعض الزعماء العشائريين ومنهم زعماء كردستان بالترحاب<sup>٢</sup>، وقد يكون ذلك بسبب الإغراء وشراء الضمائر. لقد تفهمت الإدارة العسكرية البريطانية من جانبها رغبة الكرد في الاستقلال السياسي، وذلك عندما قرروا تعيين الشيخ محمود الحفيد<sup>٣</sup> حاكمًا للسليمانية، ردَّ الشيخ الحفيد الذي ذهب أكثر من طموحه بإعلان نفسه ملكًا على كردستان، وهذا الأمر لم يُرضهم فشرع بالثورة ضدهم، الأمر الذي ولَّد ردود فعل معاكسة لدى بريطانيا فناصره العداة وعملوا على إخماد ثورته<sup>٤</sup>.

عزز (نوئيل) الضابط السياسي البريطاني في السليمانية الذي جرى تعيينه في تشرين الثاني ١٩١٨ م، والذي بدأ بتوطيد نفوذ دولته حتى بعد تعيين محمود الحفيد حاكمًا لكردستان لم تكن في حقيقتها كما ذكر في أحد تقاريره بأنَّه: «أُعير لنشر النفوذ البريطاني بين العشائر الكرديَّة، وفرض النظام والشرعيَّة، ومما لا شكَّ فيه أنَّ البريطانيين حقَّقوا بعض النجاحات في بادئ الأمر، وقد انتشر شعار كردستان للكرد والذي قصد به أن يكون تحت الحماية البريطانيَّة»<sup>٥</sup>، فلم تدع خطوات الإدارة العسكريَّة البريطانيَّة في العراق بعد هدنة مودورس<sup>٦</sup> حتى

١. حنا بطاطو، العراق الطبقات الإجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية ٤٣/١.

٢. سير آرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائتين، ص ١٦.

٣. البرزنجي، الشيخ محمود الحفيد (١٨٨٢-١٩٥٦ م): من مواليد السليمانية، ينتمي إلى أسرة دينيَّة صوفية، وبسبب مكانته الدينيَّة إلْتف حوله الكرد، شغل الحكومتين البريطانيَّة والعراقية بحركاتٍ مُسلَّحة خلال المدة (١٩١٨-١٩١٩ م)، أعلن نفسه ملكًا على كردستان سنة ١٩٢٢ م لتُجرد ضده حملاتٍ عسكريَّة أنهت تحركاته المُسلَّحة. توفيَّ في بغداد عام ١٩٥٦ م. للمزيد، يُنظر: عبد الرحمن صالح إدريس، سياسة بريطانيا تجاه كُرد العراق، ص ٥٣.

٤. دويشا، عديد، عراق الحقبة الملكية، ص ٥٠.

٥. م. س. لازاريف، المسألة الكردية (١٩١٧-١٩٢٣ م)، ص ٦٣.

٦. هي: هدنة وقَّعت في ٣٠/ تشرين الأول/ ١٩١٨ م بين بريطانيا والدولة العثمانية، والتي أنهت القتال في

كشفت بريطانيا عن سياستها الحقيقية في العراق وتجاه الكرد، عندما بدأت تعمل على إعادة القوانين والنظام إلى نصابهما، وبالدرجة الأساس للمناطق الكرديّة التي بدأت على ما يبدو تُشكّل خطرًا على مصالحها.

وبعد أن فرضت بريطانيا سيطرتها على العراق عقب هدنة مودورس في ٣٠/ تشرين الأول/ ١٩١٨م لتعطي الكرد أبعادًا دوليّةً من خلال إعطائهم حقوقٍ دوليّةٍ بموجب المادتين (٦٢-٦٤) من معاهدة سيفر المنعقدة في ١٠/ آب/ ١٩٢٠م، بأن يوضع مشروع للاستقلال المركزي للمناطق الكرديّة في شرقي الفرات وجنوب غربي أرمينيا، وشمالي الحدود التركية المتاخمة لسوريا والعراق، وذلك في خلال ستة أشهر من تاريخ دخول هذه المعاهدة حيّز التنفيذ، وفي ظرف سنةٍ واحدةٍ من تاريخ هذه المعاهدة فاتح الكرد مجلس عصبة الأمم وأعربوا عن رغبتهم في الانفصال عن تركيا، وأقر المجلس رغبتهم في ذلك.<sup>٢</sup>

لقد تفهّم البريطانيون الأهميّة الاقتصادية للمناطق الكرديّة ودورها في

---

منطقة الشرق الأوسط، واستسلام القوات العثمانية في الولايات العربية ومنها العراق. للمزيد، يُنظر:

حميدي، جعفر عباس، تاريخ العراق المعاصر، ص ٢١.

١. أوفرا بينغيو، كرد العراق بناء دولة داخل دولة، ص ٢٤.

٢. بعد تتويج فيصل الأول ملكًا على العراق في ٢٣/ آب/ ١٩٢١م غيرت بريطانيا من سياستها تجاه انفصال الكرد لتضمها إلى المملكة العراقية، وبعد تقرير اللجنة الأُمّية التي حسمت قضية بقاء الموصل جزءًا من الدولة العراقية، وأوصت اللجنة ببقاء المناطق الكرديّة ضمن المملكة العراقية، بعد أن ضمنت لهم حقوقهم القومية في الدستور العراقي، وهذا الموقف الذي عزز من موقع الكرد في واقعة يعود إلى أن بريطانيا أصبحت سيدة الوضع في العراق، وبدأت تشدد من ضغطها على القيادة الكرديّة للعمل ضمن الدولة العراقية، ولكنها من جانبٍ آخر أسهمت في إرغام الكرد على خدمة مصالحها العسكريّة والسياسية في المنطقة، وتبيّن أنّها أثرت في المرحلة الأولى في اتخاذ إجراءات ذات طابع سياسي مع استغلال مشاعر الكرد القومية في الاستقلال. للمزيد، يُنظر: الحسني، عبد الرزاق، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، ١٩٦١-٣٠؛ م. س. لازاريف، المسألة الكرديّة (١٩١٧-١٩٢٣م)، ص ٥٧.

استقرارها، وينظرون لهم بوصفهم قوةً انفصاليّةً غير راغبةٍ بالمشاركة في بناء مجتمعٍ عراقيٍّ موحدًا، وهو ما يبدو ما كان يطمح إليه البريطانيون لتستخدم هذه الورقة عند الضرورة.

وحقيقة الأمر أنّ بريطانيا أولت اهتمامها بالمناطق الكرديّة بهدف استثمار النفط، ومن ثمّ تحويلها قاعدةً للتوسّع القادم في الجبهات الشماليّة والغربيّة والشرقيّة، والعمل على مواجهة الحركة الكرديّة القوميّة الناشئة فيها بالحركة العربيّة التي اشتدّ عودها أيضًا في العراق، ومن ثمّ توطيد السيطرة البريطانيّة في البلاد كلها، وقد تمّ تنفيذ جميع هذه المخطّطات في مراحل متفاوتة<sup>٢</sup>.

### الإدارة العسكريّة البريطانيّة ويهود العراق

أبدت الطائفة اليهوديّة من جانبها ترحيبًا بالاحتلال البريطاني للعراق، كون البريطانيّين في نظرهم سيّئقدونهم من سوء مُعاملة العثمانيين لهم خلال فترات حكمهم للعراق<sup>٣</sup>.

ومع دخول البريطانيّين البصرة أواخر شهر تشرين الثاني من عام ١٩١٤م، وجدوا اليهود فيها «على استعداد لقبول فرص التعاون معهم، لا سيّما في الجوانب الاقتصاديّة التي عُرفوا فيها بمجال تفوقهم، لا سيّما بغداد والموصل والبصرة»<sup>٤</sup>. ولم يقتصر الأمر على ذلك بل كانت لهم علاقاتٌ مع التجار العراقيّين اليهود

١. عديد دويشا، عراق الحقبة الملكيّة، ص ٥٢.

٢. م. س. لازاريف، المسألة الكرديّة (١٩١٧-١٩٢٣م)، ص ٦٤.

٣. إيستر مائير غليشتاين، رحيل يهود العراق (١٩٤٨-١٩٥١م)، ص ١٦.

٤. أحمد برهان الدين باش أعيان، النشاط الصهيوني في العراق (١٩٤١-١٩٥٢م) أوضاع اليهود العراقيّين،

بحث غير منشور، ٢٠١٣م. (نسخة منه لدى الباحث).

المُهيمنين على التجارة في البلاد<sup>١</sup>، وقد بدأ النشاط اليهودي هو الآخر على أشده بعد تزايد البعثات التبشيرية الأوروبية، ففي تقرير بريطاني أوضح أنه قد وُزِع بين اليهود في بغداد منشور تحريض طُبِع باللغة العبرية، وطبعه مُبشّر يهودي أميركي يُدعى ويليام بلاكتون (William Blackton)، وقد اتخذ المبشرون الاحتياط لمغادرة بغداد قبل أن يوزع المنشور، وقد تضمن المنشور بيان الطريقة التي تعامل بها اليهود في العراق، وما دام اليهود يُعاملون بلا مودة فعليهم ألا يُظهروا منها شيئاً، وأضاف أن الحكومة العثمانية فاسدة، وأن السلطة المركزية العثمانية فاسدة، وقد جاز زمن اليهود للكفاح<sup>٢</sup>.

ويبدو أن الآراء المتطرفة لبعض يهود العراق واستغلالهم الأزمة الاقتصادية خلال سنوات الحرب العالمية الأولى دفعت الوالي العثماني فائق بك، ومدير شرطة بغداد سعد الدين الخنّاق قبل أسبوع واحد من سقوط بغداد عام ١٩١٧م بالقبض ليلاً على عددٍ من الصيارفة، بحجة أنهم سبوا هبوط سعر الأوراق المالية التركية إثر تلاعبهم بسعرها، وامتناعهم عن تبديل الليرة الورقية بالليرة الذهبية، فنكّل بهم تنكيلاً شنيعاً، وجُدعت أنوفهم، وقُطعت آذانهم، وسُمِلت عيونهم، ثم وضعوا في أكياس وأُلقيت جثثهم في نهر دجلة<sup>٣</sup>.

وقد خضع التجار اليهود والصرافون لرقابة شديدة، لما كانوا يُتهمون به من تخزين البضائع، ومن مُضاربة الأسعار، وليس هذا فحسب بل حاول بعضهم تحاشي الخدمة العسكرية، كما حاول بعض المُجنّدين الهرب من الجيش، وقد سُنق

١. العطية، غسان، نشأة الدولة (العراق)، ص ٦٣.

٢. قرانجي، فؤاد، العراق في الوثائق البريطانية، ص ٩٣.

٣. الربيعي، نبيل عبد الأمير، اليهود في العراق منذ السبي الآشوري والبابلي إلى تهجيرهم القسري في

منتصف القرن العشرين، ص ٢٤.

علناً من قبض عليه منهم بتهمة الفرار، كما سُئِق آخرون بتهمة التجسس، فليس من المُستغرب أن تُرحَّب الطائفة اليهودية بدخول القوات البريطانية ترحيباً حاراً، وقد أصبحت هذه الطائفة السند الأقوى للإدارة البريطانية<sup>١</sup>.

اتضح أن اليهود كانوا أكثر ارتياحاً بالوجود البريطاني فقد كان عددهم في بغداد يومذاك خمسين ألفاً، وخرج معظمهم هاتفين للبريطانيين<sup>٢</sup>، وهذا الترحيب بدأ مع نزول القوات البريطانية للبصرة لم تُسجل الطائفة اليهودية موقفاً جديداً بترحيبها بالمحتلين البريطانيين الجُدد الذين وصلت قواتهم إلى مدينة الفاو في ٦/ تشرين الثاني/ ١٩١٤م، ومع دخول القوات البريطانية بغداد في ١١/ آذار/ ١٩١٧م عدَّ اليهود هذا اليوم وهو يوم دخول القوات البريطانية بغداد بقيادة الجنرال ستانلي مود يوماً (معجزة)، احتفلوا بذكره عدَّة سنين متوالية كونه يومٌ (حَسَن) بالنسبة إليهم، إلى حدِّ أنَّهم لم يسجدوا فيه على وجوههم في صلاة الصبح، وأطلقوا أيضاً على هذا اليوم اسم (يوم الأعجوبة)، مدَّعين أنَّهم تنفسوا فيه الصُّعداء باحتلال الإنكليز لبغداد، ووصفوهم بالمنقذين فاستقبلوهم بالتهليل والترحيب<sup>٣</sup>.

وعلى هذا النحو شبَّه أحد الكُتَّاب البريطانيين دخول ستانلي مود إلى بغداد بدخول كورش الأخميني إلى بابل، عندما أعاد لهم نفائسهم التي سُلبت منهم أيام البابليين، فقد شعر اليهود بأنَّ الاحتلال البريطاني كان لهم كالاحتلال الفارسي

١. العطية، غسان، نشأة الدولة (العراق)، ص ١٣١.

٢. الورد، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٣٩٧/٤.

٣. للمزيد، يُنظر: صالح حسن عبد الله، تهجير يهود العراق (١٩٤١-١٩٥٢م)، رسالة ماجستير، كلية التربية، جامعة تكريت، ٢٠٠٣م، ص ٢٨؛ العبدلي، نور محمد، ساسون حسقيل ودوره السياسي

والاقتصادي في العراق (١٨٦٠-١٩٣٢م)، ص ٧٣.

الذي أنقذ أسلافهم من الأسر البابلي، ومن الطوائف التي أُشيعت بين اليهود المقولة الشهيرة: «إيش ما يقول لك الصاحب قُل له يس»<sup>١</sup>.

ولم يكتفِ اليهود بالتعبير عن فرحهم بدخول البريطانيين بل أقامت مدرسة الإليانس اليهودية<sup>٢</sup> في ١٦/ تشرين الثاني/ ١٩١٧م حفلةً على شرف القوات البريطانية، حضرها قائد القوات البريطانية ستانلي مود، وتذكر المس غيروتروود بيل (Miss Gertrude Bell) (١٨٦٨-١٩٢٦م) التي رافقت (مود)، عن أحوال اليهود، قائلةً: «إنني عازمة على الانصراف إلى العناية بالطائفة اليهودية، والوقوف على الكثير من التفاصيل المتعلقة بها وبنشاطها العام، مما لا شكَّ فيه أن هذه الطائفة سيكون لها في يوم ما شأنٌ كبير»<sup>٣</sup>.

وبالرغم من ذلك فإنَّ اليهود استطاعوا من خلال تشعُّب نشاطاتهم التجارية وانتشارهم في المدن العراقية تمكَّنوا من ترسيخ قوتهم الاقتصادية بالتدريج، والسيطرة على أغلب الحلقات التجارية ليستفيدوا من وقوع الحرب العالمية الأولى بالتقارب مع الإدارة العسكرية البريطانية في العراق<sup>٤</sup>.

وفي أعقاب انتهاء العمليات العسكرية تهافت اليهود بدورهم على التوظف في الدوائر الرسمية، وملاً شبابهم بوجه خاص دوائر المالية والمحاسبات والكمارك والمكوس والبريد والبرق والسكك الحديدية وميناء البصرة، ولم تخلُ

١. الورددي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث ٣٩٧/٤.

٢. مدارس الإليانس اليهودية: هي المدارس التي أنشأها الاتحاد الإسرائيلي العالمي نهاية القرن التاسع عشر في العديد من الدول، وكان لها فروع في البلدان العربية ومنها العراق، فأُسست أول مدرسة للإليانس في العراق سنة ١٨٦٤م. للمزيد، يُنظر: الزبيدي، نوال كشييش محمد، موجز تاريخ اليهود في العراق، ص ٨٦.

٣. إليزابيث بيرغوين، جيرتروود بيل من أوراقها الشخصية (١٩١٤-١٩٢٦م)، ص ١٢٢.

٤. كشييش، نوال، موجز تاريخ اليهود في العراق، ص ٢٠.

منهم دوائر وزارة الداخلية والعدلية والجيش والشرطة، وشغلوا وظائف شركة النفط وسائر المؤسسات البريطانية والوطنية<sup>١</sup>.

ويبدو أن سبب تهافت اليهود على الوظائف يعود إلى سياسة بريطانيا، وتقربها إلى الأقليات ومنها اليهودية، فاستخدموهم ووثقوا بهم شأنهم في التعامل مع الأقليات في كل مكان، ولأنهم كانوا أكثر إخلاصًا لهم، فتحوا لهم أبواب المؤسسات الحكومية، كما فتحو أبواب المدارس، وكانت مكاتب الحكومة غاصّة بهم، حتّى شغل بعضهم مناصب رفيعة وصلوا إليها في سنوات الاحتلال<sup>٢</sup>.

درست الإدارة العسكرية البريطانية من جانبها أحوال الطوائف الأخرى ومنها اليهودية بحجّة سوء أوضاعها في العراق، ففي تقرير سريّ للحاكم العسكري البريطاني في العراق بيّن الأوضاع المتردّية للمدارس اليهودية في العراق، موضحًا أن سبب عدم التحاقهم بالمدارس الأخرى واقتصارهم على مدارس الطائفة المكتظة بالطلبة: «أنهم أرسلوا إلى المدرسة لا ليتعلّموا، بل لمجرد أن يتعدوا عن الأذى من الطوائف الأخرى»، وطالب التقرير بضرورة تزويد بعض المدارس اليهودية بالمال<sup>٣</sup>.

وبهدف تنظيم الأوضاع في العراق عازمت بريطانيا على تشكيل حكومة محلية في العراق بعد أحداث ثورة ١٩٢٠م<sup>٤</sup>، وناقش الحاكم العسكري أوضاع الطائفة

١. مير بصري، أعلام اليهود في العراق الحديث، ص ٤٢.

٢. السوداني، صادق حسن، النشاط الصهيوني في العراق (١٩١٤-١٩٥٢م)، ص ١٥.

٣. تقارير إدارية لسنة ١٩١٨م عن بعض الأقسام المدنية في مناطق العراق المحتلة. للمزيد، يُنظر: العراق في سجلات الوثائق البريطانية (١٩١٤-١٩٦٦م)، المحرر: آلف دي. ل. رش، محرر البحوث: جين بريشود، م ١٣٤/٢.

٤. تُشير الباحثة في تاريخ يهود العراق أنّه عقب ثورة العشرين اعتمدت الإدارة البريطانية على الأقليات للحصول على دعم في ترسيخ كيانهن. للمزيد، انظر: إيستر مائير، رحيل يهود العراق (١٩٤٨-

اليهودية في العراق في ظلّ تشكيل أيّ كيانٍ سياسيٍّ جديدٍ مما أثار اعتراض اليهود، ولتخوفهم من احتمال ظهور كيانٍ سياسيٍّ متعصّبٍ ضدهم، يُشير تقرير بريطاني أنّهم أرسلوا التماسًا يطلبون فيه أن يُسمح لهم أن يكونوا رعايا بريطانيين إذا ما أُقيمت حكومة عربية في العراق؛ ليشذوا بموقفهم هذا من جديد عن الشعب العراقي، إلّا أنّ المندوب السامي البريطاني في العراق السير برسي كوكس هدأ من روعهم، بتقديمه الضمانات لحمايتهم من أيّ شكلٍ من أشكال الاستبداد، بل وأشرك ساسون حسقيل (١٨٦٠-١٩٣٢م) كوزير للمالية في أول حكومة عراقية شكّلها عبد الرحمن النقيب (١٨٤٥-١٩٢٧م) في الخامس والعشرين من تشرين الأول ١٩٢٠م، ليتعزز موقفهم في ظلّ المملكة العراقية التي ترأسها الملك فيصل بن الحسين في الحادي والعشرين من آب ١٩٢١م، والذي بدوره أكّد على المساواة في ظلّ الهوية العراقية.

### الإدارة البريطانية العسكرية والطائفة المسيحية في العراق

إنّ مسألة الأقليات لا تُعدّ مشكلةً في حقيقة الأمر، فهذه الأقليات ومنها المسيحية التي كان يُقدّر عددها عند دخول القوات البريطانية بـ (٨٠٠٠٠) حسب إحصاء نيسان ١٩٢٠م، وينفرد المسيحيون من بين الأقليات الدينية بالاحتفاظ بمدارسهم الخاصة، فهم إجمالاً أفضل تعليماً من العرب والكرد، ففي ظلّ هذا التنوع القومي والديني لولايات العراق الثلاث لم يكن هدف بريطانيا فقط البحث عن الطرق التجارية وإقامة مراكز تجارية فحسب، بل

١٩٥١م، ص ١٦.

١. العراق في سجلات الوثائق البريطانية، المحرر: آلف دي. ل. رش، محرر البحوث: جين بريشود، ص ٢م،

ص ٢٧٤؛ صالح حسن، تهجير يهود العراق (١٩٤١-١٩٥٢م)، ص ٣٠-٣١.

٢. اللورد لويد دولبران، العراق من الانتداب إلى الاستقلال (١٩١٤-١٩٣٢م)، ص ٢٠٩.

بدأت تُوظَّف قضايا جوهريّة لتتدخل بشكلٍ ممنهج في شؤون الدولة العثمانيّة، لتجد لها منفذاً آخر من دعمها للأقليات القوميّة والدينيّة، وهم أصحاب الديانة المسيحيّة الذين يُشكّلون جزءاً من المجتمع العراقي، الذي سعت بريطانيا في إيجاد قواعد لها بداخله لتتمحور من خلالها إلى الدولة العثمانية بحجّة حماية الأقليات المضطهدة.

عملت بريطانيا من جانبها أن تجد لها موطئ قدم بين الأقليات الدينيّة ومنهم المسيحيّون، لاسيّما من خلال البعثات التبشيريّة، ففي تقرير للموظفين البريطانيين بعد أن قررت الجمعية الإرساليّة لكنيسة إنكلترا الطيبة في الموصل أن تُنهي أعمالها بسبب الضائقة الماليّة، كتب لويد جورج (Lloyd George) عضو مجلس العموم البريطاني في مذكرة بتاريخ ٣/ أيلول/ ١٩٠٧ م: «يجب أن نُدرك بوضوح من وجهة النظر السياسية أن وجود الإرسالية وعملها لها أهميّة عظيمة وبعيدة المدى، ومن المتعيّن على المصالح البريطانيّة كذلك إمّا أن تتطور سريعاً، أو أن تتدهور على مدى العقد القادم من السنين، نظراً للتطور الذي يُبشّر بفتح هذه البلاد للاستثمار والمنافسة الأجنبيّتين». وقد أمكن هذه الإرسالية أن تستمر في الموصل<sup>١</sup>.

ومع بؤادر الحرب العالمية الأولى انضم المسيحيون الآشوريون من مناطق حكاري (المنطقة الواقعة بين سهل نينوى وبحيرة وان<sup>٢</sup>) إلى جانب بريطانيا

١. العطية، غسان، نشأة الدولة (العراق)، ص ١٠٦.

٢. : Lake Van (Van Gölü) أكبر بحيرة في تركيا، وتقع في منطقة شرق الأناضول، وتبلغ مساحتها الإجمالية حوالي (١٢،٥٠٠) كيلو متر مربع بعمق (١٧٤) متر في المتوسط. والبحيرة مالحة، كما يتواجد في البحيرة عدة جزر صغيرة، وتطل على البحيرة عدة مدن، منها مدينة (وان) ومدينة (خلاط)، وقد عُرفت البحيرة قديماً باسم (بحيرة أر جيش). للمزيد، يُنظر الموقع الإلكتروني:

بهدف التخلص من سيطرة الدولة العثمانية من جانب، والتخلص من مضايقات بعض العشائر الكرديّة، فاضطروا إلى ترك مدنهم والدخول تحت حماية القوات البريطانيّة في العراق، حيث دخلت أول المجاميع من وان والقفقاس في شهر آب ١٩١٨م بلغ تعدادهم (٥٠) ألف، فقد استغلت بريطانيا من جانبها الوضع السيء للأشوريين، وقررت أن تؤلّف قوات من هؤلاء تستخدمهم في الحملات التآديبية في المناطق المحتلة، وليُعرفوا فيما بعد بقوات (الليفي)¹.

والمسيحيّون هم الآخرون أظهروا تقربهم من الإدارة البريطانيّة؛ لأنّهم كانوا بالأمس قد ذاقوا الأمرين من بلايا التجنيد والنوط والمصادرة وغيرها، ثمّ وجدوا تلك البلايا تزول عنهم بين عشية وضحاها، وشعروا بإزاحة كابوس ثقيل كان جائئاً على صدورهم².

وقد تقلّد البعض منهم وظائف إداريّة والعمل ك مترجمين مع القوات البريطانيّة، أو في دوائر الدولة الأخرى، لكن الآثوريين الذين استقروا بعد الحرب العالميّة الأولى في العراق كان لهم نصيبٌ أوفر من الرعاية البريطانيّة، ومن الواضح أنّ أسباب ذلك تعود إلى ما قدمه هؤلاء من مساعداتٍ للسلطات البريطانيّة في حالة حدوث اضطرابات عن طريق وجودهم في أفواج قوات الليفي³، أي أصبحوا قوةً يمكن أن تقف بوجه أيّ قوةٍ محلية تحاول تقويض

<https://en.wikipedia.org/wiki/Lake-Van>

١. وليم خمور ودا، الحماية الدولية للأقليات.. دراسة حالة الحماية الدولية للمسيحيين العراقيين، رسالة ماجستير، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ٢٠١٣م، ص ٢٢٢-٢٢٣.

٢. الوردي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٣٩٦/٤.

٣. السلّمان، أنعام مهدي علي، بريطانيا وتكوين الدولة في العراق، أثر السير هنري دوبس في السياسة العراقية (١٩٢٣-١٩٢٩م)، ص ١٤٨.

مركز بريطانيا في العراق.

ويشير باحثٌ معاصر بأنه «لم يكن إقدام البريطانيين للآثوريين حدثاً عادياً، وإنما أرادوا بوساطتهم تنفيذ برامجهم في العراق، فجعلوهم يتصورون أن قيام بريطانيا بإسكانهم في العراق هو مكافأة لهم مقابل مساندتهم إياهم في الحرب، وأفهموهم بأنهم لن يستخدموهم للدفاع عن العراق، بل وعدوهم بالعودة إلى أوطانهم، فكانوا يأملون من حلفائهم البريطانيين المساعدة بعد عودتهم إلى مواطنهم السابقة، إلى (تأسيس حكم ذاتي) تحت الحماية البريطانية»<sup>١</sup>.

ويشير إلى ذلك آر نولد ولسن القائد العسكري للإدارة البريطانية في العراق عن المسيحيين ومنهم الآثوريون، بقوله: «لقد جاء معهم مطارنتهم وقسمهم من النساطرة والكلدان والأرمن والكاثوليك والأورثوذوكس، وكان هؤلاء بالنسبة للإشراف الروحي في عهدة رأس القساوسة العسكريين»<sup>٢</sup>.

وبدأت الإدارة البريطانية تجد لها في الأقليات وسيلةً من وسائل التأثير على الواقع الاجتماعي في العراق، عندما بدأت تُثير القلاقل بين السكّان المحليين بحجة حماية المسيحيين، كما حدث في واقعة الكويان في قضاء زاخو أحد أقضية لواء الموصل في كانون الأول من عام ١٩١٨م، عندما طرح أحد الرهبان واقع المسيحيين في القضاء، والتعصب الديني ضدّهم مع حاكم القضاء (بهسن) ليثير في نفسه العصبية الدينية، وبدأ (بهسن) بإثارة قبائل الكويان فيما بينهم، والتي أدّت في النهاية لمقتله وإثارة الفوضى في القضاء، لتُجرد القوات البريطانية بمعية الآثوريين في الخامس من آيار عام ١٩١٩م حملةً عسكرية لتُحرق القرى،

١. الحيدري، رياض رشيد ناجي، الآثوريون في العراق (١٩١٨-١٩٣٦م)، ص ٩٥.

٢. سير آر نولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائتين، ١١٤/٢.

وإخضاع العشائر المتمردة ضدّهم<sup>١</sup>.

وفي محاولةٍ من قبل الإدارة العسكريّة البريطانيّة إشراك المسيحيين في عددٍ من الوظائف الحكومية، ذكر تقرير بريطاني مؤرخ في ٢٧/ نيسان/ ١٩٢٠م بصدد ذلك: «لا يمكن أن يذكر بين المسيحيين البارزين في بغداد أي شخص يستطيع الكلام أو الكتابة بلغةٍ أوروبية»<sup>٢</sup>.

ولعلّ ما يؤشر تقرب الإدارة البريطانيّة إلى مسيحيي العراق هو مشاركة وفد مؤلّف من (٤٠) شخصية عراقية أغلبهم من اليهود والمسيحيين، المؤيدين للسياسة البريطانيّة الذين قابلوا آرنولد ويلسون لعرض مطالبهم الوطنية<sup>٣</sup>، وأضاف التقرير البريطاني حول ذلك اللقاء «أنّ أوضاع المسيحيين في ظلّ تشكيل كيان سياسي في العراق قلق، وصرحوا أنّ موقف المسلمين منهم أصبح قاسياً»<sup>٤</sup>. وهذه الإشكالية التي خلقتها ظروف السياسة الاستعماريّة في المنطقة العربية والعراق على نحوٍ خاصٍ موظّفةً التنوع العرقي والديني، لتصبح إشكاليّةً مُستديمةً تواجه الحكومة العراقية، لا سيّما بعد تشكيل الحكومة العراقية في ٢٣/ آب/ ١٩٢١م، وقد عبّر الملك فيصل الأول عن شكواه من ذلك بمرارةٍ عندما أشار بمذكرته الشهيرة عن العراق: «إنّ البلاد العراقية من جُملة البلدان التي ينقصها أهم عنصر من عناصر الحياة الاجتماعية، ذلك هو الوحدة الفكرية المللية والدينيّة، فهي والحالة هذه مبعثرة القوى منقسمة على بعضها، يحتاج ساستها

١. الحسني، عبد الرزاق، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، ٤١/١-٤٢.

٢. العراق في سجلات الوثائق البريطانيّة، مرجع سابق، م٢، ص ٢٤٠.

٣. طارق مجيد تقي، مقدمة في تاريخ العراق السياسي المعاصر، ص ٦٤.

٤. العراق في سجلات الوثائق البريطانيّة (١٩١٤-١٩٦٦م)، المحرر: آلف دي. ل. رش، محرر البحوث:

جين بريشود، م٢، ص ٢٧٥.

أن يكونوا حكماء مدبرين، وفي عين الوقت أقوياء مادةً ومعنىً، غير مجلوبين لحساسياتٍ أو أغراضٍ شخصية أو طائفية أو متطرفة، يداومون على سياسة العدل والموازنة والقوة معاً<sup>١</sup>.

### الخاتمة

لم يكن اهتمام الإدارة البريطانية العسكرية بالعراق فحسب، بل عمّلت على إيجاد سياسةٍ أخرى للتعامل مع القوميات والأقليات الدينية، ومنها استمالتها إلى جانبها، وتوظيفها في المناصب الحكومية إلى جانبها كي تكون ملتصقةً بها، كونها صاحبة الفضل في تبوئها تلك المناصب.

من جانبٍ آخر بروز ظاهرة القمع والإذلال المتعمد في التعامل مع أبناء البلاد، من خلال مظاهر الاستبداد السياسي والقمع العسكري، محاولةً إثارة الفرقة الاجتماعية بين أفراد المجتمع العراقي، بوسائل سياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة (كالحروب أو الصراعات الداخلية)، أو ((الشللية) = الكتل الحزبية أو العشائرية أو الدينية أو الطائفية أو العنصرية... إلخ). من خلال عناصر حاولت ربط مصالحها الخاصة مع مصالح المحتل الأجنبي، ليس في مراحل الاحتلال العسكري المباشر فحسب، وإنما في مرحلة ما قبل الاحتلال وبعده، فضلاً عن الإسقاطات التي قد يخلقها المرتبطون والمستفيدون من المحتلين بعد رحيلهم أيضاً، ولعلّ واحدةً من نتائج الاحتلال الأجنبية المستمرة للعراق، أنّها أدت إلى محاولات تزويق وتعميم ثقافة الفرقة بين أفراد المجتمع الواحد، واستغلال

١. الأزري، عبد الكريم، مشكلة الحكم في العراق.. تحليل للعوامل الطائفية والعنصرية في تعطيل الحكم الديمقراطي في العراق والحلول الضرورية للتغلب عليها، ص ٢.

بعض العناصر الداخلة في تكوينه المجتمع العراقي<sup>١</sup>.  
 مهما يكن من أمر فإنَّ الإدارة البريطانيَّة وسياسة التجزئة التي اعتمدها تجاه العراق توضح مدى اعتمادها على الأقليات القومية والدينيَّة؛ لتُحقِّق بدورها مآربها في المستقبل، وتلعب على وتر تلك الأقليات بحجَّة الدفاع عن حقوقها المسلوبة، للضغط على الحكومة العراقية، وهذا ما تحقَّق فيما بعد من خلال استخدام ورقة الآثوريين والكُرد، مستغلَّة مشاعرهم الدينيَّة والقومية الراضة لحكم الأكثرية العربيَّة، وهذا ما جعل فيما بعد بريطانيا تحقِّق من خلاله مصالحها، الأمر الذي أحدث شرخاً في داخل بُنية المجتمع العراقي، حتَّى بقي يُعاني منه إلى الوقت الحاضر نتيجةً لتكريس تلك السياسة.

---

١. البزاز، عبد الرحمن، العراق من الاحتلال حتَّى الاستقلال، ص ٣٩.

## المصادر

١. الأزري، عبد الكريم، مشكلة الحكم في العراق تحليل للعوامل الطائفية والعنصرية في تعطيل الحكم الديمقراطي في العراق والحلول الضرورية للتغلب عليها، (بيروت، د. م، ١٩٩١م).
٢. ألف دي. ل. رش و جين بريشود، العراق في سجلات الوثائق البريطانية (١٩١٤-١٩٦٦م)، ترجمة: كاظم سعد الدين، بغداد، بيت الحكمة، ٢٠١٣م.
٣. إليزابيث بيرغوين، جيرتروود بيل من أوراقها الشخصية (١٩١٤-١٩٢٦م)، ترجمة: نمير عباس مظفر، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٢م.
٤. أنعام مهدي علي السلطان، بريطانيا وتكوين الدولة في العراق، أثر السير هنري دوبس في السياسة العراقية (١٩٢٣-١٩٢٩م)، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ٢٠١٦م.
٥. أوفرا بينغيو، كُرد العراق، بناء دولة داخل دولة، ترجمة: عبد الرزاق عبد الله بوتاني، بيروت، دار الساقبي، ٢٠١٤م.
٦. إيستر مائير غليشتاين، رحيل يهود العراق (١٩٤٨-١٩٥١م)، ترجمة: مصطفى نعمان أحمد، بغداد، دار ميزوبوتاميا، ٢٠١٦م.
٧. إيناس سعدي عبد الله، تاريخ العراق الحديث (١٢٥٨-١٩١٨م)، بغداد، مكتبة عدنان، ٢٠١٤م.
٨. برترام توماس، مخاطر ورحلات في الجزيرة العربية، ترجمة: عبد الهادي فنجان الساعدي، بغداد، دار مصر مرتضى، ٢٠٠٩م.
٩. برترام توماس، مذكرات برترام توماس، ترجمة: كامل سلمان الجبوري وعبد الهادي فنجان، بيروت، مؤسسة العارف للمطبوعات، ٢٠٠٢م.
١٠. البزاز، عبد الرحمن، العراق من الاحتلال حتى الاستقلال، ط ٢، بغداد، ١٩٦٧م.
١١. البلداوي، طارق مجيد تقي، مقدمة في تاريخ العراق السياسي المعاصر، بغداد، مؤسسة تائر العصامي، ٢٠١٦م.

١٢. جعفر عباس حميدي، تاريخ العراق المعاصر (١٩١٤-١٩٦٨م)، بغداد، مكتبة عدنان، ٢٠١٥م.
١٣. جورج لنشوفسكي، الشرق الأوسط في الشؤون العالمية، ترجمة: جعفر خياط، بغداد، مكتبة دار المتنبي، ١٩٦٤م.
١٤. الحسن، عبد الرزاق، العراق في دوري الاحتلال والانتداب، بغداد، دار الرافدين، ٢٠١٣م.
١٥. حنا بطاطو، العراق؛ الطبقات الاجتماعية والحركات الثورية من العهد العثماني حتى قيام الجمهورية، الكويت، منشورات دار القبس، ٢٠١١م.
١٦. الحيدري، رياض رشيد ناجي، الآثوريون في العراق (١٩١٨-١٩٣٦م)، القاهرة، مطبعة الجيلاوي، ١٩٧٧م.
١٧. الربيعي، نبيل عبد الأمير، اليهود في العراق منذ السبي الآشوري والبابلي وإلى تهجيرهم القسري في منتصف القرن العشرين، بغداد، دار الرافدين، ٢٠١٣م.
١٨. الزبيدي، نوال كشيح محمد، موجز تاريخ اليهود في العراق، بغداد، دار ضفاف، ٢٠١٥م.
١٩. سعاد رؤوف شير محمد، التغلغل الأميركي في العراق (١٩٢١-١٩٣٩م)، بغداد، مؤسّسة نائر العصامي، ٢٠١٦م.
٢٠. سعد بشير إسكندر، من التخطيط إلى التجزئة سياسة بريطانيا العظمى تجاه مستقبل كردستان (١٩١٥-١٩٢٣م)، السليمانية، منشورات بن غه زين - مطبعة شفان، ٢٠٠٧م.
٢١. سير آرنولد تي ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولأين، ترجمة: فؤاد جميل، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٩٢م.
٢٢. شامل عبد القادر ومحمد جبير، يهود العراق المقدمات التاريخية والخطاب الثقافي، بغداد، دار الجواهري، ٢٠١٣م.
٢٣. صادق حسن السوداني، النشاط الصهيوني في العراق (١٩١٤-١٩٥٢م)، بغداد، دار الحرية للطباعة والنشر، ١٩٨٠م.
٢٤. صالح حسن عبد الله، تهجير يهود العراق (١٩٤١-١٩٥٢م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية، جامعة تكريت، ٢٠٠٣م.

موقف الإدارة الاستعمارية البريطانية في العراق حيال القوميات والأقليات الدينية ❖ ٢١٥

٢٥. الصلح، رغيد، حربا بريطانيا والعراق (١٩٤١-١٩٩١م)، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ٢٠١٣م.
٢٦. الطعمة، باسم حطّاب، تغلغل النفوذ البريطاني في العراق (١٧٩٨-١٨٣١م)، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٨٥م.
٢٧. عبد الرحمن صالح إدريس، سياسة بريطانيا تجاه كُرد العراق، أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية (ابن رشد).
٢٨. عبد العزيز سليمان نوار وعبد المجيد نعنعي، التاريخ المعاصر لأوروبا، القاهرة، ١٩٧٥م.
٢٩. عبد العزيز سليمان نوار، تاريخ العراق الحديث من نهاية حكم داود باشا إلى نهاية حكم مدحت باشا، القاهرة، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨م.
٣٠. عبد الفتاح إبراهيم، على طريق الهند، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٧٨م.
٣١. العبدلي، نور محمد، ساسون حسقييل ودوره السياسي والاقتصادي في العراق (١٨٦٠-١٩٣٢م)، بغداد، مكتبة النهضة العربية، ٢٠١٧م.
٣٢. عديد دويشا، عراق الحقبة الملكية، ترجمة: مصطفى نعمان أحمد، بغداد، دار مصر مرتضى، ٢٠١٢م.
٣٣. علي الوردي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، بيروت، دار الراشد، ٢٠٠٥م.
٣٤. علي محافظة، موقف الدول الكبرى من الوحدة العربية، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٨٥م.
٣٥. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق (١٩١٤-١٩٢١م)، أطروحة دكتوراه غير منشورة قدمت الى جامعة بغداد، كلية الآداب، تشرين الأول ١٩٩١.
٣٦. العُمَر، فاروق صالح، العلاقات العراقية - البريطانية (١٩٢٢-١٩٤٨م)، بيروت، دار ومكتبة البصائر، ٢٠١٤م.
٣٧. غسان العطية، نشأة الدولة (العراق)، ترجمة: عطا عبد الوهاب، لندن، دار اللام، ١٩٨٨م.
٣٨. قزانجي، فؤاد، العراق في الوثائق البريطانية (١٩٠٥-١٩٣٠م)، دار المأمون، بغداد، ١٩٨٩م.
٣٩. اللورد لويد دولبران، العراق من الانتداب إلى الاستقلال (١٩١٤-١٩٣٢م)، ترجمة: مجموعة مترجمين، بيروت، الدار العربية للموسوعات، ٢٠٠٢م.

٤٠. م. س. لازاريف، المسألة الكردية (١٩١٧-١٩٢٣م)، ترجمة: عبدي حاجي، ط٢، بيروت، دار الفارابي، ١٩٨١م.
٤١. محمد إبراهيم محمد، مقاومة العرب للاضطهاد العثماني، بغداد، دار الجواهري، ٢٠١١م.
٤٢. مير بصري، أعلام اليهود في العراق الحديث، لندن، دار الوراق، ٢٠٠٦م.
٤٣. النصيري، عبد الرزاق أحمد، دور المجددين في الحركة الفكرية والسياسية في العراق (١٩٠٨-١٩٣٢م)، بغداد، مكتبة عدنان، ٢٠١٢م.
٤٤. هـ. أ. ل. فشر، تاريخ أوربا في العصر الحديث (١٧٨٩-١٩٥٠م)، ترجمة: أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع، القاهرة، دار المعارف، ١٩٥٨م.
٤٥. وليم خمور ووردا، الحماية الدولية للأقليات.. دراسة حالة الحماية الدولية للمسيحيين العراقيين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية العلوم السياسية، جامعة بغداد، ٢٠١٣م.
٤٦. ياسين طه ظاهر، دار الاعتماد البريطانية وتكوين الحكم الوطني في العراق (١٩٢٠-١٩٣٢م)، بغداد، مكتبة أحمد الدباغ، ٢٠١١م.

# الاستعمار البريطاني والملف العسكري والقضائي للعراق

١٩١٤-١٩١٨

د. حسن الفرطوسي<sup>١</sup>

## الملخص

عُدَّ الجهاز الإداري في أي نظام سياسي الأداة التنفيذية لسياسات السلطة الحاكمة، إذ يضطلع بتنفيذ توجهات النظام وتنظيم شؤون السكان، ويكسب أهمية خاصة في سياقات التحوّل السياسي أو الاحتلال، كما في حالة الاحتلال البريطاني للبحرة عام ١٩١٤. فقد مثّل هذا الاحتلال بداية حقبة جديدة في تاريخ العراق، أنهت فعلياً الوجود الإداري العثماني، وفتحت الباب أمام البريطانيين لإرساء نمط إداري جديد يخدم مصالحهم الاستراتيجية.

الكلمات المفتاحية: الاحتلال البريطاني، الإدارة العسكرية، النظام القضائي، الشبانه، العشائر العراقية، قانون الأراضي المحتلة، دعاوى العشائر.

---

١. متخصص في التاريخ المعاصر / جامعة ميسان - العراق.

## توطئة

شكّل الجهاز الإداري حجر الأساس في تنفيذ سياسات الأنظمة الحاكمة، إذ يُترجم الأهداف العامة للنظام إلى ممارسات عملية ضمن أطر تنظيمية تخدم استمرارية السلطة، بغض النظر عن طبيعة النظام أو هويته السياسية. وفي سياقات الاحتلال، تزداد أهمية هذا الجهاز بوصفه الوسيلة التي تتيح للقوى المحتلة فرض سيطرتها وإعادة تشكيل البنية الإدارية وفق رؤاها ومصالحها.

وفي هذا الإطار، يُعدّ الاحتلال البريطاني لمدينة البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ محطة مفصلية في التحول من الإدارة العثمانية إلى الإدارة البريطانية. فقد أُقيم احتفال رسمي بهذه المناسبة، ألقى خلاله المندوب السياسي البريطاني، السير برسي كوكس (Percy.z.Cox)، خطاباً باللغة العربية أعلن فيه انتهاء الحكم العثماني وبدء عهد جديد تحت راية بريطانيا، واعدًا السكان بالحرية والعدالة في ظل الإدارة البريطانية. شكّل هذا الخطاب، من الناحية الفعلية، الإعلان الأول لانتهاء السلطة العثمانية، وبداية مرحلة الاحتلال البريطاني المنظم<sup>١</sup>.

فرضت الظروف الميدانية في المدينة على القوات البريطانية ضرورة الإسراع بإنشاء إدارة مدنية بديلة. ويمكن تحديد أبرز دوافع هذا التأسيس بما يلي:

١. السعي لضبط الأمن بعد حالة الفوضى التي أعقبت انسحاب القوات العثمانية، وما رافقها من نهب وتخريب للمؤسسات العامة<sup>٢</sup>.
٢. مواجهة التدهور الصحي وانتشار الأوبئة، والتي أودت بحياة عدد من

١. نبيل عامر فليح، المهام الإدارية والأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني ١٩٢٠ - ١٩٣٢، رسالة ماجستير، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، ٢٠١١، ص ٩؛ سر ارندل تي. ويلسون، ص ٤٧.

٢. العمر، فاروق صالح، حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٤ - ١٩٢١، بغداد، ١٩٧٧، ص ٢٤.

الجنود البريطانيين نتيجة غياب الخدمات الصحية وتراكم النفايات<sup>١</sup>.  
٣. ضمان إيصال الإمدادات وتوفير الاحتياجات العسكرية للقوات  
البريطانية المنتشرة في العراق<sup>٢</sup>.

٤. السيطرة على الموارد الاقتصادية والأراضي والممتلكات العامة.  
٥. سد الفراغ الإداري الناتج عن انسحاب غالبية الموظفين العثمانيين، الذين  
كان معظمهم من الأتراك، وإتلافهم للأرشيفات الرسمية قبل مغادرتهم.  
٦. تقديم الخدمات الأساسية للسكان المحليين، وتنظيم العلاقة بين المدنيين  
والسلطة المحتلة<sup>٣</sup>.

انطلاقاً من هذه المعطيات، وافقت الحكومة البريطانية على إقامة إدارة مدنية  
للمناطق العراقية المحتلة، بهدف تكريس سيطرتها المباشرة وتحويل العراق إلى  
مستعمرة خاضعة لسلطتها، تختلف في وضعها عن باقي المستعمرات البريطانية؛  
نظراً لأهميته الجيوسياسية والاقتصادية. وقد رأت بريطانيا أنّ إحكام السيطرة  
على الجهاز الإداري وتوجيهه بما يخدم أهدافها يُعدّ ضرورة استراتيجية لضمان  
استمرار نفوذها واستقرار وجودها<sup>٤</sup>.

ورغم هذه القناعة، ظهرت خلافات جوهرية بين الحكومة البريطانية في  
لندن وحكومة الهند البريطانية حول شكل الإدارة المرتقبة. فقد فضّلت لندن

---

١. المنصور، جعفر عبد الدائم بنیان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير، جامعة  
البصرة كلية التربية، ١٩٩٨، ص ٤٥.

٢. مجلي، ماجد ثامر، قضايا التنمية الاقتصادية في مناقشات البرلمان العراقي ١٩٢٥ - ١٩٤٥،  
أطروحة دكتوراه، معهد التاريخ العربي والترات العلمي للدراسات العليا، ٢٠١٢، ص ١٧.

٣. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤ - ١٩٢١، ص ٨٢.

٤. نبيل عامر فليح، المهتمات الإدارية والأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني  
١٩٢٠ - ١٩٣٢ ص ٩ - ١٠.

الحذر وعدم التوسّع في البنية الإدارية، مبرّرة ذلك بغياب الكوادر المؤهّلة، ومفضّلة النموذج المصري- السوداني كصيغة قابلة للتطبيق، بما يخفّف الأعباء المالية والسياسية. في المقابل، كانت حكومة الهند تدفع باتجاه تبني نموذجها الإداري، مستندة إلى قدرتها على تأهيل كوادر عراقية محليّة، مدنية وعسكرية، يمكنها تسيير شؤون البلاد وفقاً للتجربة الهندية<sup>١</sup>.

ويمكن أن نقول إن العامل الاقتصادي لعب دوراً كبيراً في الموقف البريطاني المتحفظ لتأسيس ادارة مدينة البصرة، لا سيّما في ظل الأعباء المالية المتزايدة جرّاء الحرب العالمية الأولى. كما أنّ الحكومة البريطانية سعت إلى تجنب إثارة حفيظة حلفائها بإعلان نوايا استعمارية صريحة في وقت مبكر.

ورغم الخلافات بين الطرفين، تم التوافق على ضرورة إقامة إدارة منظمة، على أن يتولّى برسي كوكس مهمة الإشراف المباشر عليها بصفته الضابط السياسي الأقدم في العراق. ونتيجة لكون معظم عناصر القوة العسكرية البريطانية كانت تتبع لحكومة الهند، فقد بدا طبيعياً أن تُطبّق القوانين والإجراءات الإدارية الهندية في العراق خلال المرحلة الأولى من الاحتلال<sup>٢</sup>.

١. الشجيري، عدنان هيرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، أطروحة

دكتوراه، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٥، ص ٢٦؛ علي ناصر حسين، ص ٨٣.

٢. علي ناصر حسين، الإدارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١ ص ٨٠، ياسين طه ظاهر، الإدارة

البريطانية للعراق في ظل مرحلتي الاحتلال والانتداب، ص ٦١.

## المبحث الأول: الإدارة العسكرية والسياسية ١٩١٤-١٩١٨

يعدّ الجانب (العسكري - السياسي) من أهمّ ما يشغل سلطات الاحتلال، فوجود القوات البريطانية في البصرة، واتخاذها قاعدة لعملياتهم العسكرية تجاه العراق، كان يفرض عليهم استتباب الأمن فيها، والاطمئنان من أهلها؛ لذلك جعلت الإدارة السياسية لسلطات الاحتلال الجانب الأمني والسياسي من أولويات أعمالها.

### أولاً: دائرة الحاكم العسكري

وهي أول مؤسسات الإدارة المدنية التي يتم تشكيلها في ولاية البصرة بعد سيطرة قوات الاحتلال البريطاني على المدينة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤ لتتولى المهام المستعجلة، وقد تألفت من الرائد دارسي براونلو (D.Brownlow) نائب (قائد) الفرقة السادسة رئيساً، الذي اتخذ عدداً من المساعدين من أصحاب الخبرة والدراية في أمور العراق وعادات الشعب العراقي، منهم النقيب ريد بولارد (R.bullard) <sup>٢</sup> مستشاراً شخصياً، وتوم دكستر (T.Dextar) <sup>٣</sup> مساعداً

١. المصدر نفسه، ص ٨٤.

٢. ريدبولارد R.bullard: وهو من أبرز الموظفين البريطانيين، شغل منصب وكيل القنصل البريطاني في البصرة قبل الاحتلال، ومن ثم غادرها إلى المحمرة بناءً على الأوامر الصادرة له من قبل السفارة البريطانية في إسطنبول بعد إعلان الحرب، وكان على دراية تامة بأوضاع العراق في العهد العثماني. أرنولد تي. ويلسون/ مصدر سابق، ص ٤٩.

٣. توم دكستر T.Dextar: وهو أحد قباطنة السفينة كوميت التابعة للمقيمة البريطانية في بغداد، وكان ذا خبرة كبيرة في أنهر العراق، وذا صلات حسنة تربطه مع العراقيين، فضلاً عن إجادته للغة العربية والتركية. علي ناصر حسين، ص ٨٥.

ومترجمًا، فضلاً عن عدد آخر من الضباط، والموظفين البريطانيين والهنود والعراقيين تحت عناوين ومسميات متعددة<sup>٢</sup>.

قُسمت البصرة إلى منطقتين إداريتين وأمنيتين، وهما البصرة (المركز) والعشار، وجعلها تحت إشراف مساعديه، فيما قام هذان المساعدان بتقسيم المنطقتين على قطاعات، وجعلا على كل قطاع مختارًا مسؤولاً عن الحالة الأمنية في قطاعه<sup>٣</sup>. أما لواء العمارة، فقد عين الرائد (ماكفرسن Macpherson) حاكمًا عسكريًا في اللواء في ١ أيلول ١٩١٦، والعقيد (هاول Howell) ضابطًا سياسيًا، كما عين العقيد (نيفنس Nephinon) حاكمًا عسكريًا لإدارة المتفق. كما اتبع هذا التقسيم في ولاية بغداد إذ قسمت إلى مناطق (بغداد، سامراء، بعقوبة، خانقين، العزيزية، الرمادي، الحلة، كربلاء، الشامية، السماوة)<sup>٤</sup>.

ويمكن تحديد واجبات الحاكم العسكري في منطقتيه وفقاً لما حددتها له الإدارة المدنية البريطانية بما يأتي:

مهام أمنية: المحافظة على النظام في منطقتيه والعمل على تطبيق القوانين في المناطق والمقاطعات التابعة لأدارته، وإبداء المساعدة إلى القوات العسكرية ضمن حدود منطقتيه الإدارية، من خلال إجبار الأهالي على العمل في تنفيذ المشاريع

١. نبيل عامر فليح، المهام الإدارية والأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني ١٩٢٠ - ١٩٣٢، ص ١٢.

٢. الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٢٧.  
٣. د. ك. و، تقارير متنوعة عن حالة البصرة للفترة في ٨ / ٤ / ١٩١٥، ٣١ / ١ / ١٩١٧، ملف الاحتلال البريطاني، تسلسل الملف ١٠٣ / ٢٠٢٠، تقرير رقم ١١ للميجر براونلو عن الحالة الأمنية في البصرة لعام ١٩١٤، ص ١-٣.

٤. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة، ص ٢٩٨؛ العيساوي، عبد العال وحيد عبود، ص ٩٢؛ الساعدي، محمد حسين زبون، ص ٤٦.

## العسكرية لجيش الاحتلال<sup>١</sup>.

مهام قضائية: الحكم في المخالفات البسيطة التي لا يتجاوز حد عقوبة الحبس فيها عن (٢٨) يوماً، أو مبلغ الغرامة عن مئة روبية.

مهام تنفيذية (إدارية ومالية): تضمن توفير مقرّات خلفية ومحلات للسكن، ويذكر بأن الدائرة قد وضعت يدها على أكثر من ٧٠ منزل مقابل أجور رمزية، كما تتضمن فرض واستحصال الضرائب والرسوم البلدية.

مهام بلدية: تنظيف المدينة وتوفير مياه الشرب والاهتمام بالصحة العامة<sup>٢</sup>.  
تقديم تقارير عن كافة الخسائر التي حلّت في ممتلكات السكان والتي حصلت نتيجة المعارك<sup>٣</sup>.

يتبين لنا من خلال الصلاحيات والمهام الممنوحة لدائرة الحاكم العسكري، أنّ الهدف الرئيس لإنشاء هذه الدائرة هو خدمة جيش الاحتلال البريطاني وتعزيز سيطرته على المناطق العراقية المحتلة، وتسخير خيراتها وطاقاتها البشرية بخدمة المجهود الحربي البريطاني.

## ثانياً: الجانب الأمني

### أ. الشرطة

بعد الاحتلال البريطاني للبصرة وفرض سيطرتهم عليها، انتهت كل أشكال

١. د. ك. و. ملفات الاحتلال، مراسلات ١٩١٥-١٩١٨، تسلسل الملف ٢/١٩٤، و٣، ص ٤٠.

٢. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٢٨؛ الشجيري،

عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٢٧.

٣. نبيل عامر فليح، المهام الإدارية والأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني

١٩٢٠ - ١٩٣٢ ص ١٢.

النظام السابق، ومنها قوات الجندرية<sup>١</sup>، الأمر الذي انعكس سلباً على الأمن في المدينة، إذ انتشرت القرصنة في شط العرب، وانتشرت المجاميع المسلحة في بساين النخيل بين الفاو والبصرة؛ لذلك ظهرت حاجة ملحة إلى جهاز أمني قادر على حفظ الأمن وتنفيذ قوانين سلطات الاحتلال البريطاني؛ لذلك التجأت سلطات الاحتلال إلى تأسيس جهاز الشرطة بعد أسبوع واحد من سيطرتها على مدينة البصرة<sup>٢</sup>.

تألّفت دائرة الشرطة من العقيد أي جي كريكسون (Kriekson A.G)<sup>٣</sup> رئيساً، ومن عناصر أخرى اختارها من موقع عمله السابق في الهند، مع من الصوماليين المستخدمين في شرطة عدن<sup>٤</sup>، كما استخدم عدداً محدوداً من العناصر المحلية، ولاسيما أصحاب الوجاهة والنفوذ الذين أبدوا تعاوناً مع سلطات الاحتلال البريطانية، لتوظيف ثقلهم الاجتماعي في ترسيخ الأمن والاستقرار وكسب ثقة مواطني البصرة وولائهم وتأييدهم<sup>٥</sup>.

تمكّن العقيد كريكسون ((Kriekson A.G) خلال شهر من تسلّم مهامه أن

١. قوات الجندرية: وهي قوات عثمانية كانت سلطة الاحتلال العثماني تعتمد عليها في تطبيق القوانين والتعليقات الصادرة من الحكومة، فضلاً عن مهمتها الأساسية في تحقيق الأمن في جميع الولايات العثمانية، وجمع المحاصيل الزراعية من العشائر ونقل البريد، واستخدم عدد من أفرادها بحراسة الحاميات ومراقبة الطرق وحمايتها، وإلقاء القبض على اللصوص وقطاعي الطرق، فضلاً عن واجبات أخرى خاصة بحماية الموظفين الكبار في الدولة العثمانية. نبيل عامر فليح، ص ٤٥.

٢. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولايتين، ص ٥٠.

٣. أي جي كريكسون Kriekson A.G: وهو أحد منتسبي الشرطة البنجاب الهندية، وذو خبرة طويلة في الحدود الشمالية الغربية في الهند وفي تجارة الأسلحة في الخليج العربي، أهلتة أن يكون في هذا المنصب، المصدر نفسه.

٤. الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٢٨.

٥. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨ ص ٣٤٢.

يؤسس مخافر شرطة في مدينة البصرة، إذ اتخذ من مباني الحكومة العثمانية السابقة في المدينة مقرات لها، بالرغم من أن هذه الأبنية كانت على شكل هياكل خالية من الأبواب والشبابيك، بل كانت خالية من كل ما يمكن نقله أو نزعها منها بسبب قيام بعض أبناء البصرة بمهاجمتها وسلبها عقب انسحاب الجيش العثماني من المدينة<sup>١</sup>. لم يقتصر إنشاء جهاز الشرطة في مدينة البصرة فحسب، وإنما تم إنشاؤها في جميع مدن العراق التي خضعت للاحتلال البريطاني، إذ تم تشكيلها دائرة الشرطة بعد احتلال القوات البريطانية لمدينة العمارة، وبدأت بممارسة الواجبات الاعتيادية المتمثلة بحماية الطرق والأنهار، واستخدامهم كحراس للمخازن الحكومية في بعض المناطق، والقبض على المجرمين، وسعيها إلى منع وقوع المشاكل بين العشائر القاطنة في العمارة، كما كُلفوا بجباية الضرائب، إلا أن أعدادها لم تكن كافية، كما تم تشكيل دائرة الشرطة في أيلول عام ١٩١٥، في مدينة الناصرية بعد احتلالها<sup>٢</sup>.

مارست الشرطة في عملها القوة المفرطة، وأشاعت الخوف والرعب بين السكان، وذلك للحدّ من الهجمات المسلحة التي كانت تتعرّض لها المنشآت والدوريات البريطانية يومياً من قبل أبناء البصرة، إذا أودعت كثير من الأهالي في السجون بتهمة السرقة، كما تم إعدام عدد منهم أمام الأهالي ليكون عبرة وترهيباً لمن يجرؤ على التعدي على سلطات الاحتلال البريطاني<sup>٣</sup>.

أما عن موقف الأهالي من جهاز الشرطة، فقد كان سلبياً بنظر المحتلّين، فلم يرغب السكان المحليون بالانضمام إلى جهاز الشرطة، كما واجهت إدارة

١. سر آر نولدتي. ويلسون، ص ٥٠-٥١.

٢. الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية ص ٤٨.

٣. علي ناصر حسين، الادارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ٨٧.

الاحتلال صعوبة في إقناعهم عند تأسيس هذا الجهاز، وإلى هذا المعنى أشار ويلسون: «لقد ثبت بالتجربة أنّ تشكيل قوة شرطة في البصرة أمر شاق، جدًّا عسير...»<sup>١</sup>.

ويبدو أنّ سلطات الاحتلال لم تكن راغبة باستخدام المواطنين أو الذين كانوا في جهاز الشرطة العثمانية السابق؛ وذلك لعدم ثقتهم بهذه العناصر، وخوفهم من الانقلاب عليهم، لذلك التجأوا في بادئ الأمر إلى عناصر الشرطة الذين تم إحضارهم من الهند و عدن، لثقتهم العالية بهذه العناصر التي كانت تعمل لخدمة المصالح البريطانية، فضلًا عن عزوف أغلب العراقيين عن العمل في جهاز الشرطة؛ لأنّهم يعدونه بمنزلة خدمة للمحتل الذي يجب قتاله بدلًا من معاونتهم، فضلًا عن أنّ من يتعاون مع الاحتلال سيكون مهددًا بالقتل من قبل العراقيين، وسيكون منبوذًا بينهم.

### ب. الشبّانة

الشبّانة هي تسمية أطلقت على القوات العشائرية التي شكّلتها قوات الاحتلال البريطانية في المناطق النائية لتقوم مقام الشرطة المحلية<sup>٢</sup>، واختلف عدد من الباحثين حول أصل هذه الكلمة؛ إذ اعتبر بعضهم أنها كلمة فارسية تعني حراس الليل، بينما يذهب آخرون إلى أنّها تعني المرتزقة الذين كانوا يُستخدمون بأجور لأغراض عسكرية وشبه عسكرية<sup>٣</sup>.

ومهما اختلف الباحثون في أصل التسمية، فإنّ كلمة الشبّانة أصبحت

١. سرارنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائتين، ص ٥١.

٢. العيساوي، عبد العال، لواء المتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٠٢.

٣. العكيدي، عمار يوسف، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، ص ١٤٧.

التسمية الرسمية للمليشيات العشائرية التي شكّلتها سلطات الاحتلال من أبناء العشائر تحت قيادة أبناء الشيوخ وبإشراف مباشر من الحكام السياسيين لسلطات الاحتلال، لتحلّ محلّ الشرطة في مناطقهم. وكان المجنّدون في الشبّانة من أبناء العشائر، يتم انتدابهم لهذه المهمة من خلال شيوخ العشائر، الذين يختارون المجنّدين من أبناء عشائرتهم، ويكون العمل ضمن حدود مناطقهم<sup>١</sup>. وكان أهم أسباب إنشاء تلك القوات هو قلة عدد الشرطة وصعوبة العمل في المناطق العشائرية النائية التي تحتاج إلى أعداد كبيرة، في الوقت الذي لا تستطيع قوات الاحتلال تأمين ذلك؛ لأنها في حالة قتال مع الجيش العثماني، ولكي لا تشغل قواتها بأعمال ثانوية، فضلاً عن أنها تستهدف الوصول إلى قلب رؤساء العشائر وأبناء هذه العشائر وكسب ودهم، وبذلك أسّست هذه القوات في القرنة ولواء العمارة ولواء المنتفق بعد احتلالها<sup>٢</sup>.

إذ تم تأسيس أول قوات للشبّانة أوائل عام ١٩١٥، وأسندت مهمة قيادتها إلى النقيب (مكفرسن Mecpherson)<sup>٣</sup>، لحماية طرق المواصلات بين القرنة والعمارة<sup>٤</sup> يساعده اثنان من أبناء الشيخ أكباشي السعد، وهما مروان وهاشم،

١. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة، ص ٣٠٧.

٢. د. ك. و، ملفات الاحتلال، مراسلات ١٩١٥-١٩١٨، تسلسل الملف ٢/١٩٤، و٧ وص ٨ هادي طعمه، الاحتلال البريطاني والصحافة العراقية دراسة في الحملة الدعائية البريطانية ١٩١٤-١٩٢١، بغداد، ١٩٨٤، ص ٧٥.

٣. مكفرسن Mecpherson: هو أحد ضباط جيش الاحتلال البريطاني في العراق، وكان قبل الاحتلال يعمل في شركة مكنزي لمدة عشرة سنوات، ويجيد اللغة العربية، الأمر الذي أهله لقيادة تشكيلات الشبّانة. سر أرنولد تي. ويلسون، ص ١٤٩.

٤. نبيل عامر فليح، المهام الإدارية والأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني ١٩٢٠-١٩٣٢، ص ٥١.

بعد أن منحتهم رتباً عسكرية، كما كُوت شبانة محلية لحماية طريق سكة الحديد، وكان عددهم مئة وأربعة وسبعون مجنّداً، نصفهم من الزبير والنصف الآخر من قبيلة ظافر تم تجهيزهم وتسليحهم من قبل سلطات الاحتلال<sup>١</sup>.

إذ بلغ العدد الكلي للمجنّدين من الشبانة في منطقة العمارة عام ١٩١٨ (٤٢٤) مجنّداً أما بالنسبة إلى عشيرة المنتفق، فقد تأسست الشبانة فيها منذ أيلول ١٩١٥، إذ قدّم بعض شيوخ أسرة آل سعدون ثلاثين مجنّداً من أبناء عشائهم لتشكيل النواة الأولى لقوة الشبانة في المنتفق، ثم توسّعت حتى وصلت إلى ٤٠٠ مجنّداً، أُطلق عليها تسمية خيالة المنتفق<sup>٢</sup>.

أما مهام قوات الشبانة فيتمثّل بما يأتي:

١. الحفاظ على الأمن والنظام داخل مناطقهم ومنع دفع الإتاوات إلى الشيوخ<sup>٣</sup>.
٢. حماية طرق المواصلات النهرية التي توجد ضمن مناطق عشائر عناصر الشبانة.
٣. المحافظة على سلامة سكك الحديد وخطوط التلغراف.
٤. حماية مخازن ذخيرة جيش الاحتلال البريطاني<sup>٤</sup>.
٥. تنفيذ الواجبات الإدارية ونقل المراسلات وحراسة السجون ومرافقة السجناء، والقيام ببعض الواجبات العسكرية.
٦. جمع المعلومات العسكرية والعشائرية<sup>٥</sup>.

١. العكيدي، عمار يوسف عبد الله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، ص ١٤٧.

٢. العيساوي، عبد العال، لواء المنتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٠٣.

٣. محمد أحمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، ص ٢٣٣.

٤. السعدون، خالد حمود، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة خلال الحكم العثماني الأخير والاحتلال البريطاني ١٩٠٨-١٩١٨، ص ٣٨٠.

٥. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، ص ٥٦.

٧. إلقاء القبض على المجرمين والحيلولة من دون وقوع الاضطرابات العشائرية<sup>١</sup>. ومن خلال هذه الواجبات التي أنيطت بقوات الشبانه، فقد اهتمت الإدارة المدنية لجيش الاحتلال بها، وبذلك عملت على تسليحها بأسلحة حديثة نسبيًا، كما أعدتها إعدادًا عسكريًا من خلال التدريبات التي كان يتلقاها المجندون من معلّمي الجيش البريطاني، كما خصّصت لهم زبًا خاصًا بهم يتشابه كثيرًا مع زي الشبانه الهندية، إلا أنه يختلف بغطاء الرأس؛ إذ استخدم العقال واليشماغ في العراق، فضلًا عن مرتبات كافية ومجزية في تلك الأوقات<sup>٢</sup>؛ مما أدى إلى زيادة أعداد هذه القوات، إذ بلغ عددهم في عام ١٩١٧ (١٥٠٠) مجندًا، وارتفع العدد الكلي لهذه القوة بحلول كانون الأول عام ١٩١٨ حتى وصل إلى نحو ٢٠٠٠ مجند<sup>٣</sup>؛ إذ أصبحت قوات الشبانه النواة الأولى للشرطة والجيش العراقي فيما بعد<sup>٤</sup>.

ومن خلال ما تقدّم يبدو أن سلطات الاحتلال البريطاني استغلّت قوات الشبانه في تحقيق مصالحها وتثبيت سلطتها في المناطق العشائرية والنايية التي يصعب عليهم العمل فيها، وجباية الواردات من أبناء العشائر، كما جعلوها أداة لضرب شيوخ العشائر الراضين لسلطات الاحتلال، وأداة ضاربة في يد شيوخ العشائر المتعاونين مع سلطات الاحتلال، مما جعلها تصطدم في بعض الأحيان

١. محمد أحمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، ص ٢٣٣.

٢. الجوراني، عبد الله، دراسة وثائقية في تاريخ المنتفك الوطني، ص ٧٢؛ العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المنتفك في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٠٥؛ نبيل عامر فليح، المهيات الإدارية والأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني ١٩٢٠ - ١٩٣٢، ص ٥٢.

٣. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ٢/٢٥٩ - ٢٦٠.

٤. المصدر نفسه، ١/١٤٨.

مع أبناء عشائرها أو العشائر المجاورة لها، مما زاد من الحق لدى أبناء العشائر من تلك القوات، التي أصبحت منبوذة لديهم، سيما وأن سلطات الاحتلال عملت على سلخها من التبعية والعرف العشائري.

### ثالثاً: سياسة الاحتلال البريطاني تجاه شيوخ العشائر

أسلوب التهميش والتجهيل الذي اتبعته سلطات الاحتلال العثماني في العراق، وخاصة مع مجتمعات جنوب العراق، عززت التجمعات العشائرية وروح القبيلة التي أعطت لشيخ العشيرة سلطة واسعة على أبناء عشيرته، بالرغم من سياسة (فرق تسد) و(نظام الطابو) الذي اتبعته سلطات الاحتلال العثماني، والتي لم تنجح في القضاء على تماسك وحدة العشائر العراقية.

لذلك حاول المحتلون البريطانيون الاستفادة من تجارب النظام العثماني السابق في إدارة العشائر العراقية على مبدأ التقسيم ومنع التماسك بين أبناء العشائر، إذ اعتمدوا على الأسلوب نفسه، لكنهم في الوقت نفسه عززوا من مكانة الشيوخ، بعد أن أدركوا أن ذلك سيؤمّن لهم نوعاً من السيطرة على أبناء العشائر الذين يطيعون شيوخهم، مستغلّين في تحقيق سياستهم هذه مشاعر الودّ والاحترام الموروثة، التي يكتنّها أغلب أبناء العشائر لشيوخهم<sup>١</sup>.

ومن أجل إنشاء مؤسسات لإدارة سلطات الاحتلال البريطاني في المناطق التي تقطنها العشائر، قرّرت إنشاء نظام جديد للإدارة يقوم على أساس التنظيم العشائري، وعلى احترام العادات والأعراف العشائرية، وعلى إسناد شيوخ العشائر، باعتبارهم أدوات لتنفيذ سياستها؛ وبذلك استخدم المحتلون نظام (المشيخة) وأقرّوا سلطة الشيوخ كرؤساء على عشائرهم، وعيّنوا شيخاً واحداً

١. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المنتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٥١.

لكل عشيرة<sup>١</sup>، ومن أجل إنجاح ذلك، وكسب ود الشيوخ وأفراد عشائريهم وتبديد النفور من سلطات الاحتلال، حرص الضباط السياسيون على زيارة شيوخ العشائر في مناطقهم وإقامة دعوات وولائم خاصة وتوجيه دعوات عامة إلى شيوخ العشائر ووجهائهم في الأعياد البريطانية<sup>٢</sup>.

إذ شكّلت سلطات الاحتلال في بعض المناطق مجالس عشائرية وانتخبوا لها بعض الشيوخ الموالين لسلطة الاحتلال وتعيين عدد من الشيوخ غير المعارضين لسلطات الاحتلال، بوظيفة مدير أو مستشار في منطقتهم، مقابل منح مالية شهرية تتراوح بين (٢٠٠ - ٥٠٠) روبية حسب أهمية المنطقة التي يديرها لتنفيذ المهام التي أوكلت لهم، المتمثلة بجمع الضرائب التي يقرّها الحاكم السياسي والمحافظة على القانون والنظام في القبيلة وحسم المنازعات الصغيرة التي تحدث ضمن حدود القبيلة، ويحيل الكبيرة منها على الحاكم السياسي أو إلى أحد مساعديه، وإرسال الفلاحين عند الحاجة إليهم للعمل في المشاريع الحكومية وتحصيل الإيجارات السنوية وتسليمها إلى مالك الأرض، وحماية المسافرين والممتلكات الحكومية والمساعدة في صيانة المواصلات والكهرباء والهاتف، واعتقال المخالفين وتسليمهم، وإعلان الولاء العام للحكومة، والمساعدة في إقامة علاقات طيبة بين فروع العشائر الكبيرة<sup>٣</sup>.

وبذلك فقد تم تعيين عدد من الشيوخ في البصرة مدراء، ومنهم الشيخ

---

١. محمد سلمان حسن، طلائع الثورة العراقية العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الأولى، ص ١٨؛ العكيدي،

عمار يوسف عبد الله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، ص ١١٠.

٢. عبد ربه سكران، عشائر البصرة والإدارة العسكرية البريطانية أثناء الاحتلال عامي ١٩١٦-١٩١٨، ص ٣١٥.

٣. محمد أحمد محمدود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، ص ٢٢٩؛

عمار يوسف عبد الله عويد العكيدي، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، ص ١١٥ -

١١٦؛ الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، ص ٥١ - ٥٢.

إبراهيم بن عبدالله الراشد لمقاطعة الزبير، أحمد الجليبي مديراً لناحية أبي الخصيب، وإلياس باكوس مديراً لناحية شط العرب، والشيخ الحاج عذار لناحية الهارثة<sup>١</sup>، والشيخ سالم الخيون مديراً لناحية الجبايش بعد احتلالها مباشرة، إلا أن عدم امتثاله لسلطتهم أدى إلى اعتقاله ونفيه إلى الهند عام ١٩١٥، وتعيين ابن أخيه ماجد الخيون شيخاً ومديراً لناحية الجبايش خلفاً له<sup>٢</sup>، كما تمّ تعيين الشيخ حميد المير جعفر مديراً لناحية المدينة، والشيخ إبراهيم العماري مديراً لناحية بني حطيط الواقعة ضمن ناحية الجبايش، والشيخ أحمد آل راشد مديراً لناحية الدير التابعة لمنطقة القرنة، إلا أنها استبدلته عام ١٩١٦ بالشيخ عاتي السعد شقيق الشيخ كباشي السعد، كما عهدت إدارة السويب إلى الشيخ جايد الطاهر الإبراهيمي وناحية النشوة إلى الشيخ عبد الهادي السويجيت من عشيرة الحلاف، بينما عينت الشيخ كباشي السعد مديراً لناحية اصخيريجة، ثم وسّعت سلطاته الإدارية لتشمل المناطق المجاورة لها (النهيرات والشرش)، ويساعده أبنائه كل من هاشم وفارس وكاطع ومانع، إذ كلّف هاشم بإدارة بني منصور وكلّف كاطع ومانع بإدارة المزيرعة، بينما كلّف فارس لإدارة النهيرات<sup>٣</sup>.

أما في سوق الشيوخ، فقد عينت إدارة الاحتلال البريطاني الشيخ حميد آل خميس أحد شيوخ آل سعدون مديراً لناحية الخميسية<sup>٤</sup>، والشيخ فرهود المغشغش شيخ عشيرة بني خيكان لناحية العكيكة وهور الحمار<sup>٥</sup>، والشيخ سليمان النصر الله

١. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ٦٥/١؛ نبيل عامر فليح، المهتمات الإدارية والأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني ١٩٢٠ - ١٩٣٢، ص ٣٤.

٢. البرزنجي، رقية حميد حسن، سالم الخيون ودوره الاجتماعي والسياسي حتى عام ١٩٤٥ م، ص ٨٦ - ٩٠.

٣. علي ناصر حسين، الادارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢، ص ١٠٤ - ١٠٥.

٤. الجوراني، عبد الله، دراسة وثائقية في تاريخ المنتفك الوطني، ص ٦٦.

٥. الحسيناوي، إيناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، ص ٥٢.

شيخ عشيرة ابو صالح مديرًا لناحية ابو صالح والشيخ حمودة المزيعل البشارة شيخ عشيرة المحيسن مديرًا لناحية كرمة بني سعيد، والشيخ منشد الحبيب شيخ عشيرة الغزي مديرًا لناحية البطحة<sup>١</sup>.

أما الشرطة، فلم تتمكن قوات الاحتلال من ممارسة سلطاتها المباشرة عليها؛ إذ عيّنت الشيخ حسن الجاسم، أحد شيوخ عشيرة البوشمخي وكيلاً حكومياً في القضاء، إلا أنه لم يستطع ممارسة أعماله بسبب تجاهل سلطات الاحتلال فرض سيطرتهم المباشرة على المنطقة لقوة مقاومة أهلها، ولرفض الشيخ خيون العبيد الحاكم الفعلي للقضاء، الرفض للاحتلال؛ لذلك تمكّن الأخير من أبعاده وإبقاء حكم القضاء خاضعاً لسلطته، بعيداً عن سلطات الاحتلال البريطاني، إلا بعد أن تم لهم احتلال بغداد ١٩١٧ وفرض سيطرتها على الفرات الأوسط وجنوب العراق؛ وبذلك لم تبق إلا الغراف التي خضعت للاحتلال البريطاني بعد قناعة أهلها، بأن لا جدوى من المقاومة والعراق جميعاً تحت الاحتلال البريطاني؛ لذلك أقرت سلطات الاحتلال الشيخ خيون العبيد بمنصب وكيل سياسي في الشرطة بعد أن اعترف بالسيادة البريطانية<sup>٢</sup>.

أما لواء العمارة، فلم يتم تعيين أي شيخ بمنصب مدير ناحية؛ لأن عشائرتهم كانت لا تثير المشاكل، فضلاً عن الصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها شيوخ العشائر وانقياد عشائرتهم لهم؛ لذلك لا حاجة لتعيينهم بمناصب إدارية ما داموا لا يثيرون المشاكل لسلطات الاحتلال<sup>٣</sup>.

ولم تكن سياسة الاحتلال البريطانية ودية فقط تجاه عشائر العراق وبالأخص

١. محمد أحمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، ص ٢٣٠.

٢. علي ناصر حسين، الادارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢٠، ص ١٢٧.

٣. المصدر نفسه، ص ١٢٠.

عشائر جنوب العراق، وإنما استعملت السياسة البغيضة التي كانت تستخدمها سلطات الاحتلال العثماني، وهي سياسة (فرّق تَسُد)، إذ لجأت سلطات الاحتلال البريطاني إلى تغيير شيوخ العشائر بآخرين ضعفاء، أو من الذين يوالون السلطة المحتلة<sup>١</sup>، كما عملت على إبعاد منصب المشيخة من الشيوخ الحقيقيين للعشيرة، مما أدى إلى إيجاد صراع وانقسام داخل العشيرة نفسها، فضلاً عن سياسة إعادة تحديد الأراضي بين العشائر، الأمر الذي أدى إلى نشوب الصراع والافتتال فيما بينها<sup>٢</sup>.

وعلى الرغم من سياسة الاحتلال البريطاني المتمثلة بالتقرب والتودّد من شيوخ وأفراد العشائر، فإنّها لم تفلح مع جميع عشائر جنوب العراق، إذ واجهت أغلب عشائر جنوب العراق الاحتلال البريطاني بالمقاومة والرفض لسياسة الاحتلال، إبان الأعوام الأولى من الاحتلال البريطاني، يدفعهم في ذلك الموقف الوطني والديني، إذ رفض الشيخ غضبان البنية عرض سلطات الاحتلال للعمل معها على الرغم من الإغراءات المالية الكبيرة، وفضّل الاستمرار في المقاومة، كما كانوا على الموقف نفسه كلّ من الشيخ زبون بن ياسر أحد شيوخ البو محمد والشيخ محمد الخطاب أحد شيوخ البودراج، إذ استخدمت سلطات الاحتلال سلطة الترغيب والترهيب، وبما أنها لم تنجح معهم صادرت أراضيهم ومنحتها إلى شيوخ آخرين<sup>٣</sup>.

١. البرزنجي، رقيه حميد حسن، سالم الخيون ودوره الاجتماعي والسياسي حتى عام ١٩٤٥م، ص ٨٨.  
 ٢. السعدون، خالد حمود، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة خلال الحكم العثماني الأخير والاحتلال البريطاني ١٩٠٨-١٩١٨، ص ٣٧٨؛ العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٤١.  
 ٣. الطاهر، عبد الجليل، العشائر العراقية، ص ٢٩٦؛ علي ناصر حسين، الادارة البريطانية في العراق

كما رفض أغلب شيوخ المنتفق هذه السياسة في بادئ الأمر، وفي مقدّماتهم الشيخ عجمي السعدون الذي لم تُغره المنافع المالية والإدارية الكبيرة التي كانت سلطات الاحتلال البريطانية مستعدة لتقديمها إليه، مفضلاً مقاومة الاحتلال، ولو كلّفه ذلك أملاكه ومركزه في المنتفق، كما وقف هذا الموقف الشيخ بدر الرميض، بالرغم من سياسة الشدة والإغراء التي واجهها من سلطات الاحتلال<sup>١</sup>؛ بينما نجد أن شيوخ الغراف رفضوا أيضاً أي تعاون مع سلطات الاحتلال، بل بقيت الغراف عصية على الاحتلال البريطاني، حتى تم لهم احتلال بغداد وإتمام السيطرة على الفرات الأوسط وجنوب العراق، واقتناع هؤلاء الزعماء بأن الاحتلال الأجنبي أصبح مسيطراً على العراق جميعاً، وأنه شرٌّ لا بدّ منه<sup>٢</sup>. إضافة إلى عدد كبير من الشيوخ والعشائر العراقية التي رفضت واستمرت بالمقاومة الوطنية، والتي ضحّت من أجل ذلك بأملاتها وأرواح أبنائها فداء للوطن.

ويبدو أن سياسة الاحتلال البريطاني القائمة على سياسة الترغيب والترهيب تارة، وسياسة فرق تسد تارة أخرى، قد نجحت إلى حدّ ما في المجتمع العراقي، إذ اضطرت أغلب العشائر العراقية التي كانت تقاوم الاحتلال في بادئ الأمر تحت سياسة التهديد والنفي ومصادرة الأملاك لمهادنة الاحتلال. كما كان لسياسة الترغيب وإعطاء الأموال والمناصب لشيوخ العشائر،

١٩١٤-١٩٢١، ص ١١٣.

١. عجمي، عبد الرسول شهيد، الموقف الوطني في شخصية بدر الرميض شيخ عشائر البو صالح، ص ٣٨-٤١؛ العتاي، نور حسن خلف، عجمي السعدون ودوره في تاريخ العراق (١٩١١-١٩١٨)، ص ١٥٠-١٥٥.  
٢. الورد، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، ٢٤٩/٤؛ خالد حمود السعدون، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة خلال الحكم العثماني الأخير والاحتلال البريطاني ١٩٠٨-١٩١٨، ص ٣٥١.

سيما للشيوخ غير البارزين، دور كبير في كسب ود هؤلاء الذين سخروا أبناء عشائريهم في خدمة سلطات الاحتلال، يساعدهم في تحقيق ذلك تعزيز نظام العشائر من قبل المحتلين، وجعل بعض هؤلاء الشيوخ مدراء تابعين لسلطات الاحتلال، وتحت إمرتهم قوات عسكرية ضاربة من قوات الشبّانة حسنة التسليح والتدريب؛ إذ استغلّها هؤلاء الشيوخ في ضرب منافسيهم من العشائر وتعزيز سلطتهم والإثراء على حساب أبناء العشيرة.

## المبحث الثاني: الإدارة القضائية

كان من الطبيعي أن تلغي سلطات الاحتلال البريطانية أي شيء يتعلق بالنظام العثماني في الأراضي العراقية المحتلة، ليؤكّدوا لسكان تلك المناطق انتهاء نظام الاحتلال العثماني، وإحلال نظام جديد مغاير للنظام السابق يخدم مصلحة المحتلّين الجدد.

لذلك عدت السلطة والتنظيم القضائي بحكم المنتهية عندما سيطرت قوات الاحتلال البريطاني على البصرة في ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٤؛ إذ انسحب القضاة الأتراك السابقون ومعظم الكادر القضائي مع الجيش العثماني المنسحب؛ وبذلك لم يكن يوجد أي ملاك عراقي أو عثماني لديه خبرة في القانون العثماني داخل البصرة، وإن وجدوا، فلن يرغبوا بالتعامل مع سلطات الاحتلال البريطاني لبغضهم لها<sup>١</sup>. فضلاً عن عدم معرفة سلطات الاحتلال بالقانون القضائي العثماني الذي كان يُطبّق في العراق، مما زاد من صعوبة العمل على غرار النظام العثماني<sup>٢</sup>.

ونظراً إلى أهمية القضاء في استقرار الأوضاع الاجتماعية وفرض هيبة السلطة وتحقيق أهدافها، فقد تألّفت في نيسان ١٩١٥ الإدارة القضائية من المقدّم ستوريات جورج نوّكس (S.G.Knox)<sup>٣</sup> ضابطاً عدلياً، والبريطاني النقيب جارلس فريزر

١. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٤٧.

٢. نبيل عامر فليح، المهات الإدارية والأمنية لوزارة الداخلية العراقية خلال سنوات الانتداب البريطاني ١٩٢٠ - ١٩٣٢، ص ٤٠.

٣. ستوريات جورج نوّكس S.G.Knox: محام وضابط بريطاني يتقن اللغة العربية، تقلّد العديد من المناصب الحكومية، منها الوكيل السياسي البريطاني في الكويت ومعاون المقيم السياسي في بوشهر، ثم عُيّن مشرفاً على تنظيم الإدارة القضائية في البصرة أوائل سنة ١٩١٥، وفي أواخر ١٩١٨ عُيّن بمنصب رئيس محكمة الاستئناف في بغداد. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨ ص ٣٤٨.

مكينزي (C.F.Mackenzie)<sup>١</sup> معاونًا<sup>٢</sup>، والإيراني وخان بهادر رستم علي ساعدًا، إلا أنه استقال من منصبه بسبب مرضه، فعين محله صاحب آغا ميرزا محمد، فيما مُنحت صلاحيات كاتب العدل إلى شركة كري مكنزي وفرع المصرف العثماني في البصرة<sup>٣</sup>. ومن أجل عمل هذه الهيئة أصدرت سلطات الاحتلال عددًا من القوانين التي تتماشى مع سياستها الاستعمارية، وهي:

#### ١. قانون الأراضي العراقية المحتلة ١٩١٥

من أجل إدارة الشؤون العدلية المدنية والجزائية، ألغى القائد العام لجيش الاحتلال البريطاني في الأول من آب ١٩١٥ قانون العقوبات العثماني، وشرع (قانون الأراضي العراقية المحتلة The Iraq Occupied Territories God) وجاء هذا القانون على غرار القانون الجنائي والمدني الهندي<sup>٤</sup>.

تألف قانون الأراضي العراقية المحتلة من ستة أبواب ضمت ثلاث وستين فقرة، وأهم ما جاء بهذا القانون صلاحيات الهيئات القضائية؛ إذ منحت للقائد العام لجيش الاحتلال أوسع الصلاحيات، فمنحته حق تشريع أو إلغاء أي قانون<sup>٥</sup>، وحق إدخال أي قانون من القوانين الهندية، وإدخال أي تعديل عليها

١. جارلس فريزر مكنيزي C.F.Mackenzie: ضابط بريطاني صاحب خبرة في العدلية يتكلم اللغة العربية بإتقان، تولى مناصب حكومية في الهند والبحرين ثم أتى به إلى البصرة ليكون معاونًا لمدير دائرة القضاء في البصرة. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولاتين، ١٤٩/١.

٢. علي ناصر حسين، الادارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ٩٦.

٣. الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٢٩.

٤. فيليب ويلارد إيرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٥٠ - ٥١؛ علي ناصر حسين، الادارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ٩.

٥. التميمي، حميد احمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣٠٠؛ الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٣٠.

لتناسب مع المجتمع العراقي وفق ما تقتضيه الضرورة، كما منحه حق استئناف الدعاوى الحقوقية والجزائية كافة<sup>١</sup>.

وقد منح الضابط العدلي الأقدم صلاحية حاكم مقاطعة، ومن حقه النظر في الدعاوى الحقوقية والجزائية واستئناف الدعاوى المرفوعة إليه من حكام المناطق، أما الضابط العدلي الأصغر فيتمتع بصلاحية حاكم منطقة، وهو منصب يمنحه حق النظر في الدعاوى الحقوقية والجزائية باستثناء تلك التي تصل العقوبة فيها إلى الإعدام، وللمعاون العدلي صلاحية حاكم من الدرجة الأولى، وينظر في الدعاوى المدنية التي لا يتجاوز مبلغ الغرامة فيها عن (٣٠٠) روبية<sup>٢</sup>.

ومن أهم ما تضمنه هذا القانون أن الدعوى التي يكون المتداعين أو أحدهما مسلماً، فعلى المحكمة رفع المواد المنازع فيها أو بعضها إلى فقيه شرعي بعد تحرير الأسئلة اللازمة للفتوى، ويرفعها إلى فقيه مسلم معروف، وباتت اللغة العربية اللغة الرسمية للمحاكم بدلاً من اللغة العثمانية<sup>٣</sup>.

ومن الإيجابيات التي تعدّ لقانون الأراضي العراقية المحتلة تشكيل المحاكم المدنية، حيث أخذت تستبدل تدريجياً وتحل محل المحاكم العسكرية التي أسست في بادئ الأمر، لغرض النظر بالقضايا المدنية التي لا تمس أفراد القوات المسلحة، منها جرائم القتل والتسليب والقضايا المالية<sup>٤</sup>.

١. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ص ٤٧؛ الشجيري، عدنان هرير جودة، ص ٣٠.

٢. فيليب ويلارد إيرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ص ٥١؛ الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٣٠.

٣. فيليب ويلارد إيرلاند، ص ٥٣؛ الدليمي، أياد طارق خضير، مدينة بغداد في ظل الاحتلال البريطاني ١٩١٧ - ١٩٢١، ص ٦٠.

٤. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائتين، ١٥٠/١.

وبموجب هذا القانون شكّلت المحاكم المدنية التي قسمت على قسمين؛ شرعية (سُنّية - جعفرية)، ومدنية (حقوقية - جزائية) <sup>١</sup>، إذ كانت المحاكم الشرعية تختصّ بالقضايا الشرعية مثل (الزواج والطلاق وشؤون الإرث ... الخ)، بينما تهتم المحاكم المدنية (حقوقية - جزائية) بالقضايا المرفوعة لها من محاكم الصلح الموجودة في كل ناحية، وتنقسم المحاكم المدنية (حقوقية - جزائية) إلى أربع أقسام (مدنية، تجارية، محاكم البوليس، الجنائية)، وكانت تحكم بالقضايا الصغيرة المرفوعة إليها، وذلك عن طريق فرض غرامات صغيرة، أو الحكم بالسجن لمدة لا تزيد عن يوم واحد، عدا القضايا التي هي من اختصاص المحاكم المدنية الشرعية <sup>٢</sup>.

ومن الجدير ذكره أنّ الإدارة المدنية البريطانية في ولاية البصرة لم تؤسس في مقاطعة البصرة قبل احتلال بغداد ١٩١٧ إلا محكمة مدنية واحدة؛ أما في العمارة والناصرية، فقد أعطيت صلاحيات إلى الحكام العسكريين للبتّ في القضايا والمنازعات التي تحدث بين السكان هناك، وفي المناطق الريفية أعطيت هذه الصلاحية إلى الحكام السياسيين، كما فرضت قيود على الأحكام التي كانت تصدر من الحكام العسكريين في المقاطعات، أو عن الحكام السياسيين في الأرياف <sup>٣</sup>.

## ٢. نظام دعاوي العشائر المدنية والجزائية لعام ١٩١٦

انسجماً مع سياسة الاحتلال التي تهدف إلى إحياء الحكم الإقطاعي وسيطرة شيخ العشيرة، وعزل هذه المجتمعات لجعلها متأخرة وسهولة السيطرة عليها،

١. الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٢٩.

٢. الساعدي، محمد حسن زبون، لواء العمارة في عهد الاحتلال والانتداب البريطاني ١٩١٥-١٩٣٢، ص ٣٦-٣٧.

٣. الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٢٩.

فضلاً عن عدم اعتماد أبناء العشائر المحاكم المدنية؛ لجأت سلطات الاحتلال إلى إصدار قانون (نظام دعاوي العشائر المدنية والجزائية لعام ١٩١٦م)، وأصدر هذا القانون بعد أقل من ستة أشهر على صدور قانون الأراضي العراقية المحتلة، وجاء هذا القانون وفق البند الخامس والخمسين، الفقرة - ب- من قانون الأراضي العراقية المحتلة، والتي أجازت للضابط العدلي الأقدم حق إصدار مثل هذا القانون<sup>١</sup>، الذي وضعه هنري دوبس (Henry Dobbs) عام ١٩١٥ على غرار (نظام جرائم الحدود الهندي Indian Frontier Regultio) الذي وضعه وطبقه روبرت ساندمان R.Sandeman في بلوجستان سنة ١٨٧٥<sup>٣</sup>، وعُدّ هذا القانون ساري المفعول بعد أن صادق عليه القائد العام لقوات الاحتلال البريطاني في ١٢ شباط ١٩١٦<sup>٤</sup>.

جاء هذا القانون من ٦٢ مادة، ونص على منح السلطة للحكام السياسيين للنظر في القضايا التي تحدث في مناطقهم، على أساس العرف العشائري، كما يحق لهم تشكيل مجلس عشائري، أو أي هيئة تحكيمية وفقاً لعادات وتقاليد العشائر،

١. العكيدي، عمار يوسف عبد الله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، ص ١٣٧.  
٢. هنري دوبس (Henry Dobbs): ولد في بريطاني ١٨٧١، تخرج من جامعة أكسفورد، ثم عمل بحكومة الهند البريطانية، وقد تولى مناصب حكومية في أماكن عديدة كأفغانستان وإيران والخليج العربي، وضمّنها العراق بين عامي ١٨٩٠-١٩١٤، انتدب للعمل في الإدارة المدنية للبصرة ١٩١٥-١٩١٦ بصفة معتمد للواردات، ثم عين وزيراً للخارجية في حكومة الهند بين عامي ١٩١٩-١٩٢٢، ثم مندوباً سامياً في العراق بين عامي ١٩٢٣-١٩٢٩، حتى أُحيل للتقاعد، توفي عام ١٩٣٩. سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ١٥٣/١؛ الشجيري، عدنان هريز جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٣٠.

٣. نظام جرائم الحدود الهندي (مبدأ ساندمان): وهو نظام إداري استعماري وضعه حاكم بلوجستان عام ١٨٧٥ للمحافظة على إدامة المجتمع القبلي المتخلف الذي تكون فيه السلطة العليا لرئيس العشيرة، وجاء هذا النظام عندما وجد النظام العشائري بحالة انحلال وتفسخ، وسلطة رؤساء العشائر أخذت بالزوال. عبد الجليل الطاهر، العشائر والسياسة، ص ٨-٩.

٤. التميمي، حميد احمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣١٥؛ المكصوي، شيلاء طالب عبد الله، المنتفق دراسة تاريخية سياسية ١٩٢١-١٩٣٩، ص ٢٦.

يحق لها النظر بأي نزاع عدا نزاعات الأراضي، يكون أحد طرفي النزاع أو كليهما من أفراد العشائر بعد أن يُجال من الحاكم السياسي للمنطقة التي حدث فيها النزاع إلى تلك المجالس، للبت في النزاع وفقاً للعرف العشائري<sup>١</sup>، وللحاكم السياسي القرار النهائي في المصادقة على الحكم، أو إعادة النظر في القضية، أو رفعها إلى مجلس عشائري ثان، وفي حال مخالفة المجلس لما يراه الضابط السياسي، يحق له تحويلها إلى مجلس الضباط السياسيين، أو يحكم بها قضائياً بنفسه، وإن لم يكن يملك مثل هذه الصلاحيات، يحيل القضية إلى محكمة للبت فيها، أو ينقض القرار الصادر بها أو يستبدل عقوبة السجن بالجلد، وهو غالباً ما استخدمته السلطات المحتلة للتنكيل بالعناصر التي تهدد مصالحها السياسية والاقتصادية وأمن قواتها المحتلة<sup>٢</sup>.

كما أعطي الحق أيضاً للحاكم السياسي لإصدار الأحكام التي تزيد عن سنتين سجن أو غرامة تزيد على الألفي روبية، أو أن ينفي أي شخص خارج المنطقة أو الحدود في حالة اعتباره خطراً على أمن قوات الاحتلال، لكن بشرط أن يحصل على مصادقة مسبقة من رئيس الحكام السياسيين<sup>٣</sup>.

ومن أجل الحد من الهجمات العشائرية على قوات الاحتلال البريطاني، فقد حوّل هذا القانون فرض عقوبات قاسية على جميع أفراد القبيلة التي يقوم بعض أفرادها بأعمال مناهضة للسلطات العسكرية البريطانية، ومن هذه العقوبات حجز القبيلة أو مصادرة أموالها، أو إبعادها عن موطنها الأصلي إلى خارج

١. العمر، فاروق صالح، حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٤-١٩٢١، ص ٣٧؛ سر أرنولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ١٥١/١.

٢. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ١٤٧.

٣. التميمي، حميد أحمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، ص ٣١٧؛ الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية، ص ٣٠.

الحدود أحياناً، ولا يسمح لها بالعودة إلى الأراضي العراقية، ومنع أبناء القبائل من بناء الحصون أو المواقع التي يحتمل استعمالها ضد السلطات البريطانية<sup>١</sup>. ومن أجل تطبيق هذا النظام عين البريطانيون عدداً من شيوخ العشائر المواليين لسلطات الاحتلال مدراء أو أعضاء في المجالس القبلية التي أنشأت وفقاً لهذا القانون، في كل من الناصرية وسوق الشيوخ وفي قلعة صالح، وكان أعضاؤها من الشيوخ البارزين من العشائر الشيعية والسنية إضافة إلى الطائفة الصابئية، كما عينوا عدداً من أبناء العشائر في جهاز الشبابة، لمتابعة تنفيذ العقوبات بعد أن حدد الحاكم السياسي مناطقهم الإدارية، فأصبحوا يتمتعون بصلاحيات وامتيازات رجل الشرطة، وكانوا ملزمين بتنفيذ تعليمات شيوخ قبائلهم<sup>٢</sup>. وقد حقق هذا القانون بعض الرضى بين العشائر العراقية؛ لأنه سهّل لها حلّ المنازعات بالطرق المألوفة لديها منذ مده طويلة، ولا سيما شيوخ العشائر الذي عزّز موقعهم ورفع مكانتهم بمنحهم بعض الصلاحيات السياسية والقضائية، وزوّدهم القوات المحتلة ببعض الأسلحة والهبات المالية، كما فوّضت لهم الأراضي التي كانت تتصرف بها العشائر، ونجح أيضاً في تهدئة العشائر التي طبق عليها هذا النظام، وجعلها مiale لتصفية القضايا التي تحدث داخلها أو بينها وبين العشائر الأخرى، تحت إشراف الضباط السياسيين، كما اعتمد الحكام السياسيون على السادة في حل بعض الخلافات العشائرية وتحقيق الصلح بينهم، أو إحالة بعض القضايا التي تحدث بين أفراد العشائر الشيعية إلى المجتهد الديني<sup>٣</sup>

١. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة، ص ٣١٧؛ العكيدي، عمار يوسف عبد الله عويد، السياسة

البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، ص ١٣٨

٢. المكصوي، شيماء طالب عبد الله، المنتفق دراسة تاريخية سياسية ١٩٢١-١٩٣٩، ص ٢٧؛ العكيدي،

عمار يوسف عبد الله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، ص ١٤١.

٣. أحيل النزاع الحاصل بين الحاج حسين ماضي والشيخ جعفر حول عائدية أرضها في الشوالميش التابعة إلى سوق الشيوخ في ١٦ ايلول ١٩١٥ إلى المرجع الديني السيد كاظم اليزدي للحكم فيها، كما أحيلت

في النجف الأشرف<sup>١</sup>.

على الرغم من هذه الإيجابيات، وإن كانت قليلة، إلا أن المآخذ على هذا القانون كثيرة، إذ إنه بمعاملته وضع أسس الانفصال بين المجتمعات المدنية والقبلية، وكأن المجتمعين القبلي والمدني عالمان منفصلان، كما عزز هذا القانون النظام القبلي وإعادة روح الإقطاع بعدما كرس السلطة القبلية بيد رؤساء العشائر الموالين لسلطات الاحتلال الذين حصلوا على الدعم المالي والعسكري لإخضاع المنافسين، حيث منحهم سلطات الاحتلال حق جباية الضرائب من أبناء العشيرة، مما أدى إلى تصادم هؤلاء مع عشائريهم وأجج الحقد والرفض في نفوس أبناء عشائريهم الذين لا يستطيع أغلبهم التنفيس عنها بسبب دكتاتورية رؤساء العشائر، لاسيما وأن بعضهم أصبح لديه قوة عسكرية (الشبابة) تحت إمرته، فضلاً عن الدعم العسكري البريطاني.

والجدير ذكره أن هذا القانون منح صلاحيات واسعة للحكام السياسيين الذين غالباً ما كانوا يستخدمونها بالتكامل بالعشائر المعارضة للاحتلال، أو الذين يهددون مصالحهم السياسية والاقتصادية.

وفي النهاية، إن هذا القانون أوجد من أجل خدمة الاستعمار البريطاني وتسهيل المهمة للسيطرة على العشائر العراقية، والإبقاء عليها في حالة من التخلف، وذلك ليسهل عليها السيطرة من خلال عدة أشخاص (رؤساء عشائر) موالين لسلطات الاحتلال.

له أيضاً مشكلة البستان بين الحاج صالح والشيخ باقر علي حيدر في ٣ كانون الأول ١٩١٨. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، ص ١٤٩.

١. العمر، فاروق صالح، حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٤-١٩٢١، مصدر سابق، ص ٣٧؛ محمد أحمد محمود، مصر السابق، ص ٢٣٦؛ الطاهر، عبد الجليل، العشائر والسياسة، ص ٩؛ هادي طعمه، الاحتلال البريطاني والصحافة العراقية دراسة في الحملة الدعائية البريطانية ١٩١٤-١٩٢١، ص ٧٦.

## الخاتمة

منذ اللحظة الأولى لاحتلال العراق عام ١٩١٤، سعت السلطات البريطانية إلى ترسيخ نفوذها عبر سياسة استعمارية قائمة على السيطرة العسكرية والإدارية المباشرة. وقد كشفت إجراءات الاحتلال عن غياب تصور واضح لإدارة مدنية منهجية، الأمر الذي دفع البريطانيين إلى تبني نظام إداري مؤقت، جمع بين الإرث العثماني والنموذج الهندي، وأدارته نخبة من الموظفين البريطانيين، عسكريين ومدنيين، بغية إحكام السيطرة على العراق وتحويله إلى مستعمرة تتبع لحكومة الهند البريطانية على المستويات السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

إلا أن هذه السياسات الاستعمارية، التي سعت إلى فرض واقع جديد يخدم المصالح البريطانية، قوبلت برفض واسع من مختلف فئات المجتمع العراقي، وأسهمت في تأجيج روح المقاومة الوطنية، والتي تجلّت في حركات احتجاجية وثورات لاحقة مهدت الطريق لمسار طويل من النضال ضد الاستعمار الأجنبي. وقد استغلت السلطات البريطانية الجهاز القضائي كأداة لإضفاء طابع قانوني على قمعها للمقاومين، من خلال إنشاء محاكم عسكرية خاصة لمحاكمة المعارضين، مما أدى إلى تصاعد التوترات بين السكان المحليين وقوات الاحتلال. كما استُخدمت الأنظمة والقوانين الاستعمارية كوسيلة لضبط الأمن وتأمين احتياجات القوات البريطانية من المؤن والأيدي العاملة، غالباً بأجور زهيدة أو دون مقابل.

في الوقت ذاته، وظّف الاحتلال سياسة الترغيب والترهيب في تعامله مع العشائر، فاستمال زعماءها تارة، وقمع الرافضين منهم تارة أخرى، بهدف تقويض أي مقاومة محتملة. وانتهجت السلطات البريطانية إجراءات قسرية

مثل النفي والتهجير ومصادرة الأراضي لمعاقبة الشخصيات الوطنية والعشائر المناهضة للوجود الاستعماري.

وعليه، فإن الإدارة البريطانية في العراق لم تكن مجرد سلطة مؤقتة، بل كانت جزءاً من مشروع استعماري ممنهج، استخدم أدوات القمع والتشريع والسياسة للهيمنة على البلاد، غير أن الرفض الشعبي والمقاومة المستمرة أسّسا لمرحلة جديدة من الوعي الوطني والنضال السياسي الذي استمر لعقود لاحقة.

## المصادر

### أولاً: الوثائق المنشورة وغير المنشورة

١. د. د. ك. و. ملفات الاحتلال، مراسلات ١٩١٥-١٩١٨، تسلسل الملف ١٩٤/٢، و٣، ص ٤٠.
٢. د. د. ك. و. ملفات الاحتلال، مراسلات ١٩١٥-١٩١٨، تسلسل الملف ١٩٤/٢، و٧ وص ٨  
٠ هادي طعمه، الاحتلال البريطاني والصحافة العراقية دراسة في الحملة الدعائية البريطانية  
١٩١٤-١٩٢١، بغداد، ١٩٨٤، ص ٧٥.
٣. د. د. ك. و.، تقارير متنوعة عن حالة البصرة للفترة في ٨/٤/١٩١٥، ٣١/١/١٩١٧، ملف  
الاحتلال البريطاني، تسلسل الملف ١٠٣/٢٠٢٠، تقرير رقم ١١ للميجر براونلو عن الحالة  
الامنية في البصرة لعام ١٩١٤، ص ١-٣.

### ثانياً: الرسائل والاطاريح الجامعية

٤. البرزنجي، رقية حميد حسن، سالم الخيون ودوره الاجتماعي والسياسي حتى عام ١٩٤٥م،  
رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، ٢٠١٣م.
٥. الحسيناوي، ايناس جبار سعيد، سوق الشيوخ ١٩١٥-١٩٥٨ (دراسة تاريخية)، رسالة ماجستير  
غير منشورة، جامعة ذي قار، كلية الآداب، ٢٠١٢م.
٦. الدليمي، أياد طارق خضير، مدينة بغداد في ظل الاحتلال البريطاني ١٩١٧-١٩٢١، رسالة  
ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية التربية (ابن رشد)، ٢٠٠٢م.
٧. الساعدي، محمد حسن زبون، لواء العمارة في عهد الاحتلال والانتداب البريطاني ١٩١٥-١٩٣٢،  
رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة البصرة، ٢٠٠٠م.
٨. الشجيري، عدنان هرير جودة، النظام الإداري في العراق (١٩٢٠-١٩٣٩) دراسة تاريخية،  
أطروحة دكتوراه غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ٢٠٠٥م.
٩. العتاي، نور حسن خلف، عجمي السعدون ودوره في تاريخ العراق (١٩١١-١٩١٨)، رسالة  
ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة، كلية التربية للبنات، ٢٠١٥م.

١٠. العكيدي، عمار يوسف عبد الله عويد، السياسة البريطانية تجاه عشائر العراق ١٩١٤-١٩٤٥، أطروحة دكتوراه غير منشورة، كلية التربية، جامعة الموصل، ٢٠٠٢ م.
١١. مجلي، ماجد ثامر، قضايا التنمية الاقتصادية في مناقشات البرلمان العراقي ١٩٢٥ - ١٩٤٥، أطروحة دكتوراه غير منشورة، معهد التاريخ العربي والتراث العلمي للدراسات العليا، ٢٠١٢ .
١٢. محمد احمد محمود، أحوال العشائر العراقية العربية وعلاقتها بالحكومة ١٨٧٢-١٩١٨، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بغداد، كلية الآداب، ١٩٨٠ م.
١٣. المكصوبي، شياء طالب عبد الله، المنتفق دراسة تاريخية سياسية ١٩٢١ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة المستنصرية، كلية التربية، ١٩٩٨ م.
١٤. المنصور، جعفر عبد الدائم بنان، الحالة الصحية في البصرة ١٩٢١ - ١٩٣٩، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة البصرة كلية التربية، ١٩٩٨ م.

### ثالثاً: الكتب العربية والمعربة

١٥. التميمي، حميد احمد حمدان، البصرة في عهد الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، بغداد، ١٩٧٩ م.
١٦. الجوراني، عبد الله، دراسة وثائقية في تاريخ المنتفق الوطني، بغداد، ط ١، ٢٠٠٨ م.
١٧. سر انولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ترجمة فؤاد جميل، بغداد، ط ١، ١٩٧١ م.
١٨. سر انولد تي. ويلسون، بلاد ما بين النهرين بين ولائين، ترجمة فؤاد جميل، تقديم علاء نورس، بغداد، ط ٢، ١٩٩١ .
١٩. السعدون، خالد حمود، الأوضاع القبلية في ولاية البصرة خلال الحكم العثماني الأخير والاحتلال البريطاني ١٩٠٨-١٩١٨، لبنان، ط ١، ٢٠٠٦ م.
٢٠. الطاهر، عبد الجليل، العشائر العراقية، بغداد، ١٩٧٢ م.

٢١. الطاهر، عبد الجليل، العشائر والسياسة، تقرير سري لدائرة الاستخبارات البريطانية عن العشائر والسياسة، د. ت.
٢٢. العطية، غسان، العراق نشأة الدولة، ترجمة عطا عبد الوهاب، لندن، ١٩٨٨.
٢٣. علي ناصر حسين، الادارة البريطانية في العراق ١٩١٤-١٩٢١، بغداد، ٢٠٠٨ م.
٢٤. العمر، فاروق صالح، حول سياسة بريطانيا في العراق ١٩١٤-١٩٢١، بغداد، ١٩٧٧ م.
٢٥. العيساوي، عبد العال وحيد عبود، لواء المنتفق في سنوات الاحتلال البريطاني ١٩١٤-١٩١٨، النجف الأشرف، ط ١، ٢٠٠٨ م.
٢٦. فيليب ويلارد ايرلاند، العراق دراسة في تطوره السياسي، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، ١٩٤٩ م.
٢٧. محمد سلمان حسن، طلائع الثورة العراقية العامل الاقتصادي في الثورة العراقية الاولى، بغداد، ط ٢، ١٩٥٨ م.
٢٨. المس بيل، فصول من تاريخ العراق القريب، ترجمة جعفر الخياط، بيروت، ط ١، ٢٠١٠ م.
٢٩. هادي طعمه، الاحتلال البريطاني والصحافة العراقية دراسة في الحملة الدعائية البريطانية ١٩١٤-١٩٢١، بغداد، ١٩٨٤ م.
٣٠. الورددي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث، بغداد، ١٩٧٤ م.

#### رابعاً: البحوث المنشورة

٣١. عبد ربه سكران، عشائر البصرة والادارة العسكرية البريطانية اثناء الاحتلال عامي ١٩١٦ - ١٩١٨، مجلة جامعة تكريت للعلوم الانسانية، مجلد ١٣، ع ٥٤، ٢٠٠٦ م.
٣٢. عجمي، عبد الرسول شهيد، الموقف الوطني في شخصية بدر الرميض شيخ عشائر البو صالح، مجلة أبحاث البصرة (الانسانيات)، م ٣٠، ع ١، ٢٠٠٥ م.
٣٣. ياسين طه ظاهر، الادارة البريطانية للعراق في ظل مرحلتي الاحتلال والانتداب، مجلة كلية المأمون الجامعة، ع ١٤، ٢٠٠٩ م.



# دور الصحافة العراقية في مواجهة الاستعمار البريطاني

«جريدة الاستقلال أنموذجاً»

د. فرقان عبدا

## المُلخَص

كانت الصحافة في تلك الفترة تؤدّي دوراً محورياً وأساسياً في إشاعة الوعي المجتمعي وتوسيع آفاق الثقافة العامة، إذ أسهمت بفعالية في تشكيل معالم الحراك الفكري والاجتماعي، ولم يكن العراق بعيداً عن هذه الموجة الثقافية النشطة، بل كان إحدى البؤر الرائدة في مجالات العلم والمعرفة على مستوى المنطقة، فقد شهدت الساحة العراقية آنذاك انطلاقة عشرات الصحف والمجلات التي اهتمت بتغطية طيف واسع من الموضوعات الثقافية، والأدبية، والاجتماعية، والسياسية، مسلحة برؤية عميقة، وتوجه واضح نحو نقل وتحليل الأحداث الإقليمية والعالمية، لكن من منظورات متألفة تراوح بين الأدب والفكر والثقافة والسياسة.

وقد تميّزت جريدة الاستقلال بأتمها لم تكن مجرد وسيلة لنقل الأخبار وتوثيقها، بل كانت مرآة حقيقية تعكس نبض الحياة الفكرية والثقافية والاجتماعية النابضة في أروقة المجتمع العراقي، وعبر صفحاتها تبلورت العديد من الأفكار والقضايا التي كانت تشغل العلماء والأدباء والمثقفين والسياسة، وأصبحت منبراً يعبرون من خلاله عن همومهم، وتطلعاتهم، وآمالهم في بناء مستقبل مشرق لأبناء وطنهم وللأمة الإسلامية ككل، كان هدفها الأساسي يرتكز على خلق حالة من الوعي الجمعي، سواء عن طريق تناول القضايا الجدلية العقائدية، أم تقديم رؤى سياسية عميقة ومستنيرة، أو حتى التعبير عن مشاعر حماسية صادقة تستهدف دعم قضايا المسلمين وتعزيز وحدتهم.

الكلمات المفتاحية: الاستقلال، الاستعمار، الصحافة العراقية، ثورة العشرين، الإعلام.

العدد الأول من جريدة الاستقلال النجفية الذي صدر في يوم السبت ١٨ محرم الحرام ١٣٣٩ / الموافق ١ تشرين الأول سنة ١٩٢٠ م.

السنة الأولى	❖ لاهية بالاستقلال ❖	عدد ١
قيمة الاشتراك وتدفع سلفاً عن ستة خمس مجلدات في النجف وست مجلدات في خارجها وبدل كل شهر ١٠ غروش صحيفة لتر달 رسائل نشرت اول تنشر نمن النسخة نصف غرش صحيف	<h1>الاستقلال</h1>	المكاتب باسم جريدة الاستقلال مدير سياسي الجريدة رئيس تحريرها السيد محمد عبدالمجيد مدير شؤونها السيد عبد الرزاق اجرة الاعلانات السطر غرشان
النجف : السبت ١٨ محرم سنة ١٣٣٩ جريدة سياسية ادبية اجتماعية تصدق في الاسبوع اربع مرات الموقف ١ تشرين اول سنة ١٩٢٠		

يستمر استهوان الاستقلال ورواه الحرية فلا شك انه قد جاء بمجارة رابحة ورفق بشخصه الى مصاف الرجال العظام وانزل بين الامة العراقية منزلاً رفيعاً وحل عندهم كضيف كريم ، وان كانت قد اعطت افضاء مستغذاً سياسة الاستبداد وخطة الاستبداد ليرغمهم على اكتسابه ثوب الوصاية ذلك الثوب المرقم الخلق الذي اعده لهم ليريد جوارح وانصاره فلا نفس فلان الامة العراقية قد اعتادت في نهضتها على نفسها واستمدت قوتها من الله وقلابه لا بما قالته به سلفه «ولسن» . ولكن حكمتك السياسية وودها للمعروف يقضي عليه بانواع خطة اسكوت وتحقيق امانية نخيلة ماصة البلاده بناداه والانحباب نحو البصرة مما فصح له مجال المداولة مع الوطنيين الناهضين في تشكيل الحكومة الوطنية العراقية للمطالبة .

ومن يتم النظر في التبدلات التي حصلت حديثاً في الادارة للملكية في « بنداد » كمرل ولسن استلام كوكس ازمة الحكومة في البصرة واستبدال المروضين الانكليز للملكيين بموضفين عراقيين وجعل القنصلية لثة الحكومة الرسمية - بتوسم الخريف سياسة كوكس الجديدة ويرى من خلالها حسن المعالجة على ان واجب الامة العراقية الناهضة لاخذ حقوقها المنصورة واسترجاع مجدها السالف ان يبدى نشاطها وتمثل همة للاستقلال على الواقع المعتدل فيها الجند الاحتلالي وتخلص من تكاليف

يومية في اربع صحائف . وقد قبلنا اشتراكها عن الشهر ١٠ غروش صحيفة كي يقتنباها الخاص والماء والله ولي التوفيق .

**قلم كوكس**  
وسياسة انكلتر في العراق

غادر كوكس العراق قبل اربعة اشهر قادماً « لندن » لحل المشكلتين السيليتين هما مسألة معاهدة ايران واستقلال العراق بمدع منها على بساط البحث في البرلمان البريطاني ، وقد ترك نفوذ انكلتر في ايران تتلاعب فيها ازواج الشد بده وودع مستقبلها في العراق تتفاذه الامواج في بحر لا يدرك ساحله .

وصل كوكس « لندن » والنزاع قائم بين حزبي اسكوت والقائل نخيلة « بنداد » والانحباب نحو البصرة ولويدجرج الذي يرى لزوم استعمال القوة لاخذ ثورة العراقيين الاستقلالية والاحتفاظ بالعراق ابدى على الرغم من جميع للماهدات والتصريحات التي تقضى باستقلاله وتركه لابنته ، فجا، وصوله هناك بلية كبرى على لو يدجورج وانصاره لما اذاعه من انباء العراق وحواده الجديدة وقوة الحرية الوطنية فيه ملامحز جانب اسكوت المعارض وجعل آمله اقرب للتحقيق .

وهاتفق كوكس راجسآن « لندن » وسيسل قريباً البصرة ( ورجا وصلها ) فافصله حاملاً للعراقيين ؟ وماهي البضامة التي انتقامها لاهل العراق فكانت كما يستطيع العراقيون ان

❖ بسم الله الرحمن الرحيم ❖  
هدأ وشكراً وسلاماً ، وبعد لقد لنا غلوا البلاد من الصحف الوطنية وعدم اهتمام الكتاب ووجهة الافلام جاني هذه الايام الحرجة، فدفنتنا الوطنية الى اصدار جريدة الاستقلال في النجف الاشرف بعدما كان في التية نشرها في بغداد ، لتردنا ليل المخطئين ونفشر مظلهم البربرية وترفع الشعارات حقيقتهم وتوضح مطالب الامة المشروعة لدى العالم وتنتشر انباء المارك والحوادث المحلية وتوقف الامة على الحلة السياسية التي يتبدل عبرها كل حين وترهبها مستقبلها الذي يتراى من خلال الحوادث الجارية وتوضح لها السبل التي يتحم سلوكها لبلوغ الغاية للقدس وتنتقد اعلمها لتوقفها على النافق منها والناشر شأن الجرايد الكبيرة الحرة في البلاد العراقية ، ولكن كيف يتأتى ذلك ونحن على ما عليه من قلة المدة والوسائل ؟

اجل ان فقدنا الوسائل لا تقوى على الوقوف تجاه صاحب الحزم والارادة القوية ولنا حول دون اعمال الرجل المخلص لوطنه وامته وقد قيل « لا مستحيل على القلب الشجاع » على اننا لا نستحي عن مساعدة الامة ومواونة الكتاب الافاضل بل النجاح التام منوط بمساعدة جميع طبقات الامة ماديا وادبياً ، كما نشر بلنة سهلة يستطيع الجميع الاستفادة منها ، وستصدق في الاسبوع اربع مرات في صحيفتين نظراً لكثرة الحوادث والابناء ومي أسنانم القراء انبالا اصدرناها

## أولاً: السياق التاريخي لنشأة الصحافة في العراق

تمثل الصحافة في العراق عنصراً جوهرياً في المشهد العام، ظلّت على مرّ الزمن وسيلةً محوريةً للتواصل مع العالم، وأداةً فعّالةً لنقل الحقائق وتعزيز التواصل والتفاعل بين فئات المجتمع المختلفة. وتعدّ جذور الصحافة العراقية متجذرةً في تاريخ عريق يمتد إلى أواخر القرن التاسع عشر، إذ شهدت البلاد آنذاك بداية التجربة الصحفيّة مع إصدار أول صحيفةٍ رسميّةٍ حملت اسم الزوراء في عام ١٨٦٩م، مثل هذا الحدث نقطة تحولٍ مهمّةٍ ومؤثّرة، إذ شكّل انطلاقة عهدٍ جديدٍ أسهم في تطوير وسائل نقل الأخبار وتبادل المعلومات داخل العراق خلال حقبة الحكم العثماني، بهذا الإنجاز، بدأت الصحافة العراقية تؤدّي دوراً حيويّاً في الحياة الثقافيّة والاجتماعيّة، ممّا فتح المجال أمام مسارٍ طويلٍ من التحديث الصحفي والتعبير الإعلامي في المنطقة.

منذ الحقبة التأسيسية وحتى يومنا هذا، شهدت الصحافة العراقية تحولاتٍ واسعة النطاق وتطوراتٍ متسارعة انعكست على مختلف المجالات التي تمسّ هذا القطاع الحيوي، فقد تميّزت تلك الحقبة بارتفاع ملموسٍ في أعداد الصحف والمجلات التي باتت تصدر بانتظام، مما أسهم في تعزيز المشهد الإعلامي وزيادة تنوعه، إلى جانب ذلك، طرأت تغييراتٌ جذريّةٌ على الأساليب التحريرية؛ فقد تنوّعت طرق معالجة الأخبار، وتقديم المحتوى، لتواكب احتياجات الجمهور المختلفة، كما شملت هذه التطوّرات توسيع نطاق التغطيات الإعلامية لتشمل موضوعات لم تكن متداولةً في السابق، ممّا ساعد على تحقيق مزيدٍ من الانفتاح والتفاعل المهني مع الأحداث المحليّة والإقليميّة والدوليّة.

لم تكتفِ الصحافة العراقية بالدور التقليدي الذي يقتصر على نقل وتغطية

الأخبار السياسيّة، بل اتّجهت بنحوٍ متزايدٍ إلى تناول القضايا الاجتماعيّة والثقافية بشموليّة وعمق، هذا التنوّع في التناول جعل من الصحافة العراقيّة منصّةً شاملةً ومتعددة الأوجه تعبّر بصدقٍ عن هموم المواطنين، وتعكس اهتماماتهم اليومية بمختلف أشكالها، وخلال مسيرتها التي حفلت بالعديد من المحطّات المهمّة، استطاعت هذه الصحافة أن تسجّل إنجازاتٍ بارزةً تُحسب لها، إذ شهدت تطوراتٍ نوعيّةً لافتةً كان لها أثرٌ كبيرٌ في تحسين أداء وسائل الإعلام المحليّة، مما أسهم في تعزيز مكانتها وجعلها أكثر قُرْباً من نبض المجتمع وأحداثه المتجددة. كما أنّ الصحافة أظهرت تفوقاً ملحوظاً بفضل تنوّعها الواسع الذي لم يقتصر على إصدار الصحف اليوميّة فحسب، بل امتدّ ليشمل الإصدارات الأسبوعيّة التي تركز على تقديم الأخبار والتحليلات بشكلٍ دوري، بالإضافة إلى المجلات المتخصصة التي اهتمت بتغطية موضوعاتٍ متنوّعةٍ تلبي اهتماماتٍ شريحةٍ واسعةٍ من الجمهور. هذا التنوّع في أشكال الإصدارات وأنماطها أسهم بشكلٍ كبيرٍ في إثراء المشهد الإعلامي، ممّا أضفى على المحتوى المقدم للجمهور مزيداً من العمق والغنى الفكري، وجعل الوسط الإعلامي مساحةً أكثر اتساعاً وشمولاً للتعبير والنقاش.

وكان الصحافة الاستقصائية دورٌ محوريٌّ وأساسيٌّ في كشف الستار عن العديد من قضايا الفساد والاعتداءات التي تحدث في المجتمع، عبر الإسهام الكبير في رفع مستوى الوعي العام، وتعزيز دور الصحافة كأحد الأعمدة الرئيّسة التي تدعم النظام الديمقراطي. ويشار إلى هذا الدور الأساس للصحافة تحت مسمّى السلطة الرابعة، وذلك لما تقوم به من مهامٍ رقابيّةٍ تراعي من خلالها تقييم أداء السلطات الأخرى في الدولة، ممّا يضمن تحقيق مبدأ الشفافيّة والمساءلة

بشكلٍ فعّالٍ ومستدام. هذا التفاعل المستمر بين الصحافة والمجتمع يسهم في تعزيز ثقافة المساءلة، ويضع ضوابط على الإجراءات الحكومية ليظلّ صوت الشعب حاضرًا ومؤثرًا في جميع الأصعدة.

وعلى مرّ الحقب المختلفة من التاريخ العراقي، واجهت الصحافة تحدياتٍ جسيمة، إذ تعرّضت للرقابة الشديدة والقمع المتواصل، إذ كانت معظم الصحف تخضع لإشرافٍ دقيقٍ وصارمٍ من الجهات المعنية، مما أدى إلى تهميش الأصوات المعارضة وإسكاتها بطرقٍ مختلفة. ولم يتوقف الأمر عند فترات معينة من التاريخ، بل استمر في بعض الحالات حتى مع بدء ظهور بوادر اتساع هامش حرية الصحافة، ورغم ذلك، ظلّ الصحفيون يعانون من تهديداتٍ ومخاطر متعددة، منها ما يرتبط بالأمن الشخصي، ومنها ما يتصل بالتوجهات السياسية والاجتماعية، إلى جانب تلك التحديات السياسية والأمنية، يواجه قطاع الصحافة أيضًا أزماتٍ اقتصاديةٍ خانقة، فعلى الرغم من الدور التنويري الكبير الذي تلعبه الصحف والمجلات، فإنّ العديد منها يعتمد بدرجةٍ كبيرةٍ على مصادر تمويل خارجية لتغطية نفقاته التشغيلية. ومع أنّ هذا التمويل قد يسهم في استمرار عمل المؤسسات الصحفية لفترة معينة، فإنّه يحمل معه مخاطر كبيرة تهدد استقلالية تلك المؤسسات، ممّا يجعلها معرضةً للتأثر بأجندات الجهات الممولة. إضافة لذلك، يواجه الصحفيون والمؤسسات صعوباتٍ جمةً تتعلق بتأمين الموارد المالية اللازمة لاستمرار عملهم في تقديم محتوى مهنيٍّ وموضوعيٍّ يخدم الجمهور بشكلٍ حقيقيٍّ، وفي خضم هذه التحوّلات والتحديات التي مرّت بها الصحافة العراقية على مدار تاريخها الغني بالأحداث والمنعطفات، برزت العديد من المحطّات التي أسهمت في إضاءة مشهد الصحافة بأسلوبٍ جديدٍ وواضح، ممّا

جعلها شاهداً حياً على تطورات المجتمع وترجمة دقيقة لمشاكله وطموحاته. ومع كل هذا الإرث الصحفي، يبقى السؤال الأهم متمثلاً في قدرة هذه المهنة على الصمود أمام المتغيرات الراهنة، وتحقيق التوازن المنشود بين المهنيّة والاستقلاليّة في ظل الظروف الحاليّة.

وعند احتلال البريطانيين لمدينة البصرة، نفذوا سلسلة من الإجراءات لتعزيز سيطرتهم وترسيخ وجودهم في المنطقة، من أبرز هذه الخطوات كانت مصادرة مطبعة الولاية التابعة للحكومة المحليّة، بالإضافة إلى شراء المطابع الخاصة<sup>١</sup>، ما مكّنهم من احتكار الصحافة واستخدامها كأداة أساسية للاتصال والتأثير في العراق خلال تلك الفترة<sup>٢</sup>، وهدفت هذه السياسة إلى توجيه الرأي العام العراقي بما يتماشى مع تبريراتهم ومصالحهم في الاحتلال، أطلق البريطانيون نشرةً يوميةً ثنائية اللغة، باللغة العربيّة والإنجليزيّة، ركّزت على عرض أخبار المعارك بمنظور يخدم رؤيتهم. ومع الوقت، تحوّلت هذه النشرة إلى صحيفة حملت اسم «الأوقات البصرية» (TIMES)، وذلك اقتداءً بالتقليد المتبع في تسمية بعض الصحف الشهيرة في بريطانيا، ممّا يعكس رغبتهم في استحضار الطابع الثقافي والصحفي البريطاني في المناطق التي سيطروا عليها. وكانت هذه الصحيفة الأولى من نوعها، وقد صدرت بشكل مباشر عن الإدارة البريطانيّة المحتلّة<sup>٣</sup>.

لم تتوقف جهود البريطانيين عند هذا الحدّ، بل توسّعت لتشمل مجالاتٍ أخرى مثل إنشاء دور السينما وتجهيزها بأفلامٍ إخباريّة ودعائيّة تعكس روايتهم

١. انظر: صبات خليل، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، ص ٢٨٠.

٢. انظر: شهاب أحمد حميد، تاريخ الطباعة في العراق، ج ٢، ص ٦٥.

٣. انظر: النجار، مصطفى عبد القادر، العراق في التاريخ (العراق المعاصر)، ص ٦٣٣.

الخاصة وأهدافهم السياسيّة، هذه المبادرات عززت قدرتهم على تشكيل التصورات العامة وترسيخ تأثيرهم على نطاقٍ أوسع داخل المجتمع العراقي. في تلك الحقبة الزمنية التي شهدت واحدة من أبرز المواجهات بين القوات البريطانيّة المحتلّة والقوات العثمانيّة، كانت الأوضاع في العراق تتسم بتوترٍ شديدٍ نتيجة التصاعد الكبير للرفض الشعبي ضدّ الاحتلال، وسط هذا المشهد، ظهرت أهميّة الدعاية كأداةٍ استراتيجيةٍ أساسيةٍ اعتمدت عليها القوات البريطانيّة لتحقيق أهدافها السياسيّة والعسكريّة. بريطانيا، التي أدركت جيداً قوة الإعلام في التأثير على العقول والمواقف، اتخذت الصحف وسيلةً منظمّةً لبناء جسور تواصلٍ مع السكّان المحليين، سواء من خلال محاولة تحسين صورتها أم عبر توجيه ضربةٍ للنظام العثماني عن طريق تحجيم نفوذه وتشويه سمعته. ومن هذا المنطلق، سعت السلطات البريطانيّة لاستخدام الإعلام للتصدّي للدعاية العثمانية التي كانت تثير حالةً من المقاومة والرفض الشعبي.

وكان من الملاحظ أنّ بريطانيا تولى حجماً كبيراً من الاهتمام لجوانب الدعاية المضادّة، وهو ما تجلّى بوضوحٍ في البيان الذي أصدره الفريق الأول ويлияم مارشال، القائد العام لجيش الاحتلال البريطاني. البيان احتوى على لغةٍ صارمةٍ وتحذيرٍ واضحٍ موجهٍ لأيّ شخصٍ كان ينخرط في نشر الشائعات أو المعلومات المضللة التي قد تؤدّي إلى زعزعة الأمن العام، إذ نصّ على أنّ مثل هذه الأفعال قد تقابل بعقوباتٍ صارمةٍ تصل إلى الإعدام، أو بعقوباتٍ أقلّ بناءً على تقديرات المحكمة أو القيادة العليا للجيش<sup>١</sup>.

هذا التشدد يعكس حجم القلق الذي كانت تشعر به القيادة البريطانيّة إزاء

١ . المرجع الإلكتروني للمعلومات <https://almerja.com/more.php?idm=189966>

تأثير الدعاية المضادة ومدى تأثيرها على الرأي العام المحلي، ما يبرز أهمية الرقابة في تلك المرحلة بوصفها أداة للسيطرة على الوضع والتقليل من آثار الحرب الإعلامية. كما يتضح كيف اعتمدت بريطانيا نهجاً مزدوجاً، قائماً على ترهيب المعارضين من خلال العقوبات القاسية من جهة، وعلى تفعيل أدوات التأثير الإعلامي لتشكيل صورة إيجابية ودعم استراتيجياتها الاحتلالية من جهة أخرى.

### ثانياً: جريدتا الفرات والاستقلال النجفيّتان - المنشأة والهوية التحريرية

شهدت صحافة ثورة العشرين حضوراً متميزاً ومؤثراً خلال تلك الفترة المفصلية من تاريخ العراق؛ إذ أدت دوراً بارزاً في توثيق الأحداث ونقل نبض الشارع، ومن بين الصحف التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بمسار الثورة ومسيرتها المجيدة، برزت جريدة الفرات وجريدة الاستقلال، اللتان شكّلتا صرحين إعلاميين انضويًا تحت لواء النضال الوطني، وظهرتا من قلب مدينة النجف، مركز الفكر والثقافة آنذاك، هاتان الجريدتان اللتان تعدّان من الصفحات المضيئة ضمن تاريخ الصحافة العراقية، ومن رموز المقاومة الشعبية ضد السياسة البريطانية في العراق. تميّزت هاتان الصحيفتان بالطابع الوطني الواضح الذي استند إلى التزام صادق بالقضايا القومية، فكانتا تصدران باللغة العربية لتعبّران بشكل عميق وصادق عن آمال وطموحات القوى الوطنية، من نخبة سياسية وثقافة، كما خاطبتا عامة الشعب بلغة بسيطة وسهلة الفهم، ممّا جعلها قريبتين من مختلف شرائح المجتمع<sup>١</sup>.

ولم تقتصر أهميتهما على مستوى التأثير اللحظي، بل أصبحتا مصدرًا تاريخيًا لا غنى عنه للباحثين والمؤرخين، الذين يلجأون إليهما لتتبع تفاصيل الأحداث

١. انظر: البهادلي، محمد باقر، الحياة الفكرية في النجف الأشرف، ص ١٧٨ - ١٨٠.

وفهم تعقيداتها من مختلف جوانبها، في خضم تلك الأحداث الغنيّة والمتسارعة، أطلق عددٌ من المثقّفين العراقيّين هاتين الجريدتين كصوتٍ يعبر عن الثورة المباركة، ويلقي الضوء على أبعادها.<sup>١</sup>

كانت جريدة الفرات الأولى من نوعها التي ظهرت في هذا السياق، التي صدرت نسختها الأولى في السابع من أغسطس عام ١٩٢٠م، وتضمّنت خمسة أعداد فقط، قبل أن تتوقف عن الإصدار. وعلى الرغم من قصر مدّة وجودها، فقد تميّزت بمحتواها الثوري المليء بالأخبار والتحليلات الوطنيّة، حيث جاءت في أربع صفحاتٍ صغيرة الحجم نسبيّاً لكنها غنيّة بالكلمات الملهمة، تولّى إدارة هذه الجريدة الشيخ محمد باقر الشبيبي، أحد الرواد البارزين في (جمعية حرس الاستقلال السرية)، الذي اشتهر بوطنيّته الصادقة وشجاعته في مواجهة الاحتلال، كان الشبيبي يشرف على طباعة المنشورات الثورية بنفسه منذ اندلاع الأحداث وحتى انحسارها، حيث حرص على توزيعها في كافة المدن التي مسّها هيب الثورة وأصدائها الوطنيّة، وقد نالت هذه الجريدة تقديرًا خاصًّا لدى المؤرّخين، ومن بينهم المؤرّخ الراحل السيد عبد الرزاق الحسيني، الذي وصفها بأنّها من أبرز الوثائق الصحفية التي جسدت روح النضال العراقي في تلك المرحلة الدقيقة، وقال: «إنّها كانت تلقي على النار وقودًا»<sup>٢</sup>.

كانت الصحافة الثوريّة جزءًا مهمًّا وحيويًّا من ثورة العشرين، إذ جسّدت صحيفة الفرات دور المتحدّث الرسمي باسم الثوار، متكفّلةً بنقل تعاليم الحركة الاستقلاليّة وتعزيز وعي الشعب بأهداف الثورة ومبادئها، اشتهرت بأسلوبها

١. انظر: عبد الرحيم محمد علي، تاريخ الصحافة النجفيّة، مجلة آفاق نجفيّة، العدد ٥، السنة الثانية، ص ٢٤٠.

٢. انظر: الأعرجي، ستار، إسهام مدرسة النجف الأشرف في الحوار الحضاري، ص ٢٩٢.

الحاد والخطابي الذي لامس قلوب الجماهير، كما وثّقت عبر خطبها وتعليقاتها كافة تفاصيل أحداث الثورة بما في ذلك وقائع القتال اليومية، ولعلّ أبرز ما يميّز صحيفة الفرات هو إصدارها ملاحق مستقلة سلّطت الضوء على التطوّرات اليومية للثورة، لكنّها للأسف لم تصمد طويلاً؛ إذ توقفت عن الصدور بعد الإصدار الخامس<sup>١</sup>.

من جهة أخرى، برزت جريدة الاستقلال منصّة إعلامية وطنية، تُعبّر عن نضال العراقيين طموحهم آنذاك. أُطلقت في الأول من تشرين الأول عام ١٩٢٠م، بحجم كبيرٍ وصفحتين اثنتين فقط، لتصدر ثمانية أعدادٍ قبل أن تتوقف بدورها، وكانت الجريدة تُطبع أربع مراتٍ أسبوعياً، بإشراف كلٍّ من محمد عبد الحسين الكاظمي وعبد الرزاق الحسيني، وكان الطبع يتم داخل مطبعة الشيخ صادق الكتبي في النجف، يُلاحظ أنّ إجمالي الإصدارات من الفرات والاستقلال معاً لم يتجاوز ثلاثة عشر عدداً، في وقتٍ لم تدم فيه صحافة ثورة العشرين سوى ثلاثة وخمسين يوماً فقط، عاشت الصحيفتان عمراً قصيراً، لكنّه كان مؤثراً ولافتاً، وهذا القصور يعود إلى عوامل عدة:

١. تأخر المثقفين في إطلاق صحفٍ تمثّل نبض الثورة وتعكس رؤيتها، إذ اعتمدوا بشكلٍ رئيسٍ على المنشورات التي أصدرها الشيخ محمد رضا الشيباني.
  ٢. شحّ الموارد اللازمة للطباعة من ورقٍ وأدواتٍ بسبب الحرب.
  ٣. ندرة الإمكانيات المادية.
  ٤. كونها صدرتا مع نهايات الثورة واقتراب الحسم العسكري.
- إذ صدرت الفرات بعد أكثر من شهر على نشوب الثورة، ورغم قصر عمرها

١. انظر: الدراجي، محمد عباس، صحافة النجف تاريخ وإبداع، ص ١٨-١٩.

وتواضع إمكانياتها، تبقى صحافة ثورة العشرين تجربةً فريدةً تستحق التقدير والاهتمام، فقد وجد قادة الثورة في النجف والمناطق المحيطة بها العون في تلك الصحف التي وُزعت نسخها ولُصقت على أبواب الجوامع بهدف إيصال صوت الثورة إلى أوسع شريحة ممكنة، وعلى الصعيد الدولي، حازت هذه الصحف اهتماماً كبيراً، لا سيّما في بلدان مثل تركيا والهند، حيث تلقفتها الصحافة هناك بكتاباتٍ أدبيةٍ رائعةٍ سلّطت الضوء على أحداث الثورة بطابع بلغ رُقيّاً لغويّاً استثنائياً. كانت لغة جريدة الفرات بسيطة وواضحة في آنٍ واحدٍ لتمكّن الجميع من فهم المغزى والاستفادة منها<sup>١</sup>.

أما جريدة الاستقلال فهي تعبيرٌ نقّي عن الفكر الوطني الحر الذي لطالما مثل صوت الشعب العربي عموماً والعراقي خصوصاً، أظهرت التزاماً بالدفاع عن الحقوق المشروعة للشعب والوقوف إلى جانب طموحاتهم دون أدنى ترددٍ، متجاهلةً كلّ اعتراضٍ أو إزعاجٍ من الخونة والمشكّكين، كانت الجريدة تنتهج الاعتدال في خطابها، مجنبةً نفسها الوقوع في مهاوي الشتائم أو التحقير والنقد الجارح الذي قد يعيب العمل الصحفي، وجعلت من مهمتها الأولى تقويم أيّ خطأ، وإصلاح الفساد بأقصى ما يمكن من جهد وتفانٍ، وقد استقبلت المقترحات البناءة برحابة صدرٍ وأصغت إلى أصوات الوطنيين بانتباهٍ عميقٍ، كان هدف الجريدة واضحاً ومتجسداً في السعي وراء أيّ مشروع يخدم الشعب ويعزز تطلعاته نحو الحرية والاستقلال، وحملت عزيمةً لا تهتز، ورؤيةً ثابتةً جعلتها ركيزة صلبةً لروح الثورة، مهما حاول التشكيك بثباتها أو زعزعة أركانها عبر الأكاذيب والإشاعات الهدامة<sup>٢</sup>.

ونجد هذا واضحاً فيما ذكرته في مقدمتها: «بسم الله الرحمن الرحيم، حمداً

١. انظر: البهادلي، علي، الكتب والمكتبات في النجف، العدد (٣١-٣٢)، ص ١٢.

٢. انظر: رفائيل بطي، الصحافة في العراق، ص ٥٤.

وشكرًا وسلامًا وبعد، لقد ألمنا خلو البلاد من الصحف الوطنية، وعدم اهتمام الكتّاب وحملة الأقلام في هذه الأيام الحرجة، وقد دفعتنا الوطنية إلى إصدار جريدة الاستقلال في النجف الأشرف بعد ما كان في نيتنا نشرها في بغداد لتردّ أضرابيل المحتلين، وتمهمهم وتنشر مظالمهم البربرية، وترفع الستار عن حقيقتهم، وتوضح مطالب الأمة المشروعة لدى العالم وتنشر أنباء المعارك والحوادث المحلية، وتوقف الأمة على الحالة السياسيّة التي يتبدل مجراها كلّ حين، وترىها مستقبلها الذي يترأى لها من خلال الحوادث الجارية، وتوضح لها السبيل التي يتحتم سلوكها؛ لتوقفها على النافع منها والضار، وشأن الجرائد الكبرى الحرّة في البلاد الرائيّة، ولكن حتى يتأتّى ذلك ونحن على ما عليه من قلة العدة والوسائل؟.

أجل، إنّ هذه الوسائل لا تقوى على الوقوف تجاه صاحب الحزم والإرادة القويّة، ولا تحول دون أعمال الرجل المخلص لوطنه وأمته، وقد قيل: (لا مستحيل على القلب الشجاع). على إنّنا لا نستغني عن مساعدة الأمة، ومعاونة الكتّاب الأفاضل، بل النجاح التام منوطٌ بمساعدة جميع طبقات الأمة مادياً وأدبياً، كما أنّها ستنشر بلغةٍ سهلةٍ يستطيع الجميع الاستفادة منها، وستصدر في الأسبوع أربع مراتٍ في صحيفتين نظراً لكثرة الحوادث والأخبار. ومتى آنسنا من القراء إقبالاً أصدرناها يومياً في أربع صحائف، وقد جعلنا اشتراكها عن الشهر ١٠ غروش صحيحة كي يقتنيها الخاصّ والعامّ، والله ولي التوفيق»<sup>١</sup>.

### ثالثاً: الخطاب التحريري المقاوم لجريدة الاستقلال

اتّخذت جريدة الاستقلال مناهج تحريريّة واضحة في مواجهة الاستعمار تمثّلت في:

١. الجبوري، كامل سلمان، جريدتي الفرات والاستقلال النجفيتين طليعة صحافة الثورة العراقيّة الكبرى

١. الدعوة إلى وحدة الشعب العراقي بمختلف مكُوناته في وجه الاحتلال.
٢. التمسك بالهوية الوطنية والإسلامية، ورفض كل أشكال الهيمنة الثقافية الغربية.
٣. الدعوة إلى الكفاح السلمي والسياسي، من خلال التظاهر والمقاطعة<sup>١</sup>.

#### رابعاً: مساهمة الجريدة في تعبئة الجماهير

استطاعت جريدة الاستقلال أن تؤدّب دوراً مهماً في تشكيل الرأي العام العراقي، من خلال:

١. نشر مقالات تعبر عن معاناة المواطنين في ظل الاحتلال.
٢. تحفيز الجماهير للمشاركة في النشاطات الوطنية مثل الإضرابات والمظاهرات.
٣. فضح الانتهاكات البريطانية، من اعتقالاتٍ وقتلٍ وتضييقٍ على الحريات.
٤. إبراز شخصياتٍ وطنيةٍ أسهمت في الحراك السياسي المقاوم<sup>٢</sup>.

#### خامساً: الأثر السياسي والثقافي للجريدة

كان لجريدة الاستقلال دورٌ مهمٌّ في:

١. ترسيخ مفهوم السيادة الوطنية.
٢. مناهضة النفوذ الأجنبي. حيث ذكرت ذلك في الأخبار الخارجية وآخر تطوراتها، وهذا ما نجده في العدد الخامس، حيث ذكرت الاضطرابات في الهند، وتبديل رئيس جمهورية فرنسا<sup>٣</sup>.
٣. تنمية ثقافة سياسية واعية لدى الجيل المثقف.
٤. ربط القضية العراقية بالقضايا العربية.
٥. تأسيس تقاليد صحفية نضاليةٍ أهدت الصحفيين والناشطين لاحقاً<sup>٤</sup>.

١. انظر: الكاظمي، محمد عبد الحسين، جريدة الاستقلال، العدد ٤، ص ٨٧.

٢. المصدر نفسه، العدد ٣، ص ٨٦.

٣. انظر: الكاظمي، محمد عبد الحسين، جريدة الاستقلال، العدد ٣، ص ٨٦.

٤. المصدر نفسه، العدد ٦، ص ٩٢.

### سادساً: أكثر من مجرد وسيلة إعلامية

لم تكن جريدة الاستقلال مجرد صحيفة تنقل الأخبار وتنشر المقالات، بل كانت بمنزلة مركز قيادة فكري وروحي للحركة الوطنية العراقية، ولقد تجاوز دورها حدود الإعلام التقليدي لتصبح:

\* لسان حال الشعب: إذ عبرت بصدق عن آمال وآلام الشعب العراقي تحت نير الاحتلال، وكانت تعكس نبض الشارع وتطلّعاته نحو الحرية والاستقلال.  
\* أداة تعبئة وتحشيد: أسهمت بشكل فعّال في تعبئة الجماهير وتحشيدتها ضد الوجود البريطاني، من خلال مقالاتها الحماسية ودعواتها الصريحة إلى الوحدة والعمل الوطني المشترك.

\* مدرسة للوعي السياسي: قامت بدور تعليمي وثقفي من خلال نشر المقالات التحليلية التي تناولت الوضع السياسي الراهن، وفضحت مخططات الاستعمار، وشرحت أهمية الاستقلال الوطني.

\* حلقة وصل بين الوطنيين: أتاحت الجريدة منصة للتواصل وتبادل الأفكار بين مختلف شرائح الوطنيين والمثقفين، ممّا عزّز من تماسك الحركة الوطنية ووحد صفوفها.

### سابعاً: تأثيرها في سياق ثورة العشرين

صدرت جريدة الاستقلال بعد مدّة وجيزة من ثورة العشرين (١٩٢٠م)، فكانت استمراراً فكرياً وإعلامياً لتلك الثورة. ولقد عملت على:

١. تخليد ذكرى الثورة: حافظت على زخم الثورة وأبقت جذوتها مشتعلة في نفوس العراقيين من خلال التذكير بتضحيات الشهداء وأهداف الثورة.
٢. الدفاع عن مطالب الثورة: استمرت في المطالبة بتحقيق الأهداف التي رفعتها ثورة

العشرين، وعلى رأسها الاستقلال التام للعراق وإقامة حكومة وطنية مستقلة.  
٣. توحيد الجهود بعد الثورة: أسهمت في توحيد جهود الوطنيين بعد إخماد الثورة، وتوجيه طاقتهم نحو العمل السياسي والإعلامي لتحقيق الاستقلال<sup>١</sup>.

### ثامناً: التحديات الداخلية والخارجية ومواجهتها

تعرضت جريدة الاستقلال للعديد من التحديات الكبيرة بسبب الرقابة والقمع المفروض من قبل سلطات الاحتلال والحكومة العراقية التي كانت موالية لها. ورغم ذلك، أثبتت الجريدة صلابتها وشجاعته في مواجهة هذه الظروف الصعبة. لم يقتصر نضالها على الوقوف في وجه الاستعمار البريطاني فقط، بل كان عليها التعامل مع تحدياتٍ أخرى، سواء على المستوى الداخلي أم الخارجي:

\* الخلافات الداخلية بين الوطنيين: على الرغم من الهدف المشترك في الاستقلال، كانت هناك اختلافات في وجهات النظر بين التيارات الوطنية المختلفة حول أساليب النضال وشكل الدولة المستقبلية. حاولت الجريدة قدر الإمكان توحيد الصفوف وتجاوز هذه الخلافات.

\* الضغوط الخارجية: كانت هناك قوى إقليمية ودولية أخرى لها مصالح في العراق، وكانت تمارس ضغوطاً بطرق مختلفة. حاولت الجريدة أن تحافظ على استقلاليتها في طرح القضايا الوطنية في ظل هذه الضغوط.

\* محدودية الانتشار: في بداياتها، ربما واجهت الجريدة تحديات في الوصول إلى قطاعات واسعة من الجمهور بسبب محدودية وسائل الاتصال وارتفاع نسبة الأمية.

١. انظر: الكاظمي، محمد عبد الحسين، جريدة الاستقلال، العدد ٨، ص ٩٦.

\* استخدام أساليب ذكّية في الكتابة: لجأ كتّابها إلى استخدام التلميحات والرموز والإشارات الذكّية لتجاوز الرقابة وإيصال رسائلهم الوطنيّة إلى الجمهور.

\* تحمّل تبعات المواقف الوطنيّة: لم يتردد صاحب الجريدة وكتّابها في تحمّل تبعات مواقفهم الوطنيّة.

### تاسعاً: إرث الاستقلال

تركت جريدة الاستقلال إرثاً مهمّاً في تاريخ الصحافة والحركة الوطنيّة العراقيّة، إذ تعدّ:

\* رمزاً للمقاومة الوطنيّة: تجسد الجريدة روح المقاومة والصمود في وجه الاستعمار، وأصبحت رمزاً للنضال من أجل الحرّيّة والاستقلال.

\* نموذجاً للصحافة الوطنيّة المسؤولة: قدّمت نموذجاً للصحافة التي تلتزم بقضايا الوطن والشعب، وتعمل على نشر الوعي والدفاع عن الحقوق.

\* مصدرّاً تاريخيّاً مهمّاً: تعدّ أعداد الجريدة مصدرّاً تاريخيّاً قيماً لفهم تلك الحقبة الحاسمة من تاريخ العراق وحركة التحرّر الوطني.

### عاشراً: دور جريدة الاستقلال في مقارعة الاستعمار

كانت السلطات البريطانيّة تسعى جاهدةً لترسيخ وجودها في العراق من خلال نشر الدعاية التي تبرر احتلالها، وتقلّل من شأن الحركة الوطنيّة. في هذا السياق، أدّت جريدة الاستقلال دوراً مهمّاً في:

أولاً: تفنيد الادّعاءات الاستعماريّة: عملت على الردّ على المزاعم والأكاذيب التي كانت تنشرها الدوائر البريطانيّة ووسائل الإعلام الموالية لها. وقامت بكشف

أهداف ومخططات الاحتلال البريطاني، وتوضيح الآثار السلبية لوجوده على مختلف جوانب الحياة في العراق.

ثانياً: تقديم رواية وطنية بديلة: قدمت سرديةً تاريخيةً ووطنيةً مضادةً للرواية الاستعمارية، تؤكد على حقّ العراقيين في الاستقلال ورفضهم للاحتلال.

ثالثاً: كشف أساليب الاستعمار: سلّط الضوء على الأساليب التي كان يتبعها البريطانيون لتقويض الوحدة الوطنية واستغلال موارد البلاد.

رابعاً: منبر للمعارضة الوطنية: لم تكن مجرد صحيفة، بل كانت أشبه بمنظمة سياسية يلتقي فيها الوطنيون ويساهمون في كتاباتها.

خامساً: نشر الوعي الوطني: عملت على نشر مبادئ وأفكار ثورة العشرين، وتأجيج الحسّ الوطني لدى العراقيين، والدعوة إلى الوحدة والتكاتف لمقاومة الاحتلال.

سادساً: فضح ممارسات الاحتلال: سعت الجريدة إلى فضح أفعال المحتلين وتهمهم، ونشر مظالمهم البربرية، وكشف حقيقتهم أمام الرأي العام المحلي والعالمي. من ذلك أنّها ذكرت في عددها الثاني هذه الفضائح تحت عنوان (فضائح المحتلين)، وتعرّضت فيه إلى عدة نقاط، كان أولها: القتل والنهب في قرية الحمزة، وثانيها: هتك حرمة الحرم وحرق نسخ القرآن الكريم، وثالثها: القتل والنهب في قرى الحلة<sup>١</sup>. وفي العدد الرابع ذكرت مثل ذلك تحت عنوان (فضيحة إنكليزية)، وفي عنوان آخر (ردّ تهمة الإنكليز)<sup>٢</sup>، وفي العدد الخامس، تحت عنوان (قتل الجرّحي بالأسلحة الأبيض)، و(رمي الأسرى بالرصاص).

١. انظر: الكاظمي، محمد عبد الحسين، جريدة الاستقلال، العدد ٢، ص ٨٤.

٢. المصدر نفسه، العدد ٣، ص ٨٦.

سابعاً: الحفاظ على اللغة العربيّة: في ظلّ محاولات فرض اللغة الإنجليزيّة، دافعت الصحف عن اللغة العربيّة بوصفها لغةً وطنيّةً للهويّة والثقافة. ثامناً: توضيح المطالب الوطنيّة: عملت على توضيح مطالب الأمة العراقيّة المشروعة في الاستقلال التام وتقرير المصير.

تاسعاً: نقل أخبار المقاومة: قامت بنشر أنباء المعارك والحوادث المحليّة المتعلّقة بمقاومة الاحتلال البريطاني، وقامت أيضاً بتغطية أخبار الانتفاضات الشعبيّة والمظاهرات والأنشطة المناهضة للاحتلال، ممّا عزّز من الروح المعنويّة للمقاومين. حيث ذكرت في عددها الأول أخبار القتال تحت عنوان (أنباء القتال)، وجاء فيه أنباء القتال في جبهة الحلة في ٩ محرم ٣٩: «خرجت فصيلة من الإنكليز لاحتلال قلعة عمران آل زنبور، الواقعة على مقربة من الخط الحديدي في مقاطعة المحاويل، فقابلهم المجاهدون بقيادة هزّاع، وارجعوهم إلى مواقعهم في بابل، تاركين كثيراً من الخرطوش وخسر المجاهدون أربعة من الخيل، واستشهد مجاهد، وجرح أربعة<sup>١</sup>». وأنباء القتال في جبهة الناصرية ١٤ محرم ٣٩: «خرج من الناصرية عددٌ من العدو يقدر ب ١٥٠٠ راجل وفارس لإصلاح الخط الحديدي بين الناصرية والسمّاعة، ولما وصل البطحة أحاطت به جيوش العرب وهي آل غزّي والبدور وآل محسن، فقطعت خطّ رجعتهم ففرّ الفرسان، وبقت المشاة في حصارٍ شديد، وقد وقعت بين الطرفين معركة استمرت ٢٤ ساعة، كانت غنائم العرب فيها كثيرة والحصار لا يزال يشتدّ على العدو بتكاثر المجاهدين»<sup>٢</sup>.

عاشراً: التأثير الفكريّ والسياسيّ: طرحت أفكاراً سياسيّة تهدف إلى مقارعة الانتداب البريطاني، وكانت ترى أنّ الأولوية المطلقة هي استقلال العراق.

١. المصدر نفسه، العدد ١، ص ٨٢.

٢. المصدر نفسه، العدد ١، ص ٨٢.

تأثيرها على النخب المثقفة والسياسية:

لم يقتصر تأثير جريدة الاستقلال على عامة الشعب، بل امتدّ ليشمل النخب المثقفة والسياسية التي كانت تتشكل في تلك الفترة؛ إذ كانت الجريدة:

\*ملتقى للأفكار الوطنية: جذبت إليها أفلام أبرز المثقفين والوطنيين الذين أسهموا بمقالاتهم وآرائهم، ممّا جعلها منبراً لتبادل الأفكار وتطوير الرؤى الوطنية، وعملت الصحف الوطنية على تنمية الشعور الوطني لدى العراقيين، والتذكير بتاريخهم وحضارتهم، والتأكيد على هويتهم العربية والإسلامية في مواجهة محاولات طمسها من قبل المستعمر. وقامت بتغطية أنشطة الحركات والجمعيات الوطنية التي نادى بالتحرّر، ونشر بياناتها ومواقفها.

\* مؤثرة في تشكيل الرأي العام للنخب: شاركت في صياغة وتوجيه الرأي العام بين المثقفين والسياسيين حول قضايا الاستقلال والمقاومة، وكانت مرجعاً مهماً لهم في فهم الأحداث وتحليلها.

\* محفزاً للعمل السياسي: ألهمت الكثير من الشباب والمثقفين للانخراط في العمل الوطني وتشكيل الجمعيات والأحزاب التي نادى بالاستقلال. على الرغم من التحديات الكبيرة، استمرت جريدة الاستقلال في أداء دورها الوطني في التعبير عن تطلعات الشعب العراقي نحو الاستقلال ومقاومة النفوذ الأجنبي.

## الخاتمة

وفي الختام، يتّضح أنّ جريدة الاستقلال لم تكن مجرد صحيفة عابرة تمرّ في تاريخ العراق بلا أثر، بل كانت تمثل قوة دافعة ومؤثرة، لها دورٌ محوريٌّ في دفع مسيرة البلاد نحو نيل الاستقلال. لم تكن فقط صوتاً يعبر عن هموم الشعب وتطلعاته، بل كانت أيضاً منبراً يُعبّر من خلاله الوطنيون عن آرائهم، ومدرسةً

أسهمت في رفع وعي الفرد والجماعة سياسياً، بالإضافة إلى كونها سلاحاً فعالاً في مواجهة ومقارعة الاستعمار البريطاني المستبد. يمتدّ تأثير هذه الجريدة العريقة إلى ما هو أبعد من الفترة التي ظهرت فيها، إذ تظلّ إرثاً دائماً وشاهداً حياً على عزيمة وإصرار الشعب العراقي في السعي نحو استعادة حرّيته وكرامته، مضيئةً بذلك فصولاً مهمّةً إلى صفحات الكفاح الوطني الذي لا يُنسى.

## المصادر

١. الأعرجي، ستار، إسهام مدرسة النجف الأشرف في الحوار الحضاري، بحث منشور في المؤتمر العلمي الأول، كلية الفقه، النجف الأشرف، مطبعة الضياء، ٢٠١٦ م.
٢. البهادلي، علي، الكتب والمكتبات في النجف، مجلة نور الاسلام، بيروت، العدد (٣١ و٣٢).
٣. البهادلي، محمد باقر أحمد، الحياة الفكرية في النجف الأشرف، بيروت، مطبعة سنارق، ٢٠٠٤ م.
٤. الجبوري، كامل سلمان، جريدتي الفرات والاستقلال النجفيتين طليعة صحافة الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ م، مكتبة الروضة الحيدرية (سلسلة صحافة النجف الأشرف)، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م.
٥. خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، مصر، ١٩٥٨ م.
٦. الدراجي، محمد عباس، صحافة النجف تاريخ وإبداع، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٩ م.
٧. رفائيل، بطي، الصحافة في العراق، مؤسسة هنداوي للنشر والتوزيع، ٢٠١٧ م.
٨. الشبيبي، محمد باقر، جريدة الفرات، مكتبة الروضة الحيدرية (سلسلة صحافة النجف الأشرف)، النجف الأشرف، الطبعة الأولى، ١٤٣٧ هـ - ٢٠١٦ م.
٩. شهاب أحمد حميد، تاريخ الطباعة في العراق، بغداد، مطبعة الأمة، ١٩٨٣.
١٠. عبد الرحيم محمد علي، تاريخ الصحافة النجفية، مجلة آفاق نجفية، العدد ٥، السنة الثانية، النجف الأشرف، ٢٠١٧ م.
١١. المرجع الإلكتروني للمعلومات  
<https://almerja.com/more.php?idm=189966>
١٢. النجار، مصطفى عبد القادر، العراق في التاريخ (العراق المعاصر)، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٣ م.



# دور وسائل الإعلام في فترة الاستعمار البريطاني

## (الصحافة النجفية وجريدة الفرات أنموذجاً)

د. عبد الحسين علوان<sup>١</sup>

### الملخص

أدت الصحافة في بداية النهضة الفكرية في البلدان الإسلامية دوراً مهماً في بث الوعي ونشر الثقافة، ولم تكن مدينة النجف الأشرف - السبّاقة في ميادين العلم والمعرفة - بمعزلٍ عن هذا المولود الجديد، إذ ظهرت فيها عشرات الصحف والمجلات الثقافية والأدبية والاجتماعية والسياسية، وكانت سمتها الغالبة مواكبة الأحداث العالمية أدباً وسياسةً وثقافةً، فصحافة النجف الأشرف كانت مرآة صافيةً للنشاط الفكري والثقافي والاجتماعي الذي دار في مختلف أنديتها آنذاك.

وقد بلورت الهموم والآمال التي كان يحملها علماء النجف وأدباؤها وساستها تجاه الأمة الإسلامية، وتجاه مشاكلها المختلفة: من حل شبهة عقّدية، أو إعطاء رؤية سياسية، أو إبداء عواطف جيّاشة نصرّة للمسلمين أو إبداع آراء فكرية، وغيرها من الأمور التي تدلّ على ريادة النجف الأشرف في مختلف الميادين. ومن أراد الاطلاع على دور النجف الأشرف في النهضة الفكرية الإسلامية

---

١. متخصص في تاريخ الصحافة العراقية / الجامعة المستنصرية - العراق.

المعاصرة لا يتمكن من الإلمام بذلك إلا عبر الاستعانة بتلك الصحف والمجلات المنشورة آنذاك، وتصفح أوراقها لاقتطاف آثارها، مما يدعونا إلى الاهتمام بتراث علمائنا وأدباءنا وإحيائه من جديد.

الكلمات المفتاحية: وسائل الاعلام، الصحافة، النجف، جريدة الفرات، محمد باقر الشيبلي.

### المقدمة

لو أردنا أن نسلط الضوء على تاريخ الصحافة النجفية والدوافع المحركة لها فلا بد أن نسترجع الكم الهائل من الصحف الصادرة من مدينة العلم والعلماء، المدينة التي تصدر العلم والنظريات والفتاوى التي تكون بمنهجية مطابقة لكل عصرٍ وحدثٍ على أساس أن القرآن الكريم دستور الأمة الإسلامية، وهو الكائن الحي الذي يبقى إلى يوم الدين بتشريعاته وأحكامه المطابقة لكل عصرٍ وزمانٍ؛ ولهذا كان لا بد لهذه المدينة المقدسة أن يكون الجهاز الإعلامي المتصدّر الأول الذي يقوم بتغطية هذه الفعاليات المتعددة ضمن سياق تبليغ رسالة النجف العلمية والعملية، وإرسال إشعاعها الفكري إلى أنحاء العالم الإسلامي، كذلك رفع الدعوة الإصلاحية والاجتماعية والردّ على بعض الحركات التبشيرية المعادية. للإسلام والعروبة، كما تمكّن من إيجاد الوسائل التي تقرب بين النجف والبلاد الأجنبية النائية، ونشر الآثار والمؤلفات والرسائل العلمية والعملية لعلمائها، وأخبار ونشاطات المراجع العلمية والمسائل المستجدة في الحياة المعاصرة. هذه الأهداف كلّها جعلت لصحافة هذه المدينة أهمية قبل غيرها من مدن العراق. يمكن القول إن مرحلة الدور الثاني، أي مرحلة العشرينيات هي المرحلة المهمة التي قامت من أجلها الثورة العراقية الكبرى، وهي لسان حالها حيث

قاتلت بحق بقلمها كما قاتلوا الأبطال بسلاحهم المتواضع، وحققوا انتصاراتهم الباهرة، رغم الإمكانية البسيطة، وقد تكون الثورة قد فشلت عسكرياً نظراً للتفوق البريطاني في المعدّات والأسلحة، ولكن من المؤكّد أنّ الثورة نجحت سياسياً في إيقاظ وعي الشعب بمختلف طبقاته، وعلى مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وهذا الانتصار الحقيقي الذي دفع الإنكليز إلى إعطاء العراق حكماً شبه وطني.

وقد قسمنا البحث إلى ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الصحافة النجفية

المبحث الثاني: محمد باقر الشيبلي صاحب جريدة الفرات

المبحث الثالث: جريدة الفرات

ثم الخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع التي تمّ الاعتماد عليها في هذا البحث.

### المبحث الأول: الصحافة النجفية

دراسة الصحافة النجفية تدرج في إطار البنية الثقافية والاجتماعية والسياسية التي شهدتها النجف كحاضرة علمية ودينية، مثلت امتداداً لمدرسة الكوفة التي تعد بمنزلة التأسيس العملي لمدرسة بغداد كإطار ثقافي خرج ممّا هو محلي ليكون عالمياً في تاريخ الثقافة الإنسانية.

وإن كان انتقال الشيخ الطوسي إليها عام (٤٤٨ هـ) نقطة البدء في إنشاء أهمّ حاضرة علمية وفقهية في التاريخ العربي الإسلامي، فإنّ هذا البدء ما كان له أن يكون دون بيئة خصبة مهّدت له، واحتضنته كامتداد لمدرسة الكوفة، وتواصلت مع مدرسة بغداد، لتكون النجف الأشرف معلماً فكرياً وحضارياً استطاع الحفاظ على التراث الفكري والديني الإسلامي؛ إذ لم تمنعه الخصوصية المذهبية،

أن يكون عامًّا وشاملاً ومحفِّزاً، ومؤسساً للنهضة الفكرية الحديثة فيما بعد. وكانت الصحافة النجفية في ولادتها، ليست بعيدةً تاريخياً عن إصدار صحيفة الزوراء، وكان دخول الطباعة إليها، العامل الحاسم في ظهورها مع ملاحظة أن هذه الصحافة كانت وليدة البيئة النجفية. وهذا ما جعلها ذات طابعٍ خاصٍّ يتلاءم مع هذه البيئة من جانبٍ آخر، في التواصل مع ثقافة الآخر. وإن كان التخلف والجمود الذي طبع العراق طيلة أربع قرونٍ من السيطرة العثمانية قد ترك آثاره على الحركة الفكرية والثقافية في العراق، فإنَّ النجف كانت الوحيدة القادرة على الاحتفاظ بنسقتها الفكرية بوصفها مركز إشعاع، وكان له أن ينتظر حتى إعلان الدستور العثماني في عام ١٩٠٨م، الذي ترافق مع بدء النهضة العربية الإسلامية في منتصف القرن التاسع عشر. وقد تميّزت النجف منذ نشأتها بأنَّ ما هو فقهي فيها، لم يكن بعيداً عمّا هو فكري وحضاري، وهذه التركيبة أسهمت فيها مجموعةٌ من المتغيّرات صنعت النسيج الحضاري الخاصَّ بالنجف، وأعطاهما هذا التميّز المرموق الذي عرفت به. وأهمّ هذه العوامل هي:

#### أولاً: المكانة الدينيّة

حوت هذه مرقد أمير المؤمنين إمام العلم والفضيلة وسيّد الوصيين وإمام المتقين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام. وبهذه التربة التي كانت وما تزال قابلة للنمو العلمي، وذلك بوجود الإعلام الذين سبقوا الشيخ الطوسي الذي هاجر إلى النجف الأشرف عام ٤٤٨ هـ، وأنشأ حوزةً علميّةً جديدةً في النجف الأشرف، كانت فتحاً كبيراً ونواةً للجامعة العلمية الكبرى.

إنَّ رؤيةً سريعةً للخطابات المعرفية التي انتجتها النجف عبر تاريخها العريق

لتوضّح بكلّ جلاءٍ أنّ مكانتها الدينية كانت مكانةً حضاريةً، مثلما كانت الدرع الحصين الذي حافظ على التراث العربي الإسلامي رغم التخلف والغزوات ومحاولات الطمس والتهميش الذي تعرّض له هذه التراث، وحجم المنجز الثقافي الذي ابدعته النجف يعطينا أكثر الصور إبداعاً في تاريخنا<sup>١</sup>.

وهذا اتّسمت النجف الأشرف درة العراق المشرقة بأصالتها وعمقها الحضاري الذي تفتخر الأمم الإنسانية بحواضرها العلمية، وتعتزّ الشعوب بتاريخها وتراثها العلمي، فهي مرسى سفينة نوح، وهي المشرقة بوصي النبي الأعظم علي بن أبي طالب عليه السلام باب مدينة العلم، وهي مهوى أفئدة المؤمنين، ومدرسة العلوم، والمعارف، وحلبة المجتهدين والعلماء، ومنتج الأدباء والمفكرين، مدينة العلم العظمى، مدرسة الفقه الكبرى، وجامعة الإسلام العليا، قطب رحي الاجتهاد، مركز دائرة التقليد.

### ثانياً: المراكز العلمية التعليمية

١. المساجد: لم تتقيد الدراسة في النجف الأشرف في مكانٍ معين، بل انطلقت من الصحن الحيدري الشريف، فكان يعجّ بحلقات الدرس، وفي المساجد المعروفة حلقاتٌ متعددةٌ تتحلّق حول الأساتذة. وقد أحصى المؤرّخ جعفر باقر محبوبه، مساجد النجف الأشرف المعروفة في الثلاثينيات من القرن العشرين فوجدها سبعة وسبعين مسجداً، وكان لهذه المساجد الدور المتميّز في نمو الوعي الفكري من خلال نشر التوعية من قبل الخطباء والدعاة.

٢. المدارس الدينية: انشئت المدارس الدينية في النجف الأشرف على يد بعض علماء الدين، وكانت تسمّى بأسماء مؤسسيها، فقد بنيت الإسكان الطلاب، ولا سيّما الوافدين

١. البهادلي، محمد باقر أحمد، الحياة الفكرية في النجف الأشرف، ص ١٨١-١٧٨.

من البلاد الإسلامية والعربية إلى النجف الأشرف، وكان من أبرز السمات المرتبطة بتأسيس وإدامة هذه المدارس تعتمد على الأموال التي تصل عن طريق الحقوق الشرعية أو التبرعات من قبل الوجهاء والتجار، إضافةً إلى الذين كانوا لهم القدرة على تأسيس مدارسهم الخاصة. عزّز علماء الدين بتأسيسهم المدارس مواقعهم داخل الحوزة العلمية، بعد أن ضمنوا بهذا المدارس الاستقلال المالي والسياسي والفكري، وقد تجسّد ذلك من خلال الأثر الكبير في توجيه الحلقات الدراسية للنجف الأشرف، ولا سيّما من كان يدعو إلى التجديد المتواصل للفكر الإسلامي في مدارسه. لن يتوقف الأمر في مدارس النجف الأشرف في إعداد رجال دينٍ تؤهّلهم لإصدار الأحكام في القضايا الشرعية الدينية فحسب، بل أنجبت جيلاً من الشخصيات الدينية والأدبية التي تلقت المبادئ الأساسية من تعليمها في المدرسة النجفية انطلقوا فيما بعد في بناء النهضة الفكرية والأدبية والثقافية<sup>١</sup>.

٣. النهضة الأدبية النجفية: كان تجمع نخبة الأدباء والمثقفين فيما بينهم ومساجلتهم الأدبية والنقاش الدائر حول الشعر والتجديد والشعر العامودي، والشعر الحديث وكلّ ما استجدّ على الساحة الأدبية العربية، والمسابقات الشعرية، بما توحى قرائحهم الخصبية من أثارٍ أدبية على مستوى الشعر والقصة النقد، فقد انطلق من النجف الأشرف ليتشر في العراق والعالم العربي. وقد سُمّيت هذه الأندية الأدبية (المجالس النجفية)<sup>٢</sup>، وأسهمت

١. الفضلي، عبد الهادي، دليل النجف الأشرف، ص ٧٥؛ اسحاق نقاش، شيعة العراق، ص ٣٣٧.

٢. الأعرجي، ستار، إسهام مدرسة النجف الأشرف في الحوار الحضاري، ص ٢٩٢.  
لا تخلو أسرة علمية في مدينة النجف الأشرف من أن يكون لها منتدى أدبي أو مجلس ثقافي ومن أشهر هذه المجالس (مجلس آل الجزائري، ومجلس محمد سعيد الحبوبي، ومجلس محمد البغدادي، ومجلس محمد رضا آل ياسين، ومجلس علي شبر، ومجلس آل الشرفي، ومجلس آل الجواهري. أنيس الخوري، التيارات الأدبية في العالم العربي المعاصر، ص ٤٥.

هذه المجالس في حفظ اللغة العربية في حقبة السيطرة العثمانية التي كانت تحاول (تتريك العرب)، فإنهم لا يجتمعون في مجلسٍ إلا خلقوا فيه جوًّا أدبيًّا زاخرًا في نظم القصائد، وتداول النوادر، والطرائف مهما كانت موضوعاتها اجتماعية أو سياسية<sup>١</sup>.

٤. المكتبات: بعد هجرة الشيخ الطوسي إلى النجف الأشرف، انتقل النتاج الفكري من المدن الإسلامية جميعها عن طريق طلبة العلم بقومياتهم المختلفة، وهم يحملون ثقافات جديدة لم يعهدها النجفيون من قبل، مما هيأ فرصةً للتلاقح الثقافي والاتصال الحضاري التي ترك أثرها الإيجابي المتمثل في توسيع الدائرة المعرفية. أصبح أمرًا طبيعيًّا في مثل هذه المدينة أن تحوي مكتباتٍ تضم الكتب المطبوعة وتحافظ عليها، فقامت جهودٌ شخصية في تأسيسها وألحق بعض منها في المدارس الدينية، فكانت بحقّ الينابيع التي يستقي من مناهلها الطلاب، والمدينة التي يعيش فيها آلاف من طلبة العلوم الدينية وأساتذتهم من كبار العلماء لا بد من وجود الكتب والمكتبات فيها. تميّز النجفيون بظاهرتين الأولى حبّ الكتب والمكتبات، اقتناءً ومطالعةً وتأسيسًا، والثانية خُصّص في المدينة سوقٌ لبيع وعرض الكتب عن طريق المزايمة، ويقام أسبوعيًّا كل خميسٍ وجمعة<sup>٢</sup>.

٥. الطباعة في النجف: كانت حركة الطباعة التي رافقت أوليات مظاهر نشاط النهضة الفكرية، وسيلةً من وسائل اتّساع نطاق الوعي الفكري في البلاد العربية بما كان يصدر عنها من كتبٍ عربية الأصل أو مترجمة عن اللغات الأجنبية، وصحفٍ ومجلاّت، وقد أسهمت في بلورة النضج الفكري. دخلت أول مطبعةٍ إلى العراق في منتصف القرن التاسع عشر في كربلاء عام ١٨٥٦م، ومن المدن العراقية التي دخلتها الطباعة مبكرة لتتواءم مع مركزها الثقافي والفكري والسياسي هي مدينة النجف الأشرف، ومن أهمّ

١. المصدر نفسه، ص ٤٨-٤٥.

٢. البهادلي، علي، الكتب والمكتبات في النجف، ص ١١.

هذه المطابع مطبعة (حبل المفتي)، و(المطبعة العلوية)، و(المطبعة الحيدرية)، و(المطبعة المرتضوية)، و(المطبعة العلمية)، و(مطبعة الغري)، و(مطبعة الراعي)، التي أسسها جعفر أسد الخليلي عام ١٩٣٠م، وهي من المطابع الجديدة الكبيرة التي أسهمت في طباعة الصحف الصادرة في النجف الأشرف، ومطبعة دار النشر والتأليف، ومطبعة الزهراء، ومطبعة النجف مطبعة النعمان، ومطبعة القضاء، ومطبعة الآداب<sup>١</sup>.

نستنتج من ذلك، أنّ دخول المطابع الى مدينة النجف الأشرف التي تقف وراءها أسبابٌ عديدةٌ يمكن إيجازها:

أ. تركز فئة علماء الدين وطلابهم في النجف الأشرف، وتمتعهم بنفوذٍ دينيٍّ واسعٍ في كافة الشؤون الدينية والاجتماعية والسياسية، وأصبحوا فئةً مؤثرةً لا في المجتمع النجفي فحسب، بل في العالم الإسلامي.

ب. إثر الدعوات الإصلاحية التي نادى بضرورة نشر العلوم الحديثة والحثّ على التجديد والمتمثلة بأقطاب الإصلاح الإسلاميين منهم (جمال الدين الأفغاني)، و(محمد عبده) و(عبد الرحمن الكواكبي).

ت. التلاقح الفكري من خلال ما يحمله طلبة العلم الوافدين إلى النجف الأشرف لغرض الدراسة فيها.

ث. برزت مدينة النجف الأشرف بوصفها مركزاً في الأحداث السياسية والدينية والاجتماعية التي من بها العراق والأمة العربية والإسلامية، فضلاً على انفتاح النجف الأشرف على العالم الخارجي ليس من النواحي السياسية فقط، بل من النواحي الأدبية والثقافية والفكرية أيضاً.

ج. نشاط حركة التأليف وميل المؤلفين إلى طبع مؤلفاتهم في مناطق قريبة منهم.

١. خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، ص ٢٨١-٢٨٤.

ح. تأثير الصحف العربية والعراقية: كانت آثار التطور الفكري في أرجاء الوطن العربي، في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، على نمو الحركة الفكرية في العراق واضحة، وذلك من خلال استعمال الطباعة في الأقطار العربية كمصر وسوريا ولبنان ووصول نتائجها إلى العراق. كانت مدينة النجف الأشرف من المدن العراقية التي تأثر مثقفوها وأدباؤها في الصحف العربية والعراقية، وكان للصحافة أثرها الإعلامي بإفهام الشعوب والسلطات سمو المبدأ الديني الإسلامي، وأوضحت للملأ الدعوة إلى تحرير الشعوب واسترداد الحقوق<sup>١</sup>.

نستطيع القول إن دوافع الحركة الصحفية النجفية تتمثل فيما يأتي:

١. لتبليغ رسالة النجف العلمية، وإرسال اشعاعها الفكري إلى أبعد حدٍّ من حدود المعمورة وهو أبسط حقوقها الإعلامية .
٢. رفع منار الدعوة الإصلاحية التي تحمل مسؤوليتها الإمام المصلح الشيخ محمد كاظم الخراساني التي تضمنتها حركته المشروطة في الدستور والبرلمان.
٣. الردّ على الحركة التبشيرية الممثلة في الجمعيات والشخصيات الاستعمارية المدعومة من الغرب بالمال والرجال والإعلام .
٤. نشر التطابق وموافقة الشريعة الإسلامية للعلوم المعاصرة، وبيان تقدّم الإسلام على الفلاسفة المتأخرين، كذلك تنوير الأفكار، وإيجاد العلاقات والروابط، وتسهيل مهمة المراسلات والاتصالات بين النجف وبين البلاد الثانية والأقطار الأجنبية، إضافة إلى نشر آثار علماء النجف الأشرف في العلوم الإنسانية والعلوم العلمية البحتة، وأخبار ونظريات التجريبية الأئمة أهل البيت عليهم السلام، ونشر منافع الأحكام الإسلامية<sup>٢</sup>.

١. شهاب أحمد حميد، تاريخ الطباعة في العراق، ٦٥\٢.

٢. الدراجي، محمد عباس، صحافة النجف تاريخ وابداء، ص ١٩-١٨.

وقد مرّت الصحافة النجفية بأدوارٍ متميزةٍ حسب ظهورها واختفائها ونشاطها وهي<sup>١</sup>:

أولاً: الدور الأول: ويبتدئ من عام ١٩١٠م، حتى ١٩١٨م، وهو الدور الذي دخلت فيه النجف المعترك الصحفي، وشاركت العراق في الدعوة إلى الثقافة العامة بمختلف مناحيها، وفي هذا الدور ظهرت أربع صحف هي:

١. الغري

٢. درة النجف

٣. النجف الأشرف

٤. مجلة العلم: مجلة تخدم العلم والدين، وتبحث عن أحوال الترقى مادياً وأدبياً، صاحبها ورئيس تحريرها محمد علي هبة الدين الشهرستاني، ثم أصبحت مجلة شهريةً دينيةً فلسفيةً سياسيةً علميةً صناعية، برز عندها الأول / ٢٩ / مارس / ١٣٣٠هـ، وهي تصدر بثمان وأربعين صفحة بقطع أربع على الورق أسمر، تطبع بمطبعة الآداب ببغداد، وتنشر في النجف الأشرف والعالم العربي والإسلامي، ويذكر هناك مبادلات الصحف مع مجلة العلم، وتعدّ مجلة العلم أول مجلة تصدر في النجف، ورابع مجلة عربية في العراق، وقد توقفت عن الصدور بعد إصدار العدد التاسع؛ نظراً لتغيّب صاحبها في الحج، ولم يشأ مواصلة العمل، وقد لقيت إقبالاً واسعاً، وقدمت تعريفاً بحركة المشروطة الدستورية، وكانت أشبه بلسان المرحوم المصلح الشيخ محمد كاظم الخراساني.

ثانياً: الدور الثاني (فترة العشرينات): ويبتدئ باندلاع الثورة العراقية الكبرى

١. عبد الرحيم محمد علي، تاريخ الصحافة النجفية، ص ٢٤٣ - ٢٤١.

عام ١٩٢٠م، حيث ابتدأت بعض الصحف على مسرح الصحافة تغذي الثورة، وتغطي أخبارها، وتصف المعارك، وتذكر الانتصارات، ولم تدم طويلاً، وهما الفرات والاستقلال، ثم بعد استقرار وضع العراق السياسي وتعيين فيصل الأول ملكاً، وبعد سنوات ظهرت مجلتا النجف والحيرة، وبهما ينتهي هذا الدور.

١. صحيفة الفرات: صدرت في تشرين / ١ / ١٩٢٠م، أصدرها محمد باقر الشيبلي، وهي سياسية وإخبارية، كانت لسان حال ثورة العشرين، وتغطي أبناء الثورة، صدر منها خمسة أعداد، وتوقفت وهي موضوع بحثنا.

٢. صحيفة الاستقلال: صدرت في تشرين / ١ / ١٩٢٠م، أصدرها محمد عبد الحسين الكاظمي وهي سياسية أدبية اجتماعية، وتعدّ لسان حال الثورة، وكان شعارها (لا حياة بلا استقلال) صدر منها ثمانية أعداد.

٣. صحيفة النجف: صدرت في ١٩٢٥م، أصدرها يوسف رجب، وهي اجتماعية أدبية ثقافية، رئيس تحريرها محمد علي، وبسبب جرأة مقالاتها وانتقاداتها حُجبت بعد نحو سنتين من صدورها في حزيران ١٩٢٧م<sup>١</sup>.

ثالثاً: الدور الثالث (دور الازدهار): ويتضمن فترة الثلاثينيات والأربعينيات، وهو الذي شهدت فيه النجف ولادة عدد كبير من الصحف ذات الوزن العالي من جرائد ومجلات، وفيه ظهرت المواهب الصحفية بأجلى مظاهرها في عقليتها وحسن إخراجها، وبأعدادها الخاصة الخالدة في المناسبات التاريخية والأدبية والدينية والاقتصادية، وتعدّ في طليعة الصحافة العراقية بل العربية.

١. مجلة الحيرة: مجلة شهرية علمية أدبية اجتماعية مدرسية، سنتها عشرة أشهر، لصاحبها ومديرها المسؤول ومحرّر القسم الأدبي عبد المولى الطريحي،

١. مجلة العلم، مجلدان، مكتبة الروضة الحيدرية.

ومحرّر القسم المدرسي منها هو جعفر الخليلي، صدر العدد الأول في النجف الأشرف ١٥ كانون الثاني ١٩٢٧م، بأربعين صفحة من القطع الصغير وعلى ورق أسمر، ولم يصدر منها إلا ثلاثة أعداد فقط، عددها الثالث والأخير صدر في شهر مارس ١٩٢٧م في ٤٨ صفحة، وعددها الرابع طبع ولم يصدر، وتوارت عن الأنظار لأموورٍ مالية. وكان بدل اشتراكها السنوي ثمان ربيات، ثم عدل إلى ست ربيات بدايةً من العدد الثاني، وطبعت في المطبعة العلوية لصاحبها السيد محمود العلوي<sup>١</sup>.

## ٢. صحيفة الفجر الصادق

٣. مجلة الاعتدال: مجلة شهريةٌ تبحث في الأدب والأخلاق والاجتماع، مديرها ورئيس تحريرها محمد علي البلاغي، وصاحب الامتياز المحامي أحمد جمال الدين، استمرت في الصدور ست سنوات، صدر عددها الأول في شباط ١٩٣٢م، أما السنة الخامسة فقد تغير مديرها المسؤول إذ أصبح المحامي محمدرضا السيد سلمان، كما أنّها أصدرت عددًا خاصًا بالملك غازي عند مصرعه يحتوي على ثلاثة أعدادٍ في الخامس والسادس والسابع، وكان بتاريخ تموز ١٩٣٠م، وإلى هنا كانت تصدر على ورقٍ أبيض، أمّا في السنة السادسة، فقد اشتدت أزمته الاقتصادية بسبب وقوع الحرب العالمية الثانية، وقد صدر عددها الأول مارس ١٩٤٦م، بعد أن تغير مديرها المسؤول وصار مكانه المحامي فاضل عباس معلّة، وختمت بالعدد العاشر الصادر بتاريخ مايس ١٩٤٨م، وكانت هذه السنة هو دور الاحتضار لهذا المشعل المنير الذي بدأ يتضاءل لنفاد زيته، واحتجبت عن الصدور وراء أفق الخلود بإرادة صاحبها، وأسدل الستار على أرقى مجلة صدرت

١. صحيفة النجف، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية.

وقتها في العراق<sup>١</sup>.

#### ٤. جريدة الراعي

٥. مجلة المصباح: مجلة تاريخية اجتماعية شهرية صاحبها ورئيس تحريرها الشيخ محمد رضا الحسّاني صدر عددها الأول في ١٠ تشرين الأول ١٩٣٤م، ثم أصبح صاحبها ورئيس تحريرها الشاعر محمد صالح بحر العلوم في العدد الثالث من السنة نفسها، لانشغال صاحبها الأول بشؤون التدريس، وقد أصبحت علمية أدبية فنية (لسان حال النهضة القلمية) في النجف، وانتهت سنتها الأولى بالعدد العاشر الصادر في كانون الأول ١٩٣٦م، وهو العدد الخامس من المجلد الثاني؛ لأنها صدرت في مجلدين كلّ واحدٍ يحتوي على خمسة أعداد، وصدرت سنة كاملة وستتها عشرة أشهر، بدل اشتراكها السنوي دينار، ويخصم للطلبة والمدرسين والعمّال نصف دينار تطبع في مطبعة الغربي<sup>٢</sup>.

٦. الهاتف: صدر العدد الأول منها ٣ أيار ١٩٣٥م، وهي تصدر في كلّ يوم جمعة لرئيس تحريرها، ومديرها المسؤول جعفر الخليلي، وبدل اشتراكها السنوي دينار واحد داخل القطر، وخارجه ويدفع سلفاً، وصدرت على أثر توقّف جريدة الراعي، وتطبع في مطبعة الراعي، وتطبع في أربعة أعمدة، وكانت مبوبة بمثلثات: العالم في أسبوع، ومشاكل الحياة، وحفل الشعر، وقصة العدد. وابتدأ العدد الثاني فأضاف لها باب: (خيال الظل) وهو صور تحليلية فاكهة، ثم أضاف لها صندوق الدنيا واعترافات وصحائف مطوية، وخطّت الجريدة لنفسها خطة إصدار عددٍ للقصة في كلّ سنة، وصدر العدد القصصي في نيسان ١٩٣٦م، وانتقلت الهاتف

١. مجلة العتدال، ستة مجلدات، مكتبة الروضة الحيدرية.

٢. مجلة المصباح، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية.

إلى بغداد في مستهلّ السنة الرابعة عشر، وهو العدد ٤٨٨ الصادر في السبت ٢٢ مايس ١٩٤٨ م. أما السنة العشرون ابتدأت بالعدد ١٢٩٥ في ١ حزيران ١٩٥٤ م، وهو العدد القصصي الخاص، ويقع في ٣٠ صفحة، وكان العدد ١٢٩٧ الصادر في ١ آب ١٩٥٤ م، من أعدادها الأخيرة.

#### ٧. مجلة الحضارة

#### ٨. مجلة القادسية

٩. صحيفة الغري: صحيفةٌ اجتماعيةٌ عامةٌ عاشت ثلاثين عامًا، ومرت بأدوارٍ متفاوتةٍ من النشاط والضعف، فالعشر سنوات الأولى من حياتها كانت تصدر بانتظامٍ من دون أن تتأخر في مواعيدها، ثم بدأت المجلة تتعثر في الاستمرار بخطى متواصلة، وأصبحت تصدر في المناسبات، وبأعدادٍ مزدوجةٍ تعويضًا عن تأخرها عن مواعدها، ويجوي أحيانًا المطبوع الواحد على عدّة أجزاء، وبلغ بها التعثر في أخريات أيامها في مرحلتها الثالثة أن تعوض أعدادها بالملاحق، وآخر ملحق هو المرقم (٣٦) والمؤرّخ ١٩٦٦ / ٢ / ٢ من السنة الثلاثين. آخر ما صدر من هذه المجلة حيث ألمّت الأمراض بصاحبها، وأقعدت عليه مدة جعلته يلازم الفراش حتى توفي (رحمه الله) في الخميس ١٩٦٨ / ٤ / ١٨ م. صدر عددها الأول في يوم الثلاثاء ٢٢ آب ١٩٣٩ م، وكانت مسجلةً بدائرة بريد برقم ١٤٤ بورقٍ أسمرٍ من القطع الكبير، ثم أصبحت مجلةً علميةً أدبيةً فنيةً فلسفيةً اقتصاديةً اجتماعيةً عامةً تصدر في الأسبوع مرتين، وتصدر مرةً في الأسبوع مؤقتًا، وكانت تطبع بمطبعة الغري، وصدر في هذه السنة من الأعداد الخاصة عددٌ خاصٌ بالمولد النبوي الشريف، وهو العدد المزدوج ٣٠-٣١ الصادر في ١٦ نيسان ١٩٤٠ م، والعدد الممتاز، وهو العاشر الصادر في ٢٥ تشرين الأول

١٩٣٩ م، والسنة الثامنة والعشرون صدر عددها الأول والثاني المزدوج في ١٤ تموز ١٩٦٤ م، في ٤٨ صفحة، وقد تغير حجمها، فأصبح يقطع الربع، وتطبع في مطبعة الغري الحديثة، ولم تنقطع عن الصدور عام ١٩٤٩ م<sup>١</sup>.

#### ١٠. المثل العليا

١١. العدل الإسلامي: مجلة علمية أسبوعية ثقافية جامعة تصدر في الشهر مرتين، صاحبها ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول محمد رضا الكتبي، صدر العدد الأول من سنتها الأولى ١٥ ربيع الثاني ١٣٦٥ هـ، وكانت المجلة تطبع بمطبعة العدل الإسلامي، وصدر العدد الأول والثاني من السنة الثانية ١٥ حزيران ١٩٤٧ م، بحجم كبير ببدل اشتراك في النجف (١٠٠٠) فلس، وفي الخارج (٢٠٠٠) فلس. وصدر العدد الأول من السنة الثالثة، وفيه افتتح باب خاص هو باب الفتوى، وفي العدد الثالث باب خاص باسم (صحيفة المرأة)، وكان بدل الاشتراك لهذه السنة دينارين، داخل العراق، و(١٥٠٠) دينار داخل النجف، وقد طبع في المطبعة الحيدرية، وصدر العدد الأخير من السنة الثالثة مايس / ١٩٤٩ م. وكانت مسجلة بدائرة البريد برقم (١١٧)<sup>٢</sup>.

١٢. البيان: مجلة أسبوعية أدبية اجتماعية جامعة، تصدر مرتين في الشهر مؤقتاً رئيس تحرير ومديرها المسؤول علي الخاقاني، صدرت أربع سنين، وقد صدر العدد الأول من السنة الأولى ٢٩ حزيران / ١٩٤٧ م، وأصدرت في هذه السنة عدداً خاصاً هو ١١-١٤ بالإمام الحسين عليه السلام الصادر بتاريخ ١٤ / كانون الثاني ١٩٤٧ م، وصدر العدد ٤٩ - ٥٣، وهو العدد الخاص بالقصة في بداية

١. صحيفة الغري، ٩ مجلد، مكتبة الروضة الحيدرية.

٢. مجلة العدل الاسلامي، مجلدان، مكتبة الروضة الحيدرية.

السنة الثالثة: ٤/ تشرين الأول ١٩٤٨ م. وهي مسجلةٌ بدائرة البريد برقم ٢١٣. وختمت السنة بعددٍ آخر خاص بالإمام الحجة الأكبر آية الله المرحوم الشيخ محمد رضا آل ياسين، وهو العدد ٨٤-٨٥ في ١٥ / حزيران / ١٩٥٧، وهنا توارت عن الأنظار<sup>١</sup>.

١٣. الدليل: مجلةٌ شهريةٌ علميةٌ أدبيةٌ اجتماعيةٌ جامعة، صدر عددها الأول / تشرين الأول ١٩٤٦. وصدر عددٌ خاصٌ واحدٌ من هذه السنة هو العدد المزدوج ٣-٤ / كانون الثاني ١٩٤٧. عن سيّد علماء عصره الإمام الحجة الأكبر السيد أبي الحسن الموسوي صاحب امتيازها موسى الأسدي. ورئيس تحريرها عبد الهادي الأسدي، والمدير المسؤول المحامي محمد رضا السيد سلمان. مسجلة بدائرة البريد رقم ٢١٨. ثم توقّفت عن الصدور بإرادة صاحبها لأسبابٍ أشار إليها في مقدمة العدد العاشر من سنتها الثانية كان على رأسها الضائقة المالية. وبعدها ألغى الامتياز حسب المرسوم السابق الذي صدر. وكانت من المجلات التي خطّت لنفسها سيرةً إصلاحية، وسارت وفقها إلى حدٍّ كبيرٍ؛ لذلك من المجلات المرموقة في محيطها<sup>٢</sup>.

#### ١٤. البذرة

١٥. الشعاع: مجلةٌ أسبوعيةٌ علميةٌ ثقافيةٌ عامة، تصدر مرتين في الشهر، صاحبها عبد الهادي العصامي، صدر عددها الأول / ايار ١٩٤٨، ثم صدرت أعداد أربعة منها في مجلد واحد، وهو العدد الخاص بـ(الشؤون والاحوال الاقتصادية) ١٩٤٩ / ٨ / ١٥. وقد أسهم فيه كبار الشخصيات المالية

١. مجلة البيان، ٦ مجلد، مكتبة الروضة الحيدرية.

٢. مجلة الدليل، ٢ مجلد، مكتبة الروضة الحيدرية.

والاقتصادية في البلد. أمّا العدد الخامس فقد صدر ١٩٥٠ / ١ / ١٩ مع عدة ملاحق بلغت سنة، وتوقفت عن الصدور بإرادة صاحبها لأموراً اقتصادية كانت مسجلةً بدائرة البريد برقم ٢٥٩. وقد ألغي امتيازها بموجب مرسوم المطبوعات الصادر ١٩٥٤<sup>١</sup>.

١٦. العقيدة: مجلةٌ أسبوعيةٌ للسياسة والعلوم والآداب تصدر في الشهر مرتين، صاحبها ورئيس تحريرها فاضل الخاقاني، ومديرها المسؤول عيسى الشيخ راضي المحامي، ثم صار محمد حسين المحتصر مديراً لإدارتها صدر عددها ١٠ / تشرين الأول ١٩٤٨. أمّا السنة الثانية فلم يصدر عنها سوى خمسة أعدادٍ فقط، صدر الأول والثاني المزدوج ٥ كانون الثاني ١٩٥٠، وصدر العدد الخامس ١٥ / حزيران ١٩٥٠، ثم انتقلت إلى بغداد، وتحوّلت إلى جريدةٍ صدر عنها خمسة أعدادٍ فقط. وصدر بالغائها من قبل المحكمة، وكانت مسجلةً بدائرة البريد برقم ٣٠١، كان امتيازها الأول الأمر على لواء الديوانية (محافظة القادسية)، وتطبع في النجف، ثم انتقل امتيازها إلى النجف من العدد الخامس من سنتها الأولى.

١٧. لواء الوحدة الاسلامية

#### رابعا: الدور الرابع:

ويتمثل في مرحلة الخمسينيات والستينيات التي تضمّ أواخر العهد الملكي، وبداية العهد الجمهوري. وأشهر مجلاتها:

١. النجف

٢. النشاط الثقافي: مجلةٌ شهريةٌ لنشر الثقافة العامة تصدرها جمعية التحرير الثقافي في النجف الأشرف، رئيس تحريرها المسؤول عبد الغني الخضري، وهو معتمد الجمعية،

---

١. مجلة الشعاع، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية.

ومديرها مرتضى الحكمي، مدير إدارة الجمعية، سنتها عشر أشهر، صدر العدد الأول تشرين الثاني / ١٩٥٧ م في ٦٤ صفحة، وختمت بالعدد العاشر / تشرين الأول / ١٩٥٨ م، وهي مسجلة دائرة البريد برقم ٥١، وتعدّ من المجلات الراقية التي رفعت رأس الأديب عاليًا صدر منها سبعة أعدادٍ في العهد الملكي السابق، وثلاثة أعدادٍ في العهد الجمهوري الجديد، وتوقّفت عن الصدور لأزماتٍ مالية، ثم عاودت الصدور في سنتها الثانية، وصدر العدد الأول في كانون الثاني / ١٩٦٣ م، بورقٍ أبيض و ٩٦ صفحة، وذلك قبل الحصول على الامتيازات الجديد، وعندما حصل الامتياز صدر العدد الثاني، وكُتب تحت اسمه (مجلة شهرية لتنشر الثقافة الإسلامية العامة)، وكان ذلك في ١ / نيسان / ١٩٦٣ م، بـ (١٢٠) صفحة، وأصبح رئيس تحريرها أحمد شوقي الأمين العاملي<sup>١</sup>.

٣. الخوزة

٤. المعارف

٥. الأضواء

٦. الإسلام

٧. العدل

٨. الإيمان

٩. الكلمة

وهنالك عددٌ من الدوريات صدرت في النجف تحمل الطابع نفسه، وتدعو للغرض نفسه الذي من أجله صدرت الصحف النجفية، لكنّها لم تحمل الصفة الرسمية للصحافة بالرغم من أنّها أدّت الدور نفسه، وكان لها الأثر الواضح في الدعوة والإصلاح، ونشر العلم، وتبني المعرفة، مثل:

١. مجلة العقيدة، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية.

أ. التوجيه

ب. الذكرى

ت. دراسات إسلامية

ث. رسالة النجف

ج. جيلي

ح. الجامعة

خ. عبقر

بالإضافة إلى النشرات المدرسية للمرحلة الثانوية والمرحلة الابتدائية، ومن الجدير بالذكر أنّ بعض أصحاب الصحف والمجلات فضّلوا طباعتها في النجف، لبروز وجه النجف الصحفي، ومقدرتها، وطغيان الحركة الصحفية فيها، وتوفّر رجال الفكر والمطابع؛ فطُبعت الحكمة، والفيحاء، والتوحيد، وصوت الإخلاص، والفرات من الحلة. والشرق والقدوة، والأخلاق والآداب، ولجنة الثقافة الدينية، ورسالة الجمعية الخيرية الإسلامية، والحرف من كربلاء، والطب البيطري البغدادية والرسالة والفكر من الديوانية، والإرشاد والموعظة من الكوفة، واللواء والأمني والتضامن الإسلامي من الناصرية.

## المبحث الثاني: محمد باقر الشبيبي صاحب جريدة الفرات

### آل الشبيبي

في بيتٍ فقيرٍ ومتواضعٍ كأيّ بيتٍ من بيوت النجف آنذاك، وفي حي البراق كان يسكن الشيخ محمد جواد الشبيبي، حيث يعود نسبه إلى فخذ (المواجد) من قبيلة بني أسد تلك القبيلة المعروفة التي تسكن العراق في الجبايش والبطايح وسوق الشيوخ، وما جاورها إلى القرنة، ويعود لقب (الشبيبي) إلى شبيب جد الشيخ محمد جواد، حيث سلسلة النسب تصل إلى محمد بن إبراهيم بن مصر الجزائري.

نشأ محمد جواد والد شاعرنا في كنف جدّه لأمه الذي علّمه القرآن والكتابة ومبادئ الأدب وتذوق الشعر، وبقي يُرعى في كنف جدّه حتى وفاته، وبعد ذلك انتهى به المقرّ في النجف الأشرف ليدرس الفقه والأصول على يد جماعة من علماء عصره، وكان يستعين على قضاء حوائجه بما يعطيه خاله من عائد بعض أراضيه الزراعية، وقد مضى الشيخ محمد جواد في طلب العلم وقرض الشعر؛ فذاع صيته وعرف اسمه حتى صار من الشهرة بنحو لا يذكر اسم الأدب آنذاك بجميع فنونه إلّا وكانت له من المناسبة ما تجعل الاتصال وثيقاً باسم الشبيبي الكبير.

وكان له مجلسٌ وهو ندوةٌ جامعةٌ يلتقي فيها أدباء النجف ورجاله، ويعدّ من أشهر المجالس الأدبية التي كانت تحفل بها النجف وبعض المدن العراقية، حيث يتم فيها التداول في مختلف الشؤون الاجتماعية والسياسية والأدبية والعلمية، فتُعقد المناظرات، وتُلقى القصائد، وترتفع المسابقات الشعرية والارتجال في بعض المواقف المهمة، ومتابعة ما يحدث من تطوراتٍ على الساحة الوطنية

والعربية، وتأثير القوى العالمية آنذاك على التلاحم الوطني والقومي، وتحقيق الوحدة<sup>١</sup>.

من تلك الشجرة الطيبة الأسرة الجليلة نبع شاعرنا محمد باقر الشيببي، ولد سنة ١٨٩٠م، في النجف الأشرف، وتخرّج في جامعتها، فدرس الفقه والأدب، ومالت نفسه إلى الشعر، وهو يعيش في هذه البيئة النجفية التي تعمق في أجوائها المطارحات الشعرية، والمراسلات الأدبية، والارتجال في المناسبات الوطنية والدينية، ويمكننا القول إنّ السبب وراء عبقرية الشعر، وازدياد الشعراء في النجف الأشرف كان البيئة الدينية المتزمنة، إذ كان الشعر هو المنفذ الذي تطلّ منه النجف على العالم، والذي أصبح لازمةً في كلّ حدثٍ أو تاريخٍ أو مناسبةٍ. قد تذوق شاعرنا الشعر فقرضه وأبدع، فأصبح من رجال النهضة الأدبية في قصائده السياسية والاجتماعية، وبالرغم من أنّ شاعرنا كان قليل النظم، ولا يقول الشعر إلا في المناسبات الخاصة فإنه كان يحمل في ضلوعه نيراناً متقدةً لثورة كبرى ضدّ الاستعمار والجهل والعبودية<sup>٢</sup>.

لقد كان الطريق الذي يجب أن يسير عليه غير معبد والزمن الصعب الذي عاشه يريد منه عملاً وليس كلاماً فقط فالنظريات والخطب والاقاويل إذا لم تشفع بالتطبيق لا فائدة لها ولا قيمة وعجلة الزمن تدور والناس نيام، فكان يستغل ارتياده للمجالس الثقافية والأدبية في طرح أفكاره وآرائه الجديدة، فكان يلاقي تجاوباً مع صفوة من زملاءه الذين تعاهدوا على رفع راية الحق عالياً وأن يؤمنوا بالعدل وإن الطريق الوحيد لتحقيق ذلك من خلال التحدي والمجاهبة والثورة.

١. الشيببي شاعراً، قصي سالم علوان، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٥ م.

٢. المصدر نفسه، ص ٣٦-٣٤.

في بداية المسيرة ناضل ضد الأتراك بكل ما يملك من حماس ووطنية، وحاول جاهداً تشويه سمعتهم بقدر ما أوتي من قوة ونباهة، وما أن قُضي عليهم تأهب مع المجموع الثائرة من الشباب مواجهة المحتل الجديد الذي هو أسوأ بكثير من سابقه. لقد كان يشعر حقاً بحق هذا الوطن المقدس في أن يعيش حراً مستقلاً، وكان يحسّ بجرح الوطن الذي توالى عليه المصائب من احتلال إلى احتلال<sup>١</sup>. وبدأت عملية الكفاح المسلح الجريئة ضد المحتلين، فقام بحمل الرسائل وصور العرائض إلى كربلاء مع السيد جمال الدين وسعد صالح لتوقيعها من قبل الزعماء والأهلين، ولقد صُمّنت طلب استقلال البلاد، وطرده الإنكليز المحتلين، وفي الدورة الأولى للمجلس التشريعي العراقي أنتخب نائباً عن لواء المنتفك (محافظة ذي قار)، فكان صوته يدوي في أرواقته، وكان يعلو صدى مناقشاته الجادة والمبنية على أسس وتحليل علمي رصين بحيث يُقدّم الحجة تلو الحجة على إثبات زيف ادّعاء المتخاذلين والعملاء، حيث كان ينشر مقالاته تلك في الصحف البغدادية، وبعد أن شعر الوطنيون في بغداد بظروف تأليف جمعية سياسية سرية تأخذ على عاتقها انقاذ البلاد من الاحتلال البريطاني البغيض وأن تعيد الكرامة والنخوة العراقية، وأن تأخذ دورها في الوطن العربي الكبير لكي يأخذ دوره الجهادي في مرحلة النضال في النجف وكل أنحاء العراق، والوطن العربي، وعليه تم تأسيس الجمعية، وسُمّيت بـ(حرس الاستقلال)، وذلك في أواخر جمادى الثانية ١٣٣٧ هـ ونهاية شباط سنة ١٩١٩ م. وكان أبرز أعضائها: جمال بابان، وشاكر محمود المرافق، ومحمود رامز، عارف حكمة، وحسين شلال، وسعيد حقّي، وعبد المجيد يوسف، وعبد اللطيف حميد، والحاج محي الدين السهروردي، وعلي البازركان، والسيد محمد الصدر، والسيد يوسف السويدي،

١. الكفائي، كاظم، عصور الأدب العربي، ص ١٦٩.

والسيد ناجي شوكت، والوجيه محمد جعفر أبو التمن، والسيد مكّي الأورفلي، والسيد بهجت زينل، والشيخ محمد باقر الشيبلي، والدكتور سامي شوكت، والحاج رمزي بك الذي أصبح فيما بعد وزيراً للداخلية، وعبد الغفور البدري، وعبد المجيد كنه، وشاكر قنبر علي، والسيد هادي زوين وغيرهم<sup>١</sup>. وتعدّ الجمعية جلساتها برئاسة السيد محمد الصدر الذي يمدّهم بأرائه وتوجيهاته الثمينة، وكانت تعقد في مدرسة الفيض تارةً، وفي المدرسة الجعفرية تارةً أخرى. ثم توسّع نشاط الجمعية فأنشأت فروعاً في كل من الكاظمية والنجف والحلة والشامية وبعقوبة، وكان الشيخ محمد باقر الشيبلي العضو البارز في الجمعية وهمزة الوصل بين مقرّ الجمعية في بغداد وفروعها في الفرات الأوسط، وكان يحمل الرسائل وصور العرائض إلى كربلاء، ومعه السيد جمال الدين وسعد صالح لتوقيعها من قبل الزعماء والأهالي، وقد كانت تتضمن طلب الاستقلال وطرد المحتلّين الإنكليز.

وعمل من خلال رحلاته المتعدّدة ونشاطه المتميز على إيقاد جذوة نار الوطنية وتهيئة الرأي العام لمواجهة الاحتلال بالتضحية، ونيل الاستقلال التام. وبقيت هذه الجمعية تمارس أعمالها حتى ألقت السلطة القبض على بعض أعضائها، وتم نفيهم خارج الوطن؛ وبذلك توقّف نشاطها في العشرة الأخيرة من آب ١٩٢٠. لقد حمل الشيبلي شعار الوحدة، ووحدة الوطن من الشمال إلى الجنوب، والتصدي لمحاولات العدو في إثارة الفرقة والطائفية، لكن التعاون بين الطائفتين الشيعة والسنة امتدّ نشاطه إلى المناطق الشيعية في الفرات الأوسط الأمر الذي ألحق الضرر بالمحتلّين<sup>٢</sup>.

١. الدراجي، محمد عباس، صحافة النجف، ص ١٢٧-١٢٦.

٢. الحسيني، عبد الرزاق، الثورة العراقية الكبرى، ص ٩٨.

كما اشترك في تأسيس حزب الإخاء الوطني الذي وقف معارضاً لسياسة الحكومة، وصار يملأ صحيفة الحزب بمقالاته الحماسية التي تندد بالخونة والمتخاذلين أذئاب المستعمرين<sup>١</sup>. ولم يعد أحد يسمع باسم آل الشيببي في ميدان الثورة غير اسم الشيخ باقر الشيببي الذي بدأ يدوي في الآذان، وهو يصدر جريدة الفرات لسان حال الثورة العراقية، ويلج مؤتمرات الثوار واجتماعاتهم كركن من أركان الثورة، ثم يطوف بميادين المعركة بكل جرأة وشجاعة<sup>٢</sup>.

والشيخ محمد باقر الشيببي، كان أديباً لامعاً وكاتباً جريئاً، وقد برز في شعره ونثره الجانب السياسي والوطني، وكان لهما الأثر العجائبي والحركة المحسوسة له في القضية العراقية، وقد وصف بالجرأة والإقدام في كتاباته التي سطرها على صفحات جريدة الفرات (لسان حال ثورة العشرين)، وكان قد تابع الأحداث منذ أواخر العهد العثماني، وسنوات الاحتلال البريطاني للعراق، وما بعدها، وقد أراد من جريدة (الفرات) أن تكون لسان حال ثورة العشرين الناطق، وكانت المنشورات اليومية المتضمنة أخبار الثورة يدونها في الجريدة، وقد حمل الشيخ محمد باقر الشيببي بيده الرسائل والعرائض إلى مدينة كربلاء لتوقيعها من قبل الزعماء والأهالي من أجل استقلال العراق، وكان معه السيد حسين كمال الدين، والسيد سعد صالح جريو، واتصل بالزعيم الوطني الحاج جعفر أبو التمن في بغداد، ونظم العرائض إلى مؤتمر السلام في باريس، وكانت توضّح في طياتها قضية الاستفتاء، ويقول الشيخ جعفر محبوبه: كانت في مدينة النجف الأشرف تحاط الأعلام العربية، ومنها تنتشر في جميع أنحاء العراق، وبها كانت تطبع المنشورات

١. المصدر نفسه، ص ١٠٠.

٢. الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم، ج ٢، ص ١٤٥.

اليومية الحاوية لأخبار المناطق، والمقالات الشديدة اللهجة، والنصائح القيّمة، وكان يتولّى إصدارها الشيخ محمد باقر الشبيبي، ويقول الأستاذ خالد الدرة: إنَّ الشيخ الشبيبي في نظري صورةٌ مصغّرةٌ من جمال الدين الأفغاني، فقد كانت رسالته الوطنية والأدبية المتواضعة أن ينطلق من منبته في النجف الأشرف إلى عاصمة العراق بغداد، ويلاحظ في شعر الشيخ محمد باقر الشبيبي الروح الثورية الوثابة، والوطنية الصادقة<sup>١</sup>.

أصدر الشيخ باقر جريدة (الفرات) أيام اندلاع ثورة العراق سنة ١٩٢٠م، وقد زحرت بمقالاته السياسية الملتهبة التي أسهمت بتشكيل الوعي السياسي لدى طبقات المجتمع ومطالبته باستقلال البلاد عن النفوذ الأجنبي، وصدرت من المجلة خمسة أعداد فقط، ولم تنته مهمّته عند هذا الحدّ بل أُنتخب بعد تشكيل الدولة العراقية نائباً عن لواء المنتفك، وُجِّد انتخابه عدّة مرات، كما مارس الوظيفة الإدارية مفتشاً في وزارة المعارف سنة ١٩٣٣م، لمدة تقارب العام الواحد، واشترك بتأسيس (حزب الإخاء الوطني) مع مجموعة من العراقيين. وفاته: عانى باقر الشبيبي من أمراضٍ وعللٍ أقعدته عن العمل، وأسلمته إلى ما يشبه العزلة حتى وفاته في ٧ حزيران ١٩٦٠م<sup>٢</sup>.

١. الحكيم، حسن، المفصل في تاريخ النجف الأشرف، ج٣، ص١١٨-١١٩.

٢. القزويني، جودت، تاريخ القزويني، ١١٩-١١٨.

## المبحث الثالث: جريدة الفرات

### مقدمة

كانت جريدة الفرات في طليعة صحافة الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠م، إذ تعدّ الصحافة من أهمّ مستلزمات العمل الثوري أو التغييرى لأيّ ثورة أو انتفاضة أو مهمةٍ تغييريةٍ - مهما كان هدفها - في أيّ مجتمع أو بلد؛ لأنها وسيلة الإعلام، ولم تكن وسائل الإعلام يومذاك أكثر من مجال الصحف والمجلات، خصوصاً التي كانت تصدر في سوريا أو مصر أو بغداد وعلى نحو محدود، وكان مطالعوها في النجف لا يتجاوزون عدد الأصابع، وكانوا يطلعونها سرّاً ويتحفظون. ولما كانت الثورة العراقية الكبرى منتظمةً كانتظام الحروب الدولية، كان لا بد لهذه الثورة من وسيلة إعلامية، تغطّي أنباء الحرب، وتنشر أخبار العدو وهو يتلقى الضربات القاصمة، ويعلن هزائمه في عددٍ من المواقع العسكرية المهمة في الفرات الأوسط، وبعد أن أنشأ الثوّار حكوماتٍ محلية تشرف على أمورهم، وتموّن جبهاتهم، وتجيبي الرسوم من السكّان، وتقيم قسطاس العدل بينهم، وتناهض الباطل في ربوعهم؛ فاستقرّ رأي زعماء الثورة على ضرورة إصدار صحيفة تنطق بلسان الثورة، وتعبر عن أهدافها، وتعبئ جماهير الشعب للالتفاف حولها، ومدّها بما تحتاج إليه من وسائل المقاومة والجهاد، فكانت صحافة الثورة المتمثلة بجريدة (الفرات)، أوّل جريدة عربية تصدر في النجف. وكانت وسائل الدعاية والنشر في بادئ الأمر منشورات يشرف عليها الشيخ محمد باقر الشيبى، ويتم طبعها في إحدى المطابع الأهلية، فكان يغلب عليها طابع المبالغة والإفراط بغية تقوية العزائم، ثم أصدر الشيخ محمد باقر الشيبى (جريدة الفرات) في يوم السبت الموافق ٢١ ذي القعدة ١٣٣٨هـ. ١٥ / أيلول / ١٩٢٠م، في مدينة

النجف، إثر نشوب ثورة العراق الكبرى (ثورة العشرين)، فكانت تلقي على النار وقوداً<sup>١</sup>.

وكانت جريدة أسبوعية سياسية، صدر عددها الأول في أوائل آب ١٩٢٠، بأربع صفحات من الحجم الصغير، وقد عدت الجريدة لسان حال الثورة وأهدافها، وغدت مجالاً لنشر آراء رجال الدين وفتواهم وخطبهم في حث الناس على مقارعة المحتلين، وقد سجّلت خطب الثوار وتعليمات القادة ومواقع القتال، وقد اتّجهت إلى رفض الخضوع للسياسة البريطانية، وقد احتجبت جريدة الفرات بعد صدور عددها الرابع دون ذكر الأسباب، وقد يرجع ذلك إلى صعوبات مادية وفنية تتعلق بأمور الطباعة والورق، في تلك الظروف الصعبة. لكنها ما لبثت أن عاودت الصدور بعد أقل من شهرين من احتجاجها، حيث ظهر عددها الخامس في ٢٥ / أيلول / ١٩٢٠، وكان من الطبيعي أن يهتم الشعب بجريدة الفرات، ويتعلّق بمقالاتها، ولكن نتيجة لضغط السلطات المحتلّة على الثوار وظهور بوادر القضاء على الثورة احتجبت الجريدة في ٢٦ / أيلول / ١٩٢٠٢.

بذل الشعب العراقي كثيرًا في ميدان ثورته، وهي من مفاخرنا الوطنية في تاريخنا الحديث، وقد برهنت على الروح الذي يضطرم في العراقيين، ومثلت نزوعهم إلى الحرية والاستقلال، وطلب الحكم الذاتي، والتي عدت حربًا استقلالية مقدّسة كما قرّر الباحثون في أحوال العراق حتى من الإنكليز أنفسهم نظير المستر فيليب ايرلند في مؤلّفه الثمين (العراق درس في التدرج السياسي)، وهو من خير ما كتب عن بلادنا في هذا القرن، وقد تذرّع الشعب بشتى الوسائل لإنجاح الثورة وتحقيق الأهداف العليا التي اندفع في سبيلها من أظهر شخصيته

١. الحسيني، عبد الرزاق، الثورة العراقية الكبرى، ص ٣٣٩.

٢. نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، ص ٢٢٧-٢٢٦.

شعباً حياً أيباً. وكانت الصحافة من جملة هذه الوسائل ولا عجب فقد التفت العراقيون إلى هذه الأداة في كفاحهم السياسي قبل هذا الطور واستعانوا بها في نهضتهم القومية قبل الحرب العظمى الأولى، يوم وقفوا في وجه السلطة العثمانية مطالبين بالتحرّر من حكم الغريب، وهكذا كانت لنا صحافة في ثورة سنة: ١٩٢٠، ولهذا الصحافة تاريخ مضيئ على قصره يستحقّ التدوين والتدبّر للاطلاع والعبرة، ثلاث صحف عملت في خلال الثورة فكانت تنطق بلسان الثوار، وتنشر أخبارهم وحركاتهم، وتعبّر عن أهدافهم ومقاصدهم، واحدة في بغداد، واثنان في النجف الأشرف<sup>١</sup>.

أمّا في ميدان الثورة نفسها وفي مركز قيادتها النجف الأشرف فقبل هذا الموعد سبق للأستاذ باقر الشبيبي الكاتب والخطيب والشاعر والسياسي المعروف أن أنشأ جريدة باسم (الفرات) بمعنى أنّها تصدر في البقعة التي تتقد فيها الثورة، استهلت الفرّات خدمتها الثورية في ١٥ أيلول ١٩٢٠ مطبوعةً في إحدى مطابع النجف. كانت هذه الجريدة تعبّر عن آراء الثائرين وأمانتهم، وتشرح تعاليم الحركة الاستقلالية، ولم تقتصر على أفكار رجال السياسة وشيوخ القبائل، بل صارت مجالاً لنشر آراء العلماء الأعلام من جهابذة الدين وفتاواهم وخطبهم في يوم الأمة الأحمر، وقد برزت بلهجةً عنيفةً، وكتبت بمداد القلب لا حبر القلم، واقتصرت على الشؤون السياسية، والمقاولات الاستفزازية، والخطب التي تُلقى في محافل الثورة في الغري بينها خطب الحاج عبد الواحد سكر وغيره من أقطاب الثورة، يُضاف إلى ذلك التعليمات عن الحرب والقتال في ميدان الثورة العراقية، ولا سيّما حسن معاملة الأسرى والعناية بالجرّحى وغيرها ممّا يتّصل بالنظام في العالم المتمدّن. أما أخبار الثورة ووقائعها اليومية في ميادينها المختلفة، فقد خصّصت لها

١. رفائيل بطي، صحافة العراق، ص ٦٥-٦٤.

(الفرات) ملاحق لنشرها علاوةً على أعدادها المنظمة، وهي الجريدة العراقية الوحيدة التي نشرت قرار (المؤتمر العراقي المنعقد في الشام باستقلال العراق في ٧ آذار ١٩٢٠)، وقد أرسل إليها مع رسولٍ خاصٍّ، كما أذاعت خطب الملك فيصل في عاصمته دمشق، وبثت رسالة البيت الهاشمي في بعث الأمة العربية بعثاً سياسياً منظوراً. ومما يؤثر من مواقفها الصحافية نشرها جواب حجة الإسلام الشيخ فتح الله شيخ الشريعة الأصفهاني على الخطاب الذي بعث به من الطائرة إلى سماحته السر أرندل ولسن الحاكم الملكي العام في العراق، يُعزّيه بوفاة الإمام آية الله الشيرازي في ١٧ آب ١٩٢٠ ويهنئه بانتقال الإمامة إليه، ثم يتحدث إلى الإمام عن العدل، وحقق الدماء، وحسن التفاهم الذي يجب أن يحلّ بين الشعيين، وقد علّق الأستاذ باقر بقلمه الحاد على ذلك الخطاب، واستعرض مقدار انطباق المبادئ الثلاثة الرحمة والعدل والتسامح التي جاءت في مضامينه على كثيرٍ من أعمال حكومة الاحتلال.

وكانت الأيدي تتلقف هذه الجريدة، ويقرأها الناس بلهفة في سائر أنحاء القطر ولا سيما في ميادين الثورة في صفوف المقاتلين، كما أنّها كانت ترسل إلى خارج العراق فتبلغ سدة ملك العرب في الحجاز جلالة الحسين بن علي الذي يُعنى بتبعتها بدقة، وتصل بلاط الملك فيصل في الشام، وتنتهي إلى سائر المهتمين بالحركة القومية في سوريا وغيرها من عراقيين وعرب، ولكن لم تعش الفرات طويلاً؛ فقد توقفت عن الصدور بعد عددها الخامس؛ لأنّ الثورة خفتت بعض الشيء، وتفرّق كثيرٌ من زعمائها في أنحاءٍ غير متقاربة<sup>١</sup>.

كانت الثورة العراقية الكبرى التي اندلع لهيها في الفرات الأوسط في ٣٠

١. رفائيل بطي، صحافة العراق، ص ٦٨.

حزيران ١٩٢٠م، في حاجة ماسّة إلى صحفٍ وطنيةٍ تذيب أنبائها، وتشر آراء القائمين عليها، وتصف المعارك التي تجري في ميادينها، وتشجّع الرأي العام على مؤازرتها، والتضحية في سبيلها، فأنشأ الأستاذ محمد باقر الشيبلي جريدة في النجف - مركز قيادة الثورة - باسم (الفرات) لهذا الغرض. برز عددها الأول في غرّة المحرم سنة ١٣٣٩ (١٠) أيلول (١٩٢٠)، واستمرت تصدر بحماسٍ متزايد، وتشر ملاحق كثيرةً بأنباء القتال، وسير الحركات، وتبعث في نفوس المحاربين روح الإقدام والبسالة، ثم توارت عن الأنظار بعد صدور عددها الخامس، وظهور بوادر الانحلال على القائمين بالثورة<sup>١</sup>.

يقول عبد الحميد الزاهد - وهو من المشاركين بأحداث الثورة العراقية ١٩٢٠م -: «كان لدي مكتبة في أحد أووين الصحن العلوي الشريف، لبيع الكتب وتجليدها وأقوم بمزاد الكتب في كل يوم جمعة، وفي خلال العمل للقضية العراقية كنت احتفظ بما يرد من الصحف السورية العربية، وفي الثورة صار المكتب مرجعاً لنواحي الثورة الأدبية، منها القيام بتوزيع جريدة الفرات والنشرات الثورية اليومية، وإرسالها بواسطة الرسل إلى مختلف نواحي الفرات، أمثال كربلاء، والوتد، والهندية، وجنوبي الحلة، والديوانية، والساوة، والرميثة، وعفك، والدغارة، وأبو صخير، والغراف وغيرها، وكانت ترد الرسائل المختلفة من الجبهات إليّ بحسب إعلان جريدة الفرات والمنشورات، فاجتمع لدي كيس من الأوراق المختلفة، وعندما أردت الهروب دفتها في سرداب بيتنا، ولكن أخي الشيخ رضا حرقها من بعدي»<sup>٢</sup>.

١. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ الصحافة العراقية، ص ٨١-٨١.

٢. الجبوري، كامل سلمان، مذكرات عبد الحميد الزاهد، ص ١٣-١٢.

\* هو عبد الحميد بن الشيخ علي آل زاهد الكتبي، من الزواهد إحدى عشائر مياح بن ربيعة، ولد في النجف ١٨٩٥م، أدخل الكتاتيب، ثم دخل المدارس الدينية، وقد تلمذ على السيد محمد سعيد الجبوري،

إنَّ للنجف الأشرَف دورها الرئيس في إشعال الثورة واستمراريتها، وقد كان من أسباب الاستمرارية تلك دخول النجف إلى المعترك الصحفي بمشاركة من باقي المدن العراقية، لأهميَّة صاحبة الجلالة (الصحافة) في دعم الثورة، وتأجيج الشعور الوطني والقومي، وإعطاء المعلومات والأخبار التي ترافق هذه الثورة من انتصاراتٍ وخسائرٍ فادحة، وأرقامٍ واحصائياتٍ في المال والأبنية والمعدات والقتلى والأسرى، والمواقع الاستراتيجية التي تم السيطرة عليها، كلُّ هذه المعلومات لا تصل إلى هذه الجماهير الثائرة الممتدة عبر أرض العراق والوطن العربي إلا عن طريق وسيلةٍ جماهيريةٍ تأخذ مداها الطبيعي واستمراريتها وانتشارها.

وللشبيبي شعراً في الصحافة وبسالتها، إذ يقول في أبياتٍ له<sup>١</sup>:

صوت الشعب وصيتها الصحفُ

تجري بهم للمجد إن وقفوا

ماذا أقول وكيف أذكرها

وبأيِّ وصفٍ مثلها أصفُ

إن قال داعية العلى فلها

ولأهلها العلياء والشرفُ

الناطقات ونطقها حكم

والحاكمات وحكمها النُصفُ

---

ترك الدراسة وانصرف للاشتغال ببيع الكتب والصحف السورية والمصرية، وقد ارتبطت هذه المكتبة بحزب الثورة العراقية، بل مصدر جميع الحركات الوطنية التحريرية منذ الحرب العالمية الأولى، ولم تتجمد أعمال المكتب وحزبه إلا بعد خمود نيران الثورة، وفي عام ١٩٢٣م انتقل الى بغداد وأنشأ المكتبة الوطنية، وفتح لها فرعاً في القاهرة عام ١٩٣٣م، توفي في بغداد بتاريخ ١٩٧١/١١/٢٣م. ينظر، المصدر نفسه، ص ٦-٧.

١. الدراجي، محمد عباس، صحافة النجف، ص ١٣٢.

وقد اتصل شاعرنا الشيخ محمد باقي الشيبسي برفيق دربه في النضال الحاج جعفر أبو التمن الوطني المعروف الذي شهدت له الساحة الوطنية بالكثير من المواقف والبطولات لدعم الثورة والثوار، وهكذا قرر إصدار (جريدة الفرات النجفية) بتاريخ (١٥) أيلول / ١٩٢٠ المصادف: ٤ ذي الحجة (١٣٣٨)<sup>١</sup>، وكانت هذه الصحيفة الناطقة باسم الثورة وهي بحق (لسان حال الثورة العراقية الكبرى التي اندلعت في ذلك العام) حيث صدر العدد الأول بتاريخ ٢١ ذي القعدة ١٣٣٩هـ الموافق ١ تشرين الأول ١٩٢٠م، وابتدأ العدد بـ(بسم الله الرحمن الرحيم حمداً وشكراً وسلاماً وبعد، لقد أُلنا خلو البلاد من الصحافة)<sup>٢</sup>.

وقد كانت كل صفحة من صفحاتها تحتوي على ثلاثة أعمدة تغطّي أبناء الثورة، وتنشر أخبار العدو، وهو يتلقّى الضربات المذهلة من الثوار، وتعلن هزائمه في عددٍ من المواقع العسكرية المحصنة، وقد أصدرت الفرات عددًا من الملاحق، وكانت قيمة الاشتراك التي تدفع سلفاً عبارة عن ليرتين في النجف، وليرتين وربيع خارجها، وبدل شهري مجيدي وربيع مجيدي في خارج النجف.

والشيبسي كما قال شعراً في مواقفه الوطنية فهو كذلك في مقالته الصحفية، لا تهاون مع السلطة، ولا مجاملة مع المتسلطين وكأنّه كان يكتب كلماته بدماء عينيه الثورية، ويخاطب المستعمر وأذنا به بصوت عالٍ، وي طرح كافة الحقائق؛ لذا كان محارباً من قبل السلطات في نشر مقالاته المنادية بالثورة، فاضطر إلى أن يستعين بالصحافة العربية، وكذلك جرت مطاردته بشكلٍ آخر في الصحف العربية، حتى إنهم منعوا بعض الأعداد الصادرة من الصحف التي تصدر في الخارج من

١. الفيكونت دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، ٣م، ص ٦.

٢. أديب مروة، الصحافة العربية نشأتها وتطورها، ص ٣٢٨.

الدخول إلى العراق، ومنها مجلة (العرفان) اللبنانية التي تصدر في صيدا بسبب ما نشره في المجلة<sup>١</sup>.

ومن أهم مقالاته في الصحف العربية: «من مصائبنا يا سادة أننا إلى الآن لم نجرأ على مصارحة المسؤولين، وانتقاد سياستهم، ومجاهبتهم بالحقائق؛ لأن روح العبودية متأصلة في هذا الجيل؛ فالنفوس الضعيفة مطبوعة على الذل والخوف والتزلف والانتقاد، فلنترك هذه الدعايات إذا كنا أوفياء للأمة، ولنصرف إلى معالجة ما تنوء به الأرزاء، ولنكن أجرياء على بيان الواقع في حقيقته». لكنه تابع مسيرته حيث العمل في المجالين الوطني والسياسي، ولم ينتبه إلى الانحراف والابتعاد عن خط المواجهة والتحدي، وبهذا استطاع أن يصبح مثلاً للصلابة بين أقرانه السياسيين إلى أن أدى الأمر إلى تدهور صحته، وملازمته الفراش<sup>٢</sup>، وحتى هذا الأمر لم يُثنى عزيمته، وعلى فراش المرض باشر بإعطاء مقالاته إلى الصحف، وتوزيع المهام على النخبة المؤمنة المقارعة الاحتلال بكل زمان ومكان.

ومن مقالاته الجريئة التي ستبقى شاهداً وتاريخاً ناصعاً يجسد شجاعة العراقيين أيام ثورة العشرين ويفصح عن مدى جرأة الصحافة النجفية في تلك الأيام العصيبة هذا المقال الذي نشره في العدد الخامس والأخير من جريدة الفرات المؤرخ في تشرين الأول ١٩٢٠، الذي هاجم فيه الحاكم البريطاني العام (ويلسون) على إثر إرسال الأخير برقية إلى المرجع الديني الأعلى في ذلك الوقت شيخ الشريعة الأصفهاني، يقول فيه: «وقفنا على صورة كتاب الحاكم العام ارنولد ويلسون إلى المقام الروحاني المنشور في جريدة العراق المؤرخة في ٣٠ / اب /

١. الدراجي، محمد عباس، صحافة النجف، ص ١٩-١٧.

٢. يعقوب يوسف كوديا، صحافة ثورة العشرين، ص ٣٥.

١٩٢٠ الموافق ٧ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ، وفي منشوراتٍ مستقلّةٍ وزعتها الطائرات فشكرنا توّدده للمقام العالي، ولما كان مشتملاً على أشياء لا تتفق مع مراده، بل كانت على العكس نقيضاً للغرض الذي أفاض فيه؛ رأينا إيقافه على جليلة الأمر وإطلاعه على رأي الأمة الأخير، فينكشف لعدل الدول من ضللّ الناس وطوّح بالبلاد والعباد، ثم نسأل الدول بعد ذلك أن تحكم على مسبب المصائب في العراق، لينال لعنة العالم المتمدن، وهون عليك يا ممثّل الدول الإنكليزية! إنّ الأمة التي ناصبتها العداة وحكّمت فيها السيف فأرقت دماءها، وأزهقت أرواحها عداةً محضاً وتحكّماً صرفاً بلا خوفٍ من الحق، ولا وجلٍ من العدل ستقف وإياك أمام محكمة التاريخ، ليعلم من هو المجرم الذي أتلّف النفوس، وجنى على البشرية بلا رحمة ولا عطف! فالويل لمن صبغ الأرض بدماء الأبرياء، يا ممثّل الإنكليزية ماذا صنعت أمة العراق المظلومة حتى تستحقّ من ضباط الاحتلال هذا الفتك الذريع، والتمثيل الشنيع، والهتك الفظيع؟! أفعال تحجل منها العصور الأولى، وتشمئز منها قرون الظلمة والظلم، ويل لكم ضباط الاحتلال من ظلامه أمة كان جواب مطالبها الشرعية حزّ الرؤوس، وتوصيل الأعضاء، وحرق الجثث، والتمثيل بالنفوس المحترمة... فيا سبب مصائب العراق يا سفّاح الإنكليز لقد جنيت على حكومتك الموقرة جنائياً ما روى التاريخ نظيرها لسفّاح قبلك، وهكذا يكون جزاء الذين رفعوا مقعد حكومتك، وأجلسوك على منصّةٍ لست لها، وليست لك، هي السياسي المحنك والحاكم الرشيد، منصّة يتربّع عليها العدل والإنصاف لا الظلم والاعتساف، فويل لمن أقامك تمثالاً للقوّة والغلظة، يا ممثّل الدول الإنكليزية أعزّي المقام العالي ومنك الرزية؟! أعزّيه بقولك؛ (إنّ المقاوم يستوجب التعزية والتسلية، لا التبريك والتهنئة في هذه الأيام التي انتابت العراق

وسائر المماليك)، فيا حضرة الحاكم العام إنَّ ما نزل بالأمة فمن المصائب التي هيأت أنت أسبابها، فالأمة بريئة، وأنت المذنب، ألسنت الذي سحقت الحقوق، ودست القانون، فخنثت الأمة بما أعددته من الجيش المجهز بالنار، ووسائل الحرب والدمار، فأجهزت به على النساء والأطفال والشيوخ، ولوَّثت البلاد الطاهرة بالشور، كل ذلك لأنَّ الأمة أبت أن تعترف بوصايتكم، أبت أن تعيش في ظلِّ حمايتكم، وأغرب من ذلك يا حضرة الحاكم أنك نسبت المصائب إلى فقيد الإسلام، لقولك: (وكان هذا من آراء سلفكم)! يا الله، أيِّ الاعتداءات تغفرها لك الأمة؟ أتعزيزتك لشيخ الإسلام بما أنزلته من الرزايا على العرب والمسلمين، أم نسبتك المصائب إلى الفقيد الذي لطالما حدرك من الغرور وألفتك إلى عواقب الأمور، ونبّهك إلى نتائج الاستهتار في مخالفة الأمة المظلومة؟! ... نعم إنّه (طيب مثواه) أراك أن تلين فاستعصيت، وسألك أن تضع حدًّا للظلم والاعتداء بأعطاء الأمة الاستقلال فأغضبت، وثابرت على إنزال العقاب والعذاب، والأمة ساكنة، وأنت لم تسمع نصائح الفقيد ومواعظه البليغة، فكيف تريد أن تبرّر أعمالك؟! ثم بعد ذلك تقول: (إنَّ الحكومة كما هو معلوم في أقطار العالم قد اعتمدت دائماً على الأركان الثلاث، وهي الرحمة والعدل والتسامح الديني...)، قد تظنّ بأنَّ حكومتك الموقرة قد شيدت على هذه الدعائم فخامتها، ولكنك هدمتها بمقالع جورك وقسوتك وتعصّبك، فويلٌ لكم يا ضباط الاحتلال. أمّا الرحمة وأينها منكم يا قساة؟! الرحمة فضيلةٌ قد تنحت من قلوبكم، وابتعدت عن ضمائركم... وهي اسم عندكم، ومسمّاها ليس عندكم، وتشهد على ذلك قلوبكم بالقسوة، وأنيابكم بطحن العالم، فقد خلفتم من بعضه تاريخاً لشدتكم مكتوباً بالدماء المراقبة في (الرميثة الحمراء) في عرائش الفقراء، فكم بيت أوقدتم على أهله النار،

فأصبح الرضيع ملتهبًا، والشيخ الفاني بجنب الأعمى وقودًا لنيرانكم، وعلى هذا الحال استمرت رحمتكم في (الجربوعية)، و(بابل) حرقًا تستغيث من النار، وقتلاً أظهرتم فيه ضروب التمثيل، أهذه هي الرحمة التي بنيتم عليها دولتكم، وأقمتم عليها سياستكم؟! ... أمّا عندنا فلطفٌ بالأسير وبرٌّ به، ونظرٌ إلى الأجنبي ملؤه العطف، نتفقد شؤونه، ونرى أحواله، ونسهر لترويجه، ونحرص على حياته... أخلاق أخذناها من شريعتنا، وفضائل تلقيناها من مدينتنا، فأين هي مدينتكم يا أدعياء التمدن؟ ها انظروا إلى رحمة رجالنا وكبارنا، واقرأوا رسائل علمائنا في الرفق بأسرائكم، والرحمة بمرضاكم، انظروا كيف وكلّ المقام الروحاني أمره إلى من لزمه بذلك من المشاهير فكتب إليه الرسالة الآتية:

(بسم الله الرحمن الرحيم، السلام عليك وثناء على إخلاصك، وبعد، غير خفيّ على نباهتك أنّ للأسرى في الشريعة الإسلامية مكانةً عاليةً، فالعناية بهم فرض، والتوجه إلى إكرامهم حتم، وإني أوصيك أطال الله بقاءك بتعهدهم على الاتصال، وتفقد أحوال صحتهم ومعاشهم ما داموا وديعةً مقدسةً وأمانةً محترمةً، فيلزمك البذل لهم والتوفير عليهم، ويجب تصديقك لتخفيف راحتهم أكثر من الأيام الماضية، وإني قوي الأمل بأنك تنشط إلى هذا التكليف؛ لأنه شرعي مدني إنساني، فواظب على الانفاق عليهم، حتى يتعين على إنفاقهم موردٌ خاصٌّ، فقد اعتمدت وأوكلت ذلك إلى عهدتك والزمنك به، ولا عذر لك ودم مؤيدًا).  
شيخ الشريعة الأصفهاني.

هذا مثالٌ صغيرٌ من رحمتنا، فهل أظهرتم شيئاً من رحمتكم. فيا حضرة الحاكم العام لقد هدمتم هذا الركن بمقالع من السياسة التي أهلكت الحرث والنسل، وأتت على الأخضر واليابس، فتراب كلّ منطقة يشهد بأنكم سلبتم الحبّ حتى

من منقار الطائر، واستخرجتم المخ من العظم، وضاعفتم الخراج أضعافاً على الزراع، فأصبحوا يسألون الناس إلحافاً، وأنتم تسألونهم فوق الجهد وتكلفون نفوسهم فوق الوسع. نعم إنَّ السجون والمنافي والديوان العرفي شهودٌ على عدلكم، وبراهين على صدقكم! فأين العدل الذي تزعمون؟ أوفيتم بوعد أو ثبتم على عهد؟ أين البيانات الرسمية؟ أين القطوع الدولية؟ أين عهود الطوائف؟ أين الاستقلال؟ أين الإدارات الوطنية؟ أين منشور مود؟ أين وثائق مكماهون؟ أكان العدل يا حضرة الحاكم أن تكمموا الأفواه التي طالبت بالعدل؟ أهذه هي العدالة، وترفعوا طلاب الاستقلال إلى المنافي.... سلام الله على ظلم الفراعة.....! فيا حضرة الحاكم كيف تفتري على أهل العراق؟ ألم تطلع نفسك على رغباتهم؟ ألم تقف على تصريحاتهم؟ اذكر موقفك في النجف إذ جئت تعمل لتبديل الوثائق الموقعة من السادات والعلماء والأعلام والأشراف من الرؤساء وسائر الطبقات، ألم يطلبوا فيها جلاءكم عن العراق؛ ليؤلفوا حكومةً عربيةً لا دخل للأجنبي فيها<sup>١</sup>.

ولم يقصر جهد الصحفي محمد باقر الشيبلي وما قدّمه للثورة على إصدار جريدته (الفرات) فحسب، بل كان المدير والمسؤول على كافة وسائل الدعاية والنشر في بادئ الأمر، إذ إنَّ المنشورات التي كان يشرف عليها شخصياً ويتابعها في كافة مراحلها، في إحدى المطابع الأهلية كان يغلب عليها طابع المبالغة والإفراط بغية تقويم الغرائم، وكذلك يقوم بإصدار منشورات يومية تقريباً يتتبع فيها أخبار القتال في شتى جبهاته<sup>٢</sup>. لكن عندما صدرت جريدة الفرات، لم يذكر اسمه على الأعداد الخمسة الأولى التي صدرت منها.

١. الدراجي، محمد عباس، المصدر السابق ص ١٢٧.

٢. المصدر نفسه، ص ١٢٨.

كانت (الفرات) تعتبر بحق لسان الثورة ليس في مناطق الفرات حسب بل، وفي العراق بأكمله، وكان نفوذها يتعدى نطاق القطر العراقي إلى الأقطار العربية المجاورة، فقد كانت أعدادها تصل إلى سوريا وإلى الحجاز أيضًا، وتحظى بالاهتمام الشديد من لدن أقطاب الحركة التحررية العربية في كل مكان.

وفي الوقت الذي كانت هذه الجريدة تتبع أخبار القتال، والمعارك، وتشحذ الهمم، كانت في الوقت ذاته تنتقد الأعمال العفوية التي كانت تصدر من بعض الثوّار، فتدعوهم إلى أن يحسنوا معاملة الأسرى من الأعداء، وإلى العناية بجراحهم، والمحافظة على وسائل المواصلات والمرافق العامة في المناطق المحررة، فضلًا عن نشرها كلّ القرارات والآراء التي كانت تعبّر عن مساندة الثورة والانتصار لها.

صدر العدد الأول من (الفرات) يوم السبت الحادي والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٨هـ. الموافق لليوم الثاني من شهر أيلول سنة ١٩٢٠م، في أربع صفحاتٍ من القطع الصغير، وكتبت على صدره (جريدة أسبوعية سياسية، أدبية تاريخية). وقد غيرت هذه العلامة ابتداءً من العدد الثاني إلى (جريدة أدبية، سياسية، وتاريخية اجتماعية، أسبوعية مؤقتًا). وبقي موعد صدورها يوم السبت من كلّ أسبوع. تضمّن العدد الأول مقالًا افتتاحيًا أُختيرت آية البسملة عنوانًا له، ومما جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، وله الحمد في كلّ فاتحة، وعند كلّ بداية، والصلوات على نبيّه المبعوث على حين فترة، المنتجب من خير أسرة، وعلى آله وصحبه، وبعد فلقد تنقلت بنا العصور، فمن ظلام إلى نور، ومن حزنٍ إلى سرور، وهبت فئّةٌ ممن شرح الله صدورهما، فكانت أوعيةً للحقائق، ومكامن للحكمة. وعادت تستحثّ الهمم مجلبة للعرفان، وأخذًا بإطراء الكمال، طورًا بإنشاء معاهد

تكفل الناشئين من الجهل، وتدرأ عنهم مصاعب الضعف، وتعيدهم المعرفة الواجب، وحقوق الأمة والفرد، وتارةً بإنشاء صحفٍ تنمو بها حركة الأفكار، وتتم أسباب النهضة ودواعي الاستقلال، وهذا ما دعى بنا إلى تأسيس جريدة (الفرات) بعد أن سهّلت لنا الظروف الحاضرة بعض الصعوبات، وذلّت كثيراً من العقبات، فقمنا على أثر الانقلاب في العراق لنعرّف الأمة العراقية كيف تكتسب الفضيلة، وتجنب الرذيلة، ونعلّمها فوائد الاجتماع والتضامن، ومحاسن الاشتراك والتكافل حتى تصل إلى الغاية، فأنشأناها أسبوعيةً لقلّة المعدّات الآلية، فلا ورق كثير، ولا مطبعة كاملة.

وقد أردنا إصدارها بعد إكمال النواقص، وإحضار اللوازم، ولكن الحاح الأفاضل من الخارج والداخل، جعلنا نقدم على غير عدّة، فأصدرناها على هذا الحجم الصغير مؤقتاً، آمليين أن تلقى من القراء كلّ قبول، والله ولي التوفيق وهو المأمول».

ومما تضمنه هذا العدد مقالةً رئيسةً بعنوان: (العراق يقاوم الحكم الاستعماري) جاء فيها: «دع الأحزاب الاستعمارية تستنزف الدماء والأموال، وتستثمر البلاد، وتستعبد الرجال، وتلعب في حقوق الأمم الضعيفة ما تريد، فقد ضعفت مادة حياتها، وقاربت عمرها الطبيعي، فلا تستطيع أن تعيش في الأجيال القادمة.

إنّ العصر الذي بدأت الأمة سيكون عصر انتصارٍ قهّار، لا تروج فيه سياسة الاستعمار وإنّ ألبسوها ثياب العطف والحنو؛ فإنّ أثواب الرياء شفافاً يُرى ما تحتها. أجل إنّ الأمم تستقبل عصرًا لا يتفق مع العصور الفائتة، يخالف العتو والكبرياء والغطرسة والشموخ، عصرًا يهدم آثار الاستعمار، ويدكّ معالم الاستبداد، فلا ترى مطامع شخصية، ولا سلطات ظالمة أو حكومات غاشمة، ولا سيادة قديمة غريبة النزعة.

أدركت الشعوب الصغيرة ثقل وطأة الاستعمار، فبدأت تقاومه وتكسر قيوده. ما ذكر العراق في عهود الحلفاء وفي بلاغاتهم وبياناتهم، وفي مقالات الكتاب وخطب الخطباء إلا رأيناه مقروناً (بالتحرير)، ولكننا لا ندري ماذا يراد بالتحرير في (قاموس غرفة العوام)، وفي (معجم الوزارة الخارجية). ولعله من الأضداد في لغة الاستعماريين.

لقد أسمعنا الحكومة البريطانية في بياناتها الرسمية أنها تريد أن تعيد مجد العراق الأول، وأنها لم تدخل البلاد فاتحةً أو مستعمرةً، ولكن الظروف الحربية أرغمتها على الاحتلال أياماً. على أن الحرب العامة قد وضعت أوزارها، وإنكلترا لم تزل تثبت أقدامها، وتشدد أحكامها، فهل عادت العهود قصاصات ورق لا يؤبه لها؟ فأين نجد الشرف الدولي إن كانت إنكلترا تسحق شرف المعاهدات، وتسخر بالقوانين، وتهضم حقوق الأمة التي ساعدتها؟!.

وبعد أن يستعرض المقال الموقف الذي وقفته إنكلترا من استيلاء الفرنسيين على سوريا ولبنان، وتقويضهم الحكومة العربية الأولى في دمشق، وفرضهم الاحتلال العسكري على تلك البلاد يقول: «إنها قضت وطرها من محالفتنا، على أنها لم تكن مخالفةً أساسية، إنها كانت لإغرائنا حتى تتمكن من إحراز النصر على أعدائها في الشرق...»<sup>١</sup>.

ونشرت الفرات في العدد ذاته رسالة المؤتمر العراقي الذي عُقد في دمشق في التاسع والعشرين من حزيران ١٩٢٠م، الموجهة إلى رؤساء الشامية في النجف، ومما جاء في هذه الرسالة قولها:

«سوف ترفعون شأن الفكر العراقي، وتعلون مكانته في أنظار الأمم

١. جريدتنا الفرات، الاستقلال، المصدر السابق، ص ٩.

والشعوب بهذا المظهر الشريف الذي تظهرون به من حينٍ لآخر كأمةٍ راقيةٍ تطلب حقّها الطبيعي بالاستقلال التام، مما حمل كثيراً من الأمم على أن تفكّر فيكم، وتهتمّ بمصيركم وخصوصاً تلك الدولة التي تحتلّ جيوشها بلادكم... أصبحت هذه الدولة تسعى السعي الحثيث للمحافظة على نظام حكمها الحالي في العراق. ربما حضر إليكم من الشام الجنرال نوري السعيد ليقوم بهذه المهمة التي أناطتها به السلطة البريطانية، ألا وهي توطيد أركان الاحتلال، وتثبيت أقدامه في العراق... لا يحتاج بعد هذه أن نبيّن لكم واجبكم الذي تقومون به إزاء هذا الرجل إذا ما فارقنا إليكم بهذه المهمة، خصوصاً الاجتهاد بمقاطعته والإعراض عن أقواله، وتحذير الناس من الوقوع في حبائله... لا تبالوا أيها الإخوان به، ولا تقيموا له وزناً، ولو ادّعى الكلام باسم الملك حسين أو الملكين عبد الله وفيصل، أو باسم المؤتمر العراقي، أو أيّ جمعيةٍ أخرى، فإنّه غير مفوض ولا مرخص...».

كذلك نشرت الفرات في هذا العدد أيضاً صورة الاحتجاج الذي قدّمه المؤتمر العراقي في دمشق في التاريخ ذاته إلى جميع رؤساء الحكومات والدول، منها بريطانية بشأن منابع الزيت في العراق، ومما جاء في ذلك الاحتجاج قوله: (نصّت المادة (٢٢) من مواد قانون عصبة الأمم على الاعتراف باستغلال الأمة العراقية.... فعملاً بهذا النصّ الصحيح قرّر الشعب العراقي مصيره وأعلن استقلاله، ولكن رفض كلّ انتداب، وأذاع قراره هذا وأبلغه إلى الحلفاء والدول المعظمة طوراً بواسطة المؤتمر العراقي، وتارةً بواسطة الجمعيات السياسية داخل القطر وخارجه. لقد بدأت السلطة الإنكليزية المحتلّة في العراق، رغماً عن هذا النصّ الصريح، وخلافاً لرأي العراقيين العام، تتصرف بموارد البلاد تصرف الحاكم المطلق؛ فجاهر المستر لويد جورج بوضع يد الحكومة الإنكليزية على

منابع الزيت في العراق، وتخصيصها لسد نفات الإدارة البريطانية في البلاد تخصيصاً لا مسوغ ولا مبرر له بوجه من الوجوه.

وعلى هذا فنحن أعضاء المؤتمر العراقي نرفض باسم الأمة العراقية هذا التصرف المطلق غير المشروع، وتحتج عليه، ونذيع ما يلي:

أولاً: تحتفظ الأمة العراقية لنفسها لا غيرها بجميع موارد البلاد ومن جملتها منابع الزيت.

ثانياً: تحتفظ الأمة العراقية لنفسها حق إعطاء الامتياز باستقلال هذه المنابع لمن تشاء.

ثالثاً: نفضل الاتفاق الذي جرت عليه الحكومة العثمانية قبل الحرب بشأن هذه المنابع<sup>١</sup>.

وفي العدد الثاني من (الفرات) الذي صدر في يوم السبت الثامن والعشرين من ذي القعدة لليوم الخامس عشر من أيلول تناول المقال الافتتاحي فيه، أسباب الثورات التي تقع في أقطار العالم وأهدافها وهو بعنوان (ثورة العراق)، ومما جاء في ذلك المقال قوله: «إنّ الثورة العراقية تشبه أختيها الإيرلندية والمصرية من كلّ الوجوه، فقد فجر بركانها الضغط، وأضرم أوارها الاستبداد، ووسعها القضاء على الحرية والتجاوز على الحقوق، فصمت الأذان عن سماع الحق، وعمي الوجدان عن تمييز الأحكام، وسدت المحاكم أبوابها، فلا قضاء ولا قضاة. وأصبح الحق للقوة، ورُدّت مطالب الأمة العادلة، وتجلّت الأطماع، وظهرت ميول الفتح والإرغام، فالسلطة قاهرة، والتحكّم عجيب، والشعوب ليست حرة، والأمم غير مستقلة؛ فاشتدّ الظلم حتى بلغ منتهاه، ونفذ صبر الأمة ممّا تلاقيه كلّ يوم من جور حكّام

١. جريدتنا الفرات، الاستقلال، المصدر السابق، ص ١١.

الاحتلال، ولا سيّما في هذه الأيام التي ضجّ فيها العراق، وملاً دوي احتجاجاته الآفاق تحقيقاً لمبدأ (تقرير المصير) وتأييداً للاستقلال التام.

أدرك العراقيون أنّ المطالبات القانونية والمظاهرات السلمية لا تجدي نفعاً، ولا تسترجع حقاً، سيما وإنّ صدى الاحتجاج العادل لا ينعكس إلى الأندية السياسية في العالم لاستئثار الإنكليز بكافة أدوات الوصل في البلاد، فلا يريد ولا برق ولا صحافة... لقد فكّر عقلاء الأمة وكبارها فيما يجب أخذه من التدابير للتخلّص من الاحتلال القتال، فصمّموا على الدفاع عن حياتهم بعد أن قامت السلطة العسكرية بإجراء الحركات الحربية، قاصدةً إخضاع الأمة بالقوة<sup>١</sup>.

وفي هذا العدد نشرت (الفرات) صورة المذكرة التي قدّمها المؤتمر العراقي في دمشق في الثالث من تموز ١٩٢٠م، إلى رئيس وزارة الحكومة البريطانية حول مطالب الشعب العراقي وموقف الإنكليز منها، ومما جاء في هذه المذكرة قولها: «إنّ رغائب الشعب العراقي هذه تنحصر بالاعتراف بالاستقلال السياسي التام للقطر العراقي في حدوده الطبيعية المعروفة، بحيث تعلن السلطة المحتلة بالفعل هذا الاعتراف في نفس القطر، وتفسح المجال... وتألّف حكومته الوطنية في الحال، وتحويل الجالية العراقية الموجودة الآن في سوريا وتركيا ومصر الحربية التامة بالرجوع إلى أوطانهم».

وتحت عنوان (ضلال الإنكليز) نشرت الفرات مقالاً افتتاحية في العدد الرابع منها، الذي صدر في يوم السبت الثالث عشر من ذي الحجة ١٣٣٨هـ الموافق التاسع والعشرين من أيلول ١٩٢٠م، قالت فيه: «شاءت حكومة الاحتلال أنّ ترينا كلّ يومٍ نوعاً جديداً من الباطل، وشاءت الأمة أنّ تدحض كلّ أنواعه

١. جريدتا الفرات - الاستقلال، المصدر السابق، ص ١١.

معتمدةً على الحجاج الدامعة والبراهين القاطعة، فشتان ما بين الفريقين: فريق يؤيد الباطل لأنه باطل، وفريق ينكره ويؤيد الحق.

علمت حكومة الاحتلال أن الأمة لا تخضع لها ولا تنحاز إليها تاركةً مبدأها القويم، أو غاضبةً حقها الصريح، فلا تُلوى عن الإصرار على تنفيذ مطالبها مهما كلفها ذلك الحق من التعذيب والاضطهاد. فهي لا تريد إلا أن تؤلف باختيارها مؤتمرًا عراقيًا لا إمرة فيه ولا مشورة لبريطاني قط، علمت ذلك حكومة الاحتلال فرأت أن تأليف المؤتمر على النحو الذي تطلبه، إلا أنه يقضي لا محالة على كل أمالها في العراق، فعزمت على إكراه الأمة — بنوع آخر من الإكراه — على قبول ما تراه متفقًا مع مصالحها الاستعمارية في البلاد...».

وبعد أن يتحدّث المقال عن اللعبة التي لعبها الإنكليز المحتلون، وذلك بدعوة (النواب) الذين اختارتهم الحكومة العثمانية في وقتها إلى الحضور في بغداد، كي يتألف منهم المؤتمر الذي يطالب به الشعب، يقول متسائلًا: «فهل رأيت مجلسًا يشبه هذا المجلس العاري من كل ميزة قانونية؟ وهل رأيت حكومةً في العالم تشبه حكومة الإنكليز أجهزت على الحقوق المدنية والسياسية؟ وهل يلومنا لائتم إذا قلنا إن وجودها شرٌّ على المجتمع البشري، وشرٌّ على القانون المدني؟!»<sup>١</sup>.

ونشرت في الفرات في العدد ذاته مقالةً أخرى بعنوان (مكر الإنكليز) قالت فيه: «حتى إذا صرّح رئيس جمهورية الولايات المتحدة بمبدأ تحرير الشعوب، أعلنت إنكلترا في البلاد أن أبناءها أحرارٌ في اختيار شكل الإدارة في العراق، اطمأن العراقيون أن الإنكليز سوف لا يسفكون دماءهم إذا جهروا بمنوياتهم، وما علموا أن هذا الإعلان يريد أن يتّخذة الإنكليز ذريعةً لإشعال نيران الحرب

١. جريدتنا الفرات - الاستقلال، المصدر السابق، ص ١٢.

تأتي على الأخضر واليابس، اطمأنّ العراقيون فجهروا بما لا بدّ منه وصرّحوا وطلبوا من الحكومة الإنكليزية باسم الأخلاق والإنسانية أن يفوا بوعودهم، ويعطوا الضعفاء حقوقهم الطبيعية، فقابل الإنكليز هذا الطلب بالاحتقار والامتهان، والهزؤ والسخرية مما يفتت كبد كلّ عراقي، وليتهم اكتفوا بذلك، بل عمدوا إلى زعماء الأمة فنفوا أربعة منهم في الحلة، وأربعة عشر في كربلاء، وواحدًا من بعقوبة، وجمع حاكم الديوانيّة خمسين زعيمًا من رؤساء القبائل فأجبرهم على التوقيع على ورقة كُتبت فيها لزوم بقاء الإنكليز في العراق...».

توقفت الفرات عن الصدور بعد العدد الرابع منها، ولم يعرف السبب الذي حال دون استمرارها، غير أنّ ما فهمناه من الكلمة الموجزة التي صُدّر بها العدد الخامس، يدل على أنّ قيادة الثورة في الفرات هي التي أمرت بإيقاف الصحيفة عن الصدور؛ إذ جاء في العدد الخامس من الفرات الذي صدر في يوم الأربعاء الثاني من صفر سنة ١٣٣٩ هـ الموافق لليوم الثامن عشر من شهر تشرين الأول ١٩٢٠م، كلمة بعنوان (بعد الاحتجاب) ما يلي: «تعود الفرات إلى الصدور بإيجاب من الهيئة العلمية وزعماء النهضة العربية، والأمل أنّ أولياء الأمور الذين قاموا من أول الأمر بنشر هذه الصحيفة الحرّة، واهتموا بإظهارها، وصمّموا على استمرار إصدارها، سوف يستمرون على القيام بشؤونها، وضمانة حياتها، لتعيش الصحف الراقية ذات المبدأ الصحيح فيكون لها مكان عالٍ وشأن في العالم رفيع. نعم إنّ الهيئة العلمية سوف لا تنفك عن العناية بأمر الصحافة، سوف تخلد ذكرًا مجيدًا لها في تاريخ النهضة العراقية بإصدار الفرات، وقد بشرتنا باهتمامها وتصدي القائمين بها من رجال الفضل لتوسيع حجمها، وإصدارها مرتين في الأسبوع وسيكون ذلك في القريب، كما يطرد تحسينها مع ملائمة الظروف

والأحوال. فالفرات تعود اليوم كما كانت في البدء بتحتيم كبار الأمة، وقد أوجبوا أن يكون هذه العدد الذي حتموا إصداره بالردّ على كتاب الحاكم الملكي المرسل إلى الإمام الروحاني آية الله شيخ الشريعة الأصفهاني (دام ظلّه العالی)، الرد الذي يقرأه القراء هو خلاصة آراء الزعماء وقادة الرأي العام، ونتيجة لأفكارهم، وليس من الآراء الشخصية؛ ولذلك نوجّه إليه أنظار الأمم في كل أقطار العالم لتطلع على رأي الأمة الأخير<sup>١</sup>.

وفعلًا فإنّ هذا العدد بصفحاته الأربع كلّها لم يتضمن سوى ذلك الردّ الذي نشر (بعنوان رأي الأمة وكتاب الحاكم العام)، وكان بمنزلة خطابٍ موجهٍ إلى الحاكم الإنكليزي العام في العراق آنذاك وهو السير أي. تي. ولسن، ومّا جاء فيه: «وأما التسامح الديني، أو الدعامة الثالثة التي قام عليها بناء حكومتكم فدعوى كاذبة تشهد عليها المعابد والمساجد وقبور الأئمة المقدسة، ولئن تقادم عهد حادثة النجف، فحادثة مسجد الكوفة غضة في أول النهضة، أما صيرّتم ساحته مكانًا لمقذوفات الطيّارات؟ أما خلطتم تراها بلحوم المترهبين والمترهبات؟ أما داخلتم رؤوس الأطفال بصدور الأمهات؟ ألم تمنعوا مجالس المواليد وسائر الشعائر؟ كان من التسامح في الدين رمي جوامع المسلمين وحصر مجامعهم ومنع أعيادهم ومراسيمهم؟ هل الاستيلاء على الأوقاف الإسلامية تسامح وتساهل؟ إذا كان هذا هو التسامح، إذًا ما هي معاني التعصّب الأعمى؟ تحية على غلادستون، وثناء على الحروب الصليبية.

يا ممثّل الدولة الإنكليزية، إنّ الأركان التي اعتمدتم عليها لا تقوم عليها بيوت العناكب، فكيف تشيدون على أساسها الواهي دولة لا تدول وحكومة

١. جريدتنا الفرات - الاستقلال، المصدر السابق، ص ١٣.

لا تزول؟ لقد أوجبت أركانكم هذه أن يصافح العراقيون مدافعكم ويعانقوا بنادقكم، ويستعرضوا الكتائب وجيشكم حتى يكتب الله انهدامها ويقيم على أنقاضها دولةً عربيةً قانونها القرآن وشعارها محبة الإنسان.

يا ممثّل الدولة الإنكليزية، غريب منك وأنت على كرسي الحكم المؤقت، عجيب منك وأنت ضيفٌ ثقيلٌ على البلاد أن تصف في كتابك شوكة الحكومة البريطانية وثروتها بقولك: (ومن قبل أن تقع الحرب العظمى كان للدولة الإنكليزية التي شعارها المسالمة جيش صغير للدفاع عن نفسها، فلما شرع الألمان والأتراك من تلقاء أنفسهم ... الخ).

فيا حضرة الحاكم إنّا في غنى عن الإسهاب في بيان قوة الحكومة، فإنّا نعرف ذلك كما تعرفه أنت، نحن لا نذكر عظيم قوتها فإنّها أم العدد والعدد وذات الحول والطول والقوة والاستعداد، إنّها تستطيع أن تحشد نفس العدد الذي ألّفته لقتال أعدائها، وهي أم النقود التي تدلي بها من بحرٍ بعيد العمق. ولكنّ العراقيين يا أيّها الحاكم قد تكاتفوا وتكافلوا وتعاضدوا وتساندوا وقاموا للدفاع عن حياتهم وتطهير بلادهم، لا يبالون بعددكم ولا يكثرثون بعددكم، تكاتف نياتهم وتوحدت غاياتهم، لا يتزايلون عن موقفٍ ربضوا فيه كالأسود، وثبتوا عليه كالجبال للوصول إلى الغاية وأخذ الاستقلال فأما للحياة وأما للموت، فالموت سعادة في هذا السبيل وحياة في الدفاع عن الحق.

يا حضرة الحاكم العام، لقد حشدت حكومتك الجيش الجرّار فحارب عن الحرية ودافع عن المدنية وأنت تريد محو الأمة وإتلاف البلاد، تهدّد بالفتح والاستعمار، وتهدّد بحشدٍ جديدٍ لإكراه العراقيين، أم لتصديق (جننا محرّرين لا فاتحين). ثناء على حريتك وسياستك! أمّا قولك: (أهل العراق قبلوا

الدولة الإنكليزية وكانوا مسرورين من إبقاء جيوشها في هذه البلاد، لما غلبت الأتراك)، فريّةً على أهل العراق؛ متى قبلوا بدولتكم وأصبحوا مسرورين من بقاء جيوشكم؟ هذه وثائق الانتخاب أدلة واضحة على استيائها منكم ورفضهم بقاءكم، رجالتهم وأطفالهم كبارهم وصغارهم، كلهم سواء لا يقبلون بكم ولا يميلون إليكم. وأنت تعرف ذلك حتى من الآحاد الذين اصطنعتهم لخدمتك واستعملتهم لأغراضك.

فيا حضرة الحاكم العام، كيف تفترى على أهل العراق ألم تطلع بنفسك على رغباتهم؟ ألم تقف على تصريحاتهم؟ اذكر موقفك في النجف إذ جئت تعمل لتبديل الوثائق الموقعة من السادات والعلماء والأشراف من الرؤساء وسائر الطبقات، ألم يطلبوا فيها جلاءكم من العراق ليؤلفوا حكومةً عربية لا دخل للأجنبي فيها؟ اذكر طوافك في الأنحاء، بماذا قابلك الأعيان والزعماء؟ طالع يا حضرة الحاكم صحائف ذلك في العراق، فهل رأيت قبولاً من الأمة، أو ميلاً صادقاً إليكم؟ ألم تجاهبك بالرد؟ ألم تقابلك بالتصريح؟ فمن أيّ القلوب تحققت القبول، وفي أيّ الوجوه طالعت السرور؟ تحرّص وتلفيقاً إلى هذا الحد! أهذه هي المدنية؟!<sup>١</sup>.

وأما قولك: (ولكن لما رأى بعض المفسدين والمغرضين)، فقولك مجرد عن الصدق، بعيد عن الحق، بين التحامل، واضح العدا. نسألك يا حضرة الحاكم بصلاحك المعروف وإصلاحك المشهور، نسألك بحق الاستعمار والاستعباد، بحق الظلم والاستبداد، نسألك من هم المفسدون؟ نعم، هم زعماء النهضة، هم طلاب الاستقلال، هم رؤساء الدين، هم أئمة المسلمين.

عجيب يا أيها الحاكم تحاملك الشديد على العلماء، وقادة الرأي العام؛ زعمت أنهم مفسدون وبرهانك مطالبتهم بحقوقهم، ودفاعهم عن حياتهم، أجوز لك القانون أن تسمي المدافعين عصاة، والعلماء مفسدين، والأئمة مضللين؟ أهذه هي الأخلاق الإنكليزية؟ سلام على علمك الواسع، وفضلك الغزير!

أما الحالة التي عبرت عنها بأنها توجب الأسف فإنها من نتائج تهوسكم وتجاوزكم من قلة تدبركم، فلو كنتم وفيتم بالوعود وعملتكم طبق العهود، فحققتهم رغائب الشعب المظلوم، لحفظتم مكانتكم، وثبتتم في القلوب صداقتكم، ولكنك يا حضرة الحاكم، أنت دفعت الأمة إلى القتال، أنت أسلمتها إلى هذه الحال، أنت أتعبت جيشك بلا جدوى؛ فأنت المسؤول عن هذه الوقائع.

فيا حضرة الحاكم العام، إن المجلس العرفي الذي أمر جنابك بتأليفه لإعدام الوطنيين، ونفي الشبان المخلصين، وسجن الأبرياء والمظلومين، جديرٌ بأعضائه العسكر أن يحاكموك. من أولى منك بالمحاكمة إذا كان للمجرمين، وإذا أعد للمذنبين؟ يا أيها الحاكم العام، لقد قامت قيامتكم على القيصر غليوم فأوجبتم محاكمته؛ لأنكم نسبتهم إليه جناية الحرب الكبرى، فهو مجرمٌ عندكم؛ لأنه مثير الثوائر بزعمكم، فإن كانت شرائع الدول توجب قصاص المجرمين فأنت أولى بأن تُقاصص وتعاقب؛ لأنك أكبر مجرم على الإنسانية، أكبر مجرم على الحكومة البريطانية<sup>١</sup>.

يا ممثل الدولة الإنكليزية، إن اعترافك بقوة الأمة العراقية يناقض استدراكك العليل بقولك: (ولكن عددهم قليل، وليس لهم من الدراهم إلا القليل)، يا أيها الحاكم إن الأمة قد اعتمدت في دفاعها على ثلاثة أركان: القومية، والوطنية،

١. جريدتا الفرات - الاستقلال، المصدر السابق، ص ٢١.

والشريعة الإسلامية، فعندها الثبات إزاء اختراع الآلات، والعناية الإلهية بدل المساعدة الخارجية، والقناعة عوض الزراعة. فالأمة صابرةً على النزال حتى تنزلوا على حكم الحق، مستمرةً على النضال حتى تسترد الحاكمية. أمّا قولك: (ها قد بذل العرب حتى الآن كل ما في وسعهم من الجهد، ولا يمكنهم أن يأتوا بعمل فوق ما عملوا)، فيا حضرة الحاكم إنَّ العرب لم يبذلوا إلى الآن إلا عشر ما أعدَّوه، ولم يعملوا بعض ما يريدون أن يعملوه، فقوتهم في زيادة، وأعمالهم في نشاط، ها قد جاء الخريف وانتهى موسم الحصاد، وفرغ العرب من المشاغل الزراعية، وأقبلوا على الحرب الدفاعية بشوقٍ عجيبٍ وميلٍ قوي، فازدادت جموعهم أضعاف ما كانت، وأمّا تهديدك بوصول العساكر والذخائر وسائر ما يلزم لأعمال العسكرية، فالأمة على علمٍ من قوتكم ومعداتكم واستعداداتكم للقتل والسفك، وليس بها حاجةٌ إلى إرسال معتمدٍ يكشف لها ما هيأتموه من الوسائل الحربية.

الله يا حضرة الحاكم، ما هذه المضمرة العداوية؟ بهذا تستجلب نفوس العراقيين؟ ما أبعدك عن الحكمة والصواب، كأنَّ الوسائل الحربية ووسائل قضاء على الاستقلال والحرية، أتطلب معتمدًا لهذه الغاية للاطلاع على الفضايع العسكرية، فأين الإنسانية؟

وأمّا قولك: (فبناءً على أن النتيجة النهائية هي معلومة فلم يدوم سفك الدماء؟) إننا نسألك ما هي النتيجة المعلومة، من جواز الحكم من المجهولات؟ هل تيقنت أنَّها في جانبكم باعتمادكم على القوة العسكرية التي طوحتم بها، ومزقتم أوصالها؟ إننا لا نريد إطالة إطالة سفك الدماء ولكنك تريد ذلك، فضع حدًا لإبهامك وإيهامك؛ فإنَّ الأمة قد كشفت نيَّاتك السود، ووقفت على حقيقة

أحوالك. ثم ما أغرب قولك: (إنّ الحكومة الإنكليزية عملاً بقواعدها ستجازي بعض الشيوخ وغيرهم الذين ضلّوا بالناس، وأسماؤهم معلومة عندي). الله يا أيها الحاكم، كم نسيت قولك في صدر الكتاب: (إنّ الحكومة الإنكليزية قد اعتمدت على الأركان الثلاثة)، أكان من الأركان الثلاثة أنّه ستتقم من المشايخ الذين أحرقت بيوتهم ونهبت أموالهم وذبحت أطفالهم؛ لأنّهم طالبوك بالاستقلال؟! لسمع المشايخ نصيحتك هذه، ليقفوا على حقيقة إخلاصك وماذا تُعدّ لهم؟

أيها الحاكم العادل! هل وراء ما يشهدونه كلّ يوم من ضروب الظلم وأنواع الاعتساف، هل وراء التعذيب والانتقام شيءٍ آخر من العذاب؟ ليطمأنّ بالمشايخ وغيرهم، فهذا عدلك، وهذه رحمتك! أما طلب المفاوضة وتعيينك لها حضرة الكولونيل هاول، فإنّ ذلك يعود إلى رأي المشايخ وأقطاب الأمة الذين قلت إنّ الحكومة الإنكليزية ستجازيهم عملاً بقواعدها. فيا أيها الحاكم إنّ الأمة عملاً بقواعدها الإنسانية واعتماداً على أصول المدنية لا تمتنع عن المفاوضات الدولية، لكنّها لا تدخل في المفاوضة معكم إلّا على الشروط الآتية:

١. سحب الجيش من البلاد.

٢. إرجاع المنفيين.

٣. حضور قناصل الدول في مجلس المفاوضة.

وخلاصة القول أنّ الأمة لا تريد إلّا الاستقلال التام للعراق بحدوده المعروفة، وهي لا تدخل في المفاوضة إلّا على تلك الشروط<sup>١</sup>.

وقد لفظت (الفرات) أنفاسها الأخيرة بصدور هذا العدد، وذلك بعد أن

١. جريدتا الفرات - الاستقلال، المصدر السابق، ص ٢١.

خمدت الثورة العراقية، وتفرّق قاداتها وزعماءؤها في المنفى والسجون والمعتقلات، وما أعقب ذلك من لجوء الإنكليز إلى خديعة (الحكومة المؤقتة)، والتظاهر بإعطاء الشعب حقّه في التحرّر والاستقلال؛ تمهيداً لفرض الانتداب البريطاني على العراق، وتكيله بقيود أول معاهدة استعماريةٍ بغیضةٍ كانت أشبه بمعاهدة بين الذئب والحمل.

ولما كان الشيخ الشيبلي، ذلك الشاعر السياسي الثائر، يعرف ما لتنظيم وسائل النشر والدعاية والإعلام من أثرٍ مهمٍ في توجيه الرأي العام، وتوحيد مشاعره؛ فقد بادر - وهو الأديب القدير - بإصدار منشورات يومية يذيع فيها أخبار المناطق الثائرة، والتوجيهات والنصائح الشديدة التي تهدف إلى خدمة الثورة ونجاح مخططاتها. وحتى عند صدور (الفرات) لم يكتف بما كانت تنشره على صفحاتها عن الثورية، وإنّما استمرّ يصدر منشوراتٍ خاصّة تتضمّن أنباء المعارك، وبعض الأخبار والبيانات المهمة، والرسائل التي ترد إليها من بعض مندوبيها في جبهات القتال، وكُتّب قادة الثورة للردّ على مزاعم سلطات الاحتلال. نورد هنا جدولاً بصدورها حسب تواريخها<sup>١</sup>:

١. حرب الفرات الانتصار العظيم، عن معسكر الجيش العربي في الكفل في ٨ ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هـ، الظفر في الكفل، وكان مؤرّخاً في ٩ ذي القعدة.
٢. إلى العالم المتمدن: جنایة الإنكليز على المعابد، إلقاء القذائف النارية على مسجد الكوفة، وقتل النساء والمتعبدين، مؤرّخ في ٩ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.
٣. حرب الفرات: الاحتجاجات الأدبية، النفي والتبعيد، الحركات العسكرية، فوز العرب في الفرات الأوسط، مؤرّخ في: النجف في ١١ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.

١. جريدتنا الفرات - الاستقلال، المصدر السابق، ص ٢٢.

٤. وصول الأسرى، نظام الأسر، عناية النجف وزعماء النهضة بالأسرى، إرسالهم إلى أبي صخير. مؤرّخ في: ذي القعدة (١٣٣٧ اشتبأها) ١٣٣٨ هـ.
٥. إلى الناهضين مؤرّخ في النجف ١٤ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.
٦. أخبار الحرب، موقف الإنكليز في الديوانية، الحالة في الحلة، مؤرّخ في: ١٤ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.
٧. إعلان وبشرى، في: ١٥ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.
٨. أخبار الحرب: الموقف في الديوانية، مؤرّخ في ١٥ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.
٩. حرب الفرات، مؤرّخ في النجف ١٦ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.
١٠. موقف الإنكليز في العراق، مؤرّخ في النجف ٢٠ ذي القعدة سنة ١٣٣٨ هـ.
١١. أخبار الحرب غير مؤرّخ (٢٩) ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.
١٢. أخبار جبهة السماوة: مؤرّخ في: ٢٨ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ.
١٣. أخبار الحرب: تقدم القبائل المهجوم على المحمودية، تخريب سكة الفلوجة، قتل لجمن، حادثة الخضر، مؤرّخ في النجف ٢ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ.
١٤. صورة المکتوب الوارد من الخضر في: ١٢ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ. صورة الكتاب الوارد المتضمّن الشكر لأهالي كربلاء، في: ١٧ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ، والمنشور مؤرّخ في النجف ١٧ ذي الحجة ١٣٣٨ هـ.
١٥. أخبار الحرب: الاستيلاء على محطة السماوة، نهوض الغراف، قيام المجرية، عن المعسكرات العربية، أخبار الناصرية، أخبار المسيّب مؤرّخ في: ٢٣ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ هـ.
١٦. لسان العرب ورأيها العام (منشور قيادة الثورة في النجف الأشرف بعد أن اطلّعت على كتاب السير ولسن إلى شيخ الشريعة بمناسبة وفاة الإمام الخائري، وقد وزّعت في كافة أنحاء العراق، مؤرّخ في: ٢٥ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ هـ.

١٧. جواب آية الله شيخ الشريعة إلى الحاكم الملكي العام في بغداد، يرَدّ فيه على بعض الأمور التي ذكرها في كتابه، مؤرَّخ في ٢ محرم ١٣٣٩ هـ.
- وفيما يلي نموذج من هذه المنشورات، وهو المنشور الصادر يوم ١٤ ذي القعدة ١٣٣٨ هـ، وفيه بعد التمهيد والديباجة:
١. يجب على كلِّ رئيس قبيلة أن يُفهم كافة أفرادها بأن المقصود من هذه النهضة إنما هو طلب الاستقلال التام.
  ٢. أن يهتف للاستقلال كلُّ من في ميادين القتال.
  ٣. يجب تأمين الطرق وحفظ المواصلات بينكم وبين مناطق الثورة في البلاد.
  ٤. يلزم التمسك بالنظام، وتدبير الحركات، ومنع الاعتداءات، فلا نهب ولا سلب ولا ضغائن قديمة ولا أحقاد.
  ٥. من الواجب بذل الهمة لحفظ الرصاص، فلا يجوز إطلاقه في الهواء بدون فائدة.
  ٦. يجب الاعتناء بالأسرى ضباطاً أو جنوداً، إنكليزاً أو هنوداً.
  ٧. يجب إبقاء أدوات التلغراف والتلفون وحفظ الأعمدة؛ فإنَّ في حفظها منافع عظيمة للأمة، نعم يجب قطع الأسلاك من الأعمدة حتى تنقطع مخبرات الإنكليز.
  ٨. يلزم الاهتمام بقطع السكك الحديدية، ولا سيما نفس الجسور والقناطر التي يمرُّ بها القطار.
  ٩. يجب الاحتفاظ بما يقع تحت أيديكم من عربات النقل والسيارات (الأوتومبيلات)، والمراكب والمطورات.
  ١٠. يجب حفظ المنافع والرشاشات، ولا يجوز تخريب آلاتها، أو تفريقها مطلقاً؛ لأنَّها من أكبر منافع الجيش وأعظم وسائل النصر.
  ١١. يلزم حفظ الذخيرة المعتمنة كالرصاص والقذائف، وسائر أنواع البارود.
  ١٢. إذا أسقطتم مدينةً أو قريةً فلا تتركوها منحلَّة، بل الواجب ترتيب حكومتها المؤقتة.
  ١٣. لا تهدموا محلات الحكومة وأبنيتها إلا إذا كانت معقلاً، ولا تفرِّقوا أثاثها لاحتياجكم لها في المستقبل.

١٤ . حافظوا على المستشفيات وكافة أجزائها وأدواتها.

١٥ . ارفقوا بجرحى خصوصكم الساقطين في الحرب، فلا شيء يستحق الرفق والعطف مثل الجريح الذي يعاني من ألم جراحه ما يدمي القلوب ويكي العيون<sup>١</sup>.

### الخاتمة

كان من الطبيعي أن تأخذ جريدة الفرات موقعها من الجماهير الثائرة في وجه الاحتلال، وأن تكون عند أصحاب الفكر والعلماء والمناضلين أداة في التحولات الجماهيرية الثورية نحو الاستقلال والتطوير في أفق مستقبل زاهر يضم الأمة العربية جمعاء. لكن نتيجة ضغط السلطات المحتلة التي عدّ هذه الجريدة بمنزلة الدافع والحافز لاستمرار هذه الثورة وحيوتها، وظهر بوادر القضاء على الثورة احتجبت الجريدة في ٢٦ ايلول ١٩٢٠ .

لكن لم تصمت الثورة بعد توقّف هذه الجريدة، إذ بقي في ذلك الوقت صدى مقالاتها ومنشوراتها، وأعدادها الخمسة موزعة في كافة أنحاء العراق تدلّ على الاستمرارية والبقاء الصوت الحقّ بدحر الظالمين والمحتلين.

وهكذا سجلت هذه الجريدة في سجل التاريخ موقفها المشرق، وكلمتها المكتوبة بالدم والتضحية في سبيل إعلاء كلمة التوحيد والإسلام والعروبة، ضدّ كافة الخونة والمستعمرين وأذنبه

---

١ . جريدتا الفرات - الاستقلال، المصدر السابق، ص ٢٥-٢٤.

### المصادر

١. أديب مروة، الصحافة العربية نشأتها وتطورها، بيروت، دار مكتبة الحياة، الطبعة الأولى، ١٩٦١م.
٢. إسحاق نقاش، شيعة العراق، طهران - قم، مطبعة أمير، ١٩٩٨م.
٣. الأعرجي، ستار، إسهام مدرسة النجف الأشرف في الحوار الحضاري، بحث منشور في المؤتمر العلمي الأول، كلية الفقه، النجف الأشرف، مطبعة الضياء.
٤. البهادلي، علي، الكتب والمكتبات في النجف، مجلة نور السالم، بيروت، العددان: ٣١، ٣٢.
٥. البهادلي، محمد باقر أحمد، الحياة الفكرية في النجف الأشرف، بيروت، مطبعة سنار.
٦. التكريتي، سليم طه، صحافة ثورة العشرين، مجلة المورد البغدادية، العدد ٤، ١٩٧٩م - ١٣٩٧هـ.
٧. الجبوري، كامل سلمان، مذكرات عبد الحميد الزاهد، بغداد، مطبعة العاني، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
٨. جريدتا الفرات - الاستقلال، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية، دار الكفيل، سلسلة صحافة النجف الأشرف. ٢٠١٦م.
٩. الحسيني، عبد الرزاق، الثورة العراقية الكبرى، دار الشؤون الثقافية، ط ٦، ١٩٩٢م.
١٠. خليل صابات، تاريخ الطباعة في الشرق العربي، مصر، ١٩٥٨م.
١١. الخليلي، جعفر، هكذا عرفتهم، طهران، المكتبة الحيدرية، ط ١، (٧) أجزاء، ١٤٢٦هـ.
١٢. الدراجي، محمد عباس، صحافة النجف، بغداد، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ١٩٧٥م.
١٣. الدراجي، محمد عباس، صحافة النجف تاريخ وابداع، بغداد، دار الشؤون الثقافية، ١٩٨٩م.
١٤. رفاييل بطي، صحافة العراق، بغداد، مكتبة دار الكندي، ١٩٨٥.
١٥. الشيببي، قصي سالم علوان شاعرا، بغداد، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة، ١٩٧٥م.
١٦. شهاب احمد حميد، تاريخ الطباعة في العراق، بغداد، مطبعة الأمة، ١٩٨٣.
١٧. صحيفة الغري، ٩ مجلد، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١١م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (١٢).

١٨. صحيفة النجف، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١٠م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (١٣).
١٩. عبد الرحيم محمد علي، تاريخ الصحافة النجفية، مجلة آفاق نجفية، العدد (٥)، السنة الثانية، ٢٠٠٧م، النجف الأشرف.
٢٠. الحسيني، عبد الرزاق، تاريخ الصحافة العراقية، صيدا - لبنان، مطبعة العرفان، ط ٣، ١٩٧١ م.
٢١. الفضلي، عبد الهادي، دليل النجف الأشرف، النجف، مطبعة الآداب، ١٣٨٥ هـ.
٢٢. الفيكونت دي طرازي، تاريخ الصحافة العربية، بيروت، دار صادر، ط ٣، ١٩٦٧ م.
٢٣. القزويني، جودت، تاريخ القزويني، بيروت، خزائن الحياء التراث، ط ١، عدد مجلدات الكتاب ٣٠ مجلداً، ٢٠١٢م.
٢٤. الكفائي، كاظم، عصور الأدب العربي، بغداد، مطبعة الرشاد، ١٩٦٨ م.
٢٥. مجلة الاعتدال، ست مجلدات، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠٠٩م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (٢).
٢٦. مجلة البيان، ٦ مجلد، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١٠م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (٥).
٢٧. مجلة الحيرة، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١٠م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (١١).
٢٨. مجلة الدليل، ٢ مجلد، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١٠م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (٣).
٢٩. مجلة الشعاع، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١١ م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (٦).
٣٠. مجلة العدل الإسلامي، مجلدين، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١٠م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف، (٧).

٣١. مجلة العقيدة، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١٠م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (٩).
٣٢. مجلة العلم، مجلدين، مكتبة الروضة الحيدرية، دار التعارف للمطبوعات، ٢٠٠٩م، سلسلة صحافة النجف الأشرف (١).
٣٣. مجلة المصباح، مجلد واحد، مكتبة الروضة الحيدرية، ٢٠١٠م، دار التعارف للمطبوعات، سلسلة صحافة النجف الأشرف (٨).
٣٤. المقدسي، أنيس الخوري، التيارات الأدبية في العالم العربي المعاصر، بيروت، ١٩٦٧م.
٣٥. نخبة من الباحثين العراقيين، حضارة العراق، بغداد، دار الحرية للطباعة، ثلاثة عشر جزءاً، ١٩٨٥، الجزء الثالث عشر، الصحافة العراقية ١٩٥٨-١٩١٤.
٣٦. يعقوب يوسف كوديا، صحافة ثورة العشرين، بغداد، مطبعة السعدي، ط ١٩٧١.

# أدباء الحوزة العلميّة في النجف الأشرف ومقارعة الاستعمار شعر الشيخ محمّد رضا الشبيبيّ أنموذجاً

حسين الساعدي<sup>١</sup>

## الملخّص

إنّ المرجعية الدينيّة هي الامتداد الطبيعي لخطّ الرسالة المتمثّل بالرسول الأكرم صلى الله عليه وآله، كما أنّها الامتداد الطبيعي لخطّ الإمامة المتمثّل بالأئمة الاثني عشر عليهم السلام، إذ كانت المرجعيّة الدينيّة حصناً للدين، ودرعاً لحفظ شريعة سيّد المرسلين، ولقد أدّت المرجعيّة الدينيّة دوراً أساسياً في استيعاب ونشر العلوم لسدّ حاجات المجتمعات ولم تدّخر في هذا المجال جهداً إلاّ بذلته فقد بينت وبلغت الأحكام الإلهيّة ومسائل الحلال والحرام، وبذلت قصارى جهدها في تعليم المفاهيم الإسلاميّة الحقيقيّة، وفضلاً عن الدور الأساسي الذي قام به العلماء في مجال بيان الأحكام الإلهيّة وحفظ التراث الشيعي فقد اهتموا بإصلاح المجتمع، وتحسين أوضاع الناس والدفاع عن المقدسات الدينيّة والكرامات الوطنيّة.

يعدّ الشيخ محمّد رضا الشبيبيّ من أدباء وشعراء العراق الأفذاذ، وثوّاره الأحرار، جمع إلى جانب أشعاره الوطنيّة والوجدانيّة المليئة بالعواطف والأحاسيس الملتهبة مواقف البطولية في سوح الجهاد، فكان مثلاً حياً للإنسان

١. باحث في علوم اللغة العربيّة وآدابها - العراق.

الوطني المخلص الذي يطمح إلى تحرّر بلاده من أغلال الاستعمار، كما كان أنموذجاً رائعاً لقادة الفكر وحاملي لواء النهضة الفكرية والاجتماعية ليس في العراق فحسب، بل في جميع البلدان التي تسعى للنهوض والتقدم فكانت مبادئه السامية ومواقفه المشرفة نبراساً تهتدي به الأجيال جيلاً بعد جيل. عاصر الشيبسي في المدّة التي عاشها، أواخر الحكم العثماني على العراق، وبعده الاحتلال البريطاني، ثم الحكم الملكي في مدّة الانتداب والاستقلال، وانتهت في عهد الجمهوريّة. عين وزيراً للمعارف عدّه مرّات في مختلف الوزارات كما أُنتخب أيضاً عضواً في مجلس الأعيان ورئيساً له عدّة مرّات. كان ينظر إلى السياسة بأنّها وسيلةٌ لخدمة الشعب؛ ولذا دائماً يقدّم مصلحة الشعب على الألاعيب السياسيّة. ومن هذا المنطلق كلّما أحسّ بهضم حقّ المواطنين لصالح السياسة، استعفى من منصبه السياسيّ، فلهذا كان يعرف بين وسط السياسيين بالسياسيّ ذي النزعة الشعبيّة. وأمّا في الجانب الأدبي، فهو يعدّ شاعراً من أبرز شعراء العراق الحديث، وكاتباً ضليعاً، ومؤرّخاً بحتاً، وناقداً أدبياً بعيد النظر، حديد البصر، دقيق الملاحظة. وكان عضو مجامع اللغة العربيّة في دمشق، وبغداد، والقاهرة.

فهذه الدراسة التي اعتمدت على المنهج الوصفي التحليلي تهدف إلى معالجة مفاهيم المقاومة في شعر الشيبسي، ومن أهمّها رفض ظلم الاستعمار، وانتقاد سياساتهم والتنديد بالحرب، والدعوة إلى وحدة الشعب، والثورة على الطغيان والاستبداد في سبيل نيل حريّة الوطن.

الكلمات المفتاحية: المقاومة، الاستعمار، الوطن، النجف، العراق، الشيبسي.

## مدخل

لا شك في أنّ الشعر من مظاهره العظيمة استنهاض همم الشعوب ضدّ إرادة الطغاة الذين لا يعرفون إلّا الكبت والقمع، وانعكس صداها واضحا في مجمل الإنتاج الشعري وتميّز بنزوع واضح نحو الاندماج بالمجتمع وقضاياه السياسية تحديداً، ومعايشة الهمّ الوطني الذي حمّله الشعراء في ضمائرهم، وحوّلوا قصائدهم إلى أسلحةٍ حقيقيّةٍ تعريّ وقاحة الطغاة والمحتلّين، وتدفع الشعوب وحراكها الوطني إلى محطات الفعل الثوري، ولقد ورث الأدب العراقي المعاصر ومن قبله الأدب الحديث هموم المجتمع العراقي، وإنعكست الأحداث السياسيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة على مضامينه بشكلٍ كبيرٍ بسبب حالة الفوضى السياسيّة والتبعية والاحتلال الأجنبي، إلّا أنّ المنجز الفنّي الذي تحقّق للشعر على يد مجموعةٍ من الشعراء لا سيّما شعراء مدرسة الشعر الحر، قد أسهم في إحداث نقلةٍ كبيرةٍ خلّصت الشعر من التبعية الفنّيّة التي نالها عند شعراء الاتجاه الكلاسيكي، ومنهم الكاظمي، والزهاوي، والرصافي، والشبيبي، فقد كان الشاعر قبل ذلك يعيش حالةً من الانفصام عن الواقع على الرغم من تعلّقه بمجريات الأحداث السياسيّة. وعندما نتكلّم عن أدب المقاومة، سرعان ما يتبادر إلى الذهن محاربة الظلم والفساد الذي ينعكس فيه القضايا الاجتماعيّة والسياسيّة والأيدولوجيّة والأخلاقية؛ لأنّ العلاقة بين الأدب والمجتمع علاقةٌ قديمةٌ، وكما يؤثّر الأدب على المجتمعات تؤثّر المجتمعات على الأدب. بتعبيرٍ آخر إنّ العادات والتقاليد والعقائد والنهضات التي انعكست في الأدب هي في الوقت نفسه وليدة الآثار الأدبيّة. لا شك في أنّ شعر المقاومة يُعدّ نوعاً من التصديّ لكلّ أشكال الاستعمار والاستبداد؛ كما لا يخفى أنّ شعر شعراء المقاومة

ينم عن مشاعرهم القلبية من حبٍّ وغضبٍ وحرمان. والشاعر المقاوم يجمع بين مصيره ومصير أمته، ويتحمّل السجن والمنفى والاضطهاد ليقوم في وجه أعداء شعبه، وينفض عن أمته غبار التخلف والعذاب والتوتر.

يعدّ أدب المقاومة ضمن الأدب الملتزم والسياسي الذي يعبر عن جهود شعبٍ تعرّض لهجومٍ عسكريٍّ أو ثقافيٍّ أو دينيٍّ، وعن تضحياته وكفاحته ومظلوميته، وهو يعاني من الحرمان والمتاعب في هذا الطريق، وخلافاً لما كان في الماضي العتيق عند العرب بأنّ الشعرَ ديوانهم وسجل أيامهم، بل هو بُني على تفاعله مع المجتمع وثقافته وهمومه ومعاناته، وسروره وانتصاراته، وقضاياه المختلفة والمتنوعة؛ فيعدّ انعكاساً لأحوال أبناء ذلك المجتمع، وآماله، وتطلّعاته. تحتوي مادة الشعر المقاوم، الصمود والدفاع عن النفس والحرية والحياة الاجتماعية وإرساء مبدأ الديمقراطية والتداول السليم للسلطنة. وشعراء المقاومة هم الذين يصوّرون في أناشيدهم قهر الظالمين والمصائب الواردة على المظلومين وتحريضهم على أخذ حقوقهم من المستكبرين ودعوتهم إلى النضال ضدّهم. لم تكن لتلك الكوكبة من الشعراء مسّى واضح إلا في منتصف القرن العشرين عندما احتلّت إسرائيل فلسطين، ونهبت الأرض والعباد. فمنذ ذلك الزمن ظهر شعر المقاومة وشعراؤها بشكل خاصّ كما نراه اليوم.

فالعراق يُعدّ من أكثر البلدان مقاومةً للمحتلّين والغزاة، وبسبب موقعه المتميّز عان الولايات من الطامعين والمحتلّين، وشهد أسوأ الأدوار، أبرزها: عهد الحكم العثماني (القرن ١٩)، والاستبداد البريطاني، ثم حكومة حزب البعث العراقي (القرن ٢٠)، وأخيراً الاحتلال الأميركي.

لا شك في أنّ الحروب العثمانية والاستبداد البريطاني والفساد والاختناق

الحاكم في المجتمع العراقي كان لها تأثيرٌ بالغٌ في إثارة مشاعر الناس لا سيّما الشعراء، ومنهم السيّد الحَبّوبي، والشيخ محمد رضا الشبيبي، الذين خلقوا نوعاً جديداً من الشعر في ذلك المجتمع باسم (الشعر المقاوم) احتجاجاً بوجه الظالم.

### أ. تاريخ العراق السياسي

إنّ العراق بسبب موقعه الاستراتيجي كان محطّ أنظار البلدان الأجنبيّة منذ القدم، فتاريخ العراق، تاريخ ثورةٍ وكفاح، وتاريخ إخفاقاتٍ تكسر القلوب وتحزنها. كان العراق في العهد العباسي (٦٥٦ - ١٣٢) من أهمّ حواضر العلم والثقافة والمدنية وأخصبها. لكنّه قد اعتورته ضروبٌ شتى من المحن والتدهور إثر هجوم هولاءكو خان في سنة ٦٥٦ هـ، فأصاب من عزّته وازدهاره، وأوهنه الضعف والتخلف<sup>١</sup>، وقد مرّ بالعراق شتى الأدوار السياسيّة التي أضاعت شخصيّته، وأفقدت أصالته ومسخت حضارته. فقد تداولته عدّة أنظمة مستبدّة وحكّام أجانب.

### الدولة العثمانيّة

تولّى الأتراك العثمانيون أمور المسلمين بعد انهيار الخلافة العباسيّة وسقوط عاصمتها بغداد بأيدي التتار، فصار المسلمون ميراثاً لبني عثمان بعد أن كانوا ميراثاً لبني أميّة، ثمّ بني العبّاس. هم دخلوا في الإسلام وأدانوا به، فاستقاموا عليه حيناً وشرّدوا حيناً آخر. إنّ العثمانيين تلقّوا راية الإسلام بقوة، لكنّ عاطفتهم نحو الإسلام كانت أقوى من فقههم فيه وحماستهم له أشدّ من تفهّمهم لروحه<sup>٢</sup>. «مؤسس هذه الدولة أرطغرل بن سليمان شاه التركماني، قائد إحدى

١. فاخوري، حنّا، تاريخ الأدب العربي، ٥١٥.

٢. الغزالي، محمد، الإسلام والاستبداد السياسي، ٢٠٦-١٠٤.

قبائل الترك النازحين من سهول آسيا الغربيّة إلى البلاد آسيا الصغرى. ولما توفي أرطغرل سنة ٦٨٧ هـ، عيّن الملك علاء الدين مكانه، وهو عثمان مؤسس الدولة العثمانيّة<sup>(١)</sup>.

بدأ العهد العثماني في العراق بانتصار السلطان سليمان القانوني على الصفويين واستيلائه على بغداد عام ١٥٣٤م وقد دام حكم العثمانيين أربعة قرون على التقريب، وانتهى باحتلال القوات البريطانيّة للعراق والعاصمة بغداد سنة ١٩١٧م. تعدّ الدولة العثمانيّة في عهد السلطان سليمان القانوني، العصر الدّهبي؛ لأنّ في عهده توسّعت التّجارة، وتحسّنت نوعاً ما ظروف المعيشة والاقتصاد، وبنيت أبنية جديدة في المدن العراقيّة لاسيّما بغداد. توفيّ سليمان القانوني سنة ١٥٦٦م. فقد جاء بعده ملوك عدّة لكنّهم لم يتعقبوا خطوته ولم ينهجوا منهجه. ثمّ وصلت الخلافة إلى السلطان سليم الثالث سنة ١٧٦٩م، وكانت الدولة في الضّعف والتفّسخ والاحتلال وكانت الانكشاريّة (هم من الجيوش العثمانيّة معروفة بالهمجيّة والنهب) على رأس هذه الأمور، يعملون الأعمال الشنيعة، ويسيرون وفق أهدافهم والبلاد في فوضى، حتى ترسّخت فكرة الإصلاح في أذهان العثمانيين. فبدأ السلطان محمود بإصلاح الأمور من الوجهة الإداريّة والعسكريّة، وأخذ يبعث المنشورات الإصلاحية إلى الولاة لكنّه مات، وبعد ذلك استمر رجال الدولة بتلك الحركة الإصلاحية إلى عهد السلطان عبد الحميد والسلطان عبد العزيز.

فألّفت القوانين العديدة التي كانت مقتبسةً من القوانين الفرنسيّة مع مراعاة نصوص الشريعة الإسلاميّة. فرجال الدولة دوّنوا قوانين متعدّدة لكلّ شأنٍ من

١. عبد الحكيم، عمر، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، ٣٥٤.

شؤونات الدولة وسمّوه بالدستور. لكنّ نظام الحكم كان مطلقاً ورأى السلطان وإرادته فوق كلّ قانون، حتى وصلت الخلافة إلى السلطان عبد الحميد سنة ١٨٧٦ م، فزادت في زمنه شدة سوء الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والفتن الطائفية<sup>١</sup> في العهد العثماني، و«انحطّ الأدب العربي إلى أسفل الدرك؛ لشيوع التركيّة في المخاطبات والمراسيم والدواوين، وتسلّطت الخمور على العقول، والتقليد على المعاني، والصناعة المقيتة في الأساليب<sup>٢</sup>»، وساد الأمة العربية ثلوث الفقر والمرض والجهل، وأخذ الحكّام العرب يفرضون الضرائب الثقيلة على الشعب ويسوطونه بالاستبداد. هكذا انتهى الحكم العثماني بدخول العساكر البريطانية إلى بغداد سنة ١٩١٧ م.

### الاحتلال الإنجليزي

كان العراق ولايةً عثمانيةً منذ عام (١٥١٦م - ٩٢٢هـ) وحتى (١٩١٧م - ١٣٣٥هـ)، وتنافست لاحتلاله الدول الأجنبية من مثل ألمانيا وفرنسا وإنجلترا. ولما اندلعت الحرب العالمية الأولى سنة (١٣٣٢هـ - ١٩١٤م) تحرّكت القوات البريطانية من الهند لاحتلال العراق ففازت هذه الجيوش، واستولت على بعض المدن العراقية كالفاء والبصرة، وسيطرت على جنوب العراق تدريجياً سنة (١٣٣٣هـ - ١٩١٥م)، وفي سنة (١٣٣٥هـ - ١٩١٧م) احتلّت المدن الأخرى مثل: بغداد، الموصل، وفي النهاية أعلنت بريطانيا إنهاء تبعية العراق للدولة العثمانية<sup>٣</sup>. أدّى انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الأولى وهزيمة الدولة

١. أبو الشّباب، واصف، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، ١١.

٢. فاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، ٨٦١.

٣. عبد الحكيم، عمر، دعوة المقاومة الإسلامية العالمية، ٤٤٤.

العثمانية، إلى تقسيم المشرق العربي إلى دويلات. بموجب اتفاقية (سايس بيكو) في مؤتمر (سان ريمو) سنة (١٣٣٨هـ - ١٩٢٠م)؛ إذ جعل العراق تحت حماية الدولة البريطانية<sup>١</sup>.

بعد ذلك دخل العراق مرحلة جديدة من حياته السياسية وواجه لوناً جديداً من الاحتلال، وهو لبس جلباب التدين والإسلام دون أن يراعى فيه الإسلام وقوانينه الإلهية. إن من أهم أسباب هجوم الإنجليز على العراق واحتلاله، هو تمتع العراق بالثروات الزراعية والمعدنية الكثيرة مما يجعله محط أنظار الأجانب، ثم كون العراق على شواطئ الخليج واقترابه من بلاد الهند حيث يمكن من خلاله الوصول في أقل وقت إلى الهند التي تتميز بارتقاء مستوياتها الاقتصادية والتجارية، جعل العراق في أحسن المواقع الاستراتيجية<sup>٢</sup>. من الجلي أن الدولة البريطانية دفعت التعويضات الكبيرة لإسقاط الحكم العثماني حتى بلغ عدد قتلاهم أكثر من مائة ألف نسمة<sup>٣</sup>.

### ثورة (١٩٢٠م)

احتل الإنجليز كل المدن العراقية على التقريب. والشعب العراقي لم يكن راضياً على الحكومة العثمانية وطريقة حكمها الجائر والمتسلط، فوصل الأمر إلى حد أن بعض القبائل كانت تساند القوات البريطانية وتعاونها في أمر خروج العامل العثماني من البلد. لكن سرعان ما رفع الإنجليز البرقع عن وجهها وعرف العراقيون أهداف بريطانيا الشيطانية ونياتها غير السليمة، فبدأوا بالمقاومة تجاه

١. أبو الشَّباب، واصف، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، ١٢.

٢. قدورة، زاهية، تاريخ العرب الحديث، ١٣٠-١٢٩.

٣. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ١٥٦.

قواته المحتلّة وقاموا بثورة (١٩٢٠م)، على إثر (مؤتمر سان ريمو)، وتقرير وضع العراق تحت الحماية البريطانية وانتشرت الثورة في كلّ أنحاء البلد، من الموصل إلى البصرة، وحدثت مظاهرات في كربلاء والحلّة تطالب باستقلال العراق وتشكيل الدولة العراقية العربية، فاسترجعوا مدنها من الإنجليز المحتلّ واحدة تلو الأخرى، ولم يبق في أيدي الإنجليز سوى البصرة وبغداد والموصل. إثر اندلاع هذه الثورة في العراق بقيادة علماء ومراجع التشييع وسائر العشائر والقبائل العراقية، قرّرت المقامات البريطانية أن تنشئ حكومةً وطنيةً في العراق، فجعلوا السر برسي كوكس مسؤولاً لهذه القضية. فصمّم كوكس أن يقيم في أوّل الأمر وزارةً مؤقتةً برئاسة النقيب الذي أعلن تشكيل الوزارة في ٢٥ تشرين الأول، وعند تشكيل الوزارة النقيبيّة المؤقتة بدأت سياسة تقليص عدد البريطانيين والهنود، وتكثير العراقيين في الوظائف الحكوميّة<sup>١</sup>. والمجلس المذكور تولّى إدارة البلد حتى صار فيصل ملكاً للعراق. قد أصاب الإنجليز خسائر فادحة إثر ثورة ١٩٢٠م منها: قتل ٤٢٦ فرداً، وجرح ١٢٢٨ فرداً، وأسر ٦١٥ فرداً، إضافةً إلى أضرارٍ جسيمةٍ في الأموال<sup>٢</sup>.

### بداية الحكم الملكي (١٩٥٨م-١٩٢١م)

للتخلّص من الحكم المباشر ولإزالة الغضب عن الشعب العراقي اكتفى الإنجليز بالسلطة غير المباشرة. فاتخذ القرار بتعيين شخصٍ عربيٍّ ملكاً للعراق. فعرضت بريطانيا عرش العراق على الملك فيصل مع تأسيس حكومةٍ عربيّةٍ تحت الوصاية والانتداب البريطانيّ. فدخل العراق في المرحلة الجديدة من حياته

١. الورددي، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق، ٤٠- ٩.

٢. نفيسي، عبدالله فهد، نهضت شيعيان در انقلاب إسلامي عراق، ١٤٤.

السياسية، المرحلة التي على رأسها حاكم عربي، لكنّه كان رهن إشارة الإنجليز<sup>١</sup>. تقرر أن يكون التتويج في يوم ٢٣ آب / ١٩٢١ م. وقد اختار فيصل نفسه ذلك اليوم؛ لأنّه يوافق يوم ١٨ ذي الحجة حسب التقويم الهجري. هذا اليوم الذي سمّاه الشيعة عيد الغدير، وقد أراد فيصل بانتخاب هذا اليوم، تذكير الشيعة بأنّه من سلالة الإمام عليّ عليه السلام وتتويجه حدث في نفس اليوم الذي نُصّب فيه جدّه للخلافة<sup>٢</sup>.

### العراق عضو في عصبة الأمم المتّحدة

أُنتخب نوري السعيد رئيساً للوزراء من جانب الإنجليز سنة ١٩٣٠ م. وهو كان عميلاً تنفيذياً لخطط الإنجليز الاستعماريّة، وأبرم معاهدة مع الإنجليز تؤدّي إلى تسلّط الإنجليز على مصادر العراق النفطية لسنين طويلة بشرط قبول العراق عضواً في عصبة الأمم. وهذه المعاهدة جعلت العراق في أظفار الاستبداد أكثر من ذي قبل، وجعل العراق في أزمة سياسية واقتصادية وعسكرية، واستمر الوضع المتأزم حتى سقوط الحكومة الملكيّة في سنة ١٩٥٨ م<sup>٣</sup>. مات الملك فيصل سنة ١٩٣٣ م وتولّى الملك غازي الحكم بعده. تزامن حكمه بالاضطرابات والفتن وحدثت الثورات المختلفة في أنحاء البلاد، واختلّ سير الإدارة وأهين الدستور. فُقتل الملك غازي سنة ١٩٣٩ م، وتلاه فيصل الثاني وهو حديث السن، فصار عبد الإله ونوري السعيد نائبين له في إدارة البلد. فاندلع لهيب الحرب العالمية الثانية في تلك السنة، وفي تلك المدّة تحمّل العراق خسائر فادحة لا تعوّض<sup>٤</sup>.

١. الواعظ، رؤف، الاتجاهات الوطنيّة في الشعر العراقي الحديث، ١٢٩-١٢٨.

٢. الورددي علي، لمحات اجتماعيّة من تاريخ العراق، ١٢٠.

٣. الجميلي، ع، نگاهي به تاريخ سياسي عراق، ٢٤.

٤. الحسيني، عبد الرزاق، تاريخ العراق السياسي الحديث، ٤٥.

### ثورة رشيد الكيلاني (١٩٤١م)

في اليوم الأول من شهر نيسان سنة ١٩٤١م، قام رشيد عالي الكيلاني مع أصدقائه بانقلابٍ على حكومة ولي العهد عبد الإله؛ ففرّ الملك ونوري السعيد من البلد، وتألّفت الوزارة برئاسة الكيلاني. كانت بريطانيا تخاف أن يقوم الكيلاني بوقف إمدادات النفط إلى الدول الغربيّة، ومن أجل هذا قامت بغزو العراق واستعادة الملكيّة مرّةً أخرى، فعاد الملك ونوري السعيد إلى البلد، وقبضا على دفّة الحكم مرّةً ثانية<sup>١</sup>. تألّفت خمسون حكومةً خلال الفترة الملكيّة، وهذا يدلّ على عدم استقرار الحكومة وعدم ثباتها أيضًا.

### الحكم الجمهوري (١٩٦٨-١٩٥٨م)

قام ضباط الجيش بانقلاب في ١٤ تموز عام ١٩٥٨م، أدّى إلى القضاء على الملكيّة، فتألّفت الحكومة الجمهوريّة برئاسة عبد الكريم قاسم. وقد حدثت في الحكومة الجمهوريّة إصلاحات منها، رجوع المنفيين إلى البلد، تساوي حقوق النساء والرجال، إحداث سكة الحديد، وبناء البنايات الجديدة، وتأسيس المعامل والمصانع، وإحداث المتنزّهات العامة وغير ذلك<sup>٢</sup>.

### ب. حياة الشيخ محمد رضا الشبيبي

الشيخ محمد رضا بن الشيخ جواد بن محمد بن شبيب بن إبراهيم بن صقر البطايجي، الشهير بالشبيبيّ. ولد في النجف الأشرف، رمضان عام ١٣٠٦هـ المصادف ٦ أيار عام ١٨٨٩م. والأسرة الشبيبيّة من أشهر الأسر العلميّة في

١. الواعظ، رؤف، الاتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث، ١٢٩-١٢٨.

٢. الجميلي، ع، نگاهی به تاریخ سیاسی عراق، ٧٢-٦٣.

النجف الأشرف، قدمت من جنوب العراق وبالتحديد من مدينة البصرة، وهي فرعٌ من قبيلة بني أسد. درس الشيببي على أشهر علماء عصره كالشيخ محمد حسن المظفر، والسيد مهدي آل بحر العلوم، والسيد حسين الحماي، والسيد هبة الدين الشهرستاني، والسيد حسين القزويني، والشيخ هادي آل كاشف الغطاء، وأيضاً تتلمذ على أبيه الشيخ محمد جواد الشيببي الذي تعدّه المدرسة الدينيّة من ألمع أساتذتها فضلاً عمّا امتاز به من قوة شخصيّةٍ إثر مواقف وطنيّةٍ مهمة، إلى جانب ملكته الشعريّة.

وفي مطلع شبابه عاش واقع العراق الصعب في وقت كانت الدولة العثمانيّة آيلةً إلى السقوط، ثم وقع العراق تحت الاحتلال البريطاني عام ١٩١٨ م. ولا يخفى ما كان عليه واقع العراق آنذاك من تخلفٍ شامل<sup>١</sup>.

### وفاته وتشيعه

توفي فجر يوم الجمعة ٢٥ / ١١ / ١٩٦٥ إثر نوبةٍ قلبيةٍ ألمّت به، وكانت وفاته بعد يومٍ واحدٍ من عودته من القدس، حيث كان مشاركاً في أنشطة الاحتفال بالإسراء والمعراج الذي عقد في القدس. وقد شيع جثمانه تشيعاً مهيباً من مسكنه في الكرادة الشرقية إلى الكاظمية، ومنها إلى جسر الخير سيراً على الأقدام مسافةً طويلةً، تحمل نعشه الأقف في خشوع وإجلال، ثم نقل إلى كربلاء في موكبٍ فريدٍ ضمّ أكثر من ألف سيارة، ثم شيع إلى النجف الأشرف، ودفن في مقبرة آل الشيبب، واشترك في تشيعه كبار الأدباء والعلماء والمسؤولين في الدولة.

١. آقابرگ الطهراني، محمد حسن، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، ج: ٢، ص: ٧٤٥-٧٤٧.

### أعماله الشعرية ومؤلفاته

خلف الشيبيني العديد من الآثار يقف في مقدمتها ديوانه الذي طبع في القاهرة عام ١٩٤٠ م. وفيه نماذج اختارها المترجم له من شعره الكثير، ويضمّ عدّة أبواب منها: الشعر الحماسي، والشعر الحكمي، والشعر الاجتماعي والسياسي، والرثاء، وله مجموعة مراثٍ في زوجته تعدّ من أجمل الأشعار الوجدانية، ومن بين الأغراض النادرة في الشعر العربي، وقد نشرها الباحث قصي سالم عثمان في ذيل دراسته بعنوان: (الشيبيني شاعرًا)، وهذه المجموعة بعنوان: (رنين على الأجداث). كما وردت نماذج كثيرة من شعره ضمن كتاب: (شعراء الغري)، وأغلبها ممّا أسقطه الشاعر من ديوانه؛ لأنّه ينتمي إلى مرحلة البدايات الفنية.

وله مؤلّفاتٌ منها: (ابن خلّكان وفن الترجمة)، و(مؤرّخ العراق ابن الفوطي في جزأين)، و(بين مصر والعراق في ميدان العلاقات الثقافية)، و(التربية في الإسلام). وله عددٌ من المؤلّفات الإبداعية والأدبية منها: مذكّرات الشيبيني (نشر منها عدة فصولٍ في مجلة البلاغ)، وكتابان في أدب الرحلات بعنوان: (رحلة في بادية السماوة)، و(رحلة إلى المغرب الأقصى). وله عددٌ من الدراسات والمحاضرات والتراجم والتحقيقات، منها: (تراثنا الفلسفي - حاجته إلى النقد والتمحيص)، و(القاضي ابن خلّكان ومنهجه في الضبط والإتقان)، و(التربية في الإسلام)، و(أدب المغاربة والأندلسيين في أصوله المصرية ونصوصه العربية) محاضرة ألّقاها في معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة<sup>١</sup>.

١. عبد شناوة، علي، محمد رضا الشيبيني ودوره الفكري والسياسي حتى العام ١٩٣٢، ٢٥.

### شاعرية الشبيبي

يقول الجواهري، وهو من المولعين بشعر الشبيبي: «شاعرٌ مُجيد، واسع البال، رقيق أسلوب النظم، حلو الصناعة، رقيق التعبير. سارت بقصائده الركبان، وتغنّت بدائعه البدو والحضر، شعره في الطبقة العليا. عذب الألفاظ رقيقها، صحيح المعاني فخمها<sup>١</sup>». وقال روفائيل بطي: «خيالٌ جميل، صناعةٌ عراقيةٌ، عليها مسحةٌ عباسية<sup>٢</sup>». وقال علي الخاقاني: «شاعرٌ فحل، قوي الديباجة، جزل الألفاظ، مبدعٌ في الخواطر، مرهف الحسّ، يحمل نفساً كبيرة، وروحاً وثابة، وقلباً مفعماً بحبّ الدين والوطن، وله لفتات وفتات قد لا يزاحمه عليها غيره<sup>٣</sup>».

وقال في وصفه مير بصري الذي لازمه سنين طويلة، وحضر مجالسه، وأنس بزياراته وأحاديثه، ونعم بصداقته ومودته: «أضفى الزمان على الشاب الأنيس وقار المشيب، وجلال الشيخوخة، دون أن يفقد جمال نفسه وصفاء سريره. وقد زادت الأيام حنكةً وحكمةً، دون أن تزيده ثروةً ومالاً». وقال عنه روفائيل بطي في كتابه (الأدب العصري): «شابٌ أنيس، منخفض الصوت، تبدو عليه سيماة العلماء الذين أكمدهم لو نهم الدرس الطويل، آية الأناة في تفكيره وكلامه وكتابته، غير مكثّر من النظم والنثر، لا ينظم باقتراح البتة، وهو الذي قال لي يوم طلبت إليه أن يعارض قصيدة (ياليل الصبّ): لا أعرف أمراً يقال له الطلب إلى الشاعر أن ينظم كيت وكيت، والشعر شعورٌ تجيش به النفس ويصدر من القلب». وقال عنه عبد الكريم الأزري: «رجلٌ محنك، حكيم، مجاهد، واقف للحق وقفة<sup>٤</sup>».

١. الجواهري، حلبة الأدب، ٢٦.

٢. مير بصري، اعلام اليقظة الفكرية في العراق الحديث، ١٥٣.

٣. الخاقاني علي، شعراء الغري، ٣٠.

٤. عبد شناوة، علي، محمد رضا الشبيبي ودوره الفكري والسياسي حتى العام ١٩٣٢، ٢٠٢.

### نشاطاته السياسيّة

لا يمكننا الفصل بأيّ حالٍ بين الجانب الأدبي والفكري لهذه الشخصية والجانب السياسي؛ فقد مثل الشيببيّ واحداً من أكبر الشخصيات التي أدت دوراً أساسياً مؤثراً في السياسة العراقيّة في المدّة التي نشط فيها (العهد العثماني، وعهد الاحتلال البريطاني، والعهد الملكي، وسنوات الانتداب، وحتى عهد تأسيس جمهورية العراق الحديثة) (١٩٠٨-١٩٦٥م)، ويظهر دوره السياسي جلياً في المناصب العديدة التي تقلدها خلال حياته بدءاً من وزارة المعارف، وحتى مجلس الأعيان، ومجلس النواب، ودوره في حركة المعارضة في العهد الملكي؛ إذ عُرف بالجرأة والصراحة وعدم المبالاة والمداهنة على حساب مبادئه ووطنه حتى إنّ جرأته كانت نادرة؛ لا ينافق ولا يمالق، ولا يداهي ولا يداجي، ولا يقول إلاّ ما يصحّ في معتقده، ولا يعتقد إلاّ ما يصحّ في رأيه (على حدّ تعبير أحمد حسن الزيات)، كما كانت له إسهاماتٌ سياسيّةٌ خارج العراق تمثّلت في رحلاته إلى الأردن والحجاز.

ويمكننا القول إنّ دراسة حياة الشيببيّ السياسيّة هي في الحقيقة تسليطٌ للضوء على مراحل مهمةٍ من تاريخ العراق السياسيّ. وقد تأثر الشيببيّ في أفكاره الإصلاحية والسياسية - كما كان حال معظم المثقّفين الثوريين في تلك المرحلة - بأفكار جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا التحرّرية الإصلاحية التي كانت تصل العراق عن طريق مجلتي (العروة الوثقى)، و(المنار) وغيرهما، كما تركت ثورة الاتّحاديّين عام ١٩٠٨م، تأثيراً كبيراً على الشيببيّ، ولا سيّما مدحت باشا الذي كان العراقيّون من أشدّ المعجبين به بحكم احتكاكهم المباشر بإصلاحاته في بلادهم، وكان أهمّ ما دفع الشيببيّ إلى الترحيب بثورة

الاتحاديين هو ما علّقه من آمالٍ كبيرةٍ عليها بأنْ تؤدّي إلى انعتاق العراق من مشكلاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي تفاقمت بصورةٍ خاصةٍ في عهد السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩م). فكان من شأن شعارات الاتحاديين (الحرية، والعدالة، والمساواة) أن تهزّ وطنياً متحمّساً ومخلصاً مثل الشيبّي، ولكن سرعان ما أُصيب الشيبّي كأقرانه الوطنيين بخيبة أملٍ كبيرةٍ من سياسة الاتحاديين التي انصبّت في اتجاهٍ قومي متعصّبٍ معادٍ للطموحات المشروعة للشعوب غير التركية في الإمبراطورية العثمانية<sup>١</sup>.

### نظرة الشيبّي للدين والعلم

على الرغم من إجلال الشيخ الشيبّي للدين النابع من إيمان المؤمن العليم، ومن نشأته الدينية البحتة؛ فإنّه كثيراً ما كان يهاجم رجال الدين عندما كان يجدهم أصبحوا حجر عثرةٍ في سبيل التقدم، فقد أراد أن يفهم القوم أنّ الدين ليس (عاداتٍ معطّلة)، بل أنّه (تحليل وتحرّيم)، فتوجّه إليهم في العام ١٩١١م، طالباً منهم ألا يجعلوا (آلة التفريق دينهم)؛ لأنّ الدين (عن وصمة التفريق معصوم). أجل إنّ الدين في نظر الشيبّي لم يكن (عاداتٍ معطّلة)؛ لذا فإنّه دان بقوةٍ وقناعةٍ التقاليد البالية والخرافات، فهي التي أدّت إلى تأخر الشعب فكرياً وثقافياً، وهي التي كانت تؤثّر سلباً على مسار النضال من أجل التحرّر والانعقاد.

يضع الشيبّي مع ذلك وغير ذلك الدين في المقام الأول بالنسبة لكلّ شيءٍ في حياة المجتمع، فيرفض أن يكون غير الدين محوراً لكلّ ما فيه خيره وسؤدده، فالأخلاق عنده تستقيم بالدين، ومن دون الأخلاق يذهب العلم ذهاب الزبد. والشيبّي بذلك يربط بين الدين والعلم بأسلوبٍ صوفيٍّ مبدع، ودون أن يكون

١. الشربتي، أحمد حامد، الشيبّي في حكمه وأمثاله، ٨٩.

سلفياً، إنّه على العكس تماماً من ذلك، واقعيّ في تفكيره، متفائل، فهو يفكر في (اليوم والغد)، بل وحتى في (ما بعد الغد)؛ لذلك يعدّ الشيبّي حقاً الأنموذج المعبر عن حقيقة أنّ العلم أداةٌ لتهديم قلاع الظلم والاستبداد والتخلّف، وضمان السير نحو المستقبل الأفضل، فهو يريد العلم العملي لكلّ شيءٍ، وفي كلّ ميدانٍ ومجالٍ سوى المدارس الدينيّة وحدها يستثنيها من ذلك، مع العلم أنّه لم يفصل العلم عن الدين، فإنّ الأوّل كلّما بلغ به التطور ساعد أكثر على تجلّي عظمة الخالق، كما أكّد في بحثه عن الاكتشافات الفلكيّة، بل ذهب إلى أبعد من ذلك بكثيرٍ حين جعل الدين والعلم أخوين ارتضيا رحماً واحداً غير مقطوع ولا منفصل. لقد كان الجهل لدى الشيبّي يعادل الموت<sup>١</sup>.

### اهتمام الشيبّي بالاقتصاد

كان الشيبّي يبدي اهتماماً بالاقتصاد العراقي، وخاصّة القطاع الزراعي، ويدعو إلى تشجيع الزراعة. كما كان يقف بصلايةٍ ضدّ هجرة أبناء الريف إلى المدن، ويقول إنّ ذلك يؤثّر سلباً في الإنتاج الزراعي. وبعنوان (مرافق منسيّة) كتب الشيخ محمد رضا الشيبّي مقالاً بصحيفة الزمان بعددها في ٢٧/٤/١٩٥٧م، قال فيه: «في البلاد مرافق اقتصاديّة قليلة، ولكنها منسيّة محرّمة من العناية وفي مقدمتها مرافقنا الزراعيّة، وهذه المرافق أحقّ من غيرها بالحماية والتشجيع؛ لأنّ العراق بلدٌ زراعيٌّ قبل كلّ شيءٍ، وقد دلّت التجارب على أنّ الحركة التجاريّة في جميع الأسواق تتوقّف على إزدهار المواسم الزراعيّة، وكثرة الطلب عليها من الخارج.

وها نحن نرى كساداً ظاهراً في الأسواق التجاريّة، وتردي المواسم الزراعيّة

في السنوات الأخيرة، وعدم التمكن من تصريف منتجات العراق بأسعار حسنة، ويشمل ذلك كافة المحاصيل من الحبوب والتمور وغيرها من المنتجات. من ذلك نفهم أن مرافقنا ومحاصيلنا الزراعية بحاجة إلى حماية قوية فعلى المسؤولين أن يبذلوا جهودهم، لترويج ما يصدر من العراق، والسعي إلى إيجاد الأسواق الخارجية. إننا نستورد بضائع مختلفة من البلدان الأجنبية تبلغ قيمتها أكثر من مائة مليون دينار، وهي ثروة طائلة تتسرب إلى تلك البلدان الأجنبية، يجري كل ذلك من سمع المسؤولين وبصرهم، ولا يحرك ذلك منهم ساكناً، لحفظ التوازن بين تجارة التصدير والاستيراد. والأنكى من ذلك أن أسواقنا تغص بالكاليات من تلك الحاجيات المستوردة، ولا يقتصر الاستيراد على الضروريات، كما يجري ذلك بالبلاد، نظرة عابرة إلى المخازن التجارية في جميع أسواق العراق، تكفي لمعرفة أننا مغبونون، وأننا عالة على غيرنا<sup>١</sup>.

### اهتمام الشيببي بالعلم والعلماء

كان الشيخ محمد رضا الشيببي يبدي اهتماماً كبيراً بالعلم والعلماء، ويدعو إلى الأخذ بأيديهم من أجل تقدّم البلاد وتطورها. ففي ٥ / ١٥ / ١٩٥٧ م، كتب الشيخ الشيببي عموداً في جريدة الزمان البغدادية بعنوان (المواهب الضائعة) تساءل فيه: «متى يكون بلدنا مقبرة تُدفن فيها مواهب الموهوبين وكفايات الأكفاء؟ متى تكون مدنه ميداناً يصل فيه الجهل ويجول وتحترم فيه البلادة والغباء وتنقلب المقاييس؟ متى تعمم الدراسات العلمية والبحوث الأدبية؟ من يشجع ذويها ويأخذ بيدهم بدون تفریق أو تمييز؟ نقول: يقع ذلك، بل يقع أسوأ منه في كل بلد لا يبالي بالعلم وذويه. وفي العراق في هذا الوادي الحبيب أي وادي

الرافدين، ذلك الوادي الذي انبثقت منه أنوار الحضارة والعلوم والفنون بأسرها حقبة غير قليلة. في هذا الوادي الحبيب وادي الرافدين مهد الحضارة، بقية باقية من ذوي المواهب والكفايات العلميّة والأدبيّة، تقتل لياليها سهراً بالتجهيز والكتابة، وتُنشئ ما تُنشئ من القطع الفنيّة منشورها ومنظومها، فهل سأل سائل في هذه البلاد عن الفئة المذكورة؟ وكيف تعيش وكيف تسدّ رمقها وكيف تطعم أطفالها، وكيف تكسوهم، وأين يقيمون ويسكنون؟ ومن هو الذي تفقد هذه الفئة المغمورة وعني بأمرها ويانتاجها؟ وهيئات أن يتفقد متفقّد أصحاب المواهب والكفايات في بلدٍ يطغى فيه التكالب والنزعات الماديّة البحتة، وتطاحن المتطاحنون فيه على حطام زائل لا يبالون كيف حصل بأيديهم ذلك الحطام، وهل جاءهم من وجوه مشرّعة أو غيرها؟ لا شك أن هناك قوماً مسؤولين دائماً عن هذا الضرب من التقصير بحقّ ذوي المواهب والكفايات، وهو في الوقت نفسه تقصير في حقّ الوطن، وفي تفهّم مصالحه، وأسباب حياته، والعمل على إنهاضه من كبوة الخمول»<sup>١</sup>.

### ج. أدب المقاومة في شعر الشبيبيّ

المقاومة أخذت من فعل (قاوم)، وقاوم في اللغة يعني ثبت، وصمد، ولم يضعف، وخاصم، وشاجر. و«المقاوم: من يعلن المقاومة، والمقاومة: صمود في وجه المهاجم»<sup>٢</sup>. و«في هذه الكلمة دلالة وإشارة كافية على أصل معنى الصمود والتحدي وما تنطوي عليه الكلمات من الرفض والعصيان والثورة، وتقع المقاومة بين الحرّيّة والعدوان؛ حيث الحرّيّة هي السعي للتخلّص من إضرار، ومن حيث

1. www.almadasupplements.com.

٢. الحموي، صبيحي، المنجد في اللغة العربية المعاصرة: مادة قوم.

إنّ العدوان هو التهكّم والاحتقار والإرهاب بكلّ أشكاله<sup>١</sup>. تحدث المقاومة حينما لا يشعر الشخص بالأمن والراحة في حياته الفرديّة والاجتماعيّة، أو حينما يرى أنّه يفقد كرامته الإنسانيّة وعزّته الذاتيّة؛ فيبدأ بالدفاع عن شرفه وعزّته المهذورة بما عنده من القوى. إذًا «الاحتلال يولد المقاومة، وما دام الاحتلال قائمًا فإنّ وجود المقاومة ضرورةٌ ملازمةٌ له»<sup>٢</sup>.

وأدب المقاومة في الاصطلاح أدب الصرخة الشجاعة بوجه الظالم، وصيحة المظلوم بوجه الغاصب المستبدّ. يدعو أبناء الأُمَّة لنبد المذلّة عن أعناق عباد الله. وشعر المقاومة هو المقاومة أمام التشرّد والإخراج لأجل البقاء في الأرض المقاومة أمام المنع وإزالة الهوية الثقافيّة والوطنية. أما التعريف الشامل والكامل لأدب المقاومة يتمثّل في إطلاق اصطلاح أدب المقاوم على الآثار الأدبيّة التي تبدو عند ظهور المجالات الخاصّة ككبت الحرّيّة والاستبداد الداخلي، ثم عدم الحرّية الشخصية والاجتماعيّة أو الاغتصاب الخارجي والمقاومة أمام تيارات ضدّ الحرّية. إذًا أدب المقاومة هو الذي يحثّ الناس على التحديّ أو الهرب والنجاة ممّن يحاولون السيطرة عليهم<sup>٣</sup>.

### أدب المقاومة (نشأته وتطوّره)

المقاومة هي الثبات والدفاع عن النفس والكرامة الإنسانيّة والحياة، ويمكن القول بأنّ كلّ شعير يستوعب هذه الأفكار فهو شعر مقاوم. وشعراء المقاومة هم الذين يتكلّمون عن حقوق الشعب الضائعة، ويحرّضون الشعب على استرجاع

١. معروف، لويس، المنجد في اللغة والإعلام، نشر اسماعيليان، ٦٦٣.

٢. الحمد، جواد وإياد البرغوثي، دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة ٥٦.

٣. المصدر نفسه، ٥٦.

حقوقهم من الظالمين، وينبّهونهم على عدم الخضوع للمستكبرين. لم يكن لهؤلاء الشعراء اسمٌ خاصٌّ حتى عام ١٩٤٨م؛ عندما حدثت كارثة فلسطين، وشكّلت الدولة الصهيونيّة. فبدأ شعر المقاومة وظهر شعراؤها. إنهم كانوا يتكلمون عن آلام الشعب العربي المضطهد عامّةً وفلسطين المغتصبة خاصةً. يُعتقد أنّ إبراهيم طوقان المؤسس لهذا النوع من الشعر، أي أدب المقاومة. لكننا إذ دققنا النظر، نرى مظاهر أدب المقاومة بأشكالها المختلفة في شعر الشعراء في كلّ عصر من العصور؛ لأنّ من أهمّ محاور أدب المقاومة هي قضية الحرب والنضال؛ إذ إنّ عمر الحرب يكاد أن يساوي عمر الإنسان على الكرة الأرضية منذ معركة قابيل وهابيل والصراع بينهما<sup>١</sup>.

### أدب المقاومة في العصر الحديث

بعد استيلاء المغول ثم العثمانيين والماليك على البقاع العربية، مُلئت البلاد العربية بالظلم والاستبداد والنهب والخراب، فكان الناس يعانون من مرارة العيش، وكان الشعراء هم لسان الشعب - منذ الجاهلية فصاعدًا - فالتجأوا إلى ذكر مظالم الأتراك، وإلى المدائح النبويّة والاستشفاء بالأولياء. انتهى العهد التركي بحملة (نابوليون بونابرت) على مصر، فبعد دخول العوامل الأجنبية إلى بلاد العرب، صار الأدب ميدانًا للصراع السياسي، والتزم بأمور الشعب حتى صار مرآةً تعكس الحياة الاجتماعيّة وآلام الشعب وما مرّ به من الظلم والاضطهاد، كما وقف ضدّ هؤلاء الظالمين الأجانب. إنّ الأدباء ومنهم الشعراء بدأوا بإنشاد الشعر السياسي والثوري الذي يتمحور حول هذين المحورين: المحور الأوّل: المقاومة ضد الاستعمار الأجنبيّ وتحريض الناس للثورة عليه.

١. كياني، حسين وسيّد فضل الله ميرقادي، شهيد وجانباز در شعر إبراهيم طوقان، شاعر مقاومت

المحور الثاني: الاعتراض على الحكم العرب الذين صاروا دمي بأيدي الأجنبي، وكشف الستار عن أوجههم الحقيقية.

ومن أهم العوامل التي خلقت شعر المقاومة في الوطن العربي الحديث هي ثورات الشعب العربي وانتفاضاته ضد سلطة الأجنبي للتخلص من مظالمهم وتعذيبهم واحتلالهم، ومن أهمها:

- انتفاضة الشعب المصري بقيادة (عراي باشا) ضد الإنجليز التي أدت إلى احتلال بريطانيا لمصر.

- ثورة الشعب العراقي ضد الاحتلال الإنجليزي سنة ١٩٢٠م، برئاسة علماء التشيع وثور العشائر.

- وثبة شعب الجزائر وليبيا ضد الاحتلال الفرنسي والإيطالي؛ بغية الاستقلال والتخلص من حبال الاستعمار.

- نهضة جمال عبد الناصر في المعركة بين العرب وإسرائيل.

- الثورة الفلسطينية ضد الحكومة الصهيونية. وهذه الأخيرة من أهم العوامل التي برزت النوع الجديد من الأدب باسم (أدب المقاومة) في الوطن العربي<sup>١</sup>.

في منتصف القرن العشرين ذهب الأدب إلى ساحة المقاومة للغزو الصهيوني لأرض فلسطين ومنذ سنة ١٩٤٨م، صارت فلسطين من أهم محاور أدب المقاومة في بلاد العرب، بنحو لا نرى شاعراً إلا وقد خصص الكثير من أشعاره للقضية الفلسطينية، كما أنهم قد اكتسبوا مكانة مرموقة في ساحة أدب المقاومة إثر المقاومة الفلسطينية. منهم الشعراء الفلسطينيون كـ(محمود درويش)، و(عز الدين المناصرة)، و(سميح القاسم)، و(فدوى طوقان).

١. محسني نيا، ناصر، مباني أدبيات مقاومة معاصر إيران و عرب، ١٤٨.

وصفوة القول أن أدب المقاومة في العصر الحديث تطوّر بتطور الزمن، لظهور العوامل الأجنبية في بلاد العرب والمقاومة ومظاهرها التي صارت جزءاً لا ينفك عن الأدب. والشعراء كانوا أداةً مهمّةً للتعبير عن المشاعر الوطنية، وكان الشعر يتمحور حول أحاسيس الناس وآلامهم ومشاكلهم ويهدف وراء ذلك إلى إذكاء روح المقاومة والوعي لدى العامة.

### أدب المقاومة العراقية

إنّ الأدب كمرآة تعكس جميع زوايا الحياة البشريّة. والشعر نوعٌ من الأنواع الأدبيّة، له مهمّة ورسالة وهي «الدعوة إلى إصلاح ما فسد من شؤون المجتمع، بل العالم نحو الأفضل»<sup>١</sup>. فالشاعر العربي منذ القدم كان لسان قومه الصارم، والمدافع عن حياضه، وهو لا ينسى مهمّته البشريّة تجاه قضايا شعبه الذي يعاني القهر والعسف والظلم. هو أديبٌ ملتزمٌ شجاعٌ لا يخاف من أيّ شيء «فالحوف من السجن ومن الاضطهاد، أمرٌ يتنافى مع توجه الشاعر الملتزم بقضايا شعبه ومشاكل مجتمعه وتناقضاته»<sup>٢</sup>.

والشاعر العراقيّ الحديث الملتزم لا يُستثنى من هذه القاعدة؛ فبعد أن ساد الشعب العراقيّ ثلوث الفقر والجهل والمرض بسبب احتلال الأجنبي لمقدراته وأرضه، أدرك الناس عامّة والشعراء خاصة ضرورة التخلّص من نير الإستعمار والثورة على العادات والقوانين التي وضعها الإستعمار لهم. هم ينتهزون أيّ فرصة مناسبةٍ ليعبّروا عن آرائهم السياسيّة، ويهتفون لتحرّر العرب وطرده المعتدين، والتفاخر بالشخصيّة العربيّة، ودعوة الجماهير إلى الثورة ضدّ حكم الأجنبيّ المستكبرين.

١. دلشاد، جعفر وآخرون، الغربة في الشعر العراقي نموذجاً، ٣.

٢. أبو الشباب، واصف، القديم والجديد في الشعر العربي الحديث، ٦٣.

ويمكن القول إنَّ شعر المقاومة لدى شعراء العراق بدأ منذ القرن التاسع عشر مع ظهور الظلم والاضطهاد من قبل الأتراك الأجانب؛ إذ «كان أغلب الشعر العراقي في القرن التاسع عشر، لا جميعه يقوم حول ما يمكن أن يدعى بالموضوع السياسي الثوري، ويشكّل هذا النوع من الشعر السياسي أرقى مثلاً في العربيّة الحديثة للشعر الذي تجدد بتأثير العوامل الخارجيّة، السياسيّة والاجتماعيّة»<sup>١</sup>. وعليه «فالأدب العراقي، أدبٌ حيٌّ يحمل في طيّاته آمال الأُمَّة الناهضة المتطلّعة إلى الحرّيّة والاستقلال، الطامحة إلى العلم والرّخاء بعد عصورٍ طويلةٍ من الجهل والفقر والتخلف... ولم يخل من التطلع إلى الماضي وأمجاده الزاهية»<sup>٢</sup>.

### حب الوطن والحرية

في غمرة النضال من أجل الحقّ والعدالة وبناء كيان عراقٍ متحرّرٍ من قيود التقاليد البالية، ورواسب الجمود انطلقت شاعريّة الشبيبيّ ترسم للأحرار طريق الحرّيّة والنور، وتبني لهم من ثاقب رأيه، وصدق مبدئه، وأمانة عقيدته، الوسيلة الناجحة للوصول إلى الهدف الأمثل، ألا وهو الاستقلال التام والانعقاد من الظلم والجور والطغيان الذي تمثّل في مآسيه لدرجة أنّ الحزن والأسى أصبحا ملازمين لطبيعته النفسيّة، وقد وضّح الشاعر هذه الفكرة في مقدمة ديوانه؛ إذ قال: «كنّا في رهطٍ من الشباب العراقيين وغيرهم نفكر تارةً رسم أهدافنا، وطوراً في الوسائل التي توصلنا إليها. ولم نكن نستهدف في الواقع إلاّ الحياة في ظلّ نظامٍ تُحترم فيه الحقوق والحرّيّات، وتفلح في كنفه المساعي، وتيسّر النهوض بالبلاد».

الشبيبي نذر نفسه لخدمة رسالته المقدسة، وضحّى بكلّ غالٍ وثمينٍ من

١. الجيلوسي، سلمى الخضراء، الاتجاهات والحركات في الشعر العربي الحديث، ٤.

٢. بصري، مير أعلام الأدب في العراق الحديث، ٢٥.

أجل إعلاء كلمة الحق، وإرساء راية العدالة الخفاقة على ربوع العراق ورافديه، وهو يختار أقسى مرحلة من مراحل بنائه، وتوطيد كيانه الحرّ المستقل؛ فالقارئ لو اطّلع على عناوين قصائده الموسومة بالوطنيات وحاول أن يتحسس ما وراء تلك العناوين من روح متحمسة، وقلب كبير، وعقل ثائر؛ لأدرك بأنّ الشبيبي عاش ومات في (سبيل الشرق)، وسكب عواطفه الحارة، وأشواقه الملتهبة في كلمات مؤثرة بليغة وهو يتحدث عن العراق، ودعوته الصابرة الشريفة لنيل استقلاله وحرّيته، (فالثورة على الأتراك) بكلّ ما فيها من شكوى وعتاب، و(قصيدة الباكية) وهو يتحدث عن (دمشق وبغداد) تلك القصيدة التي نظمها في أول تشرين الأول سنة ١٩١٨م، حينما أذاع الإنكليز في العراق أنّهم - لا العرب - أخذوا دمشق الشام، والتي يقول فيها:

ماذا بنا وبذي الديار يُراد؟

فقدت دمشق، وقبلها بغدادُ

من موطن الميعاد قامت نزعاً

خيلاً لمن بجلقٍ ميعادُ

سأءت وقائعها وما سرّت بها

لا الهجرة الأولى، ولا الميلادُ

وردت مياة الرافدين مغيرةً

شقر من القبّ البطون وِرادُ

هجن شؤون من الجياد كرائماً

عريّة فكأتهن جيادُ

بردى وأودية الفرات ودجلة

والتيّل غصّ بهائها الورادُ

فقد شارك الشيببي بوجدانه المتدفق وعقليته المتحررة الوقادة في بناء الحكم الوطني، وكافح الاستعمار في كل أشكاله في عهد الاحتلال وبعده، وكان في طليعة المشتغلين باخلاصٍ ووفاءٍ بالقضية العربية والعراقية.

### الجانب الفكري

الفكر سمّةٌ من سمات الشاعر المجدّد، وقد طبعت هذه السمّة أغلب شعره، فهو يرى مثلاً في الظلم أقبح صفةٍ يتخلّق بها الجائرون الظالمون، فحز ذلك في قلبه، وهو يراهم يعملون ما يشاءون، فيقول فيهم:

يقولون: إتيان الكبائرِ جائزٌ

وفعل الخطايا المنكرات مباحٌ

أخي هذه الأخلاقُ للجنسِ نهضةٌ

وللبشرِ الآتين منه فلاحٌ

يريدون للدنيا ضماًداً وإثمهم

بجثمان هذا الاجتماعِ جراحٌ

فالنهضة التي يتطلّع لها الشيببي لابدّ من أن يسهم أبناء شعبه فيها، إلا أنه يرى شباباً لا يدركون معنى الإصلاح، وقيمة الفكر التجديدي، وشيباً عاجزين عن فعل شيء، فيصرخ قائلاً:

شبابٌ طائشٌ نزقٌ

وشيبٌ ما بهم رمقٌ

وشعبٌ طالبٌ ثقةٌ

فدلوه بمن يثقُ

ففي آرائنا شيعٍ  
وفي أحزابنا فرقٌ

والأروع ما قاله في الجانب الفكري، اعتقاده أنّ الحقيقة الكاملة معنًى مجازيً، وكلُّ يقرؤها بمنظوره الخاصّ، ويعتقد جازماً أنّها الحقيقة، فكتب قصيدته بعنوان (الحقيقة لا تدرك)، وهي نقدٌ للتقليد والجزميّة والتطرّف في إطار البحث العلمي، فيقول<sup>١</sup>:

يسوقُ له دليلَ تحرّصاتٍ  
ويمنعُ خصمه أن يستدلاً  
يؤلّفها قياساً منطقيّاً  
تمثّله قضايا الوهم شكلاً  
رويدك قد فتنت بها نفوساً  
رأتك لأن تهذهبن أهلاً  
دجى التقليد مات ولو  
تقرى شؤون المستقلين استقلاً  
يصوب دونهم طرفاً غضيضاً  
فمأسورٌ وإن قالوا طليقٌ  
وماخوذٌ وإن قالوا محلٌّ  
بماذا يا نصيرَ الجهلِ قل لي  
تميس تغطرساً وتميل دلاً

١. عبد الحميد، صائب، معجم مؤرخي الشيعة، ١٩٦.

وما طأو يهاب الوحشُ منه  
عملّس يسحب الذيل الرقلاً  
بأعدر منك إذ تبتزّ مـالاً  
يحرّمه النهى وتراه حلاً  
إذا وجد المريب بأرض جُبِنِ  
تولّاهَا، وإن شجّت تولّى

### الجهاد ضد الاستعمار

هكذا ظهر أثر هذا الوعي في الشعر بارزاً وواضحاً عند شعراء العراق البارزين، والذين يعدون في الطليعة، فقد نظم الشيخ محمد رضا الشيببي قصيدةً هاجم فيها الاستعمار مهاجمةً عنيفةً، وتمثّل هذه القصيدة صورةً من فضل الشاعر وجهاده في الذود عن حياض المسلمين<sup>١</sup>:

عمّ الثغور الموحشات ظلامٌ  
ودجت لأتّك ثغرها البسّامُ  
طوت الفيالق نُكسًا أعلامها  
إذ ليس تخفق بعدك الأعلامُ  
رابطت في ثغر العراق وثغرها  
يحمى الحجاز بسدّه والشامُ  
سقط الذي شيدت من أركانه  
وأعيد فيه النقض والابرامُ

١. الشيببي، محمد رضا، الديوان، ١٨٠.

صالت على تلك المنية أختها

وسطا على ذلك الحمام حمام

لله تسعة أشهر قضيتها

طالت عليك فكل شهر عام

وللشاعر قصيدة أخرى يتحدث فيها عن واقعة الشعبية التي تعدّ من أعظم المعارك، والواقعة المهمة الأولى في حياة الحرب بالعراق، استنفر فيها العراقيون، فقد جاء القائد سليمان عسكري بك، ومعه فريق من الجنود الأتراك متجهين نحو البصرة، وهناك حدثت معركة كبيرة جرح فيها القائد التركي سليمان عسكري بك، في هجومه الذي شنّه على الإنكليز، فذهب إلى بغداد للتداوي في المستشفى العسكري (خسته خانة المجيدية)، ولم يمكث غير أيام قلائل، حتى عاد إلى أسلحة الحرب، وقد شوه هذا القائد راكباً عربية ولا يزال مضطرباً من جرحه، ينتقل من مكان إلى آخر، فيسوق الجيش ويدربه، وبعد أن رأى الجيش على شفا جرف هرب مولياً الأدبار، وأنّ معونته قد ضعفت فما كان من القائد إلا الانتحار ألماً وحسرة بعد أن أبدى من الإخلاص والوفاء ما استحقّ به أن يخلد مع الأبطال.

وقد سجّل محمد رضا الشبيبي هذه المعركة الرهيبة، وأتى على كثير من تفاصيلها، فيرى فيها أشهر أيام الحرب العراقية، فقد كانت مناجزةً شديدةً، هزم في آخرها العثمانيون، وتركوا نصف ذلك الجيش بين قتيل وجريح وأسير وفقيد، وقد جسّد لنا وقائع تلك الموقعة في قصيدة سماها (يوم الشعبية)، تحدث فيها عن معاناة الجيش العثماني الذي أقام ثلاثاً في خنادقها خالي الحقائب من ماء ومن زاد، رغم موفور ماء الفراتين، و يبلغ الذروة حين يحدد سبب ذلك الخلل،

فإن أقواتنا - في بطون الذر أكثرها، لا في بطون صعاليك وأجنادا:

نبت الربا حمراً أشلاءً وأوراد  
مشورةً لك بين القصر فالوادي  
دون الشُعبيّة أجساداً موزعةً  
في البيدِ توزيعَ أعضاءٍ بأجسادِ  
جيشٍ أقام ثلاثاً في خنادقها  
خالي الحقائقِ من ماءٍ ومن زادِ

#### د. مجد ثورة النجفيين

كان صراع الشيببي مع الدولة العثمانيّة من وجهتين؛ إحداهما أنّها حائدة عن الطريق القويم للسلام، يتضح ذلك بظلمها، والأخرى لأنّها غاصبة حقوق العرب الذين قامت الدولة الإسلاميّة على أيديهم، ولكن الزمان أدّى بها إلى هؤلاء ولذلك يقول<sup>٢</sup>:

أما صفحنا عن الماضي لأعينكم      أما أدليت لكم إيماننا الأول  
فالشيببي يشعر بمجد العرب؛ ولذلك يثور بعنف وقوة، إثر ثورة  
النجفيين في عام ١٩١٥م، تلك الثورة التي انتهت بطرد الترك وحكم  
الأهالي لأنفسهم، حتى إذا جاء الإنكليز استطاعوا إخضاعهم، ففي هذا  
الحادث يقف ثائراً ومفاخرًا يقول في قصيدته (ثورة على الأتراك)<sup>٣</sup>:

١. الشيببي، محمد رضا، الديوان، ٤٧-٤٨.

٢. م. ن، ٢٧.

٣. م. ن، ٢٧.

لا الجبنُ ثار فأطفانا ولا البخلُ  
الثائرُ الحقدُ بالأقوامِ والدخلُ  
لو كان ما بهم جُبناً لما انتقموا  
وفي طريق بلوغ النعمة الأجلُ  
السيف قرب منا كل قاصيةً  
لا المنطقُ الفصلُ من قوم ولا الجدُّ

#### هـ. التنديد بسياسية الاستعمار في ثورة العشرين

انتفض الشعب العراقي في ثورة العشرين، ثم تلتها حركات أخرى تميزت بالبذل والفداء وإرخاص المهج والأرواح، وذلك للتخلص من تعسف المتعسفين وإثره المستأثرين، غير أنّها كانت شرراً ينبعث من الثورة الكبرى، وعاد التاريخ يعرّى أغراض أولئك الذين ناوأوا الوثبة الأولى، وساموا قاداتها العذاب، ومقصدهم الوصول إلى المناصب الوثيرة، وحوربت وتألّبت عليها قوى الشر بالمال والنعرات الهدامة وبذور الشقاق والأنانية والجشع والإثرة. لذلك يقف الشيببي إزاء هذه الفعلة النكراء فيقول<sup>١</sup>:

أخطأ الحقُّ فريقٌ بائسٌ  
لم يلومونا ولا موالنا  
خسرت صفقتكم من معشرٍ  
قد شروا العارَ وباعوا الوطننا  
ارخصوه ولو اعتاضوا به  
هذه الدنيا لقلّت ثمننا

١. الشيببي، محمد رضا، الديوان، ١٠٥.

يا عبيد المال خيرٌ منكم

جهلاء يعبدون الوثنا

وهكذا يندد الشيببي بالإنكليز وأتباعهم، ويصف الصراع بينهم وبين العشائر حينما طلبوا أسلحتهم وكان الطلب من هؤلاء حجةً ظاهرةً للانتقام منهم.

### نتيجة البحث

وصل البحث إلى القسم الأخير، وهو تسجيل النتائج المتحصلة منه في النقاط التالية:

كان الشيببي مجاهدًا من أجل استقلال العراق، وهو الذي صرخ في وجه الحاكم الإنكليزي ليعترف باستقلال بلاده، وهو صاحب دعوة أن يتحدّد الشام والعراق.

يعدّ الشيببي من أهمّ أركان أدب المقاومة على الساحة العربيّة عمومًا، وعلى الساحة العراقيّة خصوصًا.

تمثّلت عناصر المقاومة في شعر الشيببي بما يأتي:

الإشارة إلى القمع وفقدان الحرّيّة والمخبرين، وإظهار النقمة عليهم.

تحريض الشعب نحو الثورة على الاستبداد.

الدفاع عن الطبقات الفقيرة والمضطهدة.

لقد تضمّن شعر الشيخ محمد رضا الشيببي حشدًا كبيرًا من المفردات ذات البعد الديني، وهذا يدلّ على أن الشاعر ذو ثقافةٍ دينيّةٍ واسعة.

يصوّر الشاعر من خلال عدسة شعره حالة الاختناق والكبت والرعب والمأساة التي يعانيها الشعب العراقي من الاستعمار وسياساته

يمتاز شعر الشيببي بالصدق الفني والوضوح والبساطة أو السهولة التي تميّز شعره من الشعراء المعاصرين الرّمزيين، فيسهل فهمه للعموم؛ لأنّه شاعر الشعب.

## المصادر

١. أبو الشباب، واصف، القديم و الجديد في الشعر العربي الحديث، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٨ م.
٢. آقابزرگ تهراني، محمد حسن، الذريعة الى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت، ١٣٧٣ ق.
٣. بصري، مير، أعلام الأدب في العراق الحديث، دار الحكمة، لندن، ١٩٩٩ م.
٤. الجميلي، ع، نگاهی به تاريخ سياسي عراق، ترجمه: محمد حسين زوار كعبه، حوز هنري تبليغات اسلامي، تهران، ١٣٧٠ هـ.ش.
٥. الجيلوسى، سلمى الخضراء، الاتجاهات والحركات فى الشعر العربي الحديث، الترجمة عبدالواحد لؤلؤة، الطبعة الأولى، بيروت. ٢٠٠١ م.
٦. الحسني، عبد الرزاق، تاريخ العراق السياسي الحديث، دار الرافدين، بيروت، ٢٠٠٨ م.
٧. الحمد، جواد وإياد البرغوثي، دراسة في الفكر السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس)، ط: ٢، عمان، مركز دراسات الشرق الأوسط، ١٩٩٩ م.
٨. الحموي، صبحي، المنجد في اللغة العربيّة المعاصرة، دار المشرق، بيروت، بلا تاريخ.
٩. دلشاد جعفر وآخرون، الغربية في الشعر العراقي نموذجًا، مجلة العلوم الإنسانية الدوليّة، العدد ١٥، ٢٠٠٨ م.
١٠. الشيبلي، محمد رضا، الديوان، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، ١٩٤٠ م.
١١. الشربتي، أحمد حامد، الشيبلي في حكمه وأمثاله، دار الشؤون الثقافيّة العامة، بغداد، ١٩٨٢ م.
١٢. عبد الحكيم، عمر، دعوة المقاومة الإسلاميّة العالمية. لا. مط، بيروت، ٢٠٠٤ م.
١٣. عبد شناوة، علي، محمد رضا الشيبلي ودوره الفكري والسياسي حتى العام ١٩٣٢، دار كوفان للنشر، العراق، ١٩٩٥ م.
١٤. عبد الحميد، صائب، معجم مؤرّخي الشيعة، مؤسسة دائرة معارف الفقه الإسلامي، قم،

١٥. الغزالي، محمد الإسلام والاستبداد السياسي، دار النهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ١٩٩٧م.
١٦. فاخوري، حنا، تاريخ الأدب العربي، توس، تهران، ١٣٨٠هـ.ش.
١٧. فوستر، هنري، نشأة العراق الحديث، ترجمة: عبد المسيح جويده، مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٣٨م.
١٨. قدورة، زاهية، تاريخ العرب الحديث، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥م.
١٩. كياني، حسين وسيد فضل الله ميرقادري، «شهيد وجانباز در شعر إبراهيم طوقان، شاعر مقاومت فلسطين». نشریه أدبيات پایداري، سال أول، شماره: ١، دانشگاه شهيد باهنر کرمان، ١٣٨٨هـ.ش.
٢٠. محسنی نیا، ناصر، «مباني أدبيات مقاومت معاصر ایران و عرب». نشریه أدبيات پایداري، سال أول، شماره: ١، دانشگاه شهيد باهنر کرمان، ١٣٨٨هـ.ش.
٢١. معروف، لويس، المنجد في اللغة والإعلام، نشر اسماعيليان، تهران، ١٣٦٢هـ.ش.
٢٢. نفيسي، عبدالله فهد، نهضت شيعيان در انقلاب إسلامي عراق. مترجم: كاظم چايچيان، انتشارات أمير كبير، تهران، ١٣٦٤هـ.ش.
٢٣. الواعظ، رؤف، الإتجاهات الوطنية في الشعر العراقي الحديث، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٤م.
٢٤. الوردی، علي، لمحات اجتماعية من تاريخ العراق. الجزء السادس، لا.ب. لا. مط، ١٩٩٢م.

# دور الحركة العلميّة والأدبيّة في مقاومة الاستعمار (ثورة العشرين) أنموذجا

براءة محمود العداي<sup>١</sup>

## الملخص

مثّلت ثورة العشرين ضدّ الاحتلال البريطاني للعراق في ٣٠ حزيران ١٩٢٠م، أحد أهمّ الأحداث في تاريخ العراق المعاصر؛ إذ ترتّب عليها تأسيس الدولة العراقيّة الحديثة، وشكّلت نقطة تحوّلٍ أساسيّة في سياسة بريطانيا تجاه الشرق الأوسط بصفةٍ عامّة. وتكمن أهميّة هذه الدراسة في كونها تتناول حدثاً تاريخياً مهماً ما زال موضع جدلٍ بين الباحثين والمؤرخين، وأنّ الدوافع الوطنيّة والقوميّة شكّلت المحرّك الرئيس للثورة في حين مثّلت الدوافع الدينيّة والقبليّة، دوافع ثانويّة مساعدة، وأنّ ثورة العشرين أفضت إلى تأسيس الدولة العراقيّة الحديثة. وقد أثرت بنحوٍ واضحٍ في الأدب والشعر، وكان للفقهاء والعلماء دورٌ محوريٌّ في هذه الثورة، فأصبحت ثورة العشرين درساً للحركات والثورات والاحتجاجات التي تلتها، فتناولت هذه الدراسة دور الحركة العلميّة والأدبيّة، واتبعت المنهج الاستقرائي التحليلي.

الكلمات المفتاحيّة: الأدب المقاوم، ثورة العشرين، فتاوى المرجعيّة، مقاومة الاستعمار، الاحتلال البريطاني.

١. متخصصة في التفسير المقارن / جامعة المصطفى العالمية - سوريا.

## المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه أجمعين، محمد المصطفى وآله الطيبين الطاهرين وصحبه الأخيار المنتجبين.

أما بعد:

ثورة العشرين يوم الضمير الإنساني والانعطاف التاريخي لكل مواطن الشرف والأمانة، قرنٌ من الزمن وما زال اسم شعلان ورفاقه يداعب العقول (ومكواره) الصامد بوجه الدبابات وفوهات المدافع، لقد حفر على ذاكرة الرجال والنساء، وسُجِّل بالذهب نصرًا يوضع على قمة التاريخ، والرميثة لم تنزل تتقاذف اللهب كلما مرّت هذه الذكرى الموجودة في قلوب العراقيين، يتوارثونها جيلاً بعد جيل، ويدركون تاريخًا رافضًا للغزاة.

إنّ هذه الثورة كانت رفضًا للتسلط البريطاني الطامع بثروات العراق، التي أُنحِت فيها جهود الغياري من أبنائه ليثبتوا للاحتلال الطامع أنّهم لا يبالون بعدته وعديده، فزلزلوا قوّته بقوّتهم الروحية وغيرتهم العراقية والإصرار على إظهار الشجاعة الفائقة المستمدة من روح الإسلام، فقاتلوا من أجل هذه القضية فكان هذا السلاح الروحي أمضى الأسلحة. وبسلاح (الفالة) – التي هي أداة صيد بسيطة عند الفلاحين – استطاعوا أن يواجهوا الغزاة، مع إيمانهم بالقضية التي يقاتلون من أجلها، وحبّهم للشهادة من أجل وطنهم ومقدّساتهم؛ فكانت حدثًا لا ينساه العراقيون؛ لأنّها حققت في حينها ما يتطلّع إليه الشعب المقاوم رغم بطش الاحتلال، وحجم التضحيات البشرية الكبيرة التي قدّمها الثوار؛ إذ تمكّنوا من إرضاخ الإدارة البريطانية لمطالب الشعب، فأدركت الإدارة البريطانية أنّ العراقيين مصرون على الاستقلال مهما كلف الأمر.

ودخلت ثورة العشرين في الأدب والشعر، فخلّدت بأبياتٍ شعريّة كثيرة رافقت الثورة من بدايتها إلى نهايتها وما بعد الثورة أيضًا؛ ومن هنا فإنّ هذه الدراسة تسلّط الضوء على الحركة العلميّة لثورة العشرين والحركة الأدبيّة، وتأتي أهميّة الدراسة من أهميّة الحادثة والمناسبة، فثورة العشرين قدّمت درسًا في غاية الأهميّة للمجتمع الإنساني، يمثّل في أنّ وحدة الأمة، والإيمان بالقضيّة، والبصيرة في الأمور، ورفض الظلم، والبحث عن الحرّيّة مهما كلف الأمر هي من تحسم الموقف، وتحدّد النتائج حتى وإن كانت بعيدة المدى، فما علينا هو السعي، وأمّا تحقّق النتائج سيكون رهن الحركة والثبات والصبر والاستقامة، فكانت ثورة العشرين النموذج الأكثر تعبيرًا عن تمسك العراقيين بهويّتهم الوطنيّة في أثناء مرحلة لا تقلّ أهمّيّتها عمّا سواها من مراحل تاريخ العراق الحديث، خاصّة بعد تداعيات الحرب العالميّة الأولى، ويبرز تأثير الأدب المقاوم في تشكيل الوعي الجمعي والهوية الثقافيّة، فمهما تعدّدت الأزمنة وتغيرت الأحوال، لكن ظلّ الأدب المقاوم مرآةً تعكس الواقع، ومنبرًا للتعبير عن الآمال والأحلام واستنهاض الهمم والاحتجاج.

السؤال الرئيس لهذه الدراسة: ما دور الحركة العلميّة والأدبيّة في ثورة

العشرين؟

وأما الأسئلة الفرعيّة:

- ما معنى المقاومة والثورة، والأدب المقاوم؟
- ما العوامل المؤثّرة في الحركة العلميّة لثورة العشرين؟
- ما دور الحركة الأدبيّة في ثورة العشرين؟

### الدراسات السابقة:

- ثورة العشرين في الشعر العراقي، إبراهيم الوائلي.
- ثورة العشرين الجذور السياسية والفكرية والاجتماعية للحركة القومية العربية الاستقلالية في العراق، وميض جمال عمر نظمي. كتب الكثير عن أسبابها ودوافعها توجهاتها وأهدافها، ومن هي الشرائح الاجتماعية التي شاركت فيها.
- شاعرات في ثورة العشرين، علي الخاقاني.

### النتائج

١. إن المقاومة هي القيام المضاد لمقاومة الغير من أجل منعه من تحقيق هدفه والانتصار عليه.
٢. المرجعية الدينية تمثل القدوة المثلى لالتفاف الناس حولها.
٣. وثيقة العلاقة الروحية بين الشعب العراقي والمرجعية.
٤. الشعراء بشعرهم المتمرد كان لهم الدور الريادي في استنهاض الشعب.
٥. الهوسه هي فنٌ أدبيٌّ شعريٌّ تميّز به أهل العراق.
٦. الهوسه لها تأثيرٌ نفسيٌّ على الجماهير، يزيد في حماسها.
٧. الأدب المسرحي شارك في المقاومة، وكان داعماً لثورة العشرين.
٨. كانت المدارس الأهلية والأنشطة الأهلية منبراً من منابر الثورة.

### الثورة لغةً

«ثورة [مفرد]: الجمع: ثورات (لغير المصدر)، وثورات (لغير المصدر): مصدر ثار/ ثار على، وهي اندفاع من جماهير الشعب نحو تغيير الأوضاع السياسية والاجتماعية تغييراً أساسياً»<sup>١</sup>.

### الثورة اصطلاحاً:

«الثورة هي حركة اجتماعية أو سياسية تُحدث تغييراً جذرياً وشاملاً في الهياكل السياسية، الاقتصادية، أو الاجتماعية في مجتمع ما. تُعدُّ الثورة نتيجةً لصراع بين القوى القائمة التي تمثل النظام السائد والقوى الراغبة في التغيير. وفي كثيرٍ من الأحيان، تعكس الثورات رغبةً قويةً لدى فئةٍ من الشعب لتحقيق العدالة، أو الحرية، أو إزالة الظلم والاستبداد»<sup>١</sup>.

### المقاومة لغةً:

«قاومه في الحرب وغيرها، أي قام له»<sup>٢</sup>. ثم في تعريف كلمة المناهضة يعرفها بالمقاومة<sup>٣</sup> كما يتفق معه بالتعريف الزبيدي في تاج العروس<sup>٤</sup> نقلاً عن الجوهري، «وكافح قرنه: قاومه بقوة»<sup>٥</sup>، وقاومَ الشعبُ المستعمرَ حتى نال استقلاله (قام ضده، نهض لردّه)<sup>٦</sup>.

### والمقاومة اصطلاحاً:

إنَّ كلمة المقاومة وإن استخدمها الناس في الجوانب الداخلية، لكن المقاومة بحسب المصطلح السياسي، مسألة تتصل بالجانب الخارجي، يعني تتصل بعملية تحرير البلد أو الأمة؛ لأنَّها قد تكون على مستوى الوطن أو على مستوى الأمة إذا تناولت القضايا التي تتصل بحياة الأمة<sup>٧</sup>.

1. <https://maktaba-amma.com/>

٢. الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، ٨ / ٥٦٨٢.

٣. المصدر نفسه، ج ١٠، ص ٦٧٨١.

٤. الزبيدي، مرتضى محمد، تاج العروس من جواهر القاموس، ١٠ / ١٧٥ نقله عن الجوهري.

٥. موسى، حسين يوسف، الإفصاح في فقه اللغة، ١ / ٦٢٨.

٦. الحيدري، محمد، معجم الأفعال المتداولة ومواطن استعمالها، ٦٣٣.

٧. انظر جهامي، جيران الموسوعة الجامعة لمصطلحات الفكر العربي والإسلامي (تحليل ونقد) ٢ / ٢٧٣١.

ويمكن القول إن المقاومة هي القيام المضاد لمقاومة الغير من أجل منعه من تحقيق هدفه، والانتصار عليه، ولهذا كان من الأنسب إطلاقها على المقاتلين، وبالرجوع إلى أقوال اللغويين لم يتم حصرها بالمقاومة الإيجابية، بل تشمل السلبية أيضاً، ويمكن القول إن الاستعمال أعم من الحقيقة؛ فإذا استعملناها بالمعنى الإيجابي كانت مقاومة حقيقة، وإذا استعملناها بالمعنى السلبي كانت مجازاً، ويصح القول بأنها أصبحت من الألفاظ المنقولة لكثرة استعمالها في خصوص المناهضة الإيجابية، فإن العرف الآن لا يشعر بالحاجة إلى قرينة لتشخيص نوع المناهضة المقصودة في كلامه على خلاف الألفاظ المشتركة، والحال في كلمة (مقاومة) فقد تكون موضوع لغة للأعم من المناهضة الإيجابية، ولكن بسبب كثرة الاستعمال في خصوصها وإهمال استعمالها في السلبية أوجب التخصيص بها، بنحو استغنى إرادة خصوصها عن القرينة، بل احتاج تفهم (السلبية) منها إلى قرينة، ولعل هذا من انقلاب الحقيقة إلى المجاز.

### مفهوم الأدب المقاوم

من المفاهيم التي نحتاج إلى بيانها في هذه الدراسة مفهوم الأدب المقاوم، فالمقاومة كما تقدم فعل تحد، وإرادة رفض للذل والاحتلال والقهر، ولئن كانت طرق المقاومة متشعبة متعددة كان للقلم نصيبه الوافر في صنع الفعل المقاوم، وتحليل إنجازات المقاومين؛ لذلك اضطلع الأدب بدور فاعل جداً في تشكيل وعي الذات الجمعية المقاومة وتحفيزها على المواجهة؛ فكان الأدب المقاوم نثراً وشعراً، وكانت الكلمة صنو الرصاص في معركة الوطن ضد محتليه، وتوثق ملاحم كفاحهم، وتدفع عن تاريخ تضحياتهم غبار النسيان والضيق، وهذا ما يُسمى (بأدب المقاومة) أو (الأدب المقاوم)؛ ولذلك كان الأدب المقاوم قرين حركة الميدان المقاوم في كل ساحات الجهاد والنضال.

المطلب الأول: العوامل والأسباب المؤثّرة في الحركة العلميّة لثورة العشرين بعد أن أسفرت التسويات عقب الحرب العالميّة الأولى عن فرض الانتداب البريطاني على العراق، صار ذلك نخبياً للآمال، وبرهاناً على حث بريطانيا للعهد التي سبق أن قطعتها للعراقيين بالحرية والاستقلال، وكذلك تصريحات دول الحلفاء الآخرين المتعلقة بمنح الشعوب التي كانت خاضعةً لسيطرة الدولة العثمانيّة حق تقرير المصير.

إنّ انتهاء الحرب العالميّة الأولى ووضوح موقف بريطانيا بعدم المبالاة بآمال العراقيين بالاستقلال، وقيام بعض الحركات المعارضة للبريطانيين في بعض المناطق القريبة من العراق، فضلاً عن دور المثقفين العراقيين في تهيئة الأذهان للتحرر والاستقلال، والدور الديني للمرجعية الشيعية وزعماء القبائل والعشائر، ذلك كلّ جعلت الشعب يرى أنّه لا بدّ من استعمال القوة. والتطوّرات الأخيرة التي شهدتها العراق بعد الحرب العالميّة الأولى، تركت آثاراً سيئةً على خلجات الرأي العام، وأحدثت نفوراً بين أوساط المجتمع الريفي.

وكلّ حركةٍ تغييرٍ ثوريٍّ لا تنطلق من البعد الفكري والثقافي لا يمكن أن تكون ثورةً حقيقيةً؛ وذلك لأنّ الثورة الحقيقية، لا بد لها أن تحتّم في رحاب نظريةٍ ثوريةٍ عميقة الأبعاد ضاربة الجذور في الوعي الثوري، ومن غير ذلك لن تكون الثورة المزعومة إلاّ فقاعة.

تسمّى ثورة العشرين؛ لأنّها وقعت عام ١٩٢٠م، وتسمّى الثورة العراقيّة الكبرى؛ لشمولها أغلب مناطق العراق<sup>١</sup>، لكن نجد بعض الباحثين العراقيين

---

١. الحسيني، عبد الرزاق، الثورة العراقيّة الكبرى، وعبد الله فياض الثورة العراقيّة الكبرى، وفريق مزهر آل فرعون، الحقائق الناصعة في الثورة العراقيّة الكبرى سنة ١٩٢٠ وتائجها.

يطلقون عليها بالانتفاضة الشعبيّة على الرغم من أنّها وصفت لدى كثيرٍ من الكتاب والباحثين والأدباء العراقيين بالثورة، وهذا بحدّ ذاته يمكن عدّه تجنّباً على الثورة، وتقليدًا غير موفّقٍ لآراء البريطانيين في وصفهم لتلك الثورة بأنّها عصيانٌ وتمردٌ شعبيّ<sup>١</sup>.

ويمكن إجمال أسباب الثورة إلى عدّة عوامل، منها المدّ الثوري العربي في محاربة المحتل، كثورة الشريف حسين عام (١٩١٦م)، وثورة مصر (١٩١٩م)، وحركات التحرّر العالميّة ضد سياسة الانتداب التي اتبعتها الحلفاء، وسوء الإدارة وما رافقها من قمع وترهيب ونفي وتنكيل، واستغلال واردات البلد، وفرض الضرائب، إضافةً إلى تأثير الأحزاب والجمعيات الوطنيّة في إثارة الوعي الوطني؛ فوجود الأحزاب السياسيّة تميّز بالفاعليّة والنشاط من أجل المشاركة في العملية السياسيّة، ولا يخفى أنّ للأحزاب السياسيّة دورًا كبيرًا في صناعة الأفكار وبلورتها وخصوصًا الثقافة السياسيّة، وحمايتها والحفاظ عليها، الأمر الذي يبين أهمية الأحزاب السياسيّة ودورها المحوري والفاعل في العملية السياسيّة، وهي بمنزلة أدوات تكوين الرأي العام.

ومن هذه الأحزاب والجمعيات:

### جمعية العهد السريّة

قليلون جدًّا من يعلمون أنّ مؤسس الجمعية (عزیز علي المصري) ينحدر من أسرة عراقية تسمّى (آل عرفات)، كانت تقطن البصرة في أوائل القرن الثالث عشر الهجري، «وقد شرع عزیز علي وهو في الإستانة في تأليف جمعية سياسية سرية، توحد صفوف العرب وتجمع كلمتهم، فكانت جمعية العهد التي شرع

١. راجع حسين الطائي موقف المتنفق من أحداث ١٩٢٠ في العراق، ١٤٧.

في تكوينها بتاريخ ٢٨ تشرين الأول من سنة ١٩١٣ م. وانضمَّ إليها ليف من العراقيين والسوريين)<sup>١</sup>، وبينما كانت هذه الجمعية تتحين الفرص لثورتها سرعان ما انفجر بركان الحرب العالمية الأولى؛ فخدمت ناراها لوقتٍ ليس بالقليل، حتى إذا تطوّرت الحرب وأعلن الحسين بن علي شريف مكة الحرب على العثمانيين العاشر من حزيران عام ١٩١٦ م، ودخل الجيش العربي دمشق عام ١٩١٨ م، جاءت فكرة إحياء الجمعية من جديد، فانشقَّ أقطاب الجمعية إلى قسمين، وكلّ قطبٍ ينادي بتحرير القطر الذي ينتمي إليه، وعلى هذا انقسمت الجمعية إلى حزب العهد العراقي، وحزب العهد السوري. وقد تأسس حزب العهد العراقي سنة ١٩١٩ م.

### جمعية حرس الاستقلال

ولما بحث المفكّرون فكرة انشقاق جمعية العهد عملوا على فتح فرع ثانٍ لجمعية العهد العراقي في بغداد وقد أصدر هذا الفرع (مجلة اللسان)، وانضمَّ إليها السيّد محمد الصدر، والسيّد يوسف السويدي، والسيّد ناجي شوكت، والحاج محمد جعفر أبو التمن، والشيخ محمد باقر الشيببي وغيرهم، وأصبح لها فروعٌ في الكاظميّة، النجف، والحلة، والشامية وغيرها من الحواضر.

### جمعيّة الشيبية

وهي جمعيّةٌ سريةٌ أيضًا من أبرز أعضائها السيّد محمد عبد الحسين، وعباس مهدي، وسامي خونده وغيرهم.

١. الحسيني، عبد الرزاق، الثورة العراقيّة الكبرى، ص ٤٧. وانظر الأعظمي، أحمد عزت، القضية العربية،

### جمعية النهضة الإسلامية

جمعية النهضة الإسلامية أسسها مجموعة من الفقهاء المتحمسين للنضال ضدّ الإنجليز، يقف في مقدمتهم الشيخ محمد جواد الجزائري، والفقهاء المؤيّدون للدستور الذين عرفوا بفقهاء (المشروطة). أدّت هذه الجمعية دوراً فعّالاً في التحريض ضدّ الإنجليز، وكانت المسؤولة عمّا عرف بثورة النجف التي اندلعت عام ١٩١٨م، إثر تنفيذ عددٍ من رجال العشائر النجفية الذين كان يقودهم الحاج نجم البقال (وهو عضو في جمعية النهضة الإسلامية) عملية اغتيال ناجحة للحاكم العسكري البريطاني لمدينة النجف الكابتن مارشال وعدد من الجنود الإنجليز في حامية المدينة. وقد جرّت هذه العملية على مدينة النجف العقوبات الانتقامية الوحشية؛ إذ فرض عليها حصاراً قاسٍ، أعقبه دخول الجيش البريطاني إلى مدينة النجف لينفذوا عقوبات الإعدام بعددٍ من الثوّار في الساحات العامة في المدينة، وفي مقدمتهم الحاج نجم البقال، كما نفي مؤسس (جمعية النهضة الإسلامية) الشيخ محمد جواد الجزائري إلى جزيرة هنجام، وقد هدأ الوضع في المدينة بعد هذه الأحداث بشكل مؤقت، لكنّه ما لبث أن تفجّر مرةً أخرى بعد عامين إثر اندلاع التمرد العشائري الكبير الذي حصل في مناطق الفرات الأوسط، والذي عرف تاريخياً باسم (ثورة العشرين)، وكان لبقايا أعضاء (جمعية النهضة الإسلامية) دورٌ في قيادة التمرد والاحتجاج ضدّ الوجود البريطاني في العراق<sup>١</sup>.

وعندما أصبحت النجف مستقلةً، وانطوت صفحة العثمانيين، تقسّمت المدينة إلى أربع محلات، لكلّ محلة مسؤولٌ، ولهم دستور سميّ بـ(دستور

١. الطائي، صادق، شيعة العراق جزء من جهاد العثمانيين ضد الاحتلال البريطاني،

البراق)، وقد حظي ذلك التقسيم برضا فقهاء الدين وعلى رأسهم السيد محمد كاظم اليزدي، وقد أقام علماءها ورجال الدين فيها صلواتٍ وثيقةً مع معظم أنحاء العراق والعالم الخارجي ولاسيما زعماء ورؤساء الفرات الأوسط، كما أقام العلماء في النجف كثيراً من الندوات التي كانت تناقش القضايا السياسية، وتدار هذه الندوات من قبل رجال الدين البارزين، وكثير من المثقفين أمثال جواد الجزائري، وعبد الكريم الجزائري، وندوة آل شهاب التي يديرها محمد رضا الشيبلي ومحمد باقر الشيبلي وغيرهم، وكان لهذه الندوات الأثر البالغ في تأسيس (جمعية النهضة الإسلامية)، إذ أصدرت الجمعية منهاجاً تضمن إحدى وعشرين مادة، أكدت المادة السابعة منه على أن الجمعية فيها هيكل تنظيمي يتكون من ١٢ شخصاً على رأسهم المرجع الديني الأعلى للمسلمين.

جميع هذه الجمعيات كانت تنادي باستقلال العراق استقلالاً مطلقاً، وتوحيد كلمة العراقيين على اختلاف مللهم ونحلهم.

وأما دور مراجع الدين في النهوض بالوحدة الوطنية ومقاومة المحتل، وخاصة فتاوى الإمام الشيخ محمد تقي الشيرازي التي كان لها الأثر الكبير في ردع المحتل، والتهيئة للثورة وعدم الخروج عن مسارها الصحيح، وتعد مرجعية النجف الأشرف المرجعية الأولى في المجتمع الشيعي العراقي، حيث يمتد مقلدوها في بقاع مختلفة من العالم، وأبرز ما يميزها هو العمق العلمي والزهد في الدنيا والحكمة، وهذا جعل من المجتمع يرتبط ارتباطاً قوياً بها، ويستجيب سريعاً لما يصدر عنها، ويؤكد تاريخ المرجعية الدينية على أنها ومع الظروف القاسية التي مرت بها بقيت صامدة، تؤدّي دوراً استراتيجياً ليس على المستوى الشيعي فقط، بل على مستوى المسلمين عامة، في مدن مختلفة.

إذ كان للحوزة العلميّة الدينيّة وتوجيهاتها الدور الأساس في انبثاق ثورة العشرين التي تعدّ أول ثورة في تاريخ العراق الحديث، فشكّلت منعطفًا تاريخيًا وسياسيًا واجتماعيًا للشعب العراقي، وكانت البداية لتأسيس الدولة العراقيّة الحديثة. أهميّة هذه الثورة تنبع من الظروف المحيطة بها التي رافقت انطلاقها، والنتائج التي تمخّضت عنها، التي كان لها أثرٌ كبيرٌ في مستقبل العراق الحديث. بدأت المواجهات المسلّحة وانتشرت في مناطق متعددة بالعراق، إذ اتخذت الثورة في بادئ الأمر شكل مظاهرات من قبل الأهالي في بغداد، انطلقت من تجمّع الأعيان والأهالي في جامع (الحيدر خانة) الذي شهد بداية الثورة في بغداد، ثم مدينة النجف الأشرف التي نزح إليها من بغداد قديمًا، «الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي عام ٤٤٨ هـ، وهو كبير علماء الإماميّة الشيعية في ذلك الوقت، والذي وبانتقاله إلى مدينة النجف فتح عهدًا جديدًا للنجف؛ حيث تحوّلت من مدينة ومزارٍ إلى جامعةٍ علميّةٍ كبرى، علمًا بأنّ مدينة النجف كان لها قبل الشيخ الطوسي شأنها العلمي، وكانت مقصد الطلاب للدراسة»<sup>١</sup>.

وقد أفتى مجتهدو النجف الأشرف بالجهاد ضد الإنكليز في بداية الحرب العالمية الأولى، بعد أن وجدوا في هجوم الإنكليز على العراق تدخلاً سافراً على وطنهم، فانخرط الشعب في أثرهم بقيادة المجتهد العالم السيد محمد سعيد الحبوبي، ومعه كتائب العلماء وطلاب النجف، وساروا مدججين بالسلاح إلى ساحات القتال في معركة (الشعبية) وغيرها. وبعد الاحتلال الإنكليزي للعراق وإعلان الانتداب، دعا المرجع الأعلى الشيخ محمد تقي ميرزا الشيرازي الشعب

١. انظر بحر العلوم، محمد مهدي، الدراسة وتاريخها في النجف، موسوعة العتبات المقدسة، الخليلي،

العراقي لمقاومة الاحتلال والثورة على الانتداب. ونلاحظ أنّ الخطاب الحوزوي قبيل ثورة العشرين وخلاها اتّسم بمكانةٍ خاصّةٍ وموقعيةٍ خطيرة، في التأثير عبر هندسة الوعي الجمعي، وصوغ توجه السلوك العام لما مثله هذا الخطاب في نظر الأمة العراقية والخطاب الحوزوي هو الناطق الرسمي باسم المرجعية والمفصح عن مكنوناتها، والخطاب الحوزوي كان فاعلاً في تشكيل ملامح الثورة العراقية الكبرى، وفي يوم العشرين من شهر ربيع الثاني عام ١٣٣٧ للهجرة النبوية الشريفة أصدر الإمام السيد محمد تقي الشيرازي (قدس سره) فتواه التي زلزلت أركان الاحتلال البريطاني الظالم الذي كان يحاول وبمراوغة مقبلة التدليس على الشعب العراقي الواعي والصامد تحت غطاء الانتخابات وتزويرها، حتى يتسنى - وباسم الحرية زوراً - عرش العراق، فنشر الاستعمار البريطاني في أرجاء العراق أنّه يريد إعمار العراق ومساعدة الشعب العراقي في النهوض إلى المصالح الشاملة والأفق السعيد، وقد تصدّى الإمام الشيرازي لهذه المراوغة بالفتوى التي تقول بالحرف الواحد: «بسم الله الرحمن الرحيم ليس لأحدٍ من المسلمين أن ينتخب غير المسلم في الإمارة والسلطنة على المسلمين. ٢٠ ربيع الثاني ١٣٣٧هـ»<sup>١</sup>.

كما أسّس الإمام الشيرازي (قدس سره) على عقب هذه الفتوى مجلساً لقيادة ثورة العشرين، يتكوّن من الأسماء الآتية:

١. السيّد محمّد رضا الشيرازي (قدس سره).
٢. السيّد محمّد علي هبة الدين الشهرستاني (قدس سره).
٣. الميرزا أحمد الخرساني (قدس سره).
٤. السيّد أبو القاسم الكاشاني (قدس سره). الذي جرى اختيار أعضاء هذا

---

١. الحائري الشيرازي، محمد تقي، الحقائق الناصعة، ٨١.

المجلس في منزله في الكائن في مدينة كربلاء المقدّسة بعد عقد اجتماع فيه حضره عددٌ من شيوخ العشائر ورجال الدين والوجهاء من مختلف مناطق الفرات الأوسط، وتداول المجتمعون قضية الثورة المسلحة ضد الاحتلال البريطاني، فكانت مثار جدلٍ بين مؤيد ومعارض<sup>١</sup>.

٥. الشيخ مهدي الخالصي (قدس سره).

والميرزا محمد تقي الشيرازي (١٢٥٦-١٣٣٨ هـ) «الشهير بالميرزا الثاني أو الميرزا الصغير، من مراجع تقليد الشيعة، هو الذي تزعم ثورة العشرين في العراق وأصدر فتوى الجهاد ضد الاستعمار البريطاني، ولد في إيران، ثم هاجر إلى العراق، وأقام في كربلاء، ثم شدّ الرحال مع أستاذه الميرزا حسن الشيرازي إلى سامراء، وبعد وفاة أستاذه استلم زعامة الحوزة العليمة في سامراء، كما وتم تقليده من قبل بعض الشيعة، ثم أصبح مرجعاً مطلقاً للطائفة الشيعية، وذلك بعد وفاة السيد محمد كاظم اليزدي. وقد حضر الميرزا محمد تقي درس زين العابدين المازندراني، وفاضل الأردكاني، والسيد علي تقي الطباطبائي، وفي سنة ١٢٩١ هـ التحق بحلقة درس الميرزا محمد حسن الشيرازي بسامراء مع زميله في البحث السيد محمد فشاركي الأصفهاني، وتزامناً مع ذلك وبأمر من أستاذه شرع بتدريس جمعٍ من تلامذته وبعد أن توفّي أستاذه المجدد الشيرازي تعين خلفاً له بالأولوية، فقام بالوظائف من الإفتاء وتربية العلماء، وقد تخرّج من درسه جمعٌ من أجلاء العلماء والمجتهدين»<sup>٢</sup>.

نص فتوى الميرزا للعراقيين: «مطالبة الحقوق واجبة على العراقيين، ويجب

١. الجبوري، كامل سلمان، النجف الأشرف والثورة العراقية الكبرى، ٤٥.

2. <https://ar.wikishia.net/>

عليهم في ضمن مطالبتهم، رعاية السلم والأمن، ويجوز لهم التوسل بالقوة الدفاعية، إذا امتنع الإنكليز عن قبول مطالبهم»<sup>١</sup>.

أصدر السيد محمد تقي فتوى سنة ١٣٢٩ هـ، وذلك بعد اعتداءات قوات الروس في شمال إيران وارتكاب المجازر بحق الأحرار الإيرانيين؛ بضرورة مواجهة المعتدين الروس، وقد أعلن الجهاد أيضًا مع بقية العلماء وكبار مراجع العراق ضدّ اعتداءات دول الحلفاء على الأراضي العثمانية، وذلك في بداية الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ م

وهاجر الميرزا محمد تقي الشيرازي إلى كربلاء، وكان لانتقاله إلى هناك دور مهمٌّ في التنسيق بين علماء كربلاء والنجف واتصاله بالعشائر من أجل تنظيمهم وتأهيلهم لمواجهة المعتدي أصدر الميرزا محمد تقي فتاوى جهادية ثلاث، دعا فيها إلى استنفار عام للعشائر وجميع المسلمين، للتصدّي الاحتلال البريطاني، جاء ذلك بعد أن احتلّت القوات البريطانية مدينة الفاو العراقية؛ مقدمةً لاحتلال العراق، كما أرسل ابنه الشيخ محمد رضا نيابةً عنه إلى الكاظمية، وجبهات القتال لمشاركة المجاهدين في المعارك.

وبعد أن انتهت الحرب العالمية الأولى، واحتلّت القوات البريطانية العراق سنة ١٣٣٦ هـ، تم إعلان الانتداب في البلاد، الأمر فعارض مراجع وعلماء الشيعة في العراق هذا الإعلان، فأسس الشيخ محمد رضا نجل الميرزا محمد تقي الشيرازي منظمةً تحت عنوان (الجمعية الإسلامية)، وقد أسهم فيها رجال دين معروفين كالسيد هبة الدين الشهرستاني، وعبد الكريم عواد، وحسين القزويني، والغاية

١. نقلًا عن حرز الدين، معارف الرجال / ٢ / ٢١٧.

من تأسيس هذه الجمعية هو تحرير العراق والتصدي لانتداب بريطانيا.  
فتوى الميرزا في تأييد المقاومة المتصاعدة ضد المحتلين:

«أما بعد فإن إخوانكم في بغداد، والكاظمية، والنجف، و كربلاء، وغيرها من أنحاء العراق، فقد اتفقوا فيما بينهم على الاجتماع، والقيام بمظاهرات سلمية، وقد قامت جماعة كبيرة بتلك المظاهرات، مع المحافظة على الأمن، طالبين حقوقهم المشروعة المنتجة لاستقلال العراق إن شاء الله بحكومة إسلامية، فالواجب عليكم، بل على جميع المسلمين، الاتفاق مع إخوانكم في هذا المبدأ الشريف. وإياكم والإخلال بالأمن، والتخالف والتشاجر بعضكم مع بعض، فإن ذلك مضرٌ بمقاصدكم، ومضيقٌ لحقوقكم التي صار الآن أوان حصولها بأيديكم، وأوصيكم بالمحافظة على جميع الملل، والنحل التي في بلادكم، في نفوسهم وأموالهم وأعراضهم، ولا تنالوا أحداً منهم بسوء أبداً»<sup>١</sup>.

إن الميرزا محمد تقي بادر للقيام بطرح قضية استقلال العراق ومقاومة المحتلين البريطانيين في الساحة العربية والدولية، فكتب بعض الرسائل بهذا الشأن، منها:

أرسل كتاباً مشتركاً هو وعددٌ من العلماء وبعثه إلى حاكم الحجاز الشريف حسين، مطالباً إياه بدعم العراقيين لمواجهة اعتداءات المتجاوزين.  
أرسل كتاباً آخر إلى الأمير فيصل في دمشق طلب منه دعم مطالب الشعب العراقي، ونشر ظلامية العراقيين في الصحافة الحرّة في كل أنحاء العالم، وإظهارها صريحة للحكومات الأوربية والأمريكية للحصول على مقاصد الشعب العراقي العالية.

١. ثورة العشرين (١٩٢٠) في العراق.

بعد مدّة قصيرة من انطلاق عمل الجمعية الإسلامية، بادرت بريطانيا بالقبض على أعضاء هذه الجمعية ونفيهم، ففي شهر ذي القعدة سنة ١٣٣٧ هـ اعتقل ستة من أعضاء هذه الجمعية، وبعثوا إلى بغداد كي يتم نفيهم إلى الهند، وبعد أن علم الميرزا الشيرازي بهذا الحدث أرسل كتابًا إلى (آر نولد ويلسون) الحاكم البريطاني للعراق محتجًا على القرار، ومطالبًا بإطلاق سراحهم، فسخط الميرزا على هذا الأمر، وعزم على مغادرة العراق نحو إيران حتى يصدر من هناك فتوى الجهاد ضد بريطانيا، عندما تم نشر هذا الخبر أرسل إلى الميرزا كتب عديدة من النجف والكاظمية وبقية المدن العراقية لاصطحابه إلى إيران، فهذا القرار كان سببًا لعودة الذين تم نفيهم في أقل من أربعة أشهر إلى الوطن، وقد قام بتحريم العمل مع البريطانيين

كتاب الميرزا إلى الحاج جعفر أبي التمن: «سرنا اتحاد كلمة الأمة البغدادية واندفاع علمائها ووجوهها وأعيانها إلى المطالبة بحقوق الأمة المشروعة ومقاصدها المقدسة، فشكر الله سعيك ومساعي إخوانك وأقرانك من الأشراف، وحقّق المولى آمالنا وآمال علماء وفضلاء حاضر تكم الذين قاموا بواجباتهم الإسلامية»<sup>١</sup>.

بدأت صفحة جديدة من المساعي لتعزيز المقاومة الشاملة ضد الاحتلال البريطاني سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م، فأصدر الميرزا الشيرازي كأول خطوة في هذا الشأن فتوى تحريم التعيين، والعمل في الدوائر التي تعمل لصالح بريطانيا وذلك في ٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٨ هـ / أول مارس ١٩٢٠ م، وكانت حصيلة ذلك أنه استقال عدد كبير من الموظفين، واستمرت هذه الوتيرة على هذا النحو، وقبل

١. الجبوري، وثائق الثورة العراقية الكبرى، ٣ / ٧١.

مدة قصيرة من إصدار الفتوى اجتمع الميرزا في شهر جمادى الآخرة سنة ١٣٣٨ هـ، بصورة سرية بعلماء وشيوخ عشائر وزعماء الفرات الأوسط، وبموجبه تم قرار هجوم شامل من قبل الناس على الاحتلال البريطاني وفي ليلة النصف من شعبان سنة ١٣٣٨ هـ (٢١ أبريل ١٩٢٠) انعقد اجتماع برئاسة الميرزا الشيرازي في منزله وخلال هذا الاجتماع ناقش المشاركون كيفية القيام والتصدي للاحتلال البريطاني، وعرضوا عليه بتلك الجلسة نواياهم، وتعهدوا له بأن فيهم القوة الكاملة، فلم يزد في أول مرة على قوله: «إذا كانت هذه نواياكم وهذه تعهداتكم، فالله في عونكم»<sup>١</sup>، وبذلك أعلن الميرزا محمد تقي الشيرازي الثورة العراقية.

«كما استدعى الحاكم العسكري لبغداد بلفور عددًا من قادة الحركة الثورية إثر بعض النشاطات التي قام بها الثوريون في بغداد، ووبّخهم وهدّدهم، فكتب الحاج جعفر أبو التمن أحد القادة إلى الميرزا الشيرازي مستغيثًا به لما حصل لهم من هذا الحاكم البريطاني»<sup>٢</sup>.

«وتوفي الشيرازي مسمومًا في كربلاء يوم ١٣ ذي الحجة سنة ١٣٣٨ هـ، عن عمر ناهز الثمانين، وصلّى عليه شيخ الشريعة الأصفهاني، ودفن في الزاوية الجنوبية للصحن الحسيني الشريف»<sup>٣</sup>. وبعد وفاة الشيخ الشيرازي قاد الثورة خلفه الشيخ فتح الله النمازي المعروف بشيخ الشريعة، كانت النجف الأشرف مركزا للفقهاء والأصول ولبقيّة علوم الشريعة، حيث قاعدة العلماء والمجتهدين ومراجع الدين، «أمثال المجتهد الكبير محمد سعيد الحبوبى العالم والشاعر الكبير

١. آغا بزرك الطهراني، نقباء البشر، ١/ ٢٦٢.

٢. البلدوي، تاريخ التشيع في سامراء، ٤٣.

٣. حرز الدين، معارف الرجال، ٢/ ٢١٨.

والثائر والقائد السياسي، والسيد مهدي الطباطبائي بحر العلوم. وثورة العشرين الكبرى تميّزت بما حملته من دلالاتٍ فكريةٍ وجهاديةٍ في مواجهة الاحتلال البريطاني لمدن البلاد<sup>١</sup>.

فكانت هذه الأسباب المتقدمة مجتمعة عوامل انطلاق ثورة العشرين، وبعد انتشار عمليات التعبئة والاستعدادات للثورة في مدن الفرات الأوسط، عُقد مؤتمر للشيوخ في الشامية في مضيف الشيخ كاظم الحاج سكر، حضره الشاعر محمد باقر الحلّي الذي أنشد قصيدةً وطنيةً مؤثرة، وكتب المجتمعون عريضةً إلى الحاكم البريطاني (نوبري)، طالبوا فيها بالإفراج عن المعتقلين والاحتجاج على نفي ابن الشيخ الشيرازي، ولكن هذه المطالب لم تجد أذناً صاغية، فاشتعلت الثورة في الرميثة إلى الشامية والحلة والكوفة، ثم انتشرت في مناطق العراق كافة. ولقد أدرك البريطانيون الدور الكبير الذي تلعبه الحوزة العلمية في تحريك الجماهير في مواجهة قوات الاحتلال، والانصياع المذهل الذي تبديه العشائر العراقية لعلمائها، وما تمثله هذه العشائر من ثقلٍ بشريٍّ قادرٍ على التأثير في مجرى الأحداث في العراق. وقد استوعب علماء الحوزة العلمية ومن خلفهم العراقيون أنّ مواجهة الاحتلال لا بد أن تكون بموجب خطةٍ منظمّةٍ للقيام بعملٍ ثوريٍّ يستهدف إخراج القوات البريطانية من العراق، وإقامة حكومةٍ عربيةٍ خاضعةٍ لدستورٍ تشريعيٍّ مقيدٍ.

واصل علماء الحوزة دعوتهم للجهاد ضد البريطانيين، مستفيدين من مشاعر الرفض والتمرد التي نمت وتعمقت في نفوس العراقيين، لا سيّما بعد أن أكمل البريطانيون سيطرتهم على كافة الأراضي العراقية نهاية الحرب العالمية الأولى

١. الرهيمي، عبد الحلّيم، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، ٢٩٣.

بتوقيع هدنة (مودروس) عام ١٩١٨، لقد كانت العلاقة وثيقة وعميقة ومازالت بين الشعب في العراق والمرجعية، وهي علاقةٌ روحيةٌ تجمع بين الدين والعقل والعاطفة، وقد تجلّت تلك العلاقة عند قيام ثورة العشرين، حيث تمّ نفي وترحيل العلماء الى إيران الذي كان لهم دورٌ فاعلٌ بثورة العشرين، وفي اليوم المحدّد لرحيلهم ذهب الناس لوداعهم وكانت حالة الحزن والبكاء والتضرّع باديةً عليهم وهم يودّعون العلماء.

وهذه الثورة هي ثورةٌ شعبيةٌ كانت تهدف لإقامة دولة، وأعطت ٨٠٠٠ شهيد و٥٠٠ قتيل في صفوف الإنكليز، وبحدود ١٢٠٠ جريح، وبحدود ٦٠٠ مفقود، وكان عدد الأسرى الإنكليزيين كثيرًا لدى عموم العشائر. نماذج من الآثار العلمية والأدبية التي أنتجتها ثورة العشرين:

١	ثورة العشرين في مذكرات زعماء الثورة ورجالها «الأسباب والنتائج» - نقد وإعادة بناء -	الدكتور خلف جودة العكلي، والدكتور محمد حموز لفته الغانمي، والدكتور محمد جابر عناد العبودي
٢	مذكرات السيد محسن أبو طيخ، خمسون عامًا من تاريخ العراق الحديث	السيد جميل أبو طيخ
٣	ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي	أحمد كمال مظهر
٤	الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية	علي البزركان
٥	فصول من تاريخ العراق القريب	الميس بيل
٦	الملكية في العراق من ثورة العشرين حتى الانقلاب	عبد الكريم حسان
٧	الثورة العراقية الكبرى	عبد الرزاق الحسني
٨	من تاريخ الحركة الثورية المعاصرة في العراق	سعاد خيرى
٩	صفحات من مذكرات عبد الحميد الزاهد	عبد الحميد الزاهد

١٠	مذكرات الشيخ محمد رضا الشبيبي	محمد رضا الشبيبي
١١	صفحة من مذكرات السيد سعيد صالح	السيد سعيد صالح
١٢	مذكرات عن الثورة العربية الكبرى والثورة	تحسين العسكري
١٣	زعيم الثورة العراقية	علي عباس
١٤	على هامش الثورة العراقية الكبرى	فراقي
١٥	الثورة العراقية الكبرى	عبد الله فياض
١٦	مذكرات السيد سعيد كمال الدين	سعيد كمال الدين
١٧	مذكرات السيد حسين كمال الدين	حسين كمال الدين
١٨	مذكرات السيد محمد علي كمال الدين	السيد محمد علي كمال الدين
١٩	صحافة ثورة العشرين	الدكتور لقاء مكّي
٢٠	ثورة العشرين دراسة في الأحزاب السياسيّة	كيكو سكاى
٢١	دور الشعب التركي في ثورة العشرين العراقية	ستار نوري
٢٢	ثورة العشرين في ذكراها الخمسين	محمد علي كمال الدين
٢٣	ثورة ١٩٢٠: قراءة جديدة في ضوء الوثائق التاريخيّة	عباس كاظم، ترجمة: حسن ناظم
٢٤	موجز تأريخ العراق من ثورة العشرين إلى الحروب الأمريكيّة والمقاومة والتحرير وقيام الجمهوريّة الثانية	الدكتور كمال ديب
٢٥	ثورة العشرين العراقيّة، التاريخ وسياقات التلق	إسماعيل نوري الربيعي
٢٦	تجربة الثورة الإسلاميّة في العراق	الكاتب
٢٧	قصة ثورة العشرين وفتواها من كربلاء	محمد طاهر صفار
٢٨	نهضت شيعيان در انقلاب اسلامى عراق	عبدالله فهد نفيسى، ترجمه: كاظم چاپچيان
٢٩	نهضت اسلامى شيعيان عراق	ويلي، جويس ان، ترجمه مهوش غلامى
٣٠	تاريخ انقلاب اسلامى ١٩٢٠ عراق	محمد صادقى تهرانى
٣١	مراجع ايرانى و قيام ١٩٢٠ شيعيان عراق	سجاد نعمتى نورالدين دادفر
٣٢	موجز تاريخ العراق السياسى الحديث	مختار الأسدي

٣٣	ثورة العشرين، قرن مضى والثورة بين الطموحات الوطنية والاستثمار السياسي لها	أ. د. فلاح حسن الأسدي
٣٤	الوثائق البريطانية عن العراق	لاروش، ترجمة كاظم سعد الدين
٣٥	العراق ١٩٠٨ - ١٩٢٠ م، دراسة اجتماعية - سياسية	غسان العطية
٣٦	الجدور السياسي والاجتماعية للحركة القومية العربية (الاستقلالية) في العراق	وميض جمال عمر
٣٧	ثورة العشرين الوطنية التحررية في العراق	كوتلوف ترجمة د. عبد الواحد كرم،
٣٨	وثائق وكتب جديدة عن الثورة في العراق سنة ١٩٢٠ م، بحوث المؤتمر الدولي للتاريخ ( بغداد، ١٩٧٤ )	عبد الله الفياض
٣٩	أساليب الاستعمار في مكافحة الحركة الوطنية في العراق	د عبد الجبار عطوي
٤٠	ثورة العشرين وأهميتها في ضوء أصدائها الخارجية	كمال مظهر
٤١	ثورة العشرين في الاستشراق السوفيتي	كمال مظهر
٤٢	أهمية ثورة تلعفر في ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠ م	محمد يونس السيد عبد الله السيد وهب
٤٣	احتلال العراق، مشاهدات مراسل حربي مرافق للجيش البريطاني	إدموند كاندلر، ترجمة: محمد حسن علاوي وخضر علي سويد
٤٤	أيام فيليب في العراق	جون فيلبي، ترجمة جعفر خياط
٤٥	تاريخ العراق بين احتلالين	عباس العزاوي
٤٦	تاريخ القضية العراقية	الشيخ محمد مهدي البصير
٤٧	تاريخ مقدرات العراق السياسية	الفريق الركن محمد أمين العمري
٤٨	ثورة العراق ١٩٢٠	إلر هولدين، ترجمة: فؤاد جميل
٤٩	ثورة العراق التحررية	كاظم المطفر
٥٠	ثورة العشرين، أسبابها ونتائجها	حارث الضاري

٥١	مقاومة عشائر الفلوجة للاحتلال البريطاني ودورها في ثورة العشرين	د. حاتم حميدي الضاري
٥٢	ثورة العشرين في التحليل الاجتماعي: علي الوردي أنموذجاً	شاكر سعيد ياسين
٥٣	لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث	علي الوردي
٥٤	الحقائق الناصعة في الثورة العراقية ١٩٢٠	فريق مزهر آل فرعون
٥٥	بغداد وثورة العشرين	محمود عطية
٥٦	ثورة العشرين في ذكرها المثوية التكامل بين العمل الثوري والهوية الوطنية	بحوق المؤتمر العلمي
٥٧	ثورة العشرين الخالدة	أياد مهدي عباس
٥٨	بعد مئة عام ثورة العشرين حاضرة في ضمير الأمة	علي جاسم السواد
٥٩	ثورة العشرين قراءة في ضوء منهجية الدراسات الثقافية	إسماعيل نوري الربيعي
٦٠	دور الحلقة في ثورة العشرين	إعلام تراث الحلقة
٦١	ثورة العشرين في الشعر العراقي	إبراهيم الوائلي
٦٢	شاعرات في ثورة العشرين	علي خاقاني
٦٣	أثر شعرية التمرد في شعر ثورة العشرين	سعد عبد السادة مزعل
٦٤	الشعر العراقي الحديث	يوسف عز الدين
٦٥	ديوان الحويزي	الحويزي
٦٦	ديوان الشبيبي	الشبيبي
٦٧	البركان	محمد مهدي البصير
٦٨	ثورة العشرين بين ذاكرة التاريخ وشهادة الأبطال	علي ناصر الكناني

٦٩	دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار ١٩٠٠-١٩٢٠ سليم الحسن
٧٠	عبد الحسين الحلي شيخ الشريعة وقادته في الثورة العراقية الكبرى كامل سليمان الجبوري
٧١	موقف الحوزة العلمية في النجف الأشرف من التطورات السياسيّة في العراق الياسري
٧٢	جهاد السيد نور الياسري في ثورة العراق التحريرية ١٩٢٠ وصناعة الوطنيّة علاء عباك نعجة
٧٣	محمد تقي الشيرازي الحائري ودوره السياسي في مرحلة الاختلال البريطاني للعراق ١٩١٨-١٩٢٠ الغانمي
٧٥	بغداد في ثورة العشرين الهادي
٧٦	دور البغداديين في ثورة العشرين كامل سلمان
٧٧	النجف الأشرف والثورة العراقية الكبرى حقائق ومذكرات من التاريخ السياسي لم ينشر بعضها من قبل محمد صادق بحر العلوم
٧٨	الكوفة في ثورة العشرين سلمان هادي آل طعمة
٧٩	أهالي لواء العمارة وثورة ١٩٢٠ دراسة في ضوء نظرية التحدي والاستجابة علي عباس
٨٠	مذكراتي عن الثورة العربية والثورة العراقية تحسين العسكري
٨١	مذكراتي في صميم الأحداث ١٩١٨-١٩٤٨ محمد مهدي كبة
٨٢	صحافة ثورة العشرين وموقف صحف بغداد من الثورة صالح الطائي

٨٣	ثورة العشرين في صحيفة نيويورك تايمز الأمريكية	فارس الجبوري
٨٤	وقائع ثورة العشرين في ضوء مواد صحيفة العراق	رسالة ماجستير غير منشورة
٨٥	الدور الوطني لعشيرة البو سلطان في ثورة العشرين	رسالة ماجستير غير منشورة هيفاء الهيمص
٨٦	الحقائق الناصعة في ثورة العشرين ونتائجها	عبد الشهيد الياسري
٨٧	البطولة في ثورة النجف	كاظم المظفر
٨٩	معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية ١٩٢٠	محمد علي كمال
٩٠	مذكرات الحاج صلال الفاضل الموح	سالم الجبوري
٩١	أحداث ثورة العشرين كما يرويها شاهد عيان	تحقيق حكمت رحماني
٩٢	مذكرات الحاج عبد الرسول تويج من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠	محمد كمال الدين
٩٣	مذكرات كاطع العوادي أحد رجال ثورة العشرين	تقديم وتعليق كامل الجبوري
٩٤	مذكراتي في صميم الأحداث ١٩١٨-١٩٤٨	علي البزركان
٩٥	لواء الدليم في عهد الحكم البريطاني المباشر على العراق ١٩١٧-١٩٢٠م	رسالة ماجستير عمر الشلال
٩٦	موقف الحوزة العلمية في النجف الأشرف من التطورات السياسية في العراق ١٩١٤-١٩٢٤	رسالة ماجستير إخلاص لفته الكعبي
٩٧	شيخ العشيرة ودوره السياسي في العراق في سنوات الانتداب البريطاني ١٩٢٠-١٩٢٣	جاسم حسنين الصكر
٩٨	دور المرجعية الدينية في أحداث ثورة العراق الكبرى	محمد عبد علي القزاز
٩٩	ثورة ١٩٢٠ في الشعر العراقي	عبد الحسين مبارك
١٠٠	ثورة العشرين إطارا سرديا	حسين مليتات

## المطلب الثاني: دور الحركة الأدبية في ثورة العشرين

### الأمر الأول: دور الشعر والشعراء في ثورة العشرين

يتناول هذا الأمر الأثر الشعري المتمرد الذي تركه لنا شعراء ثورة العشرين، والدور الذي أدّوه عبر قصائدهم الثورية، في استلهام الروح الثورية للجمهور، وكيفية تناول قصائدهم للثورة، فقد تركوا أثراً كبيراً في المجتمع العراقي من خلال كلماتهم الوطنية إلى يومنا هذا.

وكانت مهمة الشعراء أن يوصلوا رسالة الثورة بأسلوب أدبي مؤثر لمواجهة الاحتلال، ووجوب مقاومته، ونذكر مجموعة من النماذج:  
الشاعر محمد رضا الشبيبي وقصيدته (دمشق وبغداد)<sup>١</sup>:

ماذا بنا وبذي الديار يُرادُ      فُقدت دمشق وقبلها بغدادُ  
من موطن الميعاد قامت نزعاً      خيلُ هن بجِلَقٍ ميعادُ  
ونرى من مقدمة القصيدة أنّها بدأت بسؤال، والسؤال يحتاج إلى جواب، وكأنّ الشاعر يتكلّم عن ضمير حال الشعوب، فنراه يستخدم أسلوب الالتفات في اللغة بغية تحريك النفوس.

و«نشير إلى دور الشاعر الشبيبي في الثورة ضد الإنجليز، وتأييد الدستور العثماني (١٩٠٨). وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى، وزحف الجيش الإنكليزي نحو بلاده، كان شاعرنا متطوِّعاً بقيادة العلامة السيد محمد سعيد الحبوبى إلى جانب الجيش التركي، وحضر معركة الشعيبة. ثم وقف - حين دخل

١. وُلد محمد رضا الشبيبي في النجف الأشرف في ٦ رمضان سنة ١٣٠٦هـ، ونشأ فيها وتلقّى العلوم والآداب؛ فدرس في مدارس تلك الحاضرة الكبرى على أساتيد مختلفين عرب وعجم، ولا ريب في أنّ الأستاذ الشبيبي من أقطاب الحركة الفكرية والنّهضة الوطنيّة في ديار العراق.

الإنكليز بغداد - في الحادي عشر من آذار من عام ١٩١٧م أمام (السير ارنولد ولسن) الحاكم البريطاني قائلاً: إن العراقيين يرون أن من حقهم أن تتألف حكومة وطنية مستقلة استقلالاً تاماً. وقد تولى مسؤولية مكتب النجف لجمعية الاتحاد والترقي التي عملت على إقامة حكومة وطنية. وكان وثيق الصلة بالبلاط الملكي الهاشمي، فلعب أدواراً سياسية بارزة منها: سفرته إلى بلاد الحجاز لمقابلة الملك الحسين بن علي في إطار التأسيس للمملكة، وسمي بسفير ثورة العشرين<sup>١</sup>.

الشاعر محمد مهدي البصير وقصيدته (صوت الشعب)<sup>٢</sup>

لئن لم يمض في كفي سلاح فلا ينبو على الضراء خلق  
يحاسبني على الحسنات قوم جزوني بالذي لا أستحق  
نصحتهم بإلا يستكينوا فهل في مثل ذا أبداً أعق  
لقد استخدم البصير أداة الشرط (لئن) في الشطر الأول، وكلمة (ينبو) في الشطر الثاني، ونلاحظ الربط ما بين الشرط والتنبوء للمستقبل المر الذي حاول الشاعر تبياناه للجمهور، كما يوجه العتب إلى كل من لم ينصفه في حب الوطن

هم المستعدون كما أرادوا فليس لهم كما أمّلت عتق  
بردن دماؤهم فجمدن خوفاً فلم ينبض لهم بالمجد عرق  
وقادوا شعبهم كي يسلموه ولكن ما لصوت الشعب خنق

1. <https://ar.wikipedia.org/>

٢. وُلد محمد مهدي في الحلة الفيحاء سنة ١٣١٣ هجرية، وتتصل أسرته بقبيلة كلاب، وهي أسرة دينية تتبادل المقام المنبري على سبيل الإرث، اشتهر منها بضعة رجال في العلم والأدب قديماً. نشأ في مسقط رأسه، وبعد أن تعلم المبادئ قرأ على جملة مدرسين قديرين شيئاً من النحو والصرف والمنطق، وقد حصّل بالمطالعة نصيباً ليس بالقليل من العلوم العصرية، مع أنه فاقد البصر.

حاول الشاعر بين ماهية الاحتلال، وعدم الركون إليه أو الوثوق بوعوده، كما يندد بقيادة الشعوب الذين استسلموا للمحتل، وحاولوا أن يجعلوا الشعوب تسلم للأمر الواقع للاحتلال، إلا أنه يؤكد على عدم إسكات صوت الشعوب الثائرة المقاومة، وقد لُقّب الشاعر البصير بشاعر ثورة العشرين لما كان له دور واضح في استنهاض الشعوب — من خلال أدبه وشعره — للثورة ومقاومة الاحتلال، وله قصيدة شعريّة معروفة كانوا يرددونها في التظاهرات عنوانها (لبيك أيّها الوطن):

إن ضاق يا وطني عليّ فضاكا  
فلتسع بي للأمام خطاكا  
بعثت ثراك دمي فإن أنا خنتها  
فلتنبذني إن ثويت ثراكا  
بك همتُ أو بالموت دونك في الوغى  
روحى فداك متى أكون فداكا  
هجعات جفني لا يُمُرُّ به الكرى  
ما دام جفئك طافحًا بـكـراكا  
لك قد خلقت ومنك فيك فنسبتي  
تقضي عليّ بأنني أـرعـاكا  
أثراك تضمن لي كرامة مصرع  
فيه أبيت مجاورًا صـرعـاكا  
كم أورثتك يد السياسة عـلة  
فاشرب دمي وأظن فيه شفاكا

ونلاحظ في هذه الأبيات أنّ الشاعر استعمل أسلوب الحديث والمناجاة مع الوطن، والتعبير عن الهيام وشدة الحب، وتقديم أعلى ما يملك، وهي روحه في سبيل تحريره من المحتل، ف يريد استنهاض الشعب لتقديم أعلى وأنفس ما يملكونه قرباناً لوطنهم وأرضهم.

ولا يخفى أنّ الشاعر البصير من «مؤسسي حزب حرس الاستقلال في العراق عام ١٩١٩ م، وعضو الحزب الوطني العراقي بقيادة جعفر أبو ألتمن عام ١٩٢٢ م لقب بشاعر ثورة العشرين لما قدمه من شعر فيها، وفي كل قضايا العراق الوطنيّة. درس في جامعة مون بلييه في فرنسا ١٩٣١ - ١٩٣٧ م، وحصل على شهادة الدكتوراه في الأدب الفرنسي. عمل أستاذاً في دار المعلمين العالية في جامعة بغداد حتى تقاعد في ستينات القرن العشرين»<sup>١</sup>.

ولما كانت الأسس التي انطلق منها معظم الشعراء في التحشيد والتعبئة الجماهيرية هي الخطب والمناسبات الدينية، فهم لم يتركوا القضية الأساس وهي الاحتلال، فكانت في النجف تقام الحفلات الدينية، والموايد والتعزية الحسينية في جامع الهندية، والشعراء كانوا يلقون الشعر التحريضي ضدّ الاحتلال أمام الجماهير.

#### الشاعر محمد باقر الحلي بقصائده وخطبه

وهو: محمد باقر بن ناصر بن حسين الحسيني الحلي، من أسرة آل عزّام الملقّب بـ(العالم)، وهو الأخ الأكبر للمرحوم طه باقر المعروف بقارئ الطين، ولد في الحلة محلّة الطاق سنة ١٨٩٤ م، كان من أوائل المشاركين في ثورة النجف سنة ١٩١٨ م، منظماً إلى جمعية النهضة الإسلامية، وله مشاركة فاعلة في محاربة

1. <https://ar.wikipedia.org/>

الإنكليز، وقد زجَّ في السجن ثمَّ هرب منه ملتجئاً إلى منطقة الياسريّة جنوب مدينة النجف، فأسس فيها مدرسة لتعليم الأولاد في (الشاميّة)، وشارك في استنهاض الهمم لمحاربة الإنكليز المحتلّين، وكان في طليعة من أشعل الشرارة الأولى لثورة العشرين، وقال محمد علي كمال الدين في مذكراته عن ثورة العشرين: «أنّه دُعي محمد باقر إلى اجتماع الشاميّة الذي حضره كبار المشايخ من قبائل آل فتلة والخزاعل والغزالات، والعوابد، والسادة الياسريّين يوم ١٥ شوال ١٣٣٨م، في مُضيف عبد الكاظم سكر، للتداول في محنة العراق والعراقيّين مع مُحتل جديد، ووفد على ذلك الاجتماع قادة إنكليز منهم: (الميجر نوريري) حاكم النجف والشاميّة، و(هوبكنز)، وحاكم أبو صخير ومُعاونه (مصطفى أفندي خرمة السوري)، وسبق ذلك زيارة الشيخ مجبل الفرعون، وكان من بين الحضور السيد محمد باقر الحلّي، وبعد إن اكتظ المجلس، صعد المنبر الذي كان في المضيف دون مقدّمة أو استئذان وراح يُلقّي قصيدة:

بني العُربِ لا تأمنوا للعدا مكرًا

خذوا حذرکم منهم فقد أخذوا الحذرا

يُريدونَ منكم بالوعودِ مكيدة

ويبغون إن حانت بكم فرصة غدرا

تُريدون بالأقلام إنجاح أمرکم

وهل تنفع الأقلام من حطّ السرا

يخوضُ عبابَ البحر من طلب الدرّی

يلقى ظلام الليل من عشق الزهرا

ومن مات دون الحقِّ والحقُّ واضحٌ

إذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

بَنِي الْعَرَبِ لَا تَأْمَنُوا لِلْعِدَا مَكْرًا

خذوا حذرکم منهم فقد أخذوا الحذرا

فسكتوا سكوئاً عميقاً إلى أن أكمل القصيدة، وأعقبها بخطبة أوقدت نار العزيمة والثورة في نفوس الحاضرين، وكان من بينهم زعماء قبيلة الخزاعل، قائلاً: «يا زعماء الخزاعل إن قبيلتكم كانت تُسمى خزاعة، وقد دخلت بيعة النبي محمد ﷺ، وكان الحلف بين النبي وبين قريش ألا يؤذوا مُبايعيه، غير أن قرشياً شج رأس أحد الخزاعيين، فشكا ذلك إلى النبي فغضب النبي ﷺ، وقال: (لا ينصرني ربي إن لم أنصر خزاعة)، فجيّش جيوشه التي كان لها فتح مكة، وأنتم يا زعماء خزاعة هكذا انتصر لكم النبي وغضب لأجلكم، فمتى أنتم تنتصرون له؟! أمّا في الآخرة فأنتم أحوج إليه منكم. عندها ثار أحد زعماء الخزاعل وهو الشيخ سلمان العبطان وسل سيفه، ووقف قبال محمد باقر، وهزّ السيف في وجهه، قائلاً: (عد وجهك، أنا أخو فاطمة)، فنهض جميع من حضر، وهوسوا بحضور الإنكليز: (بس لا يتعلّك بأمریکا)»<sup>١</sup>، قاصداً هنا ألا تستنجد بريطانيا بأمریکا كما فعلت بالحرب العالمية الأولى. «أسرع الإنكليز إلى بواخريهم وتبعهم أطفال القبيلة يقذفونهم بالحجارة، فكانت تلك الشرارة الأولى لبدأ ثورة العشرين».

بعد أن شاع خبر محمد باقر وقصيدته ومحاججته للخزاعل، قام جميع من حضر ذلك المجلس بتحرير رسالة إلى شيوخ الرميثة يستنهضونهم للثورة بوجه المحتل، فوجد السيد علوان الياسريّ حامل الرسالة أن الشرارة قد قدحت باعتقال الشيخ شعلان. ويروي د. إبراهيم الوائلي في كتابه (ثورة العشرين في الشعر العراقيّ) أنّه: «تم التوجّه لمساندة السيد گاطع العواديّ في مسعاه، وبهذا

١. كمال الدين، محمد علي، مذكرات الحاج عبد الرسول تويج من رجال الثورة العراقية ١٩٢٠، ص ٧٧.

الشأن فقد سرت عدوى تلك الحفلات إلى النجف عن طريق السيد العواديّ، فعندما عاد إلى النجف في أواخر رمضان اتفق مع السيد علوان الياسريّ، والشيخ عبد الكريم الجزائري، على إقامة اجتماع سياسي تحت ستار التعزية الحسينية، وطلبوا من السيد محمد باقر الحليّ نُظِم قصيدة بالمناسبة، وأقيم الاجتماع في الجامع الهنديّ واكتظّت ساحة الجامع على سعتها بالناس، وأختير السيد محمد علي قسام ليكون قارئ التعزية، وقراءة المقدمة (الهدية) للسيد محمد باقر الحليّ، حسب العادة، في مجالس التعزية، وبدلاً من أن يُلقى قصيدة رثاء الحسين عليه السلام ألقى قصيدةً سياسيّةً كان قد كُلفَ بنظّمها، منها:

يا شعبُ كيفَ حمى عُلاكَ

يرامُ وبنوكَ بعدَ العزِّ كيفَ تُضام

هذي الذئاب لهم فيك مسارحُ

فليحمِ منك عرينه الضرغامُ

هُم يطلبون على العراق وصاية

عجباً فهل أبناؤه أيتامُ

حتّى اليهود يوقرون وحقهم

يرعى وحقّ المسلمين يُضام

وله قصيدة لسان حال الشعب، منها<sup>١</sup>:

سأبقى وإن لم يعبؤوا بإرادتي

أضجّ الى أن يسمع الحقّ سامعُ



لمؤازرة الثوار المرابطين، فأبدع فيها الشاعر من الناحية الأدبية والمحسنة اللفظية.

### الأمر الثاني: دور الشعر الشعبي والأهازيج والهوسات في ثورة العشرين

تنبع أهمية الأدب الشعبي في كونه شكلاً من أشكال التواصل الاجتماعي، يعبر عن رغبة محمودة في بناء هوية ثقافية جماعية قادرة على حفظ وحدة الجماعة وقيمها ونمط عيشها وعاداتها وتقاليدها. وإن أشكال التعبير في هذا الأدب من التنوع والتعدد ما يجعلها على درجة عالية من الرسوخ والثبات في مقاومة كل أشكال الحداثة الغربية الزاحفة والمسخ الثقافي، وما من أمة إلا وتملك ثقافة شعبية تحفظ ماضيها وتراثها الثقافي، وتعكس رؤيتها للعالم ونظامها الأخلاقي ومرجعيتها الفكرية التي تنبع من أصولها وتعبر عن قيم أسلافها والأوائل الذين يحظون بالتقديس والتمجيد والتبجيل في كل الثقافات ولدى كل الجماعات الثقافية.

والهوسة هي فن أدبي شعري تميز به أهل العراق، وتكون باللهجة العراقية و«قد تبدو أن اللهجة العراقية صعبة وغير مفهومة للبعض؛ لوجود مفردات لفظية لا تستخدم في بعض الأقطار العربية، لكن أثبتت الدراسات الأثرية الحديثة أن الكثير من المفردات المتداولة في اللهجة المحكية العراقية تعود لإصول سومرية وآرامية وسريانية»<sup>١</sup>. وتعدّ من العناصر المهمة في إثارة الهمم وإيقاظ العزائم، وإعطاء القوة مما يساوي في تأثيرها النفسي ما تساويه الآلة الفاتكة في يده، ولها فعل السحر في لإثارة العواطف وبعث الحماس في النفوس، وللأهازيج

١. انظر طه باقر، من تراثنا القديم اسبانيو موسكاني وآخرون، مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن،

تعريب مهدي المخزومي.

قصصها، ونجد فيها اتساق الوزن وقوة المعنى الذي يجنح أحياناً إلى تشبيهاتٍ مرعبةٍ متخيلةٍ، وهذا يعود إلى العفوية، وإنه ابن اللحظة؛ لذا خلا من الصنعة المفتعلة فأضفت عليه الرقة والتعجب والتأمل إلى كيفية المعنى التراجمي.

وعروضياً تعدّ (الهوسة) من بحر الخبب - حركة الخيل - هكذا صنّفها الخليل بن أحمد الفراهيدي، وتعتمد بتفعيلتها على (فعلن) مكررة، وتسمّى لدى الشعراء الشعبيون بـ(الهوسة)، ومنهم من يسميها (أعكيلىة) نسبة لعشائر العكيلات، وسُمّيت غير ذلك.

ومنهم من سماها (الأهزوجة)، ورأى بعضهم أنّها من الهزج (التجليبي)، وأمّا الهوسة (عكيلىة)، وهي نوعٌ من أنواع الشعر الشعبي أيضاً، وهناك خطأ شائع يقع به الشعراء حيث يسمون (الهوسة) بـ(العراضة)، و(العراضة)، قد يكون من معطياتها (الهوسة)، و(العراضة) يعرفها أهل الوسط والجنوب العراقي وبخاصة أهالي الفرات الأوسط، وللعراضة مراسيم خاصة لسنا بصددها، كعراضة المتوفى، وعراضة الزواج، وعراضة (تشيخ) أحدهم لعشيرته، وقد فعلت (العراضة) فعلها في نفوس رجالات العشائر إبان ثورة العشرين.

تكتب الهوسات بكافة أوزان الشعر الشعبي كالموشح، والتجليبية، والنصاري، وهذه هي الأوزان الشائعة غالباً، ومنهم من يكتبها بأوزان أخرى، مع ملاحظة أنّ الأبيات التي يكتبها الشاعر (المهوال) غالباً لا تزيد على ثلاثة أبيات يَختتمها بالـ(هوسة)، والتي يجب أن تكون على تفعيلية الخبب (فعلن)، لكي يؤدي المجتمعون مع (المهوال) الحركات التي تتواءم مع أهزوجه، وتتخلل الأهزوجة حركات راقصة من مؤدّيها جميعاً، وغالباً ما يحمل الشاعر بيده بندقيته ويرقصها، ويطلق الآخرون عيارات نارية من بنادقهم.

وتاريخياً يمكن القول إنّ الأهازيج والهوسات ليست حديثة العهد في الاستخدام للحروب، بل استخدمت قبل الإسلام، وفي الإسلام فدور الأراجيز التي وردت في كتب التاريخ في معارك النبي ﷺ ونهضة كربلاء كان دوراً فاعلاً في رفع المعنويات وتثوير الحماسة في النفوس بفارق أنّ الأرجوزة فصيحة، والهوسة والأهزوجة عامية، ويصاحبها حركات دائرية أقرب إلى الرقص الجماعي الحماسي للمجتمعين، ويمكن عد الهوسة والأهازيج لوناً غنائياً فلكلورياً عراقي أصيل، ويعد من أكثر الأنماط الشعبيّة ارتباطاً بالمجتمعات الريفية.

وإذا أراد المهوال إلقاء الهوسة يقوم بإطلاق صوت منبها الحشود قائلاً: (ها ها ها)، والقصد منها هو لفت انتباه المجتمعين حتى يسود السكون بينهم؛ ليلقي عليهم ما يريد، فيلقي عليهم ثلاثة أبيات من الشعر الشعبي ذات الوزن الواحد، والمعنى مختلف، ثم يختتمها بالرباط (الردسة).

والجدير بالذكر «أنّ البيرخ أو الراية التي رفعها السيد علوان الياسري وهو يقود جموع المجاهدين في ثورة العشرين في مناطق الفرات الأوسط، وقد كتب الأديب العالم محمد الحلي بخط يده الآية الشريفة ﴿أُذُنٌ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَأَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾<sup>١</sup>، هي أول راية في تاريخ العشائر العراقية تحمل كتابة عليها وترفع للثورة الكبرى، حملها المجاهد معارج آل محميل، وسارت خلفها أول حربية (كتيبة) للمجاهدين يقودها السيد علوان الياسري، ويرافقه الأديب الحلي ومن الأهازيج التي كانوا يرددونها

بيرغ الحرب ترفرف

فوك روس الشامه

يا حبيبي تخضر

طارش الموت إجانه<sup>١</sup>

وأيضاً من هذه النماذج أهزوجة قالها رباط الفتلاوي في بدء الثورة العراقية الكبرى: (يزليخا ليوسف تاليها)، قاصداً البريطانيين وموضحاً أن سياستهم ستكشف حتى يعود الحكم للعراقيين كما عادت زليخا ليوسف<sup>٢</sup>. وأيضاً جبهة الرميثة والسماوة التي سميت بجبهة العوجة ظلّت صامدةً حتى نهاية الثورة فانهالوا عليها بالحمد والثناء ومن هذه الأهازيج: (ثلثين العفرن للعوجة)، والعفرن (عفرم) كلمة تركية أصلها أفرم وتقال للدلالة على المدح والثناء. ونذكر خير نماذج من الهوسات التي ترددت في مناطق الفرات:

للشيخ سعدون الرسن شيخ عشائر الأكرع في الديوانية – وهو ممن عرف بالشجاعة والإقدام، فضلاً عن مهاراته في نظم الهوسات – أهزوجة طريفة استحضر فيها بعض مفردات من كتاب الله العزيز، يقول فيها (سجيل أمطر جيت اعليها). وهو يصف كيف أنّ الثوار أقدموا بالهجوم على القوات البريطانية دون مبالاة بقوة السلاح وحدثته وهو يصفهم بحجارة السجيل<sup>٣</sup>.

وكان موقف قبائل آل ازيرج في مقارعة البريطانيين موقفاً مشرفاً فعندما تقدمت قواتهم بقيادة الجنرال البريطاني هاملتن مع جيشه من الناصرية باتجاه

١. العكيلي، حيدر خلف، أهازيج ثورة العشرين، ٧٢.

٢. المصدر نفسه ١٩١.

٣. ص ١٨٠.

الكوت، ووصولهم إلى منطقة سويح خفاجة قرب باهيزه - هي أراضي منبسطة تقع شمال محافظة ذي قار بنحو خمسة كيلو مترات - التابعة لمدينة الشطرة دارت على صيغة الهوسة: (شرناها أو عيت باهيزه)، أي استشرنا باهيزه وامتنعت أن تعبروا، وأكمل شخص ثانٍ: (شرناها وكالت ماريده)، بمعنى أنها لا تريد الأجنبي، ولم تقبل بعبور قواته، وتمم ثالث تلك الأزوجة: (شرناها وكالت كتالي)، أي قاتلي وخصمي، فلا أقبل بعبوره، وقال آخر: (شرناها وكالت مايعبر)، أي عدم السماح له بالعبور، وقال خامس: (شرناها وكالت من داري)، أي إن هذا الأمر مستحيل حدوثه، عندها أدرك البريطانيون المراد من تلك الأزوجة، وولوا منسحين عن المنطقة.

### كطّان حميد صرت أنا

أي إنني أصبحت مثل (كطّان حميد)، والكطّان هو (القطّان) نوعٌ من السمك معروف في جنوب العراق، وهذه الهوسة تشير إلى قصة معروفة في زمانها: وهي عن سمك يدعى حميد (تشديد الياء للتصغير) ألقى شبكته يوماً في النهر، فما لبث أن شعر بجسمٍ ثقيلٍ، وتخيّل فرحاً أنّه اصطاد صيداً ثميناً، ولعله من سمك الكطّان، ولكن فرحته لم تدم؛ لأنّه اكتشف أنّ صيده كان حجراً ثقيلاً، فيشبهه القائل نفسه بـ(حميد) الذي لم تطل فرحته، ولما سمع الناس أنّ الشيخ ضاري ورجاله قتلوا (ليجهان) الذي أصبح أسطورة في بطشه وقسوته، خرجت الجموع تهوس قائلة: (هز لندن ضاري وبجّاهها)، ولما توفّي الشيخ ضاري في سجنه بعد ذلك بثماني سنوات وخرجت الناس في تشييعه ترددت:

منصورة يا راية ضاري الدنيا غدارة يا ابن العم  
واش هالغيبة يا ابن العم وياشيخ اتها بهالنومة.

وأيضاً الشاعرة افضيمة آل علي من عشيرة الظوالم عندما خرج أخوها وابنها إلى ساحة المعركة في جسر السوير ومضت مدة عليهما، ثم رجع أخوها فسألته عن ولدها أجابها: (جن لا هزيتي أو لوليتي)، فأجابته مفتخرة بذلك: (هزيت أو لوليت لهذا)، تشير إلى أمها ولدته وعانت تربيته للحصول على أداء واجبه الوطني لهذا اليوم الذي قارع الإنكليز أعدائه<sup>١</sup>.

وهذه الشاعرة عفته بنت اصويلح من عشيرة الإزيرج أسر العدو ولدها، وقد مروا به عليها، فلما شاهدته خشيت أن يناله الجبن وربما يلوذ بالإنكار، فافهمته بالهوسة المعروفة عند أبناء المنطقة: (بس لا يتعذر موش أنه)، فأجابها بصلاية وقوة عقيدة، بعد أن فهم قصدها: (خلوني ابحلكه أو كلت أنه)<sup>٢</sup>.

الشعراء الذين لم تكن لهم صلة بثورة العشرين		
١	الكاظمي	كان في القاهرة وكانت له صلة بجريدة المقطم التي لها صلة بالاحتلال ولم يتفاعل مع الثورة
٢	الرصافي	لم تكن له مشاركة أدبية في الثورة، مع بغضه الاستعمار.
٣	الشيخ علي الشرقي	لم يكن له عمل أدبي في الثورة.
٤	جميل صدقي الزهاوي	استقبل الاحتلال بالاستبشار بل شارك في الأعمال الأدبية التي تؤيد الاحتلال

١. كمال الدين، محمد علي، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين، ٣٧٦.

٢. المصدر نفسه.

الشعراء الذين كان لهم صلة بالثورة من		
١	محمد رضا الشيببي	من شعراء الثورة
٢	حسين كمال الدين	من شعراء الثورة
٣	محمد حبيب العبيدي	من شعراء الثورة
٤	سعد صالح	من شعراء الثورة
٥	محمد مهدي البصير	من شعراء الثورة
٦	منير أفندي	من شعراء الثورة
٧	عيسى عبد القادر	من شعراء الثورة
٨	عبد الرحمن البناء	من شعراء الثورة
٩	محمد حسن أبو المحاسن	من شعراء الثورة
١٠	محمد باقر الحلي	من شعراء الثورة
١١	عبد الكريم العلاف	من شعراء الثورة
١٢	كاظم السوداني	من شعراء الثورة
١٣	عبد الحسين الحويزي	من شعراء الثورة
١٤	محمد علي اليعقوبي	من شعراء الثورة
١٥	خليل عزمي	من شعراء الثورة
١٦	عبد الحسين الأزري	من شعراء الثورة
١٧	عباس الخليلي	من شعراء الثورة
١٨	خيرى الهنداوي	من شعراء الثورة
١٩	الشيخ محمد جواد الجزائري	من شعراء الثورة
٢٠	السيد هبة الدين الشهرستاني	من شعراء الثورة
٢١	محمد مهدي الجواهري	من شعراء الثورة

٢٢	الشاعر محمد تقي الحائري	من شعراء الثورة
٢٣	السيد محمد الهاشمي	من شعراء الثورة
٢٤	إبراهيم الرحيمي	من شعراء الثورة
شاعرات القرن العشرين (الهوسة) أسماء بعض)		
١	افخيتة بنت عبود الفتلاوي	
٢	عفتة بنت كزار الفتلاوية	
٣	اشليبة بنت فزع الفتلاوية	

وهذه القائمة للتمثيل، وليست على وجه الحصر، وقد ذكر صاحب (كتاب الشعر الشعبي لشاعرات ثورة العشرين) كثيرًا من النصوص الشعرية للمرأة الفراتية، ملتقطًا ذلك من أفواه الرجال الذين شاهدوها وسمعوا شعرها وممن حضروا المعارك الرهيبة، ويذكر هنا كأنه لاقى صعوبة في الروايات؛ نظرًا إلى كون الرواة يستمعون إلى شعر يرتجل فيعتمدون على قوة الذاكرة، ومن الصعب الإحاطة بكل ما سمع في وقته فقد ذهب معظم منه لأنه لم يُسجّل في حينه، أو سُجّل ولم يعثر عليه. ومن النصوص المهيجة برواية الثائر (اشناوة آل ماخي)، فقد سمع ذلك من أصواتهن وهن يهتفن برجالهن عندما وصل جيش الإنكليز إلى (الارانجية) وعندما نطلق رصاص الثوار هتفت إحدى بنات آل فتلة مخاطبة الزعيم عبد الواحد الحاج سكر ومهيجة له فقالت الأولى:

ثار التفكك وسمع أنــــدابه      ودخانته مثل الضبــــبــــابه  
نخوآوين فكــــاك الطلابه      يواحد أو يا راعي المهابه  
يماضي ولا ينشد أصوابه      يصنديد يا وكفة أصحابه  
يسيل الذي حدر سحابه

وفي (كتاب شاعرات ثورة العشرين) لعلي الخاقاني، يذكر الشعر الشعبي لشاعرات ثورة العشرين، وكيف أنّ المرأة العراقية وقفت إلى جانب الرجل في هذه المرحلة، ويركّز على شعر الهوسنة، فيذكر أسماء الشاعرات، والعشيرة، وسبب الشعر، وأين قيل الشعر.

### وختلاصة القول

أولاً: كانت هذه نظرةً سريعةً إلى التطوّر العام للشعر الحديث في هذه المرحلة، ولا تغني بالطبع عن التفصيل؛ فالصورة العامة لهذا الشعر صورةٌ محيرة، ولن يقربنا منها سوى الرجوع إلى الأصول التي مهّدت لها كما رأينا في بداية البحث. ثانياً: إنّ الظواهر التي رأت النور في تلك الفترة لا تزال تؤثر على الحياة الشعرية حتى اليوم. وسواء تبين لنا أنّ شاعرًا من الشعراء قد تأثر بسلفه أم لم يتأثر، فإنّ ذلك لن يعفينا من التسليم بحقيقة هامة تسري على الشعر سريانها على سائر الفنون، ألا وهي أنّ لكلّ عصرٍ روحه وأسلوبه الملزم، وأنّ هناك أسلوبًا في الرؤية والإحساس والأداء تميّز به الشعر في ثورة العشرين.

ثالثاً: إنّ قيمة هذا الشعر تكمن في شجاعة المخاطرة في التفوّه به أمام المجتمع، وفي المحافل والمدارس والمساجد، لا في النتيجة النهائية.

رابعاً: سلطان شعور الشاعر بكلماته حول عدوّه أن نكون مع المقاومة أو لا نكون بدونها، وهذه هي ذروة العمر كلّه فيثير المشاعر والانفعالات في نفوس مجتمعه.

خامساً: ويتضح لنا جلياً أنّ أهّازيج ثورة العشرين كانت حصيلة جهاد أولئك الأبطال الذين خلدوا لنا تاريخهم وسطّروا لنا بطولاتهم من خلال ما نطقتم به شفاههم فقد ظلت أراجيزهم طافحة بحب الوطن والجهاد والثورة ضدّ المستبدّ الظالم والمحتلّ الغاشم.

سادساً: كما تبين سهولة الهوسة وبساطة تعبيرها مما ساعدها على الانتشار سريعاً في أواسط الجماهير فكانت تثير حماسهم فهي خطابية مباشرة وعفوية، فأهزوجة واحدة يطلقها المهوال كانت كافية لتجنيد جيش كامل. سابعاً: الهوسة والأهزوجة لها دور مهم تعد مصدراً من مصادر قراءة سير أحداث ثورة العشرين وتطوراتها.

### الأمر الثالث: دور الأعمال المسرحية والقصصية لثورة العشرين

ورد في مآثورات القدماء أنّ السماء قد أنزلت الحكمة على ثلاثة أعضاء من البشر، على أيدي الصينيين وعقول اليونان، وألسنة العرب، وقد فطن العرب بأنّ البلاغة والشعر ومهارة اللسان هي جماع قدراتهم الفنية وعلو عطائهم الحضاري بين الشعوب. وفن المسرح من بين تلك الفنون التي اهتم بها العرب في القرون الأخيرة، وليس من شك في أنّ ظاهرة المسرح كغيرها من الظواهر الفنية في حياة المجتمعات تثير عددًا من التساؤلات والخلافات بين العاملين في هذا الحقل والمهتمين بأمره، وهي خلافات تتنوع وتتشعب طبقاً للموقف الذي يتخذه كل فنان ودارس من هذه الحياة، إذ إنّ الفن المسرحي من الوسائل الفنية الضرورية للاتحاد الفرد والجماعة، وهو يعكس بلا شك قدرته اللامحدودة على المشاركة واقتسام الأفكار والخبرات، فالعرض المسرحي هو لقاء بين مجموعتين إنسانيتين، الأولى هي الجمهور، والثانية هي الفرقة المسرحية.

وكثيرة هي الآراء والتحليلات التي طرحت حول بدايات المسرح على خريطة الأرض، تفاوتت هذه الآراء وتقاطعت مع بعضها بعضاً، ولا نريد الخوض فيها هنا، ولكن نشير إلى الرأي المختار وهو أنّ البلاد العربية لم تعرف المسرح قبل أواسط القرن التاسع عشر، ولم تشاهد من هذا الفن إلاّ النزر اليسير، وهو ما كانت تقدمه بعض الفرق الأجنبية في مناسبات خاصة، وأما بالنسبة إلى

العراق هناك من يقول إنّ المسرح في العراق بدأ مع بداية الحكم الوطني، أي في عام ١٩٢١ م، وآخرون يقولون إنّ المسرح كان موجوداً عندنا قبل هذا التاريخ، ويمكن تحديد زمانه بالثالث الأخير من القرن التاسع عشر حيث ابتدأ المسرح رحلته وتواصل حتى العام ١٩٨٨.

وذلك على الرغم من توافر المصادر والمراجع التي تعين الباحث والدارس على رسم مسارات الحياة المسرحية في العراق وتحديد علاماتها وعناصرها ومراحلها فتحدد ظهور النشاط المسرحي في العراق الحديث خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر، ولم يتفق الباحثون والموثقون حتى الآن على تاريخ (يوم - شهر - سنة) لبداية هذا النشاط، ومن كان أول رائد له؟ إلا أنّ الإشارات قد كثرت الى ما كان يُعرض ويُكتب خلال سنوات التأسيس التي تمتد الى عام ١٩٢١ م، حيث انفصل العراق عن الاحتلال العثماني، وبعد الاحتلال البريطاني، وخلال الفترة التي سبقت عام ١٩٢١ م، ظهرت النوادي والتجمعات التي تسترت بالنشاطات الاجتماعية والثقافية العامة، وهي في جوهرها كانت تعمل من أجل إذكاء الروح الوطنية وتأجيجها ضد المحتلين، إنّ هذه النوادي أدّت دوراً في إنعاش النشاط المسرحي، الذي اتخذته سلاحها في جهادها ضد الغزاة الاحتلال، وخاصة في بغداد وبنينوى. أما البصرة، فلم يجر فيها أيّ نشاطٍ مسرحيٍّ كهذا خلال الفترة هذه.

ومن تلك العروض نشير إلى أربع مسرحيات هي:

١. (وفاء العرب) قدّمتها في بغداد طلبة مدرسة الكلدان في النصف الثاني من تشرين الأول عام ١٩٢٠ م، وهي من تأليف انطوان الجميل .
٢. (وفود النعمان على كسرى انوشروان)، وقد عُرضت عام ١٩٢٠ م، وخصّص ريعها لمنفعة الثوار .
٣. (فتح الأندلس على يد طارق بن زياد)، وهي من المسرحيات التي قدّمت

عام ١٩٢٠م، وقد خُصَّص ريعها لمنفعة ثورة العشرين العراقية .  
٤. (صلاح الدين الأيوبي)، وهي أول مسرحية تُعرض على مسرح مدرسة إسلامية في الموصل، وقد أخرجها أرشد أفندي العمري مهندس البلدية عام ١٩٢١<sup>١</sup>.

كان لثورة عام ١٩٢٠م، تأثيرٌ كبيرٌ في تطوُّر المسرح في العراق حيث ظهرت حركةٌ مسرحيةٌ تواكب الثورة، وتعبّر عنها من خلال الفرق المسرحية الشبابية التي أسَّسها حقي الشبلي عام ١٩٢٧م، حيث كانوا يقدمون مسرحياتهم في المنتديات والنوادي الاجتماعية ومنها مسرحية شهيد الدستور.  
ونعود إلى الأديب محمد مهدي البصير في مجال الأدب المسرحي وتأثير أدبه في ثورة العشرين، يشير الدكتور علي الربيعي في كتاب (محمد مهدي البصير رائد المسرح التحريضي في العراق) إلى أهمية مسرح البصير في التصدي والتفاعل مع موضوع ثورة العشرين وتجلياتها الاحتجاجية؛ إذ ألَّف البصير مسرحيتين بهذا الصدد الأولى بعنوان (وفود النعمان على كسرى انوشروان)، والثانية بعنوان (دولة الدخلاء)، ويذكر الربيعي أنّ المسرحية الأولى ظهرت عام ١٩٢٠م، على (مسرح سينما أولمبيا) في بغداد، حيث لم تكن هنالك قاعات مخصصة للعروض المسرحية، وتشير إلى دفاع النعمان عن حقوق العرب في حضرة كسرى ملك الفرس بوصفه جاء محتلاً لا محرراً في تناصٍ واستعارةٍ وغمزٍ لعبارة الجنرال مود الشهيرة: (إننا جننا محررين لا فاتحين). ولم يذهب البصير في معالجته لموضوع الثورة درامياً إلى المباشرة أو الخطابية أو الزعيق السياسي، إنّما عرض موضوعاً تاريخياً وحكايةً من التراث وأسقط عليها رؤيته لثورة العشرين والتحرر من المحتل، من منطلق قومي وامي أوسع في التحريض .

1. <https://ao-academy.org>. بتصرف /

وفي دولة الدخلاء (التي كتبت عام ١٩٢٥م، لم يثبت أنها قُدمت على خشبة المسرح، وقال عنها كاتبها (البصير): «عروض هذه الرواية قبل كل شيء تنبيه الأفكار إلى ما نشأ وينشأ عاجلاً أم آجلاً من الولايات والمصائب عن تكالب الزعماء على منافعهم الذاتية الخسيسة، وإشراك الدخلاء في مصالح الوطن وخبراته كأثمهم من أبنائه». ويبدو أن المسرحية قد مُنعت من قبل السلطات حينها؛ إذ لا يوجد لها (بروشور) عرض، أو إعلان في الصحف، أو إشارات في كتب الرواد الوثائقية، أو النقدية، وهذا المنع سببه ما حوته المسرحية من نقدٍ لاذعٍ للسلطة، وفيها استشرافٌ وقراءةٌ لحياة وظواهر ما بعد ثورة العشرين من منظورٍ وطنيٍّ، ينظر برييةً وشكاً للأجنبي ووجوده في مصادر القرار السياسي الداخلي، ويشير أيضاً إلى المأجورين والعملاء وشذاذ الآفاق من بعض السياسيين الذين يعيشون ازدواجية ولائهم للسلطة العثمانية السابقة، وإذعانهم للإنكليز وعقدتهم للأحلاف والصفقات المريبة معهم.

إنَّ أهمَّ ما يميِّز مسرحيات (البصير) التحريضية هو قوة السبك اللغوي، والألفاظ العربية المنتقاة بعناية فائقة؛ فهو الأستاذ الضليع والعارف باللغة وبلاغتها وأسرارها، وطعم مسرحياته ببعض الأشعار التحريضية والحماسية التي ألهمت قاعات العرض المسرحي وجماهيرها آنذاك. وكان حاذقاً في فهمه للنوع المسرحي وصنعة الحوار، فهو لم يكتب مسرحياتٍ شعريَّةً كما فعل أحمد شوقي، وهو القادر على ذلك والنابع فيه، إنَّما جعل مسرحياته متنوعةً في أنساقها اللغوية والشكلية، نثراً وشعراً، غايته في ذلك لكي لا يذهب المؤدِّون نحو الروح الغنائية للشعر ويقاعه الموزون ممَّا يحدث الرتابة في الأداء، وحتى لا يتغافلوا عن الجوانب الإدراكية والعقلية التي يتيحها الحوار نثراً.

وهناك مسرحياتٌ تحريضيةٌ تأثرت بالأطر الفكرية والجمالية لمسرح (البصير)

منها مسرحية (وحيدة) لموسى الشابندر، وهو وزير خارجية العراق في بدايات العهد الملكي، كتبها عام ١٩٢٩م، وتعدّ من أنضج المسرحيّات التحريضيّة ووحيدة أشبه بدراما الاجتماعيّة القرينة بمسرحيّات الكسندر ديهاس الابن، وقد استطاع المؤلّف أن يضع علاقة الحبّ بين قوى الشر الكاسحة وقوى الخير الضعيفة في مجتمع متأخّر ورجعيّ، حيث يتغلّب الشر على الخير، وفي محورها الثاني تحرّض على الوقوف ضدّ الاحتلالين العثماني والإنكليزي، وتحرّض أيضًا على تغيير المجتمع المتخلف وعاداته البالية إلى مجتمع أفضل، قدّمت المسرحيّة كأول إنتاج للفرقة القوميّة للتمثيل بعد تأسيسها، وعُرّضت في ١٠ / ٤ / ١٩٦٩ بإخراج محمد القيسي وفخري الزبيدي، وتمثيل فاطمة الربيعي، وعزيز عبد الصاحب، وقاسم الملّك وآخرين<sup>١</sup>.

ونشير أيضًا إلى قصص الأطفال التي تذكر ثورة العشرين، ومنها ما كتبه الكاتب والقاص جاسم محمد صالح<sup>٢</sup>؛ إذ كتب ثلاث قصصٍ للأطفال عن ثورة العشرين تحت عنوان (الحصار)، يتناول فيها قصة الشيخ ضاري، والشهيد

---

1. <https://www.iraqicp.com>.

٢. كتب وألّف أكثر من ٩٠ كتابًا في مجال أدب الطفل: (روايات، مجاميع قصصية، مسرحيات للأطفال، سيناريوهات، دراسات في ادب الطفل).

\*تُرجمت كتاباته إلى أكثر من تسع لغات عالمية من أهمها: اليابانية، الفارسية، الانكليزيّة، الكرديّة، التركيّة، البلجيكيّة، النرويجيّة... الخ.

\*دُرست رواياته وقصصه في أكثر من عشرين شهادة علمية في العالم وفي جامعات: (العراق، وإيران، والأردن، ومصر، والجزائر، والمغرب، وماليزيا، وأذربيجان). ألقى محاضرات في أدب الأطفال في

جامعات: (العراق، ومصر، وسوريا، ولبنان، والأردن، والجزائر، وأذربيجان، وتركيا، وإيران).

\*يعدّ من رواد أدب الطفل في العراق، ومن الذين وضعوا القواعد والاسس العلميّة الرصينة لهذا النوع

من الأدب في مجال: (الرواية، والقصة، والمسرحية، والسيناريو، والدراسة).

النجار حميد الأخرس، والشهيد نجم البقال<sup>١</sup>. كما كتب للفتيان قصصاً ورواياتٍ تاريخيةً على شكل سيناريوهات مصوّرة، نُشرت تباعاً في مجلات: (الميسرة)، و(المزمار)، و(مجلتي) وغيرها، والجدير بالذكر أنّ رواية الحصار، ورواية الفأس، ورواية الصفعة، ورواية الخاتم، فازت بالجائزة الأولى في أدب الطفل في الملتقى الثقافي العراقي الأول عام ٢٠٢٥م، ومن روايته أيضاً رواية (ملكة الشمس) و(منقذ اليعربي) ورواية (صالح الخراشي)، كما مثّلت له مسرحيات كثيرة للأطفال، منها (أصدقاء الشمس)، واهتمّ بمسرح الدمى للطفل.

وأصدر مركز المحسن التابع لقسم الإعلام في العتبة العلوية المقدّسة قصّة مصوّرةً للأطفال تحمل عنوان (مقتل مارشال) بالتزامن مع الذكرى الـ(١٠٢) لانطلاق ثورة العشرين الخالدة من النجف، والقصة تسرد تاريخياً بالصور بطولات رجال الدين الأفاضل والنخب العشائرية والمجتمعية والأكاديمية في تلك الحقبة ضدّ الاستعمار الإنكليزي.

إنّ أسلوب القصص أسلوبٌ مهمٌّ في تعريف الطفل على مفهوم التغيير والأحداث الجديدة والمخيفة في بعض الأحيان، والمشاعر التي تصاحب هذه المواقف، وتعزّز الترابط بين الشخص والقاص، وهي عاملٌ مهمٌّ في رسم الاتجاهات وتعديل السلوك، كما تعزّز النضج النفسي والعاطفي، وهي من أهم الأساليب التي يعتمد عليها المربّون في غرس القيم والمبادئ المتنوعة في نفوس الأطفال بشكل غير مباشر.

#### الأمر الرابع: دور المدارس والأنشطة الأهلية في ثورة العشرين

لقد بدأت الحفلات السياسية في المدارس الأهلية ببغداد، وكانت تستعين بالشاعر البصير، وكان هو لسانها النابض في إحياء وتفعيل تلك الأنشطة، ففي ٢٩

1. <https://alzawraapaper.com>

شعبان ١٣٨٨هـ ١٧ أيار ١٩٢٠م، وقبيل إعلان الثورة أُقيمت حفلةٌ سياسيّةٌ تحت ستار العلم بمناسبة افتتاح المدرسة الحسينيّة الأهلّية ببغداد، فأشدّ البصير قصيدةً أثنى فيها على المدرسة، وحثّ على العلم، وانتقل إلى الإثارة والتحريض، فقال:

يا صاحبيّ هذي الضادّ قد جمعت      أبناءها والعلا منهم على كذبٍ  
ولن يُصان لليث الغاب مريضه      من الذئاب لو أنّ اليث لم يثبِ  
ولا ألوم قويّاً في تنكّره      إنّ قال لا حكم إلّا في يد الغلب  
ثم في المدرسة الجعفرية أُقيمت حفلةٌ سياسيّةٌ ببغداد في مساء ١٦ رمضان  
١٣٨٨هـ ٣٠ أيار ١٩٢٠م ألقى فيها البصير قصيدةً منها:

ليُحطم المستعدون قيودهم  
فالجور آيسهم من الاعتاق  
وكان الشاعر منير أفندي خطيب جامع أبي حنيفة، كان يجول في ميدان المدارس  
الأهلّية والجوامع ويلقي قصيدةً لم يتيسر لنا نصّها الكامل:

جرّد الحزمَ وامتطِ العزمَ مهرا      ما أرى لك الخمول شعارا  
ومنادي العلا يناديك جهرا      صاح إنّ الشعوب قامت تنادي  
وتنال الحقوق بالسيف قهر

أمّا عيسى عبد القادر فقد كان يلقي في جامع الحيدر خانة قصيدةً أدّت  
إلى اعتقاله<sup>١</sup>؛ إذ كانت الجوامع والمدارس الأهلّية تتغنى بروح المقاومة والثورة،  
وتستعين بشعراء الثورة لاستثارة النفوس وتعليم الأجيال نهج المقاومة ضد  
الاحتلال والاستعمار.

١. انظر ثورة العشرين في الشعر العراقي، ص ٥٦.

## الخاتمة

١. أن المقاومة هي القيام المضاد للغير من أجل منعه من تحقيق هدفه، والانتصار عليه.
٢. كل حركة تغييرٍ ثوريٍّ لا تنطلق من البعد الفكري والثقافي لا يمكن أن تكون ثورةً حقيقيّةً؛ وذلك لأنّ الثورة الحقيقية، لا بد لها أن تحتمر في رحاب نظريّةٍ ثوريّةٍ عميقة الأبعاد ضاربة الجذور في الوعي الثوري، وهناك عدّة عوامل كانت مؤثرة في قيام هذه الثورة.
٣. ومن أهمّ هذه العوامل وجود الأحزاب السياسيّة التي تميّزت بالفاعلية والنشاط من أجل المشاركة في العملية السياسيّة، ولا يخفى أن للأحزاب السياسيّة دورًا كبيرًا في صناعة الأفكار وبلورتها.
٤. وجود مرجعيّةٍ دينيّةٍ حكيمةٍ رشيدة، كانت وما زالت تمثّل القدوة والمثل الأعلى لالتفاف الناس حولها، رغم محاولات البريطانيين استخدام وسائل خبيثة عديدة، ومنها الترغيب والترهيب. وكانت ثورة العشرين خير دليل على ذلك.
٥. لقد كانت العلاقة بين الشعب العراقي والمرجعيّة وثيقة وعميقة، وما زالت، وهي علاقةٌ رويّةٌ تجمع بين الدين والعقل والعاطفة.
٦. الأثر الشعري المتمرد الذي تركه لنا شعراء ثورة العشرين، والدور الذي أدّوه من خلال قصائدهم الثورية، فكان لهم الدور الريادي في استلهام الروح الثوريّة للجمهور.
٧. الهوسه هي فنُّ أدبيّ شعريّ تميّز به أهل العراق، ويعدّ من العناصر المهمّة في إثارة الهمم، وإيقاظ العزائم، وإعطاء القوة، فتساوي في تأثيرها النفسي الآلة الفتاكة.
٨. الأدب المسرحي كان له تأثيرٌ في ثورة العشرين، وقامت هناك عروضٌ مسرحيّةٌ داعمةٌ للثورة.

فكانت الجوامع والمدارس الأهلية تتغنى بروح المقاومة والثورة، وتستعين بشعراء الثورة لاستشارة النفوس وتعليم الأجيال نهج المقاومة ضد الاحتلال والاستعمار.

### المصادر

١. الأعظمي، أحمد عزت، القضية العربية، العراق — بغداد، الطبعة الأولى.
٢. البلدوي، إياد عيدان، تاريخ التشيع في سامراء، مؤسسة البلداوى الثقافية للطباعة والنشر، بغداد، ١٤٢٩ هجرى قمرى | ٢٠٠٨ ميلادى.
٣. الجبوري، كامل سلمان، وثائق الثورة العراقية الكبرى، الطبعة الأولى، بيروت — لبنان، ١٤٣٠ هجرى — ٢٠٠٩ م.
٤. جهامي، جيرا، الموسوعة الجامعة لمصطلحات الفكر العربي والإسلامي (تحليل ونقد): دغيم، سميح، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون مكان الطبع: بيروت تاريخ الطبع: ٢ / ١٢ / ١٤٢٦ هـ. ق الطبعة: الأولى.
٥. حرز الدين، محمد، معارف الرجال، الناشر: مكتبة المرعشي النجفي، قم — إيران.
٦. الحسني، عبد الرزاق، الثورة العراقية الكبرى، الناشر: مطبعة الإرشاد، العراق، بغداد.
٧. الحميري، نشوان بن سعيد، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم، الناشر: دار الفكر مكان الطبع: دمشق تاريخ الطبع: ١٤٢٠ هـ الطبعة: الأولى.
٨. الحيدري، محمد، معجم الأفعال المتداولة ومواطن استعمالها، الناشر: المركز العالمي للدراسات الإسلامية مكان الطبع: قم تاريخ الطبع: ١٤٢٣ هـ الطبعة: الأولى.
٩. الخليلي، جعفر، محمد مهدي بحر العلوم، الدراسة وتاريخها في النجف، موسوعة العتبات المقدسة.
١٠. الرهيمي، عبد الحلیم، تاريخ الحركة الإسلامية في العراق، بيروت — لبنان، ١٩٨٥ م.
١١. الزمخشري، محمود بن عمر، مقدمة الأدب، الناشر: مؤسسة الدراسات الإسلامية في جامعة طهران مكان الطبع: طهران تاريخ الطبع: ١٤٢٨ هـ الطبعة: الأولى.

١٢. الطائي، صادق، شيعة العراق جزء من جهاد العثمانيين ضد الاحتلال البريطاني، العراق -بغداد.
١٣. الطهراني، آغا بزرك، نقباء البشر، طبعة بيروت - لبنان، ت. لا، مطبعة دار الأضواء.
١٤. كمال الدين، محمد، ثورة العشرين في ذكراها الخمسين، الناشر مطبعة التضامن، تاريخ النشر ١٩٧١ العراق، بغداد.
١٥. المبارك، عبد الحسين، ثورة ١٩٢٠ في الشعر العراقي، الطبعة الأولى، ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠ م، العراق، بغداد.
١٦. مهيار، رضا، فرهنك أبجدي، فارسي، الناشر: الإسلامي مكان الطبع: طهران تاريخ الطبع: ١٤١٧هـ الطبعة: الثانية.
١٧. موسى، حسين يوسف، الإفصاح في فقه اللغة، الناشر: مكتب الإعلام الإسلامي مكان الطبع: قم تاريخ الطبع: ١٤١٠هـ الطبعة: الرابعة.

يمثل هذا الكتاب مفتاح لسلسلة إصداراتٍ تهدف بيان وجه الحقيقة المظلمة التي عاشتها الشعوب تحت وطأة جور الدول الغربية المستعمرة، فتبين المعاناة التي كابدتها المنطقة المستعمرة -ومنها العراق- جرّاء سلوك المنظومة الاستعمارية وفترة الانتداب، وأثار الغزو الثقافي على هوية العراق الثقافيّة والدينيّة والعرفيّة، وبنيتة الاجتماعيّة والأضرار بالمواطنة، والتشكيك بقيمه، وتغريب الوعي، وتمزيق الوحدة بإيجاد الاختلافات وتنمية الانقسامات وبثّ الفرقة، وتعميق الاختلاف الطائفي والعنصري والقومي والديني وافتعال الأزمات، وتكوين ثقافةٍ بديلةٍ تقوم على تعظيم ثقافة المحتلّ، وتهويل قوته العسكريّة والسياسيّة، لصناعة أجيالٍ تؤمن بعظمة المحتلّ وقوته، وتوهين القدرة الذاتية على النهوض، ومن ثم إشعار العالم الإسلامي والعربي بالضحالة والعجز.



الجمهورية الإسلامية العراقية  
مجلس الشورى الإسلامي

<http://www.iicss.iq>

[info@iicss.iq](mailto:info@iicss.iq)